المجلد 38
4 أبريل - يونيو

عالم الفكر

القدس



2010

مجلة دورية محكمة تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت

مجلة فصلية تصدر
عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

عالم الفكر

العدد 4 المجلد 38 أبريل - يونيو 2010

تم التنضيد والإخراج والتنفيذ
بوحدة الإنتاج في المجلس الوطني
للثقافة والفنون والآداب
الكويت



مجلة فكرية محكّمة، تهتم بنشر الدراسات والبحوث المتسمة بالأمانة النظرية والإسهام النقدي في مجالات الفكر المختلفة.

سعر النسخة

الكويت ودول الخليج العربي	دينار كويتي
الدول العربية	ما يعادل دولارا أمريكيا
خارج الوطن العربي	أربعة دولارات أمريكية

الاشتراكات

دولة الكويت

للأفراد	**6** د.ك
للمؤسسات	**12** د.ك

دول الخليج

للأفراد	**8** د.ك
للمؤسسات	**16** د.ك

الدول العربية

للأفراد	**10** دولارات أمريكية
للمؤسسات	**20** دولارا أمريكيا

خارج الوطن العربي

للأفراد	**20** دولارا أمريكيا
للمؤسسات	**40** دولارا أمريكيا

تسدد الاشتراكات مقدما بحوالة مصرفية باسم المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب مع مراعاة سداد عمولة البنك المحول عليه المبلغ في الكويت وترسل على العنوان التالي:

السيد الأمين العام
للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
ص. ب: **23996** -الصفاة- الرمز البريدي **13100**
دولة الكويت

شارك في هذا العدد



د. جاسر خليل سالم أبو صفية
د. عمرو عبدالعزيز منير
د. محمد عيسى صالحية
د. محسن محمد صالح
د. محمد ماجد الحزماوي
د. فاروق صيتان الشناق
د. م. يحيى وزيري
م. م. محمود زين العابدين

قواعد النشر بالمجلة

ترحب المجلة بمشاركة الكتاب المتخصصين وتقبل للنشر الدراسات والبحوث المتعمقة وفقا للقواعد التالية:

1 ـ أن يكون البحث مبتكرا أصيلا ولم يسبق نشره.
2 ـ أن يتبع البحث الأصول العلمية المتعارف عليها وبخاصة في ما يتعلق بالتوثيق والمصادر، مع إلحاق كشف المصادر والمراجع في نهاية البحث وتزويده بالصور والخرائط والرسوم اللازمة.
3 ـ يتراوح طول البحث أو الدراسة ما بين ١٢ ألف كلمة و١٦ ألف كلمة.
4 ـ تقبل المواد المقدمة للنشر من نسختين على الآلة الطابعة بالإضافة إلى القرص المرن، ولا ترد الأصول إلى أصحابها سواء نشرت أو لم تنشر.
5 ـ تخضع المواد المقدمة للنشر للتحكيم العلمي على نحو سري.
6 ـ البحوث والدراسات التي يقترح المحكمون إجراء تعديلات أو إضافات إليها تعاد إلى أصحابها لإجراء التعديلات المطلوبة قبل نشرها.
7 ـ تقدم المجلة مكافأة مالية عن البحوث والدراسات التي تقبل للنشر، وذلك وفقا لقواعد المكافآت الخاصة بالمجلة.

■ المواد المنشورة في هذه المجلة تعبر عن رأي كاتبها ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلس

■ ترسل البحوث والدراسات باسم الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
ص. ب: 23996 ـ الصفاة ـ الرمز البريدي 13100 دولة الكويت

المحتــــوى

القدس

تقـــديم

مدينة المدائن والآلام

ثمة مدن تصنعها حركة التاريخ، تغمسها بمصالح البشر وانتصاراتهم وبحثهم عن استقرارهم وحلهم - بعد ترحالهم. وثمة مدن تطبع التاريخ بمنحاها المائل نحو الازدهار والأمان حتى تشخص إلى سكينتها وسلامها مواكبُ من أفراد وجماعات وربما «قبائل» وأمم، تدخلها بسلام وتصير جزءا من هذه المدن ومسيرتها، في كينونتها وصيرورتها.

وحدها القدس، من دون منازع، وهي التي ارتبطت بأنبياء جميع الشرائع والرسالات السماوية، وكانت وجهةَ أقوامهم ومريديهم، وحدها تفردت بصناعة تاريخها إلى هذا الحد، وكما لم تتفرد مدينة من قبل أو بعد. وحدها تراكمت فوق أرضها وفي ترابها، منذ بضعة آلاف من السنين، هذه الكثافة من السيّر المقدسة، المنوعة التي لم ينفك بعض البشر يأتونها من بعيد ويبنون عليها ويركِّبون روايات ومزاعم تسيء إلى المدينة وأنبيائها، وتغطي هذا الكم من الشر ضدها وضد أهلها وهذا الحجم من الدم المسال فوق ترابها.

تضيق مدينة السلام بأهلها والقادمين الطامعين بها، ويختلط فيها المؤمنون بمدعي عشقها وبمجرميها. وعلى الرغم من ضيق مساحتها تبقى القدس من كل الزوايا أشمل بكثير من تجربة أي مدينة، وتكاد في كل حي، وفوق كل جبل وتل، وتحت كل زيتونة وكرمة وبلاطة تنسج حكاية فيها من السحر والألغاز «والبركات» ما لا يوجد في أي مكان.

وإلى جانب سجلها المقدس، تنوء القدس بما تحمله من أحداث سردتها الكتب من دون أن تنجو من حبكة الأحلام والأساطير الموغلة في التاريخ منذ عرفها اليبوسيون والكنعانيون والعموريون (العرب)، وإليها هاجر إبراهيم الخليل ودخلها الهكسوس ثم آل يعقوب وداوود وسليمان وموسى، والأشوريون والإسكندر المقدوني ثم الرومان، وشهدت مولد عيسى وطيطوس الذي حول القدس إلى مدينة وثنية، ثم كان الغزو البيزنطي. قلما تكون هناك مدن شملها الدمار - ثم البناء - مرارا، والكره والتعصب والحقد إلى هذا الحد.

حتى عندما كان الإسلام وكان خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم وإرادة الله أن تكون أول قبلة ويكون إليها الإسراء - ومنها المعراج، وتكون على يد الخليفة الفاروق

عمر بن الخطاب وتحت السيادة العربية الإسلامية مدينة مفتوحة متسامحة مع عقائد بقية الأديان، حتى بعد ذلك، وتحت مزاعم قدسيتها ومملكتها وهيكلها، إنما لغايات كثيرة، شدت أمم الأرض البعيدة رحال القتل إليها، وأُلِّفت جيوش كونية وسُيِّرت حملات قارية وشُنت حروب تلو حروب، وتعاقبت ممالك وأبيدت شعوب.

لكن القدس بقيت هي هي، بيت المقدس، وفي كل معلم من معالمها وأماكنها لمسة ربانية وحكمة ولغز، وهي بمكنوناتها العمرانية وطيب جبالها وشجراتها وزيتونها وزيتها وحجارتها وبلاطها تزداد تبجيلا كلما زادت معاناتها؛ لتغدو أقوى من التاريخ والظلم والمزاعم والاحتلال.

هذا التعاقب الحاد على المدينة ومقدساتها ترك في كل جوانبها آثارا، وأنتج نموذجا فريدا يحاكي قدسيتها من جهة، ويهزأ من تعاقب الأمم والشعوب عليها، مما يجعل كل زاوية من زواياها وعمرانها وأحداثها وحضارتها مادة لمتعة البحث والدراسة في كل تفصيل من تفاصيلها، وهو ما كانت «عالم الفكر» قد عزمت عليه في هذا العدد الخاص عن القدس، ضمن سلسلة الأعداد الخاصة عن المدن التاريخية التي بدأت مع مدينة أثينا ثم مدينة باريس، غير أن تسارع التطورات الحالية التي تستهدف، أكثر من أي وقت مضى، تهويد المدينة - ببناء مزيد من المستوطنات وطرد مزيد من المقدسيين، وزيادة أعمال الحفر والأنفاق تحت الحرم القدسي الشريف والمسجد الأقصى ومسجد قبة الصخرة - كل ذلك أضفى على أبحاث العدد منحى آخر أكثر يومية ومعالجة للجوانب المعاصرة لقضية القدس وهويتها الإسلامية وصراعها ضد المحتل.

ومهما يكن فإن هذه الأبحاث حرصت على الرصد الموثق والدقيق لما تعرضت له هذه المدينة المقدسة في الماضي، ولا تزال تتعرض له حديثا، من مخططات موصوفة محبوكة، مع دحض المزاعم اليهودية - الصهيونية، من خلال التحليل المقارن ومحاولة الدخول في التفاصيل ومفاصل المدينة، المكانية والزمانية، بشكل يقربنا منها أكثر ويبين بطريقة ما ضرورة إجراء مزيد من الأبحاث الأكاديمية حول تاريخها والحقوق العربية والقانونية، ويكشف التقصير الفاضح في ترويج هذه الحقوق وجعلها ثابتا عالميا، دوليا ومدنيا وثقافيا، في حين أن جبروت المحتل يتجرأ على تدمير التاريخ والمقدسات الدينية، مؤيَّدا بتواطؤ عالمي مشهود ليس من شأنه إلا طرح مزيد من الألغاز وطلب المزيد من البحث.

رئيس التحرير

تنويه

حين شرعت مجلة «عالم الفكر» في إعداد محور عن مدينة القدس، لم يتردد القائمون عليها في التواصل مع المؤرخ الكبير الأستاذ الدكتور محمد عيسى صالحية، رحمه الله، لمعرفتنا بمدى اهتمامه وشغفه بكل ما يتعلق بفلسطين، فكان هذا المشروع آخر اسهاماته الخالدة. ونحن إذ نستذكر جهوده المميزة في تقديم هذا العدد للقارئ الكريم، لا يسعنا إلا الإشادة بمواقفه النبيلة والمشرقة التي سطرها في أكثر من مجال وما قدمه من إسهامات قيمة أثرت المكتبة العربية والقضية العربية الفلسطينية.

علماءُ القدس وترقية الفكر الإنساني

د. جاسر خليل سالم أبو صفية (*)

أثار هذا العنوان في نفسي دهشة واستغرابا؛ إذ كيف يعمل علماء القدس على ترقية الفكر الإنساني، وهم في بلدٍ تتداعى عليه الأمم منذ أقدم الأزمان؟ وتحيرت قليلا. ولكن ما إن بدأتُ بتقميش مادة البحث حتى تكشّفت لي أمور كثيرة، ما كنت أدركها، على كثرة قراءاتي في تاريخ القدس. فأدركت أنه عنوان ذو دلالة فكرية عميقة، وأنه لم يأتِ عبثا.

وفيما يلي محاولة لاستجلاء هذه المسألة ببيان عوامل ترقية الفكر الإنساني.

عوامل ترقية الفكر الإنساني

ثمة عوامل كثيرة تعمل على ترقية الفكر الإنساني في أي مجتمع من المجتمعات المتحضرة، وأهم هذه العوامل:

1 ـ المكان.

2 ـ العلم.

3 ـ العلماء:

أ ـ أهليتهم لحمل لقب العالم.

ب ـ رحلتهم في طلب العلم والاشتغال بالتدريس.

جـ ـ مصنفاتهم في مختلف العلوم.

د ـ أخلاقهم وفضَائلهم.

4 ـ مكانة القدس العلمية.

5 ـ المدارس والمكتبات والمساطب والزوايا.

(*) الجامعة الأردنية - قسم اللغة العربية - كلية الآداب - المملكة الأردنية الهاشمية.

أولا: المكان

وهو هنا القُدْس أو بيت المَقْدس أو المُقدَّس أو البيت المقدَّس.

وقد لاحظت في أثناء دراساتي في اللهجات العروبية القديمة، أن ثلاث مُدُن في بلاد العرب يطلق عليها القدس، وهي مكة المكرَّمة؛ إذ من أسمائها: قادِس؛ لأنها تَقْدُس من الذنوب، أي تتطهر، والمقدَسة، والقادسية [1].

والمدينة الثانية: القُدْس. والمدينة الثَالثة: بَعْل بَك، أي بيت الإله بعل. ومن أسمائها المُقَدَّسة [2] وارتفعت مكة وبيت المقدس بالإسلام، وطُفِئت بَعْل بك.

ويقتضي الأمر هنا توضيح دلالة القُدْس اللغوية في العربية العدنانية (لغة القرآن الكريم)، واللهجات العروبية القديمة كالأَكَدية، بفرعيها الأشوري والبابلي، والكنعانية والسريانية والإرمية والحبشية والأجريتية؛ ففي العربية العدنانية نجد في لسان العرب: القُدوس، الطاهر، المُنزه عن العيوب والنقائص وهو اسم من أسماء الله تعالى ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ﴾ [الحشر: 23]

والتقديس: التطهير والتبريك. والقُدْس: البَرَكة. وتأتي: القُدُس، بضم القاف والدال. ومنه قيل للجنة: حَضيرة القُدْس. والنسبة إلى بيت المَقْدس: مَقْدِسي ومُقَدَّسي، بضم الميم وفتح القاف وتضعيف الدَال. واستدل ابن منظور على المُقدسي بقول امرئ القيس يصف مطاردة الكلاب لثور الوحش:

فأدْركنه يأخُذْنَ بالساقِ والنَسا
كما شَبْرَقَ الولدانُ ثوبَ المُقَدَّسي

أي كما مزق الأولاد ثوب الرَاهب من بيت المقدس.

والمُقَدَّسي: الحَبْرُ والمبارك. والمُقَدَّسة: المطهرَة والمباركة. وفي اللهجة العروبية الأكدية: قُدُشُ، وقَداشُ. وكذا الأمر في جميع اللهجات العروبية [3]. ودلالتها في هذه اللهجات موافقة لما جاء في اللهجة العدنانية.

ويُصر مؤرخ القدس في كتابه «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» على كتابة نسبته المُقَدَّسي، بضم الميم وفتح القاف وتضعيف الدال، يتضح ذلك في قصيدته التي أثبتها في آخر كتابه؛ إذ قال [4]:

فدونك حكمة كالدرُ حُسْنا
أبا حَسَنٍ وزيرَ ابنِ الرفيعِ
مُقَدَّسة تبصُ بصيصَ شَذْر
من الياقوت أُلِّفَ للقَريعِ

وأشار ناشر الكتاب الأول دي خويا إلى المُقَدَّسي في مقدمة الكتاب [5].

ومِمن ذكرها بالتضعيف ناصر خسرو في رحلته؛ إذ نص على أن أهل الشام يقولون عن بيت المقدس «بيت المُقَدَّس» [6].

أما العلماء القدامى، الذين ألفوا كتبا في فضائل بيت المقدس، فقد ذكروها بالتخفيف والتثقيل [7] ووسم أبو بكر الواسطي كتابه بـ «فضائل البيت المُقَدَّس»[8].

ومن المستشرقين كراتشكوفسكي؛ إذ قال: «وآخر الممثلين الكبار للمدرسة الكلاسيكية هو المُقَدَّسي [9] ثم أشار إلى صيغة التخفيف، وأن صيغة «المُقَدّسي» واسعة الانتشار [10].

ومن أسماء القدس التي تدل على الطهارة والتقديس: أورشليم وأوشليم: وقد خلط في تأصيلها ابن منظور والجواليقي؛ إذ جعلاها أعجمية [11].وهذا جهل باللهجات العروبية القديمة؛ فاللفظة عربية عروبية، مكونة من كلمتين. الأولى: أور، وتعني مدينة. والثانية: شَلَم أو سلم، وتعني السلام. فهي على هذا مدينة السلام، أي مدينة الله؛ لأن السلام هنا اسم إلهٍ كنعاني [12]. والسلام أيضا اسم من أسماء الله تعالى. وذكرت كتب فضائل بيت المقدس أنها بيت الرب [13].

إيليا وإيلياء وإلّيا: أي بيت الله المقَدَس. واللفظة موجودة في اللهجة العروبية الأكدية بصيغة «إلُ» و«آلِشُ» و«آليا» [14] والكلمة منحوتة من: «إيل» أو «إل»، بمعنى الله، و«آلُ»، بمعنى مدينة [15].

بيت إيل: أي بيت الله [16].

ويتضح مما تقدم أن البيتَ المُقَدّس له صفة القُدّسيّة منذ قديم الزمان. وازدادت قدسيته بمجيء الإسلام وإسراء الرسول، صلى الله عليه وسلم، إليه في قول الله تعالى: ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾ [الإسراء:1]

ثم ازدادت قدسية القُدّس بقول الرسول : «لاتُشَد الرحالُ إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى» [17].

ومن ذلك قول الرسول (صلى الله عليه وسلم): «لا تَزالُ طائفة من أمتي على الدين ظاهرين، لعدوهم قاهرين، لا يضرهم من خالفهم، إلا ما أصابهم من لأواء، حتى يأتيهم أمرُ الله وهم كذلك. قالوا: يارسول الله، وأين هم؟ قال: ببيت المقدس وأكناف بيت المقدس»[18].

وثمة أحاديث كثيرة في فضل القدس ذكرتها كتب فضائل بيت المقدس بعضها صحيح وأكثرها ضعيف أو موضوع، لا مُسَوغ لذكرها هنا.

أما مكانة القدس العلمية فسيأتي الحديث عنها في سياق الحديث عن دُور العلم في بيت المقدس.

ثانيا: العلْمُ

يُعَدُّ العَلمُ مِن أهم الأُسس في ترقية الفكر الإنساني؛ لأنه أشرف ما رَغب فيه الراغب، وأفضل ما طُلب وجَدّ فيه الطالب، وأنفع ما كسبه واقتناه الكاسب؛ لأن شرفه يثمر على صاحبه، وفضله ينمي عند طالبه [19].

ولهذا قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [الزمر:9]. فمنع سبحانه المساواة بين العالم والجاهل، لما قد خص به العالم من فضيلة العلم.

وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت:43]. فنفى أن يكون غير العالم يَعقل عنه أمرا، أو يفهم عنه زَجْرا[20].

والعلمُ من أجَلّ الفضائل شأنا، وأعلاها مرتبة، وأسْناها منزلة. وكيف لا يكون كذلك وقد رَضيه الله وَصْفا لنفسه[21]، فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُواْ مِن بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَـئِكَ مِنكُمْ وَأُوْلُواْ الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: 75].

وقال تعالى: ﴿سَوَاءٌ مِنكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ [الرعد: 10] .

ويأتي العلماءُ في مرتبة ثالثة بعد الله، سبحانه وتعالى، والملائكة، فقال: ﴿شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: 18] . وقرن الله بين الإيمان والعلم. فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة:11] .

أما أقوال الرسول (صلى الله عليه وسلم) في فضل العلم فكثيرة منها قوله: «العُلماءُ ورثة الأنبياء»[22].

وقوله صلى الله عليه وسلم: «إن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلمْ رضى بما يطلب»[23].

وقوله «صلى الله عليه وسلم»: «مُن يُرِد الله به خيرا يفقهه في الدين، ويُلهمهُ رُشده»[24].

وللرسول «صلى الله عليه وسلم»: تشبيه بديع لمواقف الناس، ولا سيما العلماء، من هدي النبوة وعلمها، يقول: «إن مَثَل ما بعثني الله من الهُدى والعلم، كمثل غيث أصاب أرضا، فكانت منها طائفة طيبة قَبلَت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير. وكان منها أجادب أمْسَكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا منها وَسَقوا وزرعوا. وأصاب طائفة منها أخرى، إنما هي قيعان، لا تُمْسك ماء، ولا تُنبت كلأ. فذلك مَثَل مَن فَقه في دين الله، ونفعه ما بعثني الله به فَعَلِم وعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لم يَرْفع بذلك رأسا، ولم يَقبل هُدَى الله الذي أُرْسِلْتُ به»[25].

ويُفهم من هذا الحديث أن أفضل العلوم التي يتعلمها الإنسان علوم الدين، وما يتصل بها من علوم العربية، لقوله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ يُرد الله به خيرا يفقهه في الدين».

وقوله صلى الله عليه وسلم: «مَن سلك طريقا يلتمس فيه علما، سهل الله له به طريقا إلى الجنة. وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله تعالى، يَتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغَشيتهم الرحمة، وحَفَتْهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده»[26].

وقال علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)، مُبينا فضيلة العلم: «الناس ثلاثة: عالم رَباني، ومُتَعَلم على سبيل نجاة، وهَمَجٌ رَعاع، أتباع كل ناعق، مع كل ريح يميلون، لم يَسْتَضيئوا بنور العلم».

ثم قال لكُميْل النخعي: يا كُميْل، العلم خيرٌ منَ المال: العلم يَحرُسُك، وأنت تحرسُ المال. والمال تنقصُه النفقة، والعلم يزكو على الإنفاق. ومنفعة المال تزول بزواله. يا كُميْل، محبة العلم دين يُدان به، به يكسِبُ الإنسان الطاعة في حياته، وجميلَ الأحدوثة بعد وفاته. والعلمُ حاكمٌ، والمال محكومٌ عليه»[27].

وقد أجمع العلماء على أن أشرفَ العلوم العلومُ الدينية، عملا بقول الرسول (صلى الله عليه وسلم): «طلب العلم فريضة على كل مسلم»[28]؛ إذ فَسروا ذلك بأنه علم الكتاب والسُنة وما يتعلق بهما.

قال الماوَرْدي: «أوْلى العلوم وأفضَلها علمُ الدين؛ لأن الناس يَرْشدون بمعرفته، ويضلون بجهله؛ فالجاهل لا تَصح عبادته إذا كان يجهل صفات أدائها. وعِلْمُ الكتاب والسُنَة يقتضي أن يتعلم الإنسان علوما أخرى لمعرفة ما في الكتاب والسُنة من أحكام وتشريعات، كعلم اللغة والنحو والصرف؛ لأنها قوام علم التفسير، ومثلها جميع علوم القرآن والحديث»[29].

ولكن ذلك لا يعني أن يُهْمِل الإنسان تعَلّم العلوم الكونية كالطب والهندسة والزراعة والفلك والرياضيات وغيرها من العلوم التي لا تقوم المجتمعات، ولا تحيا الدول من دونها. وتعلُّمها فرض على المسلمين، كلٌ وفق طاقته.

قال الماوَرْدي: «وقد يتعلق بالدين علوم، قد بيّن الشافعي، رحمه الله، فضيلة كل واحد منها، فقال: مَن تعلم القرآن عَظُمت قيمته، ومن تعلم الفقه نَبُل مقداره، ومن كتب الحديث قويت حُجته، ومن تعلم الحساب جَزُل رأيُه، ومَن تَعَلم اللغة رَق طبعُه، ومَنْ لم يَصُن نفسه، لم يَنْفَعْه علمه»[30].

والعلوم الدينية وما يتعلق بها تحتاج إلى رجال أمناء يحملونها ويؤدونها إلى الناس، وهنا يأتي العامل الثالث من عوامل ترقية الفكر الإنساني، وهم العلماء.

ثالثا: العُلَماء

يُعَد العلماء أهم العوامل في ترقية الفكر الإنساني. وقد أحصيت مئات العلماء من المقادسة الأصلاء والمقادسة الوافدين في مختلف العصور، رجالا ونساء. وهو عدد لا يسعه بَحْثٌ كهذا، وإنما يحوج إلى كتاب.

ويتحقق دور العلماء في ترقية الفكر الإنساني بأمور عدة منها:

أن يكونوا ممن تعلَّم وتفقّه في دين الله، وصاروا أهلا لحَمْل لقب العالم. ومَن يطَّلع على

تراجم علماء المقادسة يتضح له أنهم كانوا كذلك، وأنهم قد برعوا في جميع أنواع العلوم الدينية والدنيوية. وتتضمن تراجمهم ذكر العلوم التي حصلوها، كما تتضمن ألقابهم العلمية مثل: الشيخ[31] وشيخ الإسلام، والعالم، والحافظ، والحُجة، والثبْت، والإمام، والمُسْنِد[32].

وفيما يلي أمثلة من ذلك على سبيل الاختصار؛ لأن هذه الألقاب تتكرر في ترجمة كثير من علماء المقادسة.

قال ابن شاكر الكتبي في ترجمة مُوَفق الدين ابن قدامة المقدسي: «شيخ الإسلام... وكان إماما حُجة مُصَنفا مُتَفَننا مُحررا، مُتبحرا في العلوم. وكان إماما في علم الخِلاف[33] والفرائض والأصول والفقه والنحو والحساب والنجوم السيارة والمنازل»[34].

وقال عن ابن عبد الدايم بن نعمة المقدسي: «العالم، مُسْنِد الوقت روى عنه خلقٌ كثير من كبار العلماء»[35].

وقال عن شرف الدين المقدسي: «الإمام شرف الدين المقدسي، أقضى القضاة، خطيب الشام، بقية الأعلام. كان إماما فقيها متفننا بالمذهب والأصول والعربية، وَلي دار الحديث الضيائية، وولي خطابة الجامع الأموي»[36].

وقال ابن رجب عن الضياء المقدسي: «الحافظ الكبير، مُحدث عصره، ووحيد دهره، وشهرته تغني عن الإطناب في ذكره»[37] ثم قال: «حافظ مُتقِن، ثَبْت، ثقة، صدوق، نبيل، حجة، عالم بالحديث وأحوال الرجال، له مجموعات وتخريجات»[38].

وقال ابن رجب في ترجمة أحمد بن عبيد الله، شَرَف الدين المقدسي، من آل قدامة: «كان فقيها فاضلا ثقة عالما دَيّنا»[39] وقال: «ولما توفي هؤلاء الثلاثة الأخيار المقدسيون: المُحِب[40] والعز[41] والشرف، في مدة متقاربة رثاهم شيخ الإسلام مُوَفق الدين بقوله[42]:

ماتَ المُحِب وماتَ العِزُ والشَرَفُ
أئِمةٌ سَادَةٌ ما مِنهُم خَلَفُ
كانوا أئمَة علم يُستَضَاءُ بهم
لَهْفي على فَقْدهم لو ينفع اللهَفُ»

والدليل على علم المقادسة وغزارته أن كبار العلماء رووا عنهم، وَتَتَلْمَذوا لهم. ومن هؤلاء العلماء: الذهبي والسُبكي والبرزالي والسروجي والحسيني والعراقي وابن ظهيرة، وابن جَماعة[43]، وابن حجر العسقلاني وابن عساكر والوادي آشي وغيرهم[44].

ولم يقتصر أخذ كبار العلماء عن المقادسة على الرجال، وإنما أخذوا العلم عن العالمات المقدسيات؛ فالحافظ ابن حجر العسقلاني قرأ نحو ثمانية وخمسين كتابا وجزءا على الشيخة فاطمة بنت محمد بن عبد الهادي[45]، وقرأ على أختها عائشة ثلاثة عشر كتابا. وقرأ عليها مِن مسموعاتها بواسطة أربعة كتب[46].

وبلغت مرويات زينب بنت الكمال المقدسية اثنين وسبعين كتابا وجزءا، وتلقى عنها الحديث عدد كبير من طلبة العلم[47].

أما زينب بنت أحمد بن شُكْر المقدسية، فقد أخذ عنها العلم عدد كبير من طلبة الحديث في الحجاز والقدس ومصر ودمشق. ومن أشهر الحفّاظ الذين أخذوا عنها: صلاح الدين العلائي والسكبي وغيرهما[48].

وبلغ عدد الذين أخذوا عنها سماعا ستة وعشرين محدثا[49].كما أخذ عنها عدد من المحدثين المغاربة[50].

وأما ست العرب بنت محمد بن علي بن أحمد بن عبد الواحد المقدسية، فقد أخذ عنها كثير من العلماء سماعا وإجازة، منهم أحمد بن رجب البغدادي والد الحافظ زين الدين ابن رجب، وأبو زُرعة العراقي ومحمد بن علي بن عبد الرحمن المقدسي وغيرهم[51].

ب - رحْلة العلماء

ارْتحل العلماء المقادِسة إلى مختلف أقطار العالم الإسلامي لغرضين:

الأول: لتحصيل العلوم المختلفة.

والثاني: للتدريس وتَوَلي القضاء والخطابة في البلدان التي رحلوا إليها؛ مما يحقق ترقية الفكر الإنساني.

وقد بين ابن خلدون أهمية الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة، وأنها مزيد كمال في التعليم[52]. ثم بيّن السبب فقال: "والسَبب في ذلك أنَ البَشر يأخذون معارفهم وأخْلاقهم، وما يَنْتَحِلون به من المذاهب والفَضائل، تارة علما وتعليما وإلقاء، وتارة مُحَاكاة وتلقينا بالمباشَرة. غير أن حُصول المَلَكات عن المباشرة والتلقين أشد اسْتحكاما، وأقوى رسوخا؛ فَعَلى قَدْر كثرة الشيوخ يكون حصول المَلَكات ورسوخها. فالرحلة لا بُد منها في طَلَب العلم لاكتساب الفَوائد والكمال بلقاءِ المشايخ ومباشرة الرجال[53].

الرحلة في طلب العلم

لا تكاد تخلو ترجمة من ترجمات العلماء المقادسة من النص على رحلتهم في طلب العلم. بل اكتسب بعضهم لقب «الرُحلة» لكثرة رحلاته أو الارتحال إليه. ومن عبارات القدماء في هذا الأمر قولهم: «له الرحلة الواسعة» كابن القيسراني [54].وفي «وفيات الأعيان»: «أحد الرحالين في طلب الحديث»[55]. «والجوال الرحال»[56].وقولهم: «له رحلات» مثل الفقيه نَصْر [57]. وقولهم عن عبد الغني المقدسي: «رحل إلى عدة بلدان، وكتب الكثير، ينشر العلم إلى أن مات» [58] وذكر ابن رجب أنه رحل إلى بغداد هو والمَوَفق، وأقاما بها أربع سنين.

وقال الضياء: وبعد ذلك اشتغلا بالفقه والخلاف على ابن المَنّيّ، وصارا يتكلمان في المسألة ويناظران. ثم رحل عبدالغني إلى مصر والإسكندرية، وأقام هناك مُدة. ثم عاد إلى دمشق، ثم

رجع إلى الإسكندرية، وسمع بها من الحافظ السِلَفي، وسمع بمصر من ابن بَري المقدسي النحوي. وسافر بعد ذلك إلى أصبهان، وأقام بها مدة، وسمع بها الكثير، وحَصّل الكتب الجيدة، ثم رجع إلى دمشق. وسمعَ بَهمَذان والموصل[59].

وقال ابن رجب عن الضيّاء المقدسي: رحل مرّتين إلى أصبهان، وسمع بها عن أزيد من خمسمئة شيخ، وحصّل أصولا كثيرة. وأقام بهَراة وَمَرْو مدة [60].

وَرحَل العماد المقدسي إلى بغداد مَرتين، فَقرأ القرآنَ على أبي الحسن البطائحي، وسمع من عدة علماء منهم شُهْدَة الكاتبة، وسمع بالموصل من خطيبها. وتفقه في بغداد على أبي الفتَحْ بن المَنّيّ، حتى برع وناظَر وأفتى، ورجع إلى دمشق[61].

ورحل تقي الدين المقدسي في طلب الحديث، وسمع بأصبهان وبغداد[62]. وقال ابن رجب عن يحيى بن أبي الفتح الحراني الضرير المقدسي: رَحل، وقرأ القرآن بواسط، وسمع بها الحديث، وسمع ببغداد، ورجع إلى حران، وحدث بها[63].

وقال الضياء عن خطيب مَرْدا المقدسي: سافر إلى بغداد في طلب العلم، واشتغل، وحَصل في مدة يسيرة ما لم يحصل غيره في مدة طويلة. سمع الحديث ببغداد [64] ورحل إلى مصر[65].

ومن النساء اللواتي ارتحلن: زينب بنت أحمد بن عمر بن شُكْر المقدسية، المسنِدة الرحلة. كانت رُحلة زمانها، رُحِل إليها من الأقطار[66].

الرحلة للتدريس والإفتاء والقضاء

أما الغرض الثاني من أغراض رحلة العلماء المقادسة، فكان للتدريس والإفتاء والخطابة في مختلف أقطار العالم الإسلامي مما يعمل على ترقية الفكر الإنساني.

وفيما يلي بعض الأمثلة توضح هذا الغرض:

- الضياء المقدسي: كُتِبَ عنه ببغداد ونيسابور ودمشق [67].
- عبد الملك بن إبراهيم المقدسي: كان يتولى بقطيعة الكرخ[68].
- ابن بَري النحوي المقدسي: تولى رئاسة الديوان المصري[69].
- محمد بن يوسف بن همام بن علي أبو الفتح المقدسِي: وَلي في بغداد خزانة الكتب بالمدرسة النظامية[70].
- المسند عماد الدين المقدسي: حَدث في الحجاز وحماة ودمشق[71].
- قاضي القضاة تقي الدين أحمد بن عمر عبد الله: تولى هو وأبوه قضاء القضاة بالديار المصرية للحنابلة[72].
- تقي الدين الحوراني المقدسي : ولي إعادة المستنصرية ببغداد[73].
- محمد بن إبراهيم، شمس الدين بن العماد : قاضي مصر[74].

■ علي بن المفضل بن علي بن مفرج: دَرس بمدرسة في الإسكندرية، وبمدرسة في القاهرة التي أنشأها الصاحب بن شُكْر[75].

■ أبو موسى، الحافظ، المفيد، المُذَكر، جمال الدين بن عبد الله ابن الحافظ الكبير عبد الغني المقدسي: رَحَلَ إلى أصبهان، وانتفع الناس بمجالسه التي لم يُسْبَق إلى مثلها[76].

■ إسماعيل بن عبد الله: وَلي قضاء مصر نحوا من شهرين في سنة 321هـ. ثم أصابه فالج، فتحول إلى الرملة، ومات بها سنة 325هـ [77].

■ زينب بنت أحمد بن عمربن شُكْر: حدَّثت في المدينة المنورة ودمشق، والقدس، والقاهرة[78].

■ محمد بن أحمد بن عمر المقدسي: دَرَّس للحنابلة بالمنصورية وغيرها[79].

■ مُوَفق الدين عبد الله بن محمد: تولى قضاء الحنابلة بمصر، وانتشر في زمانه مذهب أحمد في الديار المصرية[80].

■ شهاب الدين أحمد بن سلامة المقدسي المصري الواعظ: كان شيخا بالخانقاه والجامع الخاصيِّن بالأمير بَشْتَك. ثم تولى النظر في خانقاه سِرياقوس بعد أن عُزِل عن نظر الخانقاه السابقة[81].

■ محمد بن حامد بن أحمد بن عبد الرحمن بن بدران المقدسي الشافعي: رحل إلى القاهرة، وتفقه فيها، وناب في الحكم بها، وحدث في مساجدها [82].

■ تقي الدين عبد الكريم بن أحمد بن عبد الله بن راجح: رحل إلى طرابلس الشام، وتولى النظر فيها[83].

■ شرف الدين موسى بن فياض بن موسى: أول من تولى قضاء الحنابلة في حلب عام 748 هـ، واستمر في ذلك خمسا وعشرين سَنَة[84].

وثمة رحلة أخرى للمقادسة، ولكنها اضطرارية، وهو ما عرف بـ "هِجْرة المقادسة" إلى دمشق هربا من فظائع الصليبيين عندما احتلوا بيت المقدس سنة 492هـ. وقد كتب الضياء المقدسي كتابا في عشرة أجزاء وَسَمه بـ «سَبَب هجِرة المقادسة إلى دمشق وكرامات مشايخهم». ومما يؤسف له أن هذا الكتاب لم يصل إلينا منه سوى جزءٍ واحد. ولكن المؤرخ الدمشقي شمس الدين محمد بن طولون، المتوفَى سنة 953هـ، قد نقل كتاب الضياء في كتابه «القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية»[85]. كما نقل الكتاب عن القلائد الدكتور محمد بن عزوز في كتابيه «بيوتات الحديث في دمشق» و «جهود المرأة الدمشقية في رواية الحديث»[86]. وضُمِّن كتاب «سبب هجرة المقادسة» في كتاب الدكتور محمد مطيع الحافظ «المدرسة العمرية بدمشق وفضائل مؤسسها أبي عمر محمد بن أحمد المقدسي الصالحي»[87]. وقد نتج عن هذه الرحلة الاضطرارية نتائج علمية وأخلاقية باهرة، تُعَد معلما واضحا في ترقية الفكر الإنساني، كما سيَتضح من الحديث عن هذه الرحلة ونتائجها لاحقا.

ج- مصنفات العلماء المقادسة في مختلف العلوم الدينية والدنيوية.

ولما كان العلماء المقادسة قد حصّلوا علوما كثيرة، واستحقوا أن يكونوا علماء، فَسَيَتَرَتب على ذلك أن تكون مصنفاتهم في مختلف العلوم كثيرة ومتميزة؛ فقد شملت مصنفاتهم علوم القرآن والحديث والفقه والأَنساب والسيَر والتراجم واللغة والنحو والأدب والشعر والتاريخ والجغرافيا والطب والهندسة. وبعض هذه المصنفات مطبوع وأكثرها مخطوط أو مفقود. وبلغ بعض المصنفات شهرة واسعة في أوساط العلماء، تدل على أهميتها وتميزها كالمقنع والمغني لابن قدامة المقدسي، ومَتْن عُمْدة الأحكام لعبد الغني المقدسي، وكتاب الروضتين لأبي شامة المقدسي، وكتاب «أحسن التقاسيم» للمُقَدَّسي البشاري، وكتاب «البدء والتاريخ» للمطهر بن طاهر المقدسي، وغيرها.

قال كراتشكوفسكي عن صاحب كتاب «أحسن التقاسيم»: «وآخِر الممثلين الكبار للمدرسة الكلاسيكية هو المُقَدَّسي الذي يعتبره اشبرنجر «أكبر جغرافي عرفته البشرية قاطبة»[88]. ويضيف اشبرنجر قائلا : «ولكن من المحتمل أنه لم يسبقه شخص في اتساع مجال أسفاره، وعُمْق ملاحظاته، وإخضاعه المادة التي جمعها لدراسة منظمة» [89]. وينقل الأب هنري لامَنْس قولا آخر عن اشبرنجر وهو قوله: «ليس من سائح تجوّل في البلاد كما تجول المُقَدَّسي، ولا أحدَ لحَظ ما لحظه، أو روى معلوماته مثله بنظام وترتيب»[90].

ويرى كرامرز في المقدسي أكثر الجغرافيين العرب أصالة، وفي المُصَنَّف نفسه واحدا من أكثر المصنَّفات الجغرافية في الأدب العربي قيمة [91]. ويرى كراتشكوفسكي أن المُقدّسي أبدى كثيرا من التمحيص والتدقيق في المنهج. وينقل عن المقدسي قوله في بيان منهجه الذي اتبعه في تأليف كتابه[92].

أما المستشرق غلدمايستر فيرى أن المقدّسي قد امتاز بين جميع أرباب أوصاف البلدان بكثرة ملحوظاته، وسَعة نظره»[93]. وعَدّ بربيه دي مينار تأليف المقدسي ذا قيمة لا تقدّر[94].

ومن العلوم التي برع فيها العلماء المقادسة هندسة البنيان؛ إذْ يحدثنا المُقدسي في كتابه «أحسن التقاسيم» عن جَده الذي كان مهندسا بارعا، وأنه الذي ابتنى ميناء عكا، يقول: «لم تكن عكا على هذه الحصانة، حتى زارها ابن طيلون (طولون)، وقد كان رأى صور وَمَنَعَتها، واستدارة الحائط على ميناها. فأحب أن يتخذ لعكا مثل ذلك الميناء. فجَمع صُناع الكورة وعرض عليهم ذلك، فقالوا: لا يهتدي أحد إلى البناء في الماء في هذا الزمان. ثم ذُكِر له جَدنا أبو بكر البَنّاء، وقيل: إنْ كان عند أحد علمُ هذا فعنده. فكتب إلى صاحبه على بيت المقدس أَنْ يُنْهضَه إليه. فلما صار إليه وذكر له ذلك، قال: هذا أَمْرٌ هَين. عَليَّ بفِلَق الجميز[95]. الغليظة. فصَفها على وجه الماء بَقدْر الحِصْن البري، وخَيّطَ بعضها ببعض، وجعل لها بابا من الغرب عظيما. ثم بنى عليها بالحجارة والشيد، وجعل كلما بنى خمسة دوامس[96]. ربطها بأعمدة

غلاظ ليشتَد البناء. وجُعلت الفلَق كلما ثقلت نَزَلتْ، حتى إذا علم أنها قد جَلسَت على الرمل تركها حولا كاملا، حتى أخذت قرارها. ثم عاد فبنى من حيث ترك، كلما بلغ البناء إلى الحائط القديم دَاخلهُ فيه وخيطه به. ثم جعل على الباب قنطرة؛ فالمراكب في كل ليلة تدخل الميناء، وتجر السلسلة مثل صور»[97].

وفي البنيان نجد كتابا بعنوان: «الفوائد النفسية الباهرة في حُكْم شوارع القاهرة»، يتحدث فيه مؤلفه أبو حامد محمد بن خليل بن يوسف المقدسي (888هـ) عن تنظيم شوارع القاهرة على أسس شرعية[98].

ومن العلوم التي اشتغل بها علماء المقادسة الطب والعِطارة؛ فقد ذكر ابن حجر في «الدرر الكامنة» أن أحمد بن محمد بن عبد الله بن عمر بن عوض المقدسي كان عطّارا، ويعرف طرفا من الطب[99]. وقال عن إِسماعيل بن إِبراهيم المقدسي إنه اعتنى بالطب فَمَهَر فيه، وكان حَسَن المعالجة [100].

ولكن أشهر الأطباء المقادسة محمد بن أحمد بن سعيد التميمي (380هـ)، الذي أخذ الطب عن جده.

قال د.سامي خلف حَمَارنة عنه: إنه أَشهر أطباء فلسطين المعروفين زمن الفاطميين إطلاقا، وأكثرهم إنتاجا وعلما. وذكر أنه كان له نَظر صائب في طب الروح، ومعالجة أمراض العقل والنفس[101]. وذكر له مجموعة من كتب الطب أشهرها: كتاب «مادة البقاء بإصلاح فساد الهواء، والتحرز من ضَرَر الأوباء». وكتاب «المرشد إلى جواهر الأغذية، وقوى المفردات من الأدوية». وله «رسالة في صناعة الترياق الفاروق»، أرسلها إلى ابنه وله كتاب آخر في الترياق. ومقالة في ماهية الرمد وأنواعه وأسبابه وعلاجه [102] وله أيضا «كشف السر المصون والعلم المكنون في شرح خواص القرآن العزيز»[103].

قال التميمي يصف ترياقه الذي ركّبه وسماه «مخلِّص النفوس»: «هذا ترياق أَلفته بالقدس، وأحكمت تركيبه، مختصر، نافع الفعل، دافع لضرر السمومات القاتلة المشروبة والمصبوبة في الأبدان، بِلَسْع ذوات السُم من الأفاعي والثعابين، وأنواع الحيّات المهلكة السُّم، والعَقَارب الجرارات وغيرها .... مجرب ليس له مثل»[104].

ومن أطباء القدس المشهورين الطبيب النصراني أبو سليمان داود، قال عنه ابن أبي أصيبعه إنه كان «فاضلا في الصناعة الطبية، وخبيرا بعلمها وعملها، متميزا في العلوم... وكانت له معرفة بالغة بأحكام النجوم»[105].

ومن العلوم التي اهتم بها بعض العلماء المقادسة تطعيم الأشجار، وأشهرهم عيسى بن عبد الرحمن بن معالي بن أحمد المقدسي السمسار المطعم (717هـ) قال ابن حجر: «كان يُطَعم الأشجار ويُسَمّسِر في الدور، وسارَ إلى بغداد وطَعم بستان المستعصم»[106].

ومن العلوم العسكرية صناعة المنجنيق، وعُرِف بهذه الصناعة محمود بن الجمال عبيد الله بن أحمد بن عمر بن أبي عمر المقدسي المنجنيقي. قال ابن حجر: «كانت رئاسة عمل المنجنيق انتهت إليه، فاتفق أنه كان في حصار المنجنيق، فرفع المنجنيق ليصلحه، فسقط ميتا»[107].

وفيما يلي ثَبَت بعنوانات بعض مصنفات علماء المقادسة التي اطّلعتُ عليها في مكتبتي الخاصة ومكتبة الجامعة الأردنية، مُرَتبة وفق وفاة مؤلّفيها:

1. **أبو الفتح نصر بن إبراهيم المقدسي** (490هـ):

- تحريم نكاح المتعة.

2. **ابن القيسراني، محمد بن طاهر المقدسي** (507هـ):

- أطراف الغَرائب والأفراد.
- الأنساب المتفقة في الخط، المتماثلة في النَقْط والضَبْط.
- إيضاح الإِشكال.
- كتاب السَماع.
- شروط الأئمة الستة.
- صفوة التصوف.
- مسألة التسمية (مخطوط).
- مسألة العُلو والنزول في الحديث.
- كتاب معرفة الألقاب.

3. **ابن بَري المقدسي المصري** (582هـ):

- حاشية على تاج اللغة وصحاح العربية، وهي المسماة «التنبيه والإيضاح عما وقع في الصحاَح».
- حاشية على درة الغواص.
- حاشية على معرب الجواليقي.
- غلط الضعفاء من الفقهاء.

4. **عبد الغني المقدسي** (600هـ):

- أخبار الدجّال.
- الإلمام بشرح عمدة الأحكام.
- تحريم النظر في كتب الكلام.
- حديث الإفك.
- سيرة النبي، صلى الله عليه وسلم، وأصحابه العشرة.
- فضائل رمضان.

- كتاب الترغيب في الدعاء والحث عليه (مخطوط).
- كتاب الحج.
- مَتن عُمْدة الأحكام.
- مختصر عُمْدة الأحكام.
- النصيحة في الأدعية الصَحيحة.

5 ـ **مُوَفق الدين ابن قدامة** (620هـ):

- الاستبصار في نَسَب الصَحابَة من الأنصار.
- التبيين في نَسَب القرشيين.
- ذم الموسوسين والتحذير من الوَسّوسة.
- روضة الناظر وجنة المناظر.
- قنعة الأريب في تفسير الغريب من حديث رسول الله والصحابة والتابعين.
- الكافي في فقه الإمام أحمد.
- كتاب التوابين.
- كتاب المتحابين في الله.
- المغني.
- المقنع.

6 ـ **الضياء المقدسي، محمد بن عبد الواحد** (643هـ):

- اتباع السنن واجتناب البدع.
- الأحاديث المختارة.
- بعض الثالث من فوائد سَمويه (مخطوط).
- الجزء الثاني والستون- ستون حديثا لأنس بن مالك (مخطوط).
- صفة النبي.
- فضائل الأعمال.
- فضائل بيت المقدس.
- كتاب الأمراض والكفارات والطب والرقيات.
- مسموعات الضيّاء بمرو (مخطوط).
- مناقب جعفر بن أبي طالب.
- مناقب الشيخ أبي عمر المقدسي.
- المنتقي من أخبار الأصمعي.
- من عوالي حديث الحافظ الضياء (مخطوط).

7 - العِز عبد السلام بن غانم المقدسي (670هـ):

■ ديوانه.

■ كشف الأسرارعن حكم الطيور والأزهار.

8 - شمس الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن قدامة (682هـ):

■ الشرح الكبير (شرح المقنع).

9 - فخر الدين أبوالحسن علي بن أحمد بن عبد الواحد المقدسي، وعُرِف بابن البخاري (690هـ):

■ مَشْيَخته، تخريج ابن بلبان المقدسي. وتسمى: «أسنى المقاصد وأعذب الموارد» (مخطوط).

10. شهاب الدين أبوالعباس أحمد بن جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن عبد المنعم بن نعمة ابن سلطان بن سرور المقدسي (697هـ):

■ البدر المنير في علم التعبير.

11. شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الهادي المقدسي (744هـ):

■ تنقيح التحقيق في أحاديث التعليق.

■ جملة من الأحاديث الضعيفة والموضوعة.

■ رسالة في فضائل الأصحاب.

■ الصارم المُنكي في الرد على السبكي.

■ طبقات علماء الحديث.

■ مجموع رسائل ابن عبد الهادي، وهي مكونة من الرسائل التالية:

■ الكلام على حديث أفرضكم زيد.

■ جزء مختصر في الأحاديث الضعيفة التي يتداولها الفقهاء وغيرهم.

■ المراسيل.

■ الكلام على أحاديث لبس الخُفيّن للمحرم.

■ فضائل الشام.

■ اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية.

■ شرح قصيدة غرامي صحيح.

■ الطرفة في النحو.

12 - أبو الحسن علي بن أيوب بن منصور المقدسي (748هـ):

■ اللُباب في تسلية المصاب.

13 ـ **ابن مفلح المقدسي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن مفلح** (763هـ):
- الآداب الشرعية والمِنَح المرعية.
- الفروع في الفقه الحنبلي.

14 ـ **شهاب الدين أبو محمود ابن تميم المقدسي** (820هـ):
- مثير الغرام إلى زيادة القدس والشام.

15 ـ **محمد بن علي العمري المقدسي** (820هـ):
- النظم المفيد الأحمد في مفردات الإمام أحمد.

16 ـ **عيسى بن محمد بن عيسى المقدسي** (928هـ):
- الجوهر المكنون في سبعة فنون (أدب/ شعر مملوكي) (مخطوط).

17 ـ **شمس الدين محمد بن أبي اللطف المقدسي** (928هـ):
- رسالة في الاستعارات.

18 ـ **ابن غانم المقدسي، نور الدين علي بن محمد بن علي** (1004هـ):
- مصايد الشيطان وذم الهوى/ مختصر إغاثة اللهفان لابن القيم.

19 ـ **مرعي بن يوسف بن أبي بكر المقدسي** (1033هـ):
- دليل الطالب لنيل المطالب.
- الفوائد الموضوعة في الأحاديث الموضوعة.
- قلائد الجمان في الناسخ والمنسوخ من القرآن (مخطوط).
- محرك سواكن الغرام إلى حج بيت الله الحرام.
- مسبوك الذهب في فضل العرب.

20 ـ **محمد بن بدير بن محمد بن محمود حبيش الشافعي المقدسي** (1220هـ):
- علم النحو.

هذا ما استطعت الاطلاع عليه من مصنفات المقادسة، ويتضح منها الاهتمام الكبير بعلم الحديث والفقه والقرآن والعربية. وثمة نوع من المصنفات لم أستطع الاطلاع عليه، وهو علم التفسير[108].

د - أخْلاقُهم وفَضائلهم

جاء في كلام الشافعي في آخر قوله عن العلم: «ومَن لم يَصُنْ نفسَه، لم يَنْفَعْه علمُه». وسيتضح من الأمثلة التالية أن العلماء المقادسة قد صانوا أنفسهم، وتَرَفعوا عن الدنايا، وقرنوا العلمَ بالعَمَل.

أبو عمر، محمد بن أحمد قُدامة المقدسي: قال فيه الضياء المقدسي:

"كان لا يسمع بجنازة إلا حضرها، قريبة أو بعيدة، ولا مريضا إلا عاده. وكان لا يكاد يسمع بجهادٍ إلا خرج فيه. وكان قد جمع الله له معرفة الفقه والفرائض والنحو مع الزهد والعَمل وقضاء حوائج الناس»[109].

وقال الضياء أيضا: «كان خالي، رحمه الله، يَحْمل هم الأهل والأصحاب، ومَن سافر منهم يَتَفَقد أهاليهم، ويدعو للمسافرين، ويقوم بمصالح الناس. وكان الناس يأتون إليه في الخصومات والقضايا وغير ذلك فيصلح بينهم. ويَتَفَقد الأشياء التي فيها نَفْع العام والخاص من النهر والمصانع والسقاية ومواضع حَفْر التراب. وكانت له هيبة في قلوب الخلق»(110).

ولما مات أبوعمر، خرج في جنازته ألوف من الناس، قُدر عددهم بعشرين ألفا. وكان اليوم حارا، فأرسل الله، سبحانه، سحابة تظل الناس. وكانوا يسمعون من السماء دويا كَدوي النحل(111).

شَرَف الدين المقدسي: قال ابن رجب:

«كان فقيها فاضلا، ثقة، عالما، دَينا. جمعَ الله له بين حُسْن الخَلْق والخُلُق والدين والأمانة والمروءة، وقضاءِ حوائج الإخوان، والكرم والإحسان للضعفاء والمرضى، وقضاءِ حوائجهم، والتهجد. وكان يقول الحق ولا يُحَابي أحدا»(112).

قال مُوَفق الدين في رثائه :

وكُنْتَ عَوْنا لنا في كل نازلةٍ
تَظَل أحشاؤنا مِنْ همها تَجِفُ
وكنتَ ترعى حقوق الناس كلهم
مَن كنتَ تعرف أو مَن لستَ تعترفُ
وكان جودُكَ مبذولا لطالبه
جُنْحَ الليالي إذا ما أظلمَ السُدُفُ
وللغريب الذي قد مَسه سَغَبٌ
وللمريض الذي أشفى به الدَنَفُ
وكنتَ عونا لمسكين و أرملةٍ
وطالب حاجةٍ قد جاءَ يَلْتَهفُ

■ عماد الدين، أبو إسحق: قال فيه الموَفق: «كان من خيار أصحابنا، وأعظمهم نفعا، وأشدهم وَرَعا، وأكثرهم صبرا على تعليم القرآن والفقه. وكان داعية إلى السُنة، وتعليم العلم والدين. وكان يُقْرِئ الضعفاء الفقراء ويطعمهم، ويبذل لهم نفسَه. وكان من أكثر الناس تواضعا، واحتقارا لنفسه، وخوفا من الله تعالى»(113).

وقال عنه الضياء المقدسي: «كان يتألف الناس، ويَلطُف بالغرباء والمساكين، حتى صار من تلاميذه جماعة من الأكراد والعرب والعجم، وكان يتفقدهم ويسأل عنهم وعن حالهم. ولقد صحبه جماعة من أنواع المذاهب، فرجعوا عن مذاهبهم لما شاهدوا منه. وكانوا يتحدثون

عنه، ويذكرون لنا من كراماته وكرمه وحسن عِشْرته. وكان سخيا جوادا، كثير المعروف، حتى كان بيته مأوى للناس وكان ينصرف كل ليلة إلى بيته من الفقراء جماعة كثيرة من أصحابه، فيقدم إليهم ما حضر، وما أعلم أنه أدخل نفسه في شيءٍ من أمر الدنيا، ولا تعرض لها، ولا نافَسَ فيها»[114].

■ الضياء المقدسي: قال عنه ابن النجار: «وهو وَرِع، تقي، زاهد، عابد، محتاط في أكل الحلال، مجاهد في سبيل الله. ولعمري ما رأت عيناي مثله في نزاهته وعفته، وحُسْن طريقته في طلب العلم. ووصفه عمر بن الحاجب بأنه من العلماء الربانيين، وأنه كان كثير الذِكر، مُنْقطعا عن الناس، متواضعا في ذات الله، سهل العارية. وَقَف كتبه وأجزاءه على المدرسة التي بناها للمحدثين والغرباء الواردين، مع الفقر والقلة[115].

■ الحافظ عبد الغني المقدسي: ذكرابن الحاجب أنه كان كثير العبادة، وَرِعا، متمسكا بالسُنة على قانون السَلَف. وكان ثقة ثَبْتا، دينا مأمونا، حَسَن التصنيف، دائم الصيام، كثير الإيثار، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

وقال فيه الضياء المقدسي: كان مجتهدا على طلب الحديث وسماعه للناس، من قريب وغريب؛ فكان كل غريب يأتي يَسمع عليه، أو يعرف أنه يطلب الحديث يكرمه ويَبره ويُحسن إليه إحسانا كثيرا. وإذا صار عنده طالب يفهم شيئا، أمره بالسَفر إلى المشايخ بالبلاد[116].

وقال أيضا: «كان لا يرى منكرا إلا غيره بيده أو بلسانه، وكان لا تأخذه في الله لومة لائم. قد رأيته مرة يهريق خمرا، فجبذ صاحبه بالسَيف فلم يَخَفْ منه، وأخذه من يده، وكان قويا في بدنه. وكثيرا ما كان بدمشق يُنْكِرُ ويكسر الطنابير والشبابات»[117].

■ سيف الدين بن قدامة: كان صاحب عبادة، تام المروءة، أمارا بالمعروف، قوالا بالحق[118].

■ خطيب مَرْدا : كان العماد المقدسي يغبطه من كثرة الخير؛ فإنه يقوم بمصالح عديدة، منها : إقراء القرآن، والقيام بالخطابة والإمامة وما يحتاج إليه المسجد من سُرُج وغير ذلك، وافتقاد الغرباء الواردين بما يُصلِحهم، ولا يتناول من وقف المسجد شيئا[119].

■ مُوَفق الدين المقدسي، أخو الشيخ أبي عمر، قال فيه سبط ابن الجوزي: كان كثير الحياء، عزوفا عن الدنيا وأهلها، هينا لينا، متواضعا، مُحبا للمساكين، حَسَن الأخلاق، جوادا سخيا. من رآه كأنه رأى بعض الصحابة، وكأنما النور يخرج من وجهه، كثير العبادة[120].

وقال أيضا: شاهدت من الشيخ أبي عمر وأخيه الموفق ونسيبه العماد، ما نرويه عن الصَحابة والأولياء والأفراد؛ فأنساني حالهم أهلي وأوطاني. ثم عدتُ إليهم على نية الإقامة، عسى أن أكون معهم في دار المقامة[121].

وقال فيه ابن النجار: كان دائم السُكوت، حَسَن السَمْت، نَزِها، ورعا، عابدا على قانون السَلَف، على وَجْهه النور، وعليه الوَقار والهيبَة. ينتفع الرجل برُؤيته قبل أن يسمع كلامه[122].

وقال ابن الحاجب: متواضع عند الخاصة والعامة، حسن الاعتقاد، ذو أناةٍ وحِلْم ووقار، وكان مجلسه عامرا بالفقهاء والمحدثين وأهل الخير، وصار في آخر عمره يقصده كل أحد. وكان كثير العبادة، دائم التهجد[123].

■ البُخاري، أحمد بن عبد الواحد بن أحمد بن عبد الرحمن السعدي المقدسي، شمس الدين

قال الذهبي : كان إماما عالما مُفْتيا، مناظرا، ذا سمت ووقار، وكان كثيرالمحفوظ، حجة، صدوقا، كثير الاحتمال، تام المروءة[124].

■ ابن القيسراني، محمد بن طاهر المقدسي: قال يصف ما عاناه في طلب الحديث: «بُلتُ الدم في طلب الحديث مرتين: مرة ببغداد، ومرة بمكة، كنت أمشي حافيا في الحر فلحقني ذلك. وما ركبت دابة قط في طلب الحديث. وكنت أحمل كتبي على ظهري، وما سألتُ في حال الطَلَب أحدا، كنت أعيش على ما يأتي»[125].

وقال فيه ابن مندة: «كان ابن طاهرأحد الحفاظ، حَسَن الاعتقاد، جميل الطريقة، صدوقا، عالما بالصحيح والسَقيم، كثير التصانيف،لازما للأثر[126].

وقال شيرويه: كان «بعيدا من الفصول والتعصب، خفيف الروح، قوي السَيْر في السَفر»[127].

■ الحافظ عز الدين محمد بن عبد الغني: وُصِف بحُسْن الطريقة والديانة، وجمال السيرة. وكان رضي الأخلاق، ذا توَدد وكَيْس ومروءة ظاهرة، وتعمد لقضاءِ حقوق الإخوان، ومساعدة الغرباء. وكان سمحا جوادا[128].

رابعا: مكانة القُدْس العلمية

عَرَضتُ في بُداءة البحث لدلالة القدس اللغوية وأهميتها في ترقية الفكر الإنساني. وأُخِر الحديث عن مكانتها العلمية لما تحويه من معاهد علمية كثيرة كان لها دور مهم في ترقية الفكر الإنساني، ولأنها كانت محط رحال العلماء من جميع الأقطار الإسلامية.

وتتضح أهمية بيت المقدس ومكانتها في الإسلام منذ اللحظة الأولى التي حررها فيها عمر بن الخطاب رضي الله عنه، سنة 16هـ؛ إذ شهد فتحها معه جماعة من الصحابة، ثم تلاهم جماعة أخرى من الصحابة والتابعين وتابعي التابعين والعلماء. قال العُليمي: «وأما من دخل بيت المقدس من الصحابة، رضي الله عنهم، فهم خَلْق كثير، لا يحصيهم إلا الله، سبحانه وتعالى، ولنذكر جماعة من أعيانهم تبركا بذكرهم»[129] والعليمي ينقل عن كتاب «مثير الغرام»[130].

وهذا العدد الكبير من الصحابة، والتابعين والفقهاء والمحدثين والأدباء والشعراء الذين وفدوا على القدس يدل دلالة واضحة على علو مكانتها عند المسلمين وتميزها من غيرها من البلدان.

وصدق ابن بيت المقدس عندما قال يصفها: «وفيها كلُ حاذق وطبيب، وإليها قلب كل لبيب، ولا تخلو كل يوم من غريب»[131].وقال يصف أهل بيت المقدس: «وكقولنا: ولا أعز من أهل بيت المقدس؛ لأنك لاً ترى فيها بَخسا ولا تطفيفا، ولاشُربا ظاهرا، ولا سكران، ولا بها دورُ َفسّق، سِرا ولا إعلانا، مع تعبدٍ وإخلاص. ولقد بلغهم أن الأمير يشرب، فتَسَوروا عليه داره، وفرقوا أهل مجلسه»[132].

ومن الدلائل على مكانة القدس أن الكتب التي أُلفت في فضائلها كُتِبَ أغلبها في القدس[133].

وفيما يلي عرض للمقالات والبحوث التي تحدثت عن الرحلات إلى القدس، وبيان الغرض منها :

ترتيب الرحلة: للقاضي أبي بكر بن العربي:

قال يصف دخوله بيت المقدس وما شاهده فيها:«فدخلنا الأرض المقدسة، وبَلَغْنا المسجد الأقصى، فلاحَ لي َبدْرُ المعرفة فاسْتَنَرْتُ به أزْيَد من ثلاثة أعوام. وحين صليتُ بالمسجد الأقصى فاتحةَ دخولي له، عمدتُ إلى المدرسة الشافعية بباب الأسباط[134] فألفيتُ بها جماعة من علمائهم في يوم اجتماعهم للمناظرة عند شيخهم القاضي الرشيد يحيى[135] والمقدسي[136]، وهم يتناظرون على عادتهم...»[137].

ولأن بيت المقدس خلب لب أبي بكر قال لأبيه: «إنْ كان لك نية في الحج، فامضِ لعزمك، فإني لستُ برائم عن هذه البلدة حتى أعْلَمَ علم َمَن فيها، وأجْعلُ ذلك دستورا للعلمِ، وُسلما إلى مَراقيها»[138].

ثم وصف لقاءه بأبي بكر الطرطوشي فقال: «وَمشَينْا إلى شيخنا أبي بكر الفهري، رحمة الله عليه، وكان ملتزما من المسجد الأقصى، طهره الله، بمَوْضع يقال له الغوير بين باب الأسباط ومحراب زكريا، عليه السلام، فلم نُلْفِه به واقتفينا أثره إلى موضع يقال له السَكينة، فألفيناه؛ بها فشاهدتُ هَدْيَه، وسمعت كلامه، فامتلأت عيني وأذني منه... وانفتح لي منه إلى العلم كل باب، ونفعني الله به بالعلم والعمل، ويسَر لي على يديه أعظم أمل؛ فاتخذْت بيت المقدس مَبَاَءة واَلتزمتُ فيه القراءة، لا أُقبل على دنيا، ولا أكلم إنسيا، نواصل الليل بالنهار فيه، وخصوصا بقبة السلسلة منه...»[139].

ثُم يذكر أغراض العلوم التي حصَّلها ببيت المقدس، والكتب التي قرأها: «ولم نزل على تلك السَجية حتى اطّلعتُ بفضل الله، على أغراض العلوم الثلاثة: علم الكلام وأصول الفقه، ومسائل الخلاف، التي هي عمدة الدين والطريق المهيع إلى التدَرب في معرفة أحكام المكلفين، الحاوية للمسلك والدليل، الجامعة للتفريع والتعليل»[140]. ويذكر القاضي أبو بكر أسماء الكتب التي قرأها في بيت المقدس فيقول: «وقرأنا المدونة[141]. بالطريقتين: القيروانية في التنظير والتمثيل، والعراقية على ما تقدم من معرفة الدليل»[142].

ثم يذكر أسماء العلماء الذين وردوا على القدس من مختلف الأمصار: «وفي أثناء ذلك وَرَدَ علينا برسم زيارة الخليل، صلوات الله عليه، ولنية الصلاة في المسجد الأقصى جماعة من علماء خراسان كالزوزني، والصاغاني، والزنجاني، والقاضي الريّحاني. ومن الطلبة جماعة كالبُسكري، وساتكين التركي»[143]. ويذكر بعد هذا ما جرى بينه وبين هؤلاء العلماء من مناظرات في العلم[144].

وقال في العواصم من القواصم: «فَوَرَدْتُ البَيْتَ المقَدَّس، طهره الله، فألفيت فيه ثماني وعشرين حَلْقة، ومدرستين، إحداهما للشافعية بباب الأسباط، والأخرى للحنفية، بإزاء قمامة، تعرف بمدرسة أبي عقبة. وكان فيه من رؤوس العلماء، ورؤوس المبتدعة، على اختلاف طبقاتهم، كثير. ومن أحبار اليهود والنصارى والسَمرة جُمَل لا تحصى. فأوفيتُ على المقصد من طريقه، ووعيتُ العلم بتحقيقه، ونظرتُ إلى كل طائفة تناظِر، وناظرتها بحضرة شيخنا أبي بكر الفهري، رحمه الله، وغيره من مشيخة أهل السُنة»[145].

رحْلة البلوي «تاج المفرق في تحلية علماء المشرق»

أفاض خالد بن عيسى البَلوي (680هـ) في وصف مدينة القدس التي بهرته، فقال: «ولما لاحَتْ نيرات هذه الأنوار، وفاحت نُسَيْمات تلك الأسحار، وشاهدت أحد هذه المساجد الثلاثة التي لا تُشَد إلا إليها الرحال، وعايَنْتُ الحرم الشريف حقيقة قد أحَلني لديه الترحال اخترت مجاورته، وآثرتُ ملازمته، وقلت: أين أذهب عن موطن مهبط الرحمة، وموضع مَحْشَر الأمة، ومحل تفريج الكُربَة والغمة»[146].

وبعد أن عدد البلوي فضائل القدس ذكر سببا آخر لبقائه فيها، وهو علماؤها، فقال: «هذا إلى ما أطلعه الله في ذلك الأفق المنير من بدور العلماء، وأمْتَع من صدور الأولياء الذين وردوا على طاهر تلك البقاع، وقصدوا إلى العبادة فيها والانقطاع، فَسَن الله إليَّ البغية، ولقيتهم أجمعين، ورَوَيْت عنهم. ولما كثر عليَّ تعدادهم، وقلَّ عليَّ نُظراؤهم وأندادهم، انتقيتُ منهم ها هنا خمسة يُتَبَرك بذكرهم، وتعطرُ الأندية بشكرهم»[147].

و**أول** هؤلاء الخمسة إمام المسجد الأقصى وخطيبه زين الدين أبو البركات عبد الرحيم بن بدر الدين بن جماعة الكناني الشافعي[148] و**الثاني**: الشيخ العالم الإمام الحافظ مفتي المسلمين صلاح الدين خليل بن كيكلاي، نزيل بيت المقدس. [149] و**الثالث**: أكبرهم سنا وأكثرهم بالمعاني الأدبية معنى، الشيخ الفقيه المحدث الأديب علاء الدين أبو الحسن علي بن أيوب بن منصور المقدسي الشافعي، شيخ النظم والنثر، وإمام الحديث في ذلك القُطر»[150]. و**الرابع** : الشيخ الفقيه المقرئ الصالح شمس الدين أبو عبدالله محمد بن علي بن مثبت الخولاني الأندلسي، أحد العُباد الموفقين، والعباد المتقين[151]. وأوْتَرهم، بل أوْثرهم بمسك الختام، ومَلَكِ الكلام، و**خامس** الأربعة الكرام، وحامل لواء البيان بين صناديد مصر وفحول الشام الشيخ الفقيه الأديب الأبرع

جمال الدين أبو بكر محمد بن محمد بن بناته المصَنف، صاحب الخطب الشهيرة... لقيته بحرم القدس، أتاه من دمشق زائرا وخرج من بيته مهاجرا[152].

ومن العلماء الرحالة الذين زاروا القدس وأخذوا العلم عن علمائها محمد بن جابر الوادي آشي، الذي ذكر في برنامج شيوخه أسماء الشيوخ المقادسة الذين أخذ عنهم، وأسماء الكتب التي درسها عليهم. وبلغ عدد العلماء المقادسة الذين أخذ عنهم أربعة وعشرين عالما، منهم مثلا : عبد الغني المقدسي [153]، وزين الدين أيوب بن نعمة المقدسي [154]. وابن حمائل المقدسي [155]، محب الدين محمد بن عبد الله المقدسي[156]، وعماد الدين ابن المحب بن الرضي المقدسي [157]، وشهاب الدين العابر[158].

ومن النساء اللواتي أخذ عنهن : خديجة بنت عبد الرحمن بن محمد بن عبد الجبار المقدسية [159]، وخديجة بنت محمد بن سعد المقدسية [160]، وعائشة بنت عيسى بن عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسية [161]، وهدية بنت عبد المجيد بن سعد المقدسي [162]، وزينب بنت القاضي عبد الرحمن بن أحمد بن قدامة المقدسي [163]، وزينب بنت أحمد بن عبد الرحيم بن منصور المقدسي[164].

وذكر الوادي أشي في الجزء الثاني من برنامجه أسماء الكتب التي سمعها من علماء القدس أو قرأها عليهم[165].

القدس وإشعاعها الثقافي في المغرب والأندلس من خلال الرحلات العلمية - د.محمد الحبيب الهيلة :

هذه المقالة ذات دلالة عميقة على مكانة القدس وأثرها في ترقية الفكر الإنساني؛ إذ يبدأ الدكتور الهيلة مقالته بقوله: «وقد كان القدس الشريف من بين أهم المراكز الثقافية التي يقصدها الرحالة من المغاربة والأندلسيين، يزورونها في أكثر الأحيان عند الإياب إلى أوطانهم بعد أداء فريضة الحج، معتبرين هذه الزيارة من متممات الفضائل الدينية، مستجيبين إلى الدعوة النبوية الواضحة التي يقول فيها، عليه الصلاة والسلام : «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجدي هذا» [166].

ويُبين ما يجده المغاربة والأندلسيون في القدس: «يزورن القدس فيلقون فيه ما طمَحت إليه نفوسهم من صنوف العبادة، وما وَعَدَتْهم به الآثار من مغفرة وقبول. ويَلْقَوْن فيه أيضا من صنوف المعرفة ما تشعِ به حلقات دروس أكابر العلماء التي انعقدت في المسجد الأقصى» [167].ثم يذكر الدكتور الهيلة أسماء بعض العلماء الأندلسيين الذين زاروا البيت المقدس، ومنهم: عبد الملك بن حبيب، أحد تلاميذ مالك من الأندلسيين، كان يُكثر من زيارة القدس، والأخذ عن أهله. ومنهم: أبو الحسن الزهري، الذي أقام ببيت المقدس زمانا، وأخذ عن كثير من رجاله. وأبو عبد الله محمد بن علي القرطبي، يسعى إلى السماع في بيت المقدس. كما قدم إلى بيت المقدس الفقيه المحدث عبد الله بن الوليد الأنصاري الأندلسي، فظل يسمع به إلى أن وافاهُ الأجل، فَدُفن في أرضه[168].

وورد على بيت المقدس في أواخر القرن السابع الهجري ثلاثة من أعلام الرحالين الأندلسيين، وهم ابن رُشَيِّد، والعَبْدري والتجيبي ومما يؤسف له أن الجزء الرابع من رحلة ابن رُشيد مفقود، وهو الجزء الذي سجل فيه لقاءاته ومحاوراته في بيت المقدس وبلاد الشام[169].

ويقول محقق كتاب «مِلء العَيبة» وهو رحلة ابن رشيد، ويبدو، كما يدل عليه ملحق الجزء الثالث، هو الاستدعاء الكبير، أن الجزء الرابع تضمن الترجمة لجماعة لقيهم الرحالة في طريقه إلى الشام[170]، وذكر منهم في القدس: الملك يوسف بن داود بن عيسى بن محمد بن أيوب الحنفي والشيخ الخطيب عبد المنعم بن إبراهيم بن علي بن جعفر القرشي الزهري الشافعي، والخطيب المفتي إمام المسجد الأقصى عبد الحفيظ بن بدران[171].

ولما راجعت الاستدعاء الكبير، وجدت أن ما نقله المحقق الفاضل يفتقر إلى الدقة؛ إذ يذكر ابن رشيد بعد التصريح بالإجازة : «وكتب يوسف بن داوود بن عيسى بن أبي بكر محمد بن أيوب الحنفي، عفا الله، سبحانه وتعالى، عنه بلطفه الخفي، بباب المسجد الأقصى، حرسه الله تعالى، في الخامس والعشرين من شعبان سنة أربع وثمانين وستمئة»[172].

ثم ذكر إجازة عبد المنعم بن يحيى بن إبراهيم بن علي بن جعفر القرشي ثم الزهري الشافعي الخطيب بالقدس الشريف في السنة نفسها [173].

وقال: «قطب الدين أبو الذكاء الإمام المفتي، خطيب المسجد الأقصى، فقيه مفسر فاضل... لقيه ابن رشيد بالقدس وسمع عليه»[174].

أما عبد الحافظ بن بدران، فهو الذي كتب الإجازة [175].

ويختم الدكتور الهيلة مقالته القيمة بقوله : «وهكذا يتبين لنا، من تلكم العينات الموجزة من أقوال الرحالين، ومن الروايات الصادرة عن المؤرخين وأصحاب الطبقات، مدى الإشعاع الثقافي لبيت المقدس في بلاد المغرب والأندلس، وتتضح لنا العلاقات التي كانت تربط بينهما، فتَتَأكد في أذهاننا حقيقة ما كانت عليه مدينة القدس من إنتاج فكري وقيمة حضارية، جعلت منها مركزا ثقافيا، وموطن لقاءٍ علمي»[176].

الأندلسيون والمغاربة في القدس : د. أحمد بدر

يفسر الدكتور أحمد بدر إقامة الأندلسيين والمغاربة في القدس بِ «المكانة الدينية التي احتلتها القدس لدى المسلمين؛ فهي موقع الإسراء والمعراج للرسول الكريم، وهي التي احتوت المسجد الأقصى»[177].

ومن الأندلسيين الذين قصدوا القدس لكسب ثواب الصلاة في المسجد الأقصى إبراهيم بن الحارث بن عبد الملك بن مروان الأنطي المقرئ من قرطبة (391هـ). ومثله مواطنه ومعاصره

حسن بن نسيب التميمي الذي أخذ العلم ببيت المقدس. ومنهم : مولى الأمويين المحدث الكبير محمد بن احمد بن مفرج الذي رحل إلى الشرق سنة 337هـ، فسمع فيه في المراكز الفكرية بالجزيرة العربية ثم دخل الشام حيث سمع ببيت المقدس وغزة وعسقلان وطبرية[178].

وقد أسفر قدوم الأندلسيين إلى القدس عن نَقل النتاج الفكري منها، وأشهره الحديث. ونقلوا معهم الكتب المؤلفة في تقديس أرض فلسطين عامة والقدس خاصة. [179].

جوانب من الوجود الأندلسي المغربي في القدس الوسيط : مبارك لمين

يقول مبارك لمين: «ارتبط أهل الغَرْب الإسلامي بالقدس الشريف منذ اعتناقهم الإسلام؛ لتأخذ هذه الحاضرة المقدسة، إلى جانب مكة والمدينة، مكانتها في برنامج الرحلة المشرقية للكثير من رحالة هذا الصقع الإسلامي، ومنهم الأندلسيون والمغاربة»[180].

وقد عرض مبارك لمين لمظاهر الوجود الأندلسي المغربي في القدس، وذكر منها : زيارة الحرم القدسي، والمجاورة في الحرم القدسي؛ لأن مكانة المسجد الأقصى تأتي في المرتبة الثالثة بعد مكة والمدينة.

ثم عرض للأوقاف التي وُقِفَتْ لفائدة المغاربة المجاورين[181]. ثم تحدث عن الوجود العلمي للأندلسيين والمغاربة بين الاستفادة والإفادة، فقال: «اجتذبت مدينة القدس، باعتبارها مركزا علميا، عديدا من الأندلسيين، من تخصصات علمية متباينة، ومن مدن أندلسية مختلفة. والجدول التالي يبين أسماء بعض العلماء الذين ارتحلوا إلى بيت المقدس وذكر سنة الميلاد والوفاة وسنة الرحلة والموطن والتخصص العلمي» [182]:

اسم العَلَم	السنوات (هـ)			الموطن	التخصص العلمي
	ميلاد	رحلة	وفاة		
الحسن بن أحمد الغافقي	449 هـ	471هـ	–	ميورقة	الحديث
صادق بن خلف الأنصاري	–	452هـ	470هـ	طليطلة	الحديث
عبدالله بن محمد بن العربي	435هـ	485هـ	493هـ	إشبيلية	حديث، فقه، آداب، لغة
علي بن خلف العبسي	417هـ	480هـ	498هـ	قرطبة	القراءات، الحديث
محمد بن عبدالله بن العربي	468هـ	485هـ	543هـ	إشبيلية	حديث، فقه، تفسير، كلام، تصوف
علي بن أحمد الكناني	477هـ	499هـ	569هـ	قرطبة	القراءات
الحسن بن خلف الأموي	–	–	500هـ	بلنسية	الحديث
محمد بن الوليد الطرطوشي	451هـ	–	520هـ	طرطوشة	حديث، فقه، أصول، تفسير

ويذكر لَمين أن طلب العلم كان أحد دواعي رحلة المغاربة إلى بيت المقدس؛ فإلى جانب الرغبة في تعميق التخصصات العلمية التي خرج بها الطالب من بلده، تطلَعت همة بعض الطلبة إلى امتلاك ناصية تخصصات يفتقدها الوسط العلمي المغربي، أو على الأقل تتميز بضمورها في النسيج العلمي للمنطقة[183] «ويُعَلل لمين ذلك بانفراد بيت المقدس بمجالس المناظرات بين أقطاب الديانات السَماوية، إلى جانب احتضانه مختلف الفِرق الكلامية كالكرامية[184]، والمعتزلة والإمامية والمشَبهة، إضافة إلى استيعابه التناظر بين المدارس الفقهية مثل الشافعية والحنفية»[185]. ويرى أن هذا الفضاء العلمي المتميز بالتباين العَقدي، والتنوع المذهبي، وفر للمغربي فرصة التمكن من علوم حُرم منها في بيئته العلمية المغربية والأندلسية التي يغلب عليها طابع الرتابة، أمام ضعف الرأي المخالف ومحدودية نشاطه، على المستويَيْن العقدي والمذهبي. وفي هذا الفضاء العلمي المقدسي المتميز، وَجَد أبو بكر بن العربي ضالته المنشودة، حيث عكف على طلب التخصصات العلمية التالية: علم الكلام وأصول الدين والخلاف، وأصول الفقه، والزهد، والتصوف[186] وهو ما ذُكِر آنفا في ترتيب رحلة ابن العربي.

ويذكر لمين بعد ذلك مشاركة بعض العلماء المغاربة والأندلسيين في مجال التدريس في المسجد الأقصى ومدارس القدس، مثل أبي بكر الطرطوشي»[187].

خامسا: معاهد العلم في بيت المقدس

جميع الأسس التي تقدم الحديث عليها في ترقية الفكر الإنساني لا تكتمل إلا بوجود معاهد للعلم وما يُلحَق بها من مكتبات. وقد تنوعت معاهد العلم في بيت المقدس؛ فكان منها المساجد، وعلى رأسها المسجد الأقصى، والمدارس والزوايا والرُبُط والمساطب والخوانق والمشافي[188].

وانطلق المقادسة في إنشاء المعاهد العلمية وما يُلحَق بها من حرصهم على نشر العلوم الدينية والدنيوية في أوساط الطلبة؛ ما يعمل بدوره على ترقية الفكر الإنساني مستنيرين بهذه العلوم.

وتنوع المدارس والمعاهد العلمية الأخرى يستتبع تنوع العلوم التي تُدرَّس فيها، وقد شملت علوم القرآن والحديث والفقه والتفسير واللغة والنحو والأدب والحساب والفرائض والتاريخ والطب وغيرها من العلوم[189].

ولما هاجر المقادسة إلى دمشق أنشأوا في الصالحية مدارس ومعاهد علمية، وأُلحِق بها مكتبات[190].

وليس الغرض هنا أن أذكر أسماء هذه المدارس وجميع معاهد العلم؛ فقد سبقني إلى ذلك علماء أفاضل من القدماء، وباحثون جادون من المحدَثين، ولن أُضيف جديدا إلى ما كتبوا[191]. وإنما الغرض تأكيد حقيقة علمية مؤداها أن هذه المعاهد العلمية الكثيرة تُعَدُ أساسا مهما في ترقية الفكر الإنساني كما ذُكِر آنفا.

أما المكتبات فهي كثيرة أيضا؛ إذ كل مدرسة أو زاوية لها مكتبتها الخاصة. والمقالات التي تحدثت عن مكتبات القدس كثيرة[192]. وسأقف هنا عند مسألة مهمة ذات دلالة حضارية وفكرية، وهي وقف مكتبات علماء المقادسة على طلبة العلم، تسهيلا لحاجات العلماء والدارسين في الرجوع إليها، وخوفا من ضياعها إذا عاثت فيها أيدي الورثة [193].

وتُعَدُّ مكتبة الشيخ محمد بن محمد بن شرف الدين الخليلي من أولى المكتبات الكبيرة التي وُقِفَت على طلبة العلم، ومن يرغب في الإفادة منها[194]. ويذكر محققا كتاب «تاريخ القدس والخليل» أن ما يسترعي الانتباه في وقفية الشيخ محمد الخليلي، ليس عدد الكتب الموقوفة، وإنما ديباجة الوقفية وشروط الواقف التي احتوتها؛ إذ بينت أمورا مهمة ذات دلالة حضارية: تاريخية وعلمية واقتصادية واجتماعية[195].

وقال محققا الكتاب: «مَن يُطالع شروط الواقف يجد المعايير الدقيقة والصارمة التي على المتولي اتباعها والتقيد بها للمحافظة على الكتب وديمومتها، ليحصل النفع الذي قصده الواقف منها. وهي تُشبه إلى حدٍ بعيد المعايير المعمول بها في المكتبات العامة اليوم[196].

وفيما يلي نص هذه الشروط التي تؤكد الحقيقة التي دأبت على ذكرها في ثنايا هذا البحث من أن علماء المقادسة كانوا يعملون على ترقية الفكر الإنساني بمختلف الوسائل[197]:

1 ـ ألا تُباع هذه الكتب، ولا توهب، ولا تُرهن، ولا تُهدى لأحد من الحكام أو الأعيان، ولا تُستبدَل.

2 ـ من يولى عليها يصونها ويحافظ عليها ويُلاحظها ويُراقبها، ويُجلد ما يحتاج إلى تجليد، ويرمُّ ما يحتاج إلى ترميم، وذلك من ريع الوقف.

3 ـ أن من يولى النظر عليها أن يُعير منها، ولا يُعير الكتاب بتمامه، ولا يُعير إلا لطلبة العلم المشهورين بالصلاح في بيت المقدس المجاورين بها والقاطنين فيها من أهلها، أو غيرهم على المذاهب الأربعة، إذا علم أو ظن أن المستعير قصده الانتفاع والاستفادة منها.

4 ـ من اشتُهر بتضييع الكتب أو إتلافها، أو أخّرها لا يُعيره منها شيئا.

5 ـ على المستعير متى فرغ مقصوده من الكتب المعارة أن يَردها إلى محلها، ولا يحبسها عنده لغير حاجة؛ لئلا يحتاج إليها غيره فلا يجدها، فيتعطل النفع المقصود للواقف.

6 ـ أنه شرط النظر إليه (أي الشيخ الخليلي) مدة حياته، ثم من بعده للأرشد فالأرشد من أهل العلم من الموقوف عليهم من الذكور، فإذا انقرضوا وآل الأمر إلى فقهاء الشافعية فعلى الأفقه فالأفقه، والأورع فالأورع منهم.

7 ـ أن تبقى تحت أيدي الموقوف عليهم في المدرسة البلدية ما داموا فيها، فإذا خرجوا منها تكون تحت يد الناظر في مسكنه في أي مكان كان، ولا يُخرِج منها شيئا إلا لضرورة التجليد أو الترميم.

8 ـ مَن يتولى أمر هذه الكتب أو يستعير منها عليه بتقوى الله في السر والعلانية، والظاهر والباطن، ويُراقب الله فيها، ولا يتساهل في شيء من شروط واقفها.

9 ـ أوقف الخليلي جميع ما يملكه من كتب على اختلاف أنواعها وما اشتملت عليه من العلوم الشرعية والإلهية والأدبية على نفسه مدة حياته، ثم من بعده على أولاده وأولاد أولاده بطنا بعد بطن، وطبقة بعد طبقة، وعلى طلبة العلم منهم. فإذا انقرضوا فعلى الزاوية المحمدية المشهورة في صحن الصخرة الشريفة على الفقهاء الشافعية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

الخلاصة

أُشيرَ في أثناء الحديث إلى ارتحال العلماء المقادسة في هجرتهم الاضطرارية إلى دمشق، وتأسيس مدينة العلم «الصالحية»، وما ترتب على هذه الرحلة من نتائجَ علمية باهرة. وفيما يلي أهم هذه النتائج[198]:

قال د. صلاح الدين المنجد عن هجرة المقادسة إنها «تُعَد من أروع قصص الهجرات الاضطرارية التي عرفها تاريخ الشام؛ وذلك في طريقة تنفيذها، وفي النتائج الباهرة التي نتجت عنها، والسلوك الأخلاقي النقي الذي كان يُرافقها» [199].

وقال عن استقرارهم بجبل قاسيون إنه «فتح صفحة جديدة من تاريخهم، وأنتج نهضة علمية في دمشق دامت بعدهم في آثارها قرونا طويلة»[200].

أما د.شاكر مصطفى فقد توسع في بيان النتائج الباهرة لرحلة المقادسة إلى دمشق؛ فمِن ذلك:

1 ـ أن آل قدامة المقادسة قد اجتذبوا بحركتهم العلمية النشِطة، وسمعتهم الدينية، علماء الحنابلة وطلاب المذهب مِن جميع الأقطار الإسلامية، وكان مِن أبرزهم ابن تيمية، وابن رجب[201].

2 ـ اهتم آل قدامة في الصالحية بدراسة المذهب الحنبلي ونشره، مستندين إلى قاعدة واسعة من دراسة العلوم الدينية واللغوية المختلفة. وقد عملوا عليها جميعا وبرزوا في كثير منها... فقد عملوا في تلقين القرآن الكريم، وفي القراءات والتفسير، والحديث النبوي وحفظه متنا وسندا، ودراسة صحيحه وضعيفه وغريبه ومُشكله ومعانيه[202].

3 ـ عمل جميع المقادسة في التدريس في مدارسهم ومساجدهم في الصالحية، وفي غيرها من مدارس وجوامع الأمصار في دمشق والقاهرة والإسكندرية وبغداد ونيسابور وإربل والموصل والحرمين ونابُلس وبعلبك وتدمر والرحبة والحديثة وأزرع ودومة. وبعضهم ظل يدرس نصف قرن كأبي عمر، وبعضهم ظل يُحدث ستين سنة، مثل: شمس الدين عبد الرحمن بن محمد بن قدامة، وفخر الدين علي بن محمد السعدي. كما عمل كثير منهم في القضاء والفتوى، ولاسيما في القرنين: الثامن والتاسع الهجريين. وبعضهم ظل يُفتي نيفا وخمسين سنة مثل تقي الدين سليمان القُدامي[203].

4- عمل معظم هؤلاء المقادسة في التأليف، كما اتضح من الحديث على مؤلفاتهم في هذا البحث[204].

5 - اهتم المقادسة بالكتب وإنشاء المكتبات لأنفسهم ومؤسساتهم؛ فكثير منهم يُذكر في ترجمتهم أنه حصّل الكتب الحسنة، وأنه عمل في كتابتها، وفي نسخها وتحصيل الأصول. وبعض ثروة المكتبة الظاهرية[205] في دمشق اليوم من المخطوطات آتية من الكتب التي وقفها الضياء المقدسي على مدرسته، ووقفها الآخرون على المدرسة العمرية[206].

6 - قل أن يوجد في المقادسة من لم يرحل في طلب العلم على كبار الشيوخ والحفاظ والمُسنِدين. وبعضهم كان يُطيل الرحلة ويُبعِد فيها. وقد امتدت رحلاتهم إلى أصبهان ومرو ونيسابور وبخارى وهراة وبغداد وإربل والموصل وحران وحلب، وإلى الحرمين للدراسة والحج، وإلى القاهرة والإسكندرية ودمياط، حتى أن بعضهم استقر في القاهرة، وبعضهم صار قاضيا للقضاة وشيخا للشيوخ فيها [207].

7 - رُحِل إليهم لأخذ العلم عنهم، ودراسة مذهب ابن حنبل عليهم. وكان طلب العلم في الصالحية يعني طلبه عليهم، وأخذ المذهب الحنبلي عنهم[208].

8 - لم يقتصر الأمر في الاهتمام بمختلف أنواع العلوم على الرجال المقادسة، بل شاركت النساء المقدسيات في دراسة العلوم وتدريسها. وقد سمعنَ على عديد من أقاربهن الشيوخ، وعلى غيرهم. كما سمع عليهن عدد من كبار علماء العصر، وسُجلت أسماؤهن في معاجم الشيوخ، وفي كتب التراجم والطبقات. وبرز بعضهن بروزا سامَتْنَ فيه، أو سبقن كثيرا من رجال المقادسة أنفسهم، ومن غيرهم. والجو العلمي والاجتماعي العام في ذلك العصر كان مألوفا فيه وجود عالمات وشيخات يروين الحديث، عدا الشاعرات والكاتبات. كما كان مألوفا إسماعهن والسماع عليهن. وقد ألف ابن عساكر(571هـ) الذي عاصر هجرة المقادسة إلى دمشق، وتوطنهم في الصالحية، كتابا في من سمع منهن من النساء، وكنَّ نيفا وثمانين شيخة. وبعد قرن ونيف من ذلك كتب فخر الدين علي بن أحمد بن عبد الواحد المقدسي مشيختَه في كتاب سماه «أسنى المقاصد وأعذب الموارد»، وذكر في الجزء العاشر منه خمسا وعشرين شيخة بين مشايخه[209].

وبروز النساء المقدسيات العالمات في ذلك الوقت دليل واضح على مكانة المرأة وتمتعها بالتقدير والاحترام عند رجال المقادسة، وهذا بعينه من أهم عوامل ترقية الفكر الإنساني.

9 - لم يكن العلم هو الميزة الوحيدة التي أعطت آل قدامة مكانتهم، وسمحت لهم بالبروز في المجتمع الشامي والإسلامي. ولكن التدين العميق كان الميزة الأولى والأقوى[210]. وقد نجم عن ذلك أن المقادسة أضحَوْا، في اعتقاد الناس نماذج «دينية عُليا»[211].

10ـ معظم الأجيال الأولى من آل قدامة المقادسة كانوا يَقْرِنون العلم بالعمل، ابتغاء الأجر والأسوة الحسنة؛ إذ لهم مشاركة في الجهاد، فأبو عمر وأخوه حضرا فتح القدس مع صلاح الدين، وبعضهم حضر معركة دمياط في الحملة الصليبية الخامسة، للوعظ والتحريض على الجهاد. وبعضهم ركب الخيل ولبس السلاح مع مشيخته وحضر القتال، كالقاضي أحمد بن عبد الرحمن حفيد أبي عمر(689هـ) الذي شهد فتح طرابلس وطرْد الصليبيين منها. كما ذُكر عن غير هؤلاء الاشتراك في الجهاد كضياء الدين المقدسي، أو حضور الفتوحات كعبد الرحمن بن محمد شمس الدين، وفخر الدين علي بن أحمد بن عبد الواحد[212].

وبعد:

فهذا البحث غيض من فيض العلماء المقادسة القدامى، وجهودهم في ترقية الفكر الإنساني. فإن وفقت في عمله فمن الله العون والتوفيق، وإن قصرت فمن عجزي وضعفي، راجيا أن أنال أجر المجتهد المخطئ.

أما العلماء المقادسة المحدَثون فهم كثير أيضا، وتحوج هذه الكثرة إلى بحث قائم برأسه. ومن أبرزهم: الحاج أمين الحسيني، والشيخ عبد الله غوشة، والشيخ عبد الحميد السائح، وإسحق موسى الحسيني، وأحمد سامح الخالدي، وإسعاف النشاشيبي، والشيخ محمد سليمان الصالح، ومن الذين اشتُهروا في الغرب: إدوارد سعيد، وسامي هداوي، وهنري كَتَن. والله الموفق.

الهوامش

1 جاسر أبو صفية، كلمات من القرآن، ص 274.

2 نفسه، ص 274.

3 لسان العرب: قدس؛ المعجم الأكدي الألماني (AHW)، ص 926، المعجم الأشوري الإنجليزي (CAD)، 46/13، 494؛ المعجـــم السبئي (إنجليزي - فرنسي - عربي)، ص104؛ المعجم السرياني، ص279؛ معجم النقوش السامية الشمالية الغربية (كنعاني- إنجليزي) 393/2-997، المعجم الحبشي (جعزي - إنجليزي)، ص 422-423.

4 قصيدة المقدسي في آخر كتابه، ص 498.

5 مقدمة دي جويا لكتاب أحسن التقاسيم، ص 4 - 7.

6 رحلة ناصر خسرو (بالفارسية)، ص8؛ وانظر: د. يوسف بكار، بيت المقدس كما صورها ناصر خسرو في رحلته، مؤتمر بلاد الشام الثالث، ص 329.

7 انظر : الأنس الجليل 70/1؛ إعلام الساجد بأحكام المساجد ضمن كتاب «فضائل بيت المقدس في مخطوطات عربية قديمة، د. محمود إبراهيم، ص 450 فما بعدها؛ مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام، ص 190.

8 ينظر صفحة العنوان (مخطوط)، فضائل البيت المقَدس لأبي بكر الواسطي.

9 كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي 208/1.

10 نفسه 209/1.

11 لسان العرب: شلم. معرب الجواليقي، ص 61.

12 انــظر ترسيس الكلـــــــمة في : آلهة مصر العربية 94/1؛ المعجم الأكدي الألماني (AHW)، ص 1436، 1443؛ المعجم الأكدي العربي، ص 93؛ المعجم الأشوري 17/15 (CAD)،100/1/256-257؛ معجم النقوش السامية الشمالية الغربية 11/51/2-1152؛ المعجم الحبشي، ص 499-500؛ مفاهيم صابئية مندائية، ص 267؛ لسان ظفار الحميري، ص 345؛ المعجم الجبالي (جبالي- إنجليزي)، ص229.
وللأخ الصديق د. بهجت قبيسي رأي آخر في أورشليم، يرفض أن تكون اسما من أسماء القدس، نفيا لشبهة العبرية. ولكن اللفظة لا تمت إلى العبرية بصلة. (انظر القدس في الآثار وكتاباتها العربيات المصرية والكنعانية والآرامية).

13 مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام، ص 190.

14 إعلام الساجد عن الواسطي، ضمن كتاب «فضائل بيت المقدس» ص 450-451؛ وتأصيل إليا في المعجم الأشوري 93/7 (CAD)؛ الألفاظ المعربة في لسان العرب - دراسة ترسيسية، (مخطوط) لجاسر أبو صفية.

15 تأصيل إليا في : المعجم الأشوري 379/1؛ A Manual Akkadian، p112.

16 بيت إيل في «فضائل بيت المقدس» ص 451.

17 الحديث في مسند أحمد 278/2، 53/3؛ في البخاري 76/2، بلفظ مختلف.

18 الحديث في مسند أحمد، ص 1650رقم 22676.

19 الماوردي، أدب الدنيا والدين، ص24.

20 نفسه، ص 24.

21 الماوردي، نصيحة الملوك، ص209.

22 نصيحة الملوك، ص 210؛ ومسند أحمد 196/5؛ إحياء علوم الدين 5/1.

23 نصيحة الملوك، ص 210؛ تخريج الحديث في الصفحة نفسها حاشية 440؛ إحياء علوم الدين 5/1.

24 إحياء علوم الدين 5/1؛ رياض الصالحين، بشرح صبحي الصالح، ص 752، رقم 1374.

25 رياض الصالحين، ص 154-155، و 752، 753.

26 المصدر نفسه، ص 755رقم 1379.

27 قول علي: في العقد 81/2؛ وجزء منه في نصحية الملوك، ص 211-121.

28 الحديث في: كنز العُمال في سنن الأقوال والأفعال 130/10 رقم 28651.

29 أدب الدنيا والدين، ص26.

30 نفسه، ص 28؛ وقال الشافعي في «الرسالة» ص 19، مبينا أهمية العلم الإلهي: «فإن مَن أدرك علم أحكام الله في كتابه، نصا واستدلالا، وَوَفقه الله للقول والعمل بما عَلِمَ منه، فاز بالفضيلة في دينه ودنياه، وانْتَفَتْ عنه الريَب، ونورت في قلبه الحكمة، واستوجب في الدين موضع الإمامة».

31 انظر: صبح الأعشى في صناعة الإنشا 5 142/137؛ 17/6، 165،57.

32 نفسه 139،6/5، 104/52.

33 فوات الوفيات 158/2.

34 نفسه 158/2.

35 المصدر نفسه 81/1.

36 نفسه 57/1-58.

37 ذيل طبقات الحنابلة 515/3.

38 نفسه 516/3.

39 نفسه 194/3.

40 المحب: عبدالله بن أحمد بن أبي بكر الأنصاري السعدي، محب الدين (658هـ) الذيل 61/4.

41 العز: عبدالعزيز بن عبدالملك بن عثمان المقدسي، عز الدين (634هـ) الذيل 463/3.

42 ذيل طبقات الحنابلة 197/3.

43 الحياة العلمية في القدس في القرن الثامن الهجري في ضوء كتاب الدرر الكامنة لابن حجر، ص49.

44 معجم شيوخ ابن عساكر، رقم 51، 316،323، 519،714،914؛ وانظر برنامج الوادي آشي، ص 11،31،42،43،46،48،51،53،55؛ 56،58،59 وعن شيخاته ص 99،98،97، 100؛ وانظر في شيوخ ابن حجر المقادسة: الجواهر والدرر، جـ 1ص: 203، 204،206، 208، 209،210، 214،215، 216، 217، 219،220، 221،222،223،224،225،226،227،230.

45 جهود المرأة الدمشقية في رواية الحديث، ص 395.

46 نفسه، ص407.

47 نفسه، ص 346.

48 نفسه، ص 304، 309/305.

49 نفسه، ص 305.

50 نفسه، ص 308.

51 نفسه، ص 375-377.

52 مقدمة ابن خلدون، ص 1044.

53 نفسه، ص 1044-1045.

54 الوافي بالوفيات 166/3.

55 وفيات الأعيان 287/4.
56 سير أعلام النبلاء 361/19.
57 نفسه، 136/19.
58 نفسه، 443/21.
59 ذيل طبقات الحنابلة 4/3.
60 نفسه، 5163.
61 نفسه، 199/3.
62 نفسه، 506/3.
63 نفسه، 3/ 126، وانظر رحلة موفق الدين في ذيل طبقات الحنابلة 281/3، وفوات الوفيات 158/2.
64 الذيل 341/3، الوفي بالوفيات 219/2.
65 الوافي بالوفيات 219/2.
66 جهود المرأة الدمشقية في رواية الحديث، ص 309-310.
67 الذيل 516/3-517؛ سير أعلام النبلاء 126/23.
68 ذيل تاريخ بغداد 8/15.
69 كتاب الوفيات ص 293؛ بروكلمان 303/5-304؛ فوات الوفيات 3/2،4/410.،286/427
70 الوافي بالوفيات 253/5.
71 نفسه، 402/7.
72 نفسه، 266/7.
73 نفسه، 160/7.
74 نفسه، 2/9-10.
75 سير أعلام النبلاء 66/22.
76 نفسه، 317/22.
77 طبقات السبكي 222/3.
78 جهود المرأة الدمشقية في رواية الحديث، ص 302.
79 الدرر الكامنة 344/3.
80 نفسه، 297/2-298.
81 نفسه، 140/1.
82 نفسه، 417/3.
83 نفسه، 345/2،344.
84 نفسه، 379/4.
85 القلائد الجوهرية 68/1-84.
86 بيوتات الحديث في دمشق، ص 299-312؛ جهود المرأة الدمشقية في رواية الحديث، ص 138-147.
87 المدرسة العمرية، ص 25-40.
88 كراتشكوفسكي 208/1.
89 نفسه، 209/1.

90 لامنس، المقدسي وجغرافية سورية، المشرق، 1907، ص 684.

91 كراتشكوفسكي 208/1.

92 نفسه 210/1.

93 لامنس، ص 684.

94 نفسه ص 684؛ وانظر في المقدسي: د. حسن عبدالقادر، المقدسي الجغرافي، ندوة «يوم القدس»، ص 177-190.

95 الجميز: شجر من عائلة التين، ينبت في مدن الساحل الفلسطيني.

96 دوامس: جمع داموس، وهو طبقة البناء.

97 أحسن التقاسيم، ص 162-163.

98 انظر كتاب الفوائد النفسية الباهرة في بيان حكم شوارع القاهرة في مذاهب الأئمة الأربعة الزاهرة، لأبي حامد المقدسي ؛ وانظر حول الكتاب مقالة على الإنترنت بعنوان «فقه البنيان».

99 الدرر الكامنة 363/1.

100 نفسه 275/1.

101 د. سامي خلف حمارنة، الطب العربي في فلسطين في زمن الفاطميين والأيوبيين، المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام «فلسطين» المجلد الثاني، عمان، ص 4-26.

102 نفسه، ص 4.

103 نفسه، ص 5؛ وانظر في الطبيب التميمي: د. عبد العزيز طاهر اللبدي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن سعيد التميمي الطبيب المقدسي يوم القدس، ص 191-197.

104 عيون الأنباء في طبقات الأطباء، 548.

105 نفسه، ص 587.

106 الدرر 204/3.

107 نفسه، 328/4.

108 انظر: طبقات المفسرين، ص 143، 177-178،244، 258-269،259.

109 ذيل 112/3- 113.

110 انظر: فضائل أبي عمر في : المدرسة العمرية، ص 63.

111 نفسه، ص 79.

112 الذيل 195/3.

113 نفسه، 199/3.

114 نفسه، 200/3.

115 نفسه، 515/3-518.

116 نفسه، 11/3-12.

117 نفسه، 116/3.

118 نفسه، 524/3.

119 نفسه، 3 /341.

120 نفسه، 284/3.

121 نفسه، 284/3.
122 نفسه، 284/3.
123 نفسه 285/3.
124 سير أعلام النبلاء 256/22، بصيغة مختلفة، وانظر أقوالا أخرى فيه في الذيل 243/4-245.
125 طبقات علماء الحديث، ص 15.
126 نفسه، ص 15.
127 نفسه، ص 15.
128 الذيل 191/3-192.
129 الأنس الجليل 176/2.
130 مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام، ص 299 إلى آخر الكتاب.
131 أحسن التقاسيم، ص 266.
132 نفسه، ص 7.
133 القضاء والمراكز القضائية في القدس، ص 225.
134 مختصر ترتيب الرحلة في كتاب «مع القاضي أبي بكر بن العربي»، ص 203.
135 نفسه، ص 203؛ وانظر ترجمة القاضي الرشيد في طبقات السبكي 324/4.
136 مختصر ترتيب الرحلة، ص 203-204.
137 نفسه، ص 204.
138 نفسه، ص 204.
139 نفسه، ص 204-205.
140 نفسه، ص 207-208.
141 نفسه، ص 208.
142 نفسه، ص 208.
143 نفسه، ص 208-209.
144 نفسه، ص 209.
145 آراء أبي بكر بن العربي الكلامية، ص 61.
146 تاج المفرق 254/1-255.
147 نفسه، 256/1.
148 نفسه، 256/1-257.
149 نفسه، 258/1-259.
150 نفسه، 265/1.
151 نفسه، 267/1-268.
152 نفسه، 268/1-269.
153 برنامج الوادي آشي، ص11.
154 نفسه، ص 13.
155 نفسه، ص 42-43.

156 نفسه، ص 43.
157 نفسه، ص 46.
158 نفسه، ص 48.
159 نفسه، ص 97.
160 نفسه، ص 97.
161 نفسه، ص 98.
162 نفسه، ص 98.
163 نفسه، ص 100.
164 نفسه، ص 100.
165 ينظر الجزء الثاني من برنامج الوادي آشي.
166 القدس وإشعاعها الثقافي في المغرب والأندلس، المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، المجلد الأول، ص 292.
167 نفسه، ص 292.
168 نفسه، ص 292.
169 نفسه، ص 295؛ وذكر الدكتور الهيلة رحلة أبي بكر بن العربي والطرطوشي.
170 ملء العيبة، جـ2، مقدمة المحقق، ص 36.
171 نفسه، ص 37.
172 ملء العيبة، جـ3، الاستدعاء الكبير، ص 483.
173 نفسه، ص .484
174 الاستدعاء الكبير، ص 484.
175 نفسه، ص 484.
176 القدس وإشعاعها الثقافي، ص 299.
177 أحمد بدر، الأندلسيون والمغاربة في القدس، أوراق، ص 127.
178 نفسه، ص 127-128.
179 نفسه، ص 128-132.
180 مبارك لمين، جوانب من الوجود الأندلسي المغربي في القدس الوسيط، موقع على الإنترنت: فسطاط ص 1.
181 نفسه، ص4.
182 نفسه، ص 7.
183 نفسه، ص 8.
184 الكَرامية: فرقة كلامية من أتباع محمد بن كَرام، يرون أن الإيمان هو الإقرار والتصديق باللسان من دون القلب، وابن كرام مدفون في القدس (الملل والنحل للشهرستاني) 56/1.
185 جوانب من الوجود الأندلسي المغربي ؛ ص 9.
186 نفسه، ص 9.
187 نفسه، ص 11.
188 ينظر: معاهد العلم في بيت المقدس، والحواشي لاحقا.
189 انظر في تنوع العلوم: الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى، ص 116-185؛ وبحث د. عبدالجليل

عبد المهدي في المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام: «العلوم الدينية واللسانية في ظل المسجد الأقصى في العصرين الأيوبي والمملوكي»، المجلد الأول، ص141-203؛ الحياة العلمية في القدس في القرن الثامن الهجري، الرسالة 69، الحولية الثانية والعشرين.

190 ينظر: القلائد الجوهرية 124/1فما بعدها؛ المدرسة العمرية؛ والحاشية التالية.

191 ينظر مثلا: الأنس الجليل بتاريخ القدس، والخليل؛ النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ؛ القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية ؛ الشيخ محمد الخليلي؛ تاريخ القدس والخليل؛ تراجم أهل القدس في القرن الثاني عشر الهجري؛ أسحق موسى الحسيني: مدارس بيت المقدس ومعاهدها والمعاهد المصرية في بيت المقدس؛ كامل العسلي: معاهد العلم في بيت المقدس؛ ومعلومات جديدة عن مدارس القدس الإسلامية مستخلصة من سجلات المحكمة الشرعية في القدس، وكتابه أجدادنا في ثرى بيت المقدس، ومقالة بعنوان«مساطب الحرم الشريف»؛ عارف العارف: المفصل في تاريخ القدس ؛ د. عبدالجليل عبدالمهدي: المدارس في بيت المقدس في العصرين الأيوبي والمملوكي؛ الحياة العلمية في القدس في القرن الثامن الهجري على ضوء كتاب الدرر الكامنة لابن حجر؛ د. شاكر مصطفى : آل قدامة والصالحية ومواقع كثيرة على الإنترنت.

192 من أشهر المكتبات الخاصة في القدس: مكتبة الخالدي، ومكتبة البديري، ومكتبة الشيخ محمد الخليلي، ومكتبة الشيخ عبدالمعطي الخليلي، ومكتبة السيد حسن بن عبداللطيف الحسيني؛ وانظر أسعد طلس: دور كتب فلسطين ونفائس مخطوطاتها في مجلة المجمع العلمي بدمشق، المجلد العشرون، 1945م؛ كامل العسلَي: مخطوطات بيت المقدس؛ تاريخ الوثيقة العربية - وثائق بيت المقدس المتعلقة بالكتب والمكتبات ودورها في إبراز الوجه الحضاري للمدينة المقدسة، إعداد آمنة أيوب خليل، موقع على الإنترنت (النادي العربي للمعلومات)؛ مكتبات مدينة القدس عبر العصور (موقع على الإنترنت)؛ د. محمد صالحية: وثائق الحرم القدسي، حوليات كلية الآداب، الحولية السادسة، الرسالة السادسة والعشرون، 1405هـ/ 1985م ؛ وانظر ثَبت المراجع باللغة الإنجليزية ضمن ثبت المصادر والمراجع.

193 ينظر: سلامة النعيمات: تراجم أهل القدس في القرن الثاني عشر الهجري، ص 77؛ وانظر الذين وقفوا مكتباتهم في : تاريخ القدس والخليل، ص 27-29؛ تاريخ الوثيقة العربية، ص 3-4.

194 تاريخ القدس والخليل، ص 30.

195 نفسه، ص 30؛ وانظر الديباجة ص 30-32.

196 نفسه، ص 32.

197 نفسه، ص 33-34.

198 نقلا بتصرف عن د. شاكر مصطفى ود. صلاح الدين المنجد.

199 المنجد، اللاجئون المقادسة، ص 710.

200 نفسه، ص 718.

201 آل قدامة والصالحية، ص 55.

202 نفسه، ص 57.

203 نفسه، ص 57.

204 نفسه، ص 57.

205 مكتبة الأسد اليوم.

206 آل قدامة والصالحية، ص 58.

207 نفسه، ص 58. وانظر رحلة العلماء للتدريس في هذا البحث.

208 نفسه، ص 59.

209 فسه، ص60. ومخطوطة أسنى المقاصد في مكتبتي، وهي بتخريج ابن بَلَبان المقدسي.

210 آل قدامة والصالحية، ص 61.

211 نفسه، ص 62-63.

212 نفسه، ص 64-65.

المصادر والمراجع

أ. العربية

1 آراء أبي بكر بن العربي الكلامية (العواصم من القواصم): القاضي أبو بكر بن العربي، تحقيق عمار طالبي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د.ت.

2 آل قدامة والصالحية: د. شاكر مصطفى، حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت، الحولية الثالثة، 1402هـ/ 1982م، الرسالة الرابعة عشرة.

3 آلهة مصر العربية: د. علي فهمي خشيم، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع، ليبيا، ودار الآفاق الجديدة، الدار البيضاء، ط1، 1990م.

4 أبو عبدالله محمد بن أحمد بن سعيد التميمي الطبيب المقدسي: د. عبدالعزيز طاهر اللبدي، يوم القدس «القدس مدينة العلم»، عمان، 1994م.

5 أجدادنا في ثرى بيت المقدس: د. كامل العسلي، مؤسسة آل البيت، عمان.

6 إحياء علوم الدين: أبو حامد الغزالي، دار المعارف، بيروت، د.ت.

7 أدب الدنيا والدين: الماوردي أبو الحسن علي محمد بن حبيب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1407هـ/ 1987م.

8 أعيان العصر وأعوان النصر: خليل بن أيبك الصفدي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1419هـ/ 1998م.

9 الأندلسيون والمغاربة في القدس: د. أحمد بدر، أوراق، مجلة ثقافية يصدرها المعهد الإسباني العربي للثقافة 1981/4م، ص .125-145

10 الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل: مجير الدين الحنبلي العليمي، تحقيق عدنان يونس عبدالمجيد أبو تبانة، مكتبة دنديس، عمان والخليل، ط، 1420هـ/ 1999.

11 برنامج الوادي آشي: محمد بن جابر الوادي آشي التونسي، تحقيق محمد محفوظ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1400هـ.

12 بعض المدارس الإسلامية في القدس الشريف في القرن التاسع الهجري : عبداللطيف الطيباوي، مجلة مجمع اللغة العربية، دمشق، ج2، مجلد 5، 1403هـ/1983م.

13 بيت المقدس كما صورها ناصر خسرو في رحلته: يوسف بكار، مؤتمر بلاد الشام الثالث فلسطين، القدس، 1980م.

14 بيوتات الحديث في دمشق: د. محمد بن عزوز، دار الفكر، دمشق، ط1، 1425هـ، 2004م.

15 تاج المفرق في تحلية علماء المشرق : خالد بن عيسى البلوي، تحقيق الحسن السائح، د.م، د.ت.

16 تاريخ ابن قاضي شهبة: تقي الدين أبو بكر بن القاضي شهبة، تحقيق عدنان درويش، منشورات المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق.

17 تاريخ الأدب الجغرافي العربي: كراتشكوفسكي، نقله إلى العربية صلاح الدين عثمان هاشم، لجنة التأليف والترجمة والنشر.

18 تاريخ الأدب العربي: كارل بروكلمان، دار المعارف بمصر.

19 تاريخ القدس والخليل: الشيخ شمس الدين محمد بن شرف الدين الخليلي، تحقيق محمد عدنان البخيت ونوفان رجا الحمود السوارية، مؤسسة الفرقان، لندن 1425هـ/2004م.

20 تراجم أهل القدس في القرن الثاني عشر الهجري : حسن بن عبداللطيف الحسيني، تحقيق سلامة النعيمات، عمان، 1985م.

21 تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعرف بالذيل على الروضتين.
22 جغرافية دار الإسلام البشرية : أندريه ميكيل، ترجمة إبراهيم خوري، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1983م.
23 جهود المرأة الدمشقية في رواية الحديث الشريف: د. محمد بن عزوز، دار الفكر، دمشق، ط1، 1425هـ/ 2004م.
24 جوانب من الوجود الأندلسي المغربي في القدس الوسيط : مبارك لمين، جامعة ابن زهر، المغرب، موقع فسطاط على الإنترنت.
25 الجواهر والدررفي ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر : شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن محمد السخاوي، إبراهيم باجس عبدالمجيد، دار ابن حزم، الطبعة الأولى 1419هـ-1999م.
26 الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى في العصرين الأيوبي والمملوكي : د. عبدالجليل عبدالمهدي، مكتبة الأقصى، عمان، 1400هـ/1980م.
27 الحياة العلمية في القدس في القرن الثامن الهجري في ضوء كتاب الدرر الكامنة لابن حجر العسقلاني: د. علي منصور نصر شهاب، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، مجلس النشر العلمي، الكويت، الرسالة 169، الحولية الثانية والعشرين، 1421-1422هـ/2000-2001م.
28 خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر: المحبي، مكتبة خياط، ص 133- 154، د.ت، بيروت.
29 الدارس في تاريخ المدارس : عبدالقادر بن محمد النعيمي الدمشقي، أعد فهارسه إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1410هـ/ 1990م.
30 الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، ابن حجر العسقلاني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1997م.
31 دور كتب فلسطين ونفائس مخطوطاتها : أسعد طلس، مجلة المجمع العلمي العربي، ج 20، ع 7-12، 1945م.
32 الذيل على طبقات الحنابلة: عبدالرحمن بن أحمد بن رجب، تحقيق وتعليق د. عبدالرحمن بن سليمان العُثَيمين، مكتبة العبيكان، الرياض، ط1، 1425هـ/ 2005م.
33 الرسالة: للإمام محمد بن إدريس الشافعي، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر، المكتبة العلمية، بيروت، د.ت.
34 رياض الصالحين: النووي، شرح د. صبحي الصالح، دار العلم للملايين، بيروت، ط4، 1977م.
35 سير أعلام النبلاء: الذهبي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1405هـ/ 1985م.
36 صبح الأعشى في صناعة الإنشا: القلقشندي، طبعة مصورة عن الطبعة الأميرية، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة.
37 صحيح البخاري، دار إحياء التراث العربي بيروت، د.ت.
38 طبقات الشافعية الكبرى: تاج الدين السبكي، تحقيق محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح محمد الحلو، دار إحياء الكتب العربية/ فيصل عيسى البابي الحلبي، القاهرة، د.ت.
39 طبقات علماء الحديث، محمد بن أحمد بن عبد الهادي المقدسي، تحقيق أكرم البوشي وإبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1417هـ/1996م.
40 العقد الفريد: ابن عبد ربه الأندلسي، تحقيق د. مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.
41 طبقات المفسرين : أحمد بن محمد الأدنه وي، تحقيق سليمان بن صالح الخزي، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط1، 1417هـ/ 1997م.
42 العلوم الدينية واللسانية في ظل المسجد الأقصى في العصرين الأيوبي والمملوكي: د. عبدالجليل عبد المهدي، المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، فلسطين، المجلد الأول ص 141- 203.

43 عيون الأنباء في طبقات الأطباء: تحقيق د. نزار رضا، د. ت. ابن أبي أصيبعة، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت.

44 الغزالي في دمشق والقدس: عبداللطيف الطيباوي، مجلة مجمع اللغة العربية، دمشق، مجلد 41، ص 11-99.

45 فضائل بيت المقدس: ضياء الدين المقدسي، تحقيق محمد مطيع الحافظ، دار الفكر، دمشق.

46 فضائل بيت المقدس في مخطوطات عربية قديمة: د. محمود إبراهيم، منشورات معهد المخطوطات العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ط1، الكويت، 1406هـ/1985م.

47 فكرة القدس في الإسلام : د. عبدالعزيز الدوري، مجلة شؤون عربية، 1403هـ/1983م.

48 الفوائد النفسية الباهرة في حكم شوارع القاهرة في مذاهب الأئمة الأربعة الزاهرة: أبو حامد المقدسي، تحقيق آمال العمري، القاهرة، 1988م.

49 فوات الوفيات: ابن شاكر الكتبي، تحقيق إحسان عباس.

50 القدس في الآثار وكتاباتها العربيات (المصرية والكنعانية، والآرامية): د. محمد بهجت قبيسي، محاضرة، أهدانيها مشكورا.

51 القدس في العصر الوسيط: د. رشاد الإمام، مجلة شؤون عربية، ص 57-70، 1405هـ.

52 القدس وإشعاعها الثقافي في المغرب والأندلس من خلال الرحلات العلمية: د. محمد الحبيب الهيلة، المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام- فلسطين، المجلد الأول، 1983م، ص 291-301.

53 القضاء والمراكز العلمية في بيت المقدس خلال القرون الستة الأولى من الهجرة: صبيح عبداللطيف العورتاني بغداد، 1422هـ/ 2001م.

54 القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية : ابن طولون، محمد الصالحي، تحقيق محمد أحمد دهمان، مطبوعات مجمع اللغة العربية، د.ت.

55 كتاب الروضتين في أخبار الدولتين: أبو شامة المقدسي، وضع حواشيه إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، 1422هـ، 2002م.

56 كتاب الصلة : ابن بشكوال أبو القاسم خلف بن عبدالملك -الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2008م.

57 كتاب معرفة الألقاب: محمد بن طاهر المقدسي، تحقيق عدنان حمود أبو زيد مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد، ط 1422، 1هـ/ 2001م.

58 كتاب الوفيات: ابن منقذ القسنطيني، تحقيق عادل نويهض، دار الآفاق الجديدة: بيروت، ط4، 1403هـ/ 1983م.

59 كلمات من القرآن: جاسر أبو صفية، دار الجوهرة، عَمان، ط1 1424هـ/2003م.

60 كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال: المتقي الهندي البرهان فوري، ضبطه وفسر غريبه الشيخ بكري حياني، صححه ووضع فهارسه ومفتاحه الشيخ، صفوة السقا، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط5، 1405هـ / 1985م.

61 الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة: نجم الدين الغزي، تحقيقد. جبرائيل جبور، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط2، عمان، 1985م.

62 اللاجئون المقادسة إلى دمشق بعد الغزو الفرنجي ونتائج هجرتهم: د. صلاح الدين المنجد، المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام «فلسطين» المجلد الثالث - عمان، ص 710-724.

63 المتحف الإسلامي، الحرم الشريف، القدس، تاريخه، ومحتوياته: مروان فايز أبو خلف، المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، فلسطين- القدس، المجلد الأول، ص 302-323.

64 مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام: شهاب الدين أبو محمود بن تميم المقدسي، تحقيق أحمد الخطيمي، دار الجيل، بيروت، ط1، 1415هـ/ 1994م.

65 مدارس بيت المقدس ومعاهدها: أحمد سامح الخالدي، الأديب، 1949، ص 32-37.

66 المدارس في بيت المقدس في العصرين الأيوبي والمملوكي: د. عبدالجليل عبدالمهدي، مكتبة الأقصى، عمان، 1981م.

67 المدرسة الطشتمرية في بيت المقدس 784هـ/ 1382م: د. جلال أسعد ناصر قزوح، المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، فلسطين، المجلد الأول، القدس، الجامعة الأردنية، اليرموك، ص 25-71.

68 المدرسة العمرية بدمشق وفضائل مؤسسها أبي عمر محمد بن أحمد المقدسي الصالحي: د. محمد مطيع الحافظ، دار الفكر، دمشق، ط1، 1421هـ/ 2000م.

69 مساطب الحرم الشريف: كامل العسلي، موقع على الإنترنت.

70 مسند أحمد بن حنبل، دار الكتب العلمية، د.ت.

71 مع القاضي أبي بكر بن العربي: سعيد أعراب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1 1407هـ/ 1987م

72 معاهد العلم في بيت المقدس: د. كامل العسلي، المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، عمان، 1980م.

73 المعاهد المصرية في بيت المقدس: أحمد سامح الخالدي، المطبعة العصرية، القدس.

74 معجم الشيوخ: الإمام أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الشافعي المعروف بابن عساكر، تحقيق د. وفاء تقي الدين، دار البشائر، دمشق.د.ت.

75 المعرب من الكلام الأعجمي: أبو منصور الجواليقي، تحقيق أحمد شاكر، طبعه الأفست، طهران، 1966م.

76 مفاهيم صابئية مندائية: ناجيا مرائي، بغداد، ط2، 1981م.

77 معلومات جديدة عن مدارس القدس الإسلامية مستخلصة من سجلات المحكمة الشرعية في القدس: كامل العسلي، المجلة العربية للثقافة، الندوة العالمية الأولى للآثار الفلسطينية، جامعة حلب، 1401هـ/1981م.

78 مفاهيم المفصل في تاريخ القدس: عارف العارف، مكتبة الأندلس، القدس، ط1، 1380هـ/1961م.

79 المقدسي الجغرافي البارز: د. حسن عبد القادر، يوم القدس، أبحاث الندوة الخامسة «القدس مدينة العلم» عمان، 1994م.

80 المقدسي وجغرافية سورية: الأب هنري لامنس، المشرق، السنة العاشرة، 1907م، ص .683-695

81 مقدمة ابن خلدون، دار الكتاب المصري، القاهرة، ودار الكتاب اللبناني، بيروت، 1420هـ/ 1999م.

82 المكتبة الخالدية في القدس والمحنة الصهيونية العظيمة: محمد خالد كلاب، موقع على الإنترنت.

83 ملء العيبة بما جُمع بطول الغيبة: أبو عبدالله محمد بن عمر بن رشيد الفهري السبتي، تحقيق د. محمد الحبيب بن الخوجة، الدار التونسية للنشر، تونس، 1402هـ/1982م.

84 نصيحة الملوك: الماوردي، علي بن محمد بن حبيب؛ تحقيق محمد جاسم الحديثي، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، 1986م.

85 نهاية الأرب في فنون الأدب: شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب النويري، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب.

86 وثائق مقدسية تاريخية: د. كامل العسلي، عمان، 1983م.

87 الوافي بالوفيات : خليل بن أيبك الصفدي، النشرات الإسلامية، بيروت.

88 وفيات الأعيان: ابن خلكان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، د.ت.

ب. المعجمات باللغة العربية والعروبية:

1 لسان ظفار الحميري المعاصر- دراسة معجمية: د. محمد بن سالم المعشني، جامعة السلطان قابوس، ط1، 1424هـ/ 2003م.
2 لسان العرب: ابن منظور؛ دار صادر، بيروت.
3 المشترك السامي، معجم مفردات المشترك السامي في اللغة العربية: د. حازم علي كمال الدين، مكتبة الآداب، القاهرة، 1994م.
4 الميزان (معجم سرياني- عربي): بنيامين حداد، منشورات المجمع العلمي العراقي، بغداد، 1423هـ/2002م.
5 A Comparative Dictionary of Ge'ez (Classical Ethiopic) Ge'ez - English/ English- Ge'ez : Leslau, Wolf, Otto Harrassowitz, Wiesbaden, 1987.
6 Akkadische Handworterbuch (AHW): Soden, W.Von, Otto Harrassowitz, Wiesbaden, 1965.
7 Assyrian Dictionary (CAD), Chicage, 1982.
8 Dictionary of the North- West Semitic Inscriptions:J.Hoftijzer and K.Jongeling, Brill, 1995.
9 Jibbali Lexicon: T.M.Johnstone, Oxford University Press, 1981.
10 Sabaic Dictionary: Beeston, Ghul,Muller, and Ryckmans, Librairie du Liban, Beyrouth, 1982.

جـ - المراجع باللغة الإنجليزية

1 Linda A Collection of Medieval Arabic Documents in the Islamic Museum at the Haram al- Sharif,
2 s. Northrup and Aamal
3 Abulhajj, Arabica,vol.25,1987,pp282-291.
A Manual of Akkadian: David Marcus, University press of America, 1978.
4 The Library of Fourteenth Century Jerusalem SchoIar: Ulrich Haarman, the Third Inter national Conference on Bilad Al Sham: Palestine, 1980,vol. 1 Jerusalem, 1983, pp.105-115.
5 The Significance of the Haram Documents for the Study of Medieval History: Donald p.little Der Islam,vol. 57, part 1, 1980,pp.189-219.

عالم الفكر
العدد 4 المجلد 38 أبريل - يونيو 2010

القدس بين كتابات الرحالة والأساطير العربية منذ الفتح الإسلامي حتى العهد العثماني

د. عمرو عبدالعزيز منير (*)

عتبة دخول

كثير من الرحالة والأدباء والفلاسفة الذين ارتحلوا شرقا وغربا أرادوا أن يعبروا عن تجربتهم من زاوية «مشكلة تكوين صورة»، وكان ذلك أيضا شأن المصور الفوتوغرافي الذي أراد التقاط صورة للأشياء على نحو ما هي عليه بالضبط «للآخر نفسه في واقعه الفعلي والحيوي».

وكان هؤلاء الرحالة والكتاب والأدباء يريدون الانغماس في اكتشاف الآخر وأن «يلمسوا بأصابعهم حضارات أخرى ومعارف جديدة وغريبة». وكان من شأن هذا الانغماس أن يسمح بوفرة من التفاصيل الإثنوغرافية في مؤلفاتهم وكتاباتهم، كنتائج تجربة مباشرة وقريبة مع الآخر، تطورت إلى رغبة في اتصال مباشر وفيزيقي مع الغريب والعجيب والمثير جدا!

وكان كثير من هؤلاء الرحالة والأدباء حريصين على إلزام أنفسهم بما توحي إليه مشاعرهم وأحلامهم بالتنقيب عن «القديم والجديد» في أرض الأديان والرؤى والماضي العريق، حتى إذا ما رووا ظمأ نفوسهم وخلوا إلى أقلامهم وريشاتهم، جرت انطباعاتهم السحرية خببا على أفراس الرواية والوصف والملاحظة والإبداعات الفنية والأدبية التي شكلت اللبنات الأساسية لصورة المشرق العربي بين دفات الكتابات التاريخية والأدبية والجغرافية، في تناسق حيوي وتناغم آسرين.

وقد دعم الرحالة ذلك كله بانطباعاتهم الشخصية، إن سلبا أو إيجابا، وفق الرؤى الخاصة بهم، فقد كانت عين الرحالة دائما بمنزلة آلة تصوير تسجل ما يراه غريبا جديرا بالتصوير. على حين كان الناس في عاداتهم وممارساتهم اليومية لا يرون فيه غرابة أو طرافة أو شيئا

(*) كاتب وأكاديمي من مصر.

جديرا بالتسجيل، لقد كانت ملاحظات الرحالة هي المادة الخام لكثير من علوم البشر [1]. فكان كاتب الرحلة يصور الحياة كما كان يحياها والوجود كما كان يتصوره، وقلما نرى شيئا مثل هذا في الأدب العربي النثري [2]. يقول كراتشكوفسكي: «... يكون وصف الرحلة أحيانا قصة ممتازة يسجل فيها صاحبها كل ما رآه أو ما هو جدير بالاهتمام، وكثيرا ما تبلغ مستوى عاليا من الفن والصياغة الأدبية» [3].

وهو ما نلحظه في أكثر الرحلات التي كان الشرق مسرحا لها حيث ظل الشرق العربي قبلة للعديد من الرحالة فنزحوا إليه من كل فج عميق، مزودين بقراءاتهم عنه في المصادر والمراجع الدينية والدنيوية، وفي مقدمة بلاد الشرق كانت القدس - أرض الكنعانيين العريقة - الشامخة بقداسة تربتها وثراء ماضيها فهي الأرض التي اصطفاها الله وشرفها بأنبيائه ورسله، وجعلها بداية للنور ومنطلقا للهداية وطريقا للخير، ومجَّدها بمسرى رسوله صلى الله عليه وسلم فهي أرض تحفظ مآثر لا تحصى.

فضلا عن أنها اكتسبت في مخيلة الرحالة والمؤرخين والأدباء والفلاسفة والكتاب أبعادا ودلالات اقتربت من الأسطورة والخيال، وأخذ هذا التصور يتمتع في تلك المخيلة بصفة تكاد تكون «نمطية» تنطوي على الصدق حينا، وعلى كثير من التصورات والأوهام الغامضة في أحيان أخرى، ولعل هذه التصورات التي راحت تتضخم عبر العصور هي التي اجتذبت باقة من أعلام الشرق والغرب، أدباء ومؤرخين وفلاسفة ورحالة وشعراء وغيرهم. فأقبلوا بأقلامهم وريشاتهم مشوقين إلى روائع آيات الماضي في أرض الأنبياء، بما تحمله من دلالات دينية وجغرافية وتاريخية، تمثل نمطا فريدا مفعما بالمعتقدات، والعلوم، والفنون، والسياسة، والحكم، ومحورا للعلاقات القائمة بين أفريقيا وآسيا.. بين أوروبا والشرق بين ذاكرة الماضي والواقع الفعلي، ومسرحا لأهم الأحداث التاريخية العالمية.

وتراثنا العربي الذي وصلنا من عصور التألق الفكري في رحاب الحضارة العربية الإسلامية قد ضم كثيرا من الموروث الشعبي المتعلق بالقدس بين صفحات الكتب التاريخية والأدبية وكتب الرحلات، فضلا عن الموسوعات ودوائر المعارف، المتخمة بالأساطير والمعتقدات والحكايات الشعبية، والأحاجي والألغاز والمحاورات الفكاهية والسير والملاحم البطولية والطرائف وما إلى ذلك، كلها فنون تنطوي على قيمة إنسانية ليس من الصواب الاستعلاء عليها [4].

خاصة وقد دونها لنا أعلام الثقافة العربية ربما لأنهم كانوا من اتساع الأفق ورحابة الصدر بمكان، فلم يقيموا الحدود أو السدود بين ثقافة الخاصة وثقافة العامة، أو بين أدب الصفوة وأدب العامة، في مؤلفاتهم ومدوناتهم. التي تتطلب - في حقيقة الأمر - دراسة مستقلة ومستفيضة لا تقتصر على جمع النصوص وتحقيقها فقط، بل عليها أن تستخلص أيضا ما قد تنم عليه من دلالات، وأساسيات في التفكير العربي والإسلامي، وما تفصح عنه النظرة إلى

علاقة الإنسان بالكون وأن نفتح ما نسميه بالنافذة الفولكلورية (العلمية/ المنهجية) على تراثنا المدون، الممتد طويلا في المكان والزمان العربيين، فتتجدد الرؤى المعرفية، وتتعدد القراءات، فتتجذر المناهج، وتتواصل الدراسات التاريخية والشعبية العربية، اكتشافا وتأويلا، دراسة وتأصيلا، فتتجدد الإفادة من هذا التراث بقدر ما يتنامى الوعي التاريخي والمعرفي والثقافي به، ويضيق بنا المقام لو حاولنا تتبع الخطوات العامة لأنماط عناصر ذلك الموروث الشعبي في كتب التراث العربي.

لذا تأتي هذه الدراسة لتعالج فكرة محددة فحواها أن التاريخ والموروث الشعبي وجهان متوازيان يفهم أحدهما بواسطة الآخر، ما يسر علينا أن نتخذ المنهج التاريخي والتحليلي في رصد الأساطير والحكايات الشعبية والخرافية في كتابات الرحالة والمؤرخين القدامى، وما نفذ إلى النصوص المتعلقة بالقدس من دلالات ومضامين فكرية ذات محتوى أسطوري موروث من المرحلة الغيبية السابقة التي كانت تشكل آراء التاريخ وموضوعاته على الرغم من صياغتها صياغة تاريخية فنية على يد الرواة/ الرحالة والمؤرخين غير أن أصولها لم تستغلق - في الأغلب الأعم - مستفيدا من أشتات المعلومات الدينية والتاريخية الممزوجة بالحكايات الشعبية والخرافات والأساطير المتناثرة عن القدس في بطون الكتابات التاريخية والجغرافية. في محاولة لكشف أواصره وتتبع خطاه وهو أيضا خطوة لا تخلو من نقص ضروري، يدعوني إلى مزيد من الحرص على البحث، والتنقيب والتأمل والتسلح بطموح ورغبة في الفهم والتساؤل. والذي لا يمكن معه الظن بأن موضوع القدس في الأساطير والحكايات الشعبية التي افترشت كتابات المؤرخين والرحالة وأصحاب الكتابات الفضائلية قد استكمل حقه بحثا ونقدا وتحليلا، وذلك لضيق المقام بنا لو حاولنا تتبع الخطوات العامة لأنماط عناصر الموروث الشعبي المقدسي في كتب التراث العربي ومصادره، ومع كل فإن هذه الدراسة إنما هي محاولة لدراستها يرجى أن تتبعها محاولات أكثر شمولا ومنهجية لكشف جوانب هذه النوعية من التاريخ، واقتحام منطقة بحثية معرفية تحتاج إلى كثير من جهود الباحثين العرب لاكتشاف كثير من جوانبها الخفية كشفا عربيا صرفا لا نحتاج بعده إلا إلى التواصل مع الغرب في هذا المجال كأنداد لا متلقين تابعين.

القدس واختطاف جغرافيا الأنبياء

انفردت القدس من بين كل المدن، ومخيلة الأمكنة في العالم، بأنها صارت الملتقى الروحي لأبناء الديانات الإبراهيمية، وصعيدهم المقدس. وتتميز الرؤية الإسلامية للقدس عن رؤية الديانتين المسيحية واليهودية، بأنها تحتضن الجغرافيا المقدسة لكلتا هاتين الديانتين، وتظهر التبجيل لكل ما يذكر بأنبيائهما، وما تركوا من آثار على أرضها الجليلة، حيث حمل الإسلام

نظرة منفتحة على الآخر الديني، باعتباره جزءا رئيسيا من تاريخ الوحي الواحد، ورأى في الأديان التي سبقته أحد تجليات وحي إلهي واحد، يأتي هو ليشكل ذروة اكتماله، وخاتمة له، ويصبح الوحي الذي أنزل على محمد، تبعا لهذه النظرة، متمما لرسالة من سبقه من الأنبياء، ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (البقرة: 136).

من هنا أتى تعظيم المسلمين للأديان السماوية، ولكل الأنبياء: إبراهيم وداوود وسليمان، وموسى وعيسى، كما غدت آثارهم في القدس موضع تبجيلهم الدائم، فقد ذكر القرآن إبراهيم في 27 سورة من سوره، إذ قدم الإسلام نفسه على أنه اكتمال اليهودية، والمسيحية، وعودة إلى الأصل الإبراهيمي ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (البقرة: 135)، فكان اليهود والنصارى، تبعا لذلك مسلمين إبراهيميين [5].

وينتسب محمد إلى العائلة النبوية الإبراهيمية، إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وانتهاء بعيسى ابن مريم، ولعل هذا ما دفع لوران جاسبار إلى القول: «كيف نعجب إذا أصبحت القدس مدينة إبراهيم، وداود وسليمان وزكريا ومريم ويسوع عزيزة على المسلمين» [6].

تمحورت جغرافية الإسلام الروحية حول البيت الحرام والمسجد النبوي، وبيت المقدس، في وحدة روحية شاملة، توحد بين المدن الثلاث: مكة والمدينة والقدس كعناصر تكوينية داخل قداستها، التي تشكل فيها مكة نقطة المحرق [7]. فقد أجمع الرحالة والمؤرخون وأصحاب الكتابات الفضائلية على أن الكنعانيين هم أول من سكنها، حيث بدأوا في عمارتها منذ الألف الثالث قبل الميلاد، على التلال الغربية من عين سلوان، وفي الجنوب الشرقي من الحرم القدسي، وتحيطها ثلاثة أودية: وادي سلوان ووادي النار ووادي الربابة، ويفصل الأخير ما بين جبل صهيون وتل أبي ثور، والثالث: الوادي أو الواد.

وتوسعت المدينة، فيما بعد، حتى اتصلت بالمرتفع الذي بني عليه الحرم القدسي، وهو الذي يسميه الأوروبيون جبل موريا، واتصلت أيضا بجبل أكر الذي تقع عليه كنيسة القيامة، وجبل زيتا القريب من جبل الساهرة، وجبل صهيون في الجنوب الغربي للقدس القديمة، وأطلت عدة جبال على مدينة القدس، وفي مقدمتها جبل المكبر في جنوبها، الذي دخله عمر بن الخطاب رضي الله عنه عند فتحه القدس، وسمي بجبل المكبر، لأن عمر كبر فيه عند وصوله، وجبل الطور وجبل الزيتون، الذي صعد منه المسيح عليه السلام إلى السماء [8].

وأطلق الكنعانيون على المدينة اسم «أورشليم»، قبل أن يدخلها داوود بأكثر من ألف عام، بمعنى «مدينة السلام»، ويذكر الرحالة والمؤرخون أن ملكي صادق كان أول من اختطها، وهو من الملوك اليبوسيين المشهور بحبه للسلام، ولذلك لقب بملك السلام، وجاء اسم المدينة «مدينة السلام»، أي «أور - سالم» [9]، وسالم هو اسم إله السلام الكنعاني، بينما «أور» تعني «المدينة»

باللغة السومرية، وهكذا ذكرتها التوراة باسم «أورشليم»، واليونانيون Hierorlyma والأوربيون المعاصرون Jerusalem [10]، وسماها داوود عند دخولها «مدينة داوود»، حيث تعايش اليهود مع اليبوسيين الكنعانيين، وبنى ابنه سليمان عليه السلام معبد الهيكل على موضع اشتراه من اليبوسيين، وأشرف على بنائه مهندسون فينيقيون من مدينة صور، برئاسة المهندس حيرام (سفر الملوك الأول - الإصحاح التاسع) [11] وتمثل اليهود الثقافة الكنعانية حتى أنهم اعتمدوا، في البداية، الموسيقيين والمغنين الكنعانيين، في الهيكل، ثم إن التوراة تذكر «صهيون» اسما للقدس، وهو اسم الحصن اليبوسي الذي استولى عليه داوود، وربما كان هذا الاسم مشتقا من الكلمة العربية «صهوة»، بمعنى أعلى الجبل، أو من العبرية بمعنى الأرض الجافة [12].

يحدد جاسبان مساحة هيكل سليمان عليه السلام بثلاثين مترا، ستين ذراعا طولا، وعشرين ذراعا عرضا، ويقال إنه أقيم على قسم من الصعيد الذي بُني عليه المسجد الأقصى [13]، غير أنه سرعان ما انقسمت مملكة داوود الصغيرة إلى كيانين: يهودا حول القدس، والسامرة حول نابلس، ثم ما لبث أن قُضِي على مملكة السامرة في عام (720ق.م)، وفي القرن السادس قبل الميلاد على مملكة يهودا، ثم تتالى على حكم القدس البابليون والفرس واليونان والرومان، وخلال هذه الفترة الطويلة، تمت عمارة الهيكل، وهدمه عدة مرات، وكانت أولاها التدمير البابلي له في 587 ق.م، ثم أعيد بناؤه في العهد الروماني على يد هيرودت، الوالي الروماني على القدس، بطريقة أوسع وأضخم من الأصل، وإلى هذا الهيكل صعد المسيح، حيث حاربه الصديقون، والفريسون اليهود، وفي ربيع العام 70م هدم تيطوس هيكل هيرودت هذا، ودمر أسوار مدينة القدس اليبوسية [14]، ثم أعاد تهديم ما تبقى منه ومن آثار مادريان الوثني (117 - 138م) على أن يقيم على أنقاضه معبدا لجوبيتر، وأصدر أمرا بمنع دخول اليهود إلى المدينة، بعد أن سماها «إيليا» على اسمه [15].

ولقد استمر تنفيذ أمر هادريان بمنع اليهود من دخول القدس خمسة قرون، بعد أن أكده الإمبراطور قسطنطين الذي أعلن المسيحية دينا للإمبراطورية، إلى أن ألغاه العرب المسلمون بعد الفتح العمري، إذ أطلقوا على المدينة اسم «القدس» و«بيت المقدس» والقدس الشريف، فأعادوا إليها ما ظنوه التسمية القديمة التي أطلقتها عليها الملائكة في قديم الزمان [16].

القدس بغير بديل

دخلت بيت المقدس، منذ أمد بعيد، في قلب التاريخ الروحي والزماني للوجدان الشعبي العربي - الإسلامي والمسيحي - بطريقة لا فكاك عنها. ولم يرض الوجدان الشعبي عن تسمية القدس بهذا الاسم بديلا، وهو ما نتلمس صداه عند صاحب مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام الذي خصص فصلا في كتابه تحت عنوان «كراهية تسمية بيت المقدس بإيلياء» فيذكر عن سلسلة رواة وأسانيد احتفى بها الوجدان الشعبي: «قال: لا تدعوا المدينة بيثرب، ولا بيت

المقدس بإيلياء باسم ملك من ملوك الروم سليمان بن شرحبيل» ويضيف: «حدثنا إسماعيل بن عياش عن بحير بن سعد عن خالد بن معدان، عن يزيد بن شريح قال: خرجت أنا وابن عم لي نريد الصلاة في بيت المقدس، فنزلنا على كعب الأحبار بدمشق فقال: أين تريد؟ فقلت: أريد إيلياء، فقال: لا تقل إيلياء، لكن قل: بيت الله المقدس صفوة الله من بلاده الأثر» (17). كما «أن أهل الشام وأطرافها يسمون بيت المقدس (القدس)» (18). ما يدلنا على أن الوجدان الشعبي ببساطة وعمق آسرين أكد عروبة القدس واسمها، وأن مدينته المقدس ليست ملكا لشعب فلسطين وحده، وأن أي تنازل من أي أحد عن القدس ومسمياتها ليست له حجة شرعية على الوجدان الشعبي، ليتأكد لدينا أن القدس هي وعاء فلسطين وحاملتها، وهي من أعطاها الغالب الأعم من صبغتها وأهميتها، فالقدس ليست مدينة في وطن هو فلسطين، لكن فلسطين وطن في مدينة هي القدس.

لقد فرض الوجدان الشعبي نفسه على أقلام الرحالة والمؤرخين العرب، فنظروا إلى فتح القدس كعملية تحقيق لوعد إلهي طال انتظاره، وكان من الواجب تحقيقه، وجوهر هذا الوعد هو وراثة المسلمين لمدينة بيت المقدس، بما فيها من تراث روحي ومعان مقدسة، وما تركه على أديمها الأنبياء من الأسرة الإبراهيمية، ابتداء من إبراهيم، وانتهاء بالمسيح، وأمه مريم، فحافظوا على ذكر هؤلاء، وعلى بقايا العبادات التي تذكر بهم، فتركوا لورثتهم، وإن كانوا قد انحرفوا نسبيا، تركوا لهم حرية العبادة في كنف تلك الآثار التي يشاركونهم، في تبجيلها، بعد أن نظروا إليهم كشركاء حقيقيين، في تكريس قداسة المدينة، ومنذ ذلك الحين اندرجت القدس، وإلى الأبد، في التاريخ الشعبي والروحي والزماني للعرب والمسلمين بكل ما تحمله من التراث النبوي الإبراهيمي، بطريقة لا فكاك منها، ولم ينظروا إلى النصارى واليهود، من جراء فتحهم للقدس، كمنافسين، أو خصوم، بل كمتعاضدين في مباركة المكان المقدس، الذي يتسع للجميع، ولاسيما لأهل الكتاب، ولم تعن أسلمة المدينة لهم إمحاء ذاكرة المدينة بكل ما يتصل بأنبياء بني إسرائيل، أو المسيح وأصحابه، بل كانت تعني لهم تلك الأسلمة، بما أن الإسلام نفسه متمم لديانة الوحي، والجزء الخاتم منه، والجميع يصدر عن وحي واحد، كانت تعني إذكاء الذاكرة الشعبية بهؤلاء الرموز، لذا نجدهم حتى داخل الحرم الشريف، سموا كثيرا من المواقع بأسماء داوود، وسليمان، ومريم، وعيسى، وتركوا لورثة المسيحية، واليهودية، حرية العبادة، في كنف مدينة تتسع - على ضيقها - بعبادة البشر جميعا، فقد فهموا القداسة ليس على أنها مجسدة في الحجارة المحدودة المساحة، بل إن هذه القداسة لا تلامس هذه الحجارة إلا لتجاوزها باعتبارها ترمز إلى التعالي، وتذكِّر به، وهي تتسع لعبادة ما لا نهاية من البشر، لذا فإن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما ألح عليه صوفرينوس بمنع اليهود من دخول القدس، أجابه قائلا: إن ديننا لا يسمح بذلك.

لم يقتصر الوجدان الشعبي العربي الإسلامي على وضع القدس في قلب الجغرافيا الروحية الإسلامية، كجزء لا ينفصل عنها، بل كرس هذا الوعي تصورا ضمها فيه، مع بلاد الشام إلى الوحدة الإثنية/ الأقوامية، والسلالية، والجغرافية، والتاريخية للجزيرة العربية، من هنا أتى فتح العرب المسلمين للقدس، في سياق فتحهم لبلاد الشام، كنتيجة طبيعية لتفكيرهم في الشام كوحدة إثنية جغرافية مميزة، وامتداد بشري للجزيرة العربية، لذا فإن الفاتحين توجهوا إلى المناطق التي تقيم فيها القبائل العربية، ولاسيما في جنوب سورية [19].

وكان الفلاحون الذين يسكنون المناطق القريبة من الساحل، والمناطق الجبلية، يتكلمون لهجات آرامية. كما يرتبط سكان تخوم البادية وجنوب فلسطين بصلات وثيقة بالقبائل العربية، وكذلك الفلاحون الذين يسكنون في بعض قرى تلك المنطقة، ويتكلمون العربية [20].

ربما أدى وعيهم بذلك النسيج الاجتماعي لأهل الشام أثرا مهما في عملية الفتح، وهو ما يفسر رسالة أبي بكر إلى جنوده الذاهبين لفتح الشام «فبث خيلك في القرى والسواد، ولا تحاصر مدينة من مدنهم حتى يأتيك أمري»، فإذا كانت الروابط الروحية العميقة، ومعاني وحدة الجغرافية الإسلامية، قد حفزت المسلمين على فتح القدس، فإن تصوراتهم التاريخية، والجغرافية، ومتخيلهم عن الروابط السلالية هما من أعطى لتلك الروابط الروحية بعدها الأرضي الزمني، ومنحها مصداقية تاريخية.

أسطورة طوفان القدس

يقيس المؤرخ العربي التاريخ البشري بعلامات النبوة الكبرى، وبالرسالات السماوية المتعاقبة التي نزلت على الأمم تباعا، ورتب تبعا لذلك، ثلاث دورات نبوية كبرى في التاريخ، حدد فيها التاريخ السلالي، والنبوي للبشر، الدورة الأولى تبدأ بآدم وأبنائه، وتنتهي بالنبي نوح وبنيه، الذين يفتحون الدورة السلالية/ النبوية الكبرى الثانية للبشرية، في حين تبدأ الدورة النبوية الثالثة بإبراهيم وابنيه إسماعيل وإسحاق، التي يختتمها النبي محمد، ويختم معها دورة النبوة أجمعها، ويتحدر العرب وفقا للسردية التاريخية السلالية العربية من نسل سام بن نوح، ويعزز المؤرخون هذه السردية بأقوال من النبي، كالحديث النبوي «سام أبو العرب، ويافث أبو الروم، وحام أبوالحبش» [21].

كان لحادثة الطوفان التي تصور الأقدمون وقوعها في عصور بعيدة دور مهم في الفكر التاريخي، باعتبارها حادثة تاريخية عظيمة، تركت بصماتها على ذاكرة الشعوب وتناقلتها جيلا بعد جيل، فأصبحت بحق آية للعالمين (لاسيما مع وجود محاك لها في بيئاتهم) [22]، وبقيت حية في الأذهان وفي ثقافة الشعوب المختلفة مع اختلاف في التفاصيل يزداد شيئا فشيئا كلما ابتعد عن «المركز»، موقع حدوث الطوفان، بل وحين قسم أوجسطين تاريخ العالم إلى عصور ستة في محاولة منه لتطويع الفكر التاريخي في إطار يخدم الفكرة المسيحية القائلة بعودة

المسيح لخلاص البشرية، جعل من حادثة الطوفان محورا مهما في تقسيمه للتاريخ العالمي للبشرية [23]، كما كانت للطوفان بصمته على قراءة المؤرخين لتاريخ المدن والبلدان وفي مقدمتها القدس وبلدان المشرق العربي، من خلال ذكر تاريخها وملوكها قبل وبعد الطوفان، وحين تاهت عقول مؤرخي العالم الوسيط في تفسير أسباب وجود آثار الأقدمين وما خلفته حضارات الشرق الأدني القديم لم يكن في وسعهم إلا أن يتخذوا من «طوفان نوح» تكئة يستندون إليها في شروحاتهم ويتركوا لنا هذا القدر الهائل من الغموض، والأساطير، والحكايات الشعبية.

وتتلخص الخطوط العريضة للأسطورة في نقاط تتكرر كلها مع بعض التنويعات في بقية الأساطير اللاحقة: قرار إلهي بدمار الأرض بواسطة طوفان شامل، اختيار واحد من البشر لإنقاذ مجموعة صغيرة من البشر وعدد محدود من الحيوانات. انتهاء الطوفان واستمرار الحياة من جديد بواسطة من نجا من الإنسان والحيوان [24]، وبهذا الشكل سنجد قصة الطوفان عند كثير من اليهود والمسيحيين والمسلمين، فضلا عن أن عامة الناس قد اعتقدوا بعالمية الطوفان.

وإن لم يكن اليقين كله فإن أقرب الأشياء إلى اليقين، أن يد الخيال طالت حادثة الطوفان في مدونات التوراة أو ترجماتها وتفاسيرها بإضافة تفردت بها «مدونة التوراة» دون غيرها من المصادر، فاستُغلت حادثة «طوفان نوح» والإضافة التي تفردت بها مدونات التوراة من قبل اليهود ليسوغوا لأنفسهم ارتكاب المحظورات، واستعباد الآخرين، واتهام الأنبياء بارتكاب المحظورات، واتهام الأنبياء بارتكاب الفاحشة أو بادعاء أنها بإيعاز منهم، فاتهموا نوحا بالسكر والتعري، ولعن كنعان ومباركة سام [25]، ثم أرجعوا نسبهم إلى سام بن نوح وجعلوه حكرا عليهم بغرض التأسيس للنظرية السامية والتمييز بين الشعوب والأمم على أساس سلالي عرقي عنصري بغيض.

واكتنف حادث الطوفان الغموض والخرافة في آراء من قالوا بعالميته من الرحالة والمؤرخين وغيرهم، على الرغم من عدم تصريح النصوص بذلك. فلم يكن الطوفان عالميا، ولم يكن الناجون هم نوحا وأبناءه وزوجاتهم فقط، لم تصرح الأساطير بذلك ولا التوراة ولا القرآن الكريم [26]، غير أنه يمكن القول: إن طوفان نوح حقيقة لا مراء فيها، أهلك قوم نوح، وكان طوفانا عارما، وما جاء في الأساطير والتوراة مبالغ فيه ولا ينسجم مع معطيات الواقع، وقواعد المنطق. وعلى الرغم من ذلك ظن أكثر الناس، على اختلاف عقائدهم، أن الطوفان كان عالميا، وأُسست على ذلك أكذوبة تسمى «السامية» [27]، وتاه الناس في وهم وما زالوا، كانت بدايته هوى ومطمعا فأصبح اليوم حقيقة وواقعا، لأجل حفنة من اليهود شاءوا أن يقنعوا العالم بأنهم شعب الله المختار، فعبثوا بحقائق التاريخ والجغرافيا، وعبثوا بسيرة الأنبياء الأطهار،

ليثبتوا لأنفسهم حقا غير مشروع ففعلوا، لكنهم ما كانوا ليفلحوا لو كانت العقول متيقظة واعية، وما كان للخدعة أن تستمر ردحا من الزمن لو تحرر المؤرخون من التفسير التوراتي الذي هيمن على تناولهم لتفاصيل الحادثة التي دخل منها المؤرخون إلى تاريخ الأمم والحضارات التي عاشت ونمت على أرض الشرق العربي.

يقول المقريزي: «الفرس وسائر الكلدانيين، أهل بابل والهند وأهل الصين، وأصناف الأمم المشرقية ينكرون الطوفان وأقر به بعض الفرس... ولم يعم العمران كله ولا غرق إلا بعض الناس ولم يتجاوز عقبة حلوان ولا بلغ ممالك المشرق» (28).

ويضيف في «ضوء الساري»: «وأهل الهند والصين لا يقرون بذلك، ويقول بعضهم إن الطوفان لم يحدث إلا في إقليم بابل، وما (وراءه) من البلاد الغربية فقط. فإن ولد كيومرت - الذي هو عندهم آدم - كان بالشرق فلم يصلهم الطوفان ولذلك فإن أهل الصين والهند لا يعرفون الطوفان» (29)، ويؤكد ابن خلدون في تاريخه: «واعلم أن الفرس والهند لا يعرفون الطوفان، وبعض الفرس يقولون كان ببابل فقط» (30). وأشار إلى ذلك المسعودي بقوله: «وقد ذكر أن مواضع سلمت من الطوفان، تذكر ذلك الفرس وتزعم أنها لا تعرف الطوفان وكذلك الهند..» (31)، وقال البيروني: «لم يعم العمران كلها ولم يغرق فيه إلا أمم قليلة وأنه لم يجاوز عقبة حلوان ولم يبلغ ممالك المشرق» (32).

وباتفاق في المعنى واختلاف في الألفاظ تجمع الروايات السابقة التي تناولت حادثة الطوفان على أنه كان محليا، وقضى على الهمج والخطاة، ونجا نوح عليه السلام ومن معه من ذريته، وأهله وآخرون من غير الظالمين والكافرين (33).

وعلى الرغم من لا معقولية عالمية الطوفان، فإن الاعتقاد بعالميته ووصوله إلى القدس وما حولها من البلدان ساد في أوساط الناس، والذي أوهم السواد الأعظم منهم بهذا، هو ما ذهب إليه مفسرو التوراة، حيث لم تخل تلك الروايات - بشكل أو بآخر - من تأثير الإسرائيليات التي كانت تعكس التفسير التوراتي لأصول شعوب المنطقة والتي كانت بدورها نابعة من التراث الثقافي والأسطوري لهذه المنطقة ذاتها، وانعكس ذلك التأثير في روايات الرحالة والمؤرخين في سياق حديثهم عن تاريخ البلدان والمدن، بل اتخذوا من حادثة الطوفان بابا يعرجون منه إلى فضائل القدس وعجائبها وتاريخها الموغل في القدم والمتخم بالنبوءات والإشارات الربانية المؤكدة عروبة وقداسة المدينة العتيقة.

يقول صاحب الأنس الجليل: «وكان ركوب نوح في السفينة في مستهل شهر رجب وقيل لعشر ليال مضت من رجب وكان أيضا لعشر ليال خلت من آب، وخرج من السفينة يوم عاشوراء من المحرم، وكان استقرار السفينة على الجودي، وهو جبل من أرض الموصل، وقد ورد حديث أن السفينة طافت بالبيت الحرام أسبوعا ثم طافت ببيت المقدس أسبوعا ولسنوات على

الجودي، وروي أن السفينة سارت حتى بلغت بيت المقدس فوقفت ونطقت بإذن الله تعالى، وقالت يا نوح هذا موضع بيت المقدس الذي يسكنه الأنبياء من أولادك» [34].

ولعل موتيفة تكليم السفينة تدخل في خانة الخارق المعجز حيث تتجاوز القدرة الإنسانية الطبيعية المألوفة إلى المعجزة التي لم تكتب إلا لبعض الأنبياء، وتحولها بصيغ أخرى إلى الصلحاء، والأولياء والزهاد والمجاذيب، وهو استيهام عميق يرسم للعجائبي مسارا يكشف عن تجذر الديني وأيضا الغيبي في الوعي، وانعكاس ذلك في النصوص في شكل يقين وحقائق» [35].

ما يهمنا في هذه الرواية، هو استمرار «الموروث الشعبي» في استثناء القدس وتميزها عن غيرها، كما أنها تعكس إحساس الضمير الشعبي العربي والإسلامي بمكانة القدس وعروبتها ورسالة الخير والسلام التي ستحملها إلى البشرية من خلال تعاليم الرسالات السماوية التي تخرج من رحمها، وأنها هبة ربانية اختصها الله دون سائر البلاد بالرعاية والحماية والخير. فقد وصفها الوجدان الشعبي بأنها: «البيت المقدس الذي بناه الأنبياء وسكنه الأنبياء، وما فيه موضع شبر إلا وصلى فيه نبي أو قام فيه ملك» [36]، كما نلاحظ في الروايات السابقة استخدام الأسلوب القصصي القائم على تطور الحدث وتفاصيله، والاعتماد على الحوار بين الشخصيات والمبالغة التي تثير العجب والدهشة حول «موتيفة» نطق السفينة كمعجزة إلهية تهدف إلى غرس الإيحاء بمصداقية ما يروى، وإلباسه ثوب الحقيقة على الرغم من اتجاهه الأسطوري الواضح، كما يؤكد حرص الرواة على إثارة ملكة التخيل لدى المتلقي واستمرارية عنصر التشويق لديه في السرد والوصف والحوار وتطور الأحداث.

عروبة القدس

وينقل ابن عساكر نقلا عن الشعبي، أنه بعد الطوفان، ونجاة نوح وأولاده، «قسم الأرض بين أولاده الثلاثة، فجعل لسام وسطا من الأرض، ففيه بيت المقدس والنيل والفرات ودجلة، وما بين فيسون إلى شرق النيل، وجعل قسم حام غربي النيل، وقسم يافث وراء قسم سام إلى الشرق» [37].

ويتحدر العرب، استنادا إلى ذلك، من سام بن نوح، ويُقسَّم هذا النموذج السلالي العربي إلى ثلاثة فروع: العرب البائدة، والعرب العاربة، والعرب المستعربة. والعرب البائدة هم القبائل التي بادت مثل الكنعانيين، وهم سكان القدس وفلسطين القدماء، وطسم وجديس، وعاد وثمود وأميم وعبيل وجرهم. والعرب العاربة، وهم اليمانية القحطانيون، وجدهم قحطان بن عابر المنتهي نسبه إلى العرب البائدة، ثم إن العرب البائدة، والعرب العاربة القحطانيين، هم من سلالة إرم بن سام [38].

ويشير المسعودي إلى أن أولاد إرم هم أجداد العرب البائدة، والعرب العاربة، ويشير كذلك إلى أماكن سكناهم، ومن أولاد إرم «عام كانوا ينزلون الأحقاف من الرمل، فأرسل الله لهم هودا... وثمود بن عابر بن إرم... ينزلون الحجر بين الشام والحجاز، فأرسل الله إليهم أخاهم

صالحا. طسم وجديس ابنا لاوذ بن إرم، كانا ينزلان اليمامة والبحرين، وأخوهما عمليق (كنعان) بن لاوذ بن إرم، ونزل بعضهم الحرم، وبعضهم الشام، ومنهم العماليق (الكنعانيون) وتفرقوا في البلاد» [39].

فنلاحظ أن المسعودي جعل العرب العاربة والبائدة ينتشرون في كل أقاصي الجزيرة العربية، فضلا عن بلاد الشام، بما فيها فلسطين وعاصمتها القدس، حيث إن الفرع الكنعاني العربي هو من يقطن فلسطين وبلاد الشام.

أما الفرع الثالث، أي العرب المستعربة، فهم من ذرية إسماعيل الذي زوج ابنه من جرهم (العرب البائدة) وتعلم منهم اللغة العربية، وسموهم «الإسماعيليين» أو «العدنانيين»، نسبة إلى عدنان أحد أحفاد إسماعيل [40]. ويختصر ابن كثير تقريره بالقول: «أما العرب المستعربة، وهم عرب الحجاز، فهم من ذرية إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام. وأما عرب اليمن، وهم حمير، فالمشهور أنهم من قحطان [41]»، ويحرص المؤرخ على تتبع مواقع سكنى أولاد عدنان في بلاد الشام والعراق، «فكلما كثر أولاد معد بن عدنان، ومن معهم من قبائل العرب، ومزقتهم الحروب خرجوا يطلبون الريف فيما يليهم من اليمن ومشارف الشام، ونزحت منهم قبائل حتى نزلوا بالبحرين... ثم تطلعت أنفس من كان بالبحرين إلى ريف العراق، فأجمعوا على المسير إلى العراق.... فوجدوا الأمانيين (الآراميين)، وهم الذين ملكوا أرض بابل وما يليها إلى ناحية الموصل» [42].

ويكمل المسعودي الصورة الأسطورية، عن هجرات العرب العاربة «القحطانية»: «وتفرقت قبائل العرب لما كان بمأرب... فسارت غسان إلى الشام، وهو من ولد مازن... وغلبت غسان على من بالشام من عرب فملكهم الروم على العرب... فكان أول ملوكهم الحارث بن عمر بن عامر بن حرثة بن امرئ القيس بن مازن... وكان آخر ملوكهم جبلة بن الأيهم، وقد كان منهم بالشام ملوك ببلاد مأرب (مآب) من أرض البلقاء من بلاد دمشق، كذلك مدائن قوم لوط من أرض الأردن وفلسطين... وكان لكندة وغيرها من العرب من قحطان ومعه ملوك كثيرة» [43].

تشير خلاصة هذه المرويات الأسطورية إلى أن شعوب منطقة الجزيرة العربية والشام ووادي الرافدين تشكل وحدة إقوامية وجغرافية واحدة، تصدر في تعدديتها القبلية عن أصل واحد يرتد إلى سام بن نوح، وتقع القدس في قلب هذه الوحدة الجغرافية البشرية، ويكاد الرحالة والمؤرخون العرب يجمعون على أن العمالقة (الكنعانيين)، وهم من جملة العرب البائدة، هم السكان الأوائل الأصليون لبلاد الشام، بما فيها القدس وفلسطين، فالكنعانيون - وفق ابن الأثير - هم «الجبابرة بالشام» [44].

ويذهب إلى أنه «كانت طسم والعماليق (الكنعانيون) وأميم وجاسم قوما عربا لسانهم عربي [45]». ويؤكد ياقوت الحموي عروبة الكنعانيين سكان القدس وفلسطين، بقوله: «إن كنعان

بن سام بن نوح إليه ينسب الكنعانيون، وكانوا يتكلمون بلغة تضارع العربية» [46]. ويذهب إلى أن الكنعانيين «هم أهل الشام»، ويقول: «إنما سميت الشام شاما لسكن سام بن نوح فيها، وقيل تسأمت به بنو كنعان... وكان كل ملك من بني كنعان يلقب جالوت إلى أن قتل داوود جالوت آخر ملوكهم، فتفرقت بنو كنعان» [47].

ويجمع الرحالة والمؤرخون العرب على أن اليهود عندما دخلوا فلسطين، والقدس، كان أمامهم الكنعانيون، السكان الأصليون، فعلى سبيل المثال يؤكد ابن كثير «وأما الكنعانيون فلحق بعضهم بالشام، ثم جاء بنو إسرائيل... ثم ثبت الروم على بني إسرائيل فأجلوهم عن الشام (القدس ونابلس) إلى العراق إلا قليلا منهم، ثم جاءت العرب فغلبوا على الشام» [48].

القدس وإقليمها التاريخي والجغرافي

إلى جانب تأكيد الوجدان الشعبي العربي، كما تجلى في المدونات التاريخية والجغرافية والأدبية، على الوحدة الإثنية/ السلالية، فإنه شدد على الوحدة الجغرافية التي تضم القدس إلى بلاد الشام، وحدة بلاد الشام مع الجزيرة العربية، فغدت القدس، تبعا لذلك، ومعها فلسطين، في قلب الشام، ولعل الاصطخري (ت 321هـ - 930م) والمقدسي (ت 380هـ - 992م) كانا من أوائل من صور الشام بوحدته الجغرافية الشاملة، في إطار وحدته مع بلاد الرافدين والجزيرة العربية، وأطلق المقدسي مصطلح «إقليم الشام» معبرا عن وحدة أقاليمه المكونة من البلاد الحالية، فلسطين وسورية ولبنان، فيقول: «إقليم الشام جليل الشأن ديار النبيين، ومركز الصالحين، ومعدن البدلاء، ومطلب الفضلاء، به القبلة الأولى وموضع الحشر، والمسرى، والأرض المقدسة، والرباطات الفاضلة والثغور الجليلة والجبال الشريفة ومهاجر إبراهيم وقبر وديار أيوب وبئره ومحراب داوود وبابه وعجائب سليمان ومدنه وتربة إسحاق وأمه ومولد المسيح ومهده وقرية طالوت ونهره ومقتل جالوت وحصنه وجب أرميا وحبسه ومسجد أوريا وبيته وقبة محمد وبابه وصخرة موسى وربوة عيسى ومحراب زكريا ومعرك يحيى ومشاهد الأنبياء وقرى أيوب ومنازل يعقوب والمسجد الأقصى، وجبل زيتا ومدينة عكا ومشهد صديقا وقبر موسى ومضجع إبراهيم ومقبرته ومدينة عسقلان وعين سلوان وموضع لقمان ووادي كنعان ومدائن لوط وموضع الجنان ومسجد عمر ووقف عثمان.. وباب السكينة وقبة السلسلة ومنزل الكعبة مع مشاهد لا تحصى» [49]، ونلاحظ أن كتابات الرحالة والمؤرخين مثل: الطبري واليعقوبي، وابن الأثير، وابن كثير، قد أجمعت على تصوير الشام، وحدة جغرافية على وحدة الجزيرة العربية، وقد وضعوا فلسطين التي تحتوي القدس، كأحد أقسامه، وسماه بعضهم الإقليم الأول، ويرجع ذلك ربما إلى موقع القدس الجليل في داخلها، فهذا القاضي مجير الدين يلخص الأمر بقوله: «إن الأوائل قسمت الشام خمسة أقسام: الشام الأولى فلسطين، وأوسط بلدها

الرملة، والشام الثانية حوران ومدينتها العظمى طبرية، والشام الثالثة الغوطة، ومدينتها العظمى دمشق، والشام الرابعة حمص، والشام الخامسة قنسرين، ومدينتها العظمى حلب»[(50)].

وقد وضع ابن حوقل حدودا دقيقة للشام، عندما يشير «وأما الشام فإن غربها بحر الروم، وشرقيها البادية، من إيلة إلى الفرات، ثم من الفرات إلى حد الروم، وشماليها بلاد الروم (بيزنطة)، وجنوبها مصر، وتيه بني إسرائيل، وآخر حدودها فيما يلي مصر رفح»[(51)].

أحيانا، وانطلاقا من اعتقادهم تارة بأن الكعبة مركز العالم، والقدس تارة أخرى، فإنهم وضعوا الشام على يمين الكعبة، كما هي الحال عند شهاب الدين المقدسي «إنما سميت شاما لأنها عن شمال الكعبة، كما سمي اليمن كل ما كان عن يمين الكعبة من بلاد الغور»[(52)].

القدس وصورة الأرض

ويتسق ذلك مع إيمانهم بوحدة الجغرافيا الروحية الإسلامية، التي تترابط في داخلها الكعبة في مكة، والمسجد النبوي في المدينة المنورة، مع المسجد الأقصى في القدس، ومن هنا أيضا، تلتقي المفاهيم الميتا تاريخية، وتتجاوب مع المنطلقات التاريخية، تبعا لتعقد العلاقة بين التاريخي البشري والروحي في القدس، فقبالة السردية التاريخية والجغرافية، والسلالية، هناك سردية ميتا تاريخية أو ما يمكن أن نسميها القراءة الشعبية للحدث، فلم يختلق الخيال الشعبي الأحاديث وأسانيدها فقط، بل تعدى بقريحته الشعبية وما امتلكه من ملكات ذهنية تصل به إلى حد الموهبة إلى بعض تفسيراتهم لآيات القرآن الكريم والتي يغلب عليها الجانب الأسطوري والمبالغة فيما يروى من أخبار أو روايات، سواء المبالغة في إيراد الأعداد وتقديرها أو تفسير الظواهر الطبيعية تفسيرا أسطوريا، أو تذهب في تفسيرها لبعض الآيات القرآنية لتثبيت هذا الترابط بين أطراف الجغرافية الروحية الإسلامية، ففسروا الآية ﴿**والتين والزيتون** ﴿١﴾ **وطور سنين** ﴿٢﴾ **وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ** ﴿٣﴾﴾ (التين: 1 - 3)، بأن التين: هو مسجد دمشق، والزيتون: مسجد ببيت المقدس، وطور سنين، حيث كلم الله موسى، وهذا البلد الأمين، هو مكة [(53)]، ووفقا للمرويات الشعبية التي نسبت إلى الرسول تقول: «أنزلت علي النبوة في ثلاثة أمكنة، بمكة والمدينة والشام»، فإن تفسير الشام هنا وفق أحد الرواة: هو بيت المقدس [(54)]، أي الشام الأولى في ترتيب المؤرخين والجغرافيين العرب.

ولعلنا نتلمس صدى هذا الاعتقاد في الصفحات الأولى عند ابن زولاق وفي سياق عرضه لفضائل بلده يوقف السرد ليورد سطورا تكشف عن إحساسه بمكانة القدس ومصر والشام في العالم، في إطار تصور ساذج لشكل الأرض تناقله المؤرخون والرحالة على غير روية منهم.

غير أنه يدلنا على قصور المعلومات الجغرافية في ذلك الحين، كما نستشف منه أن الأساطير والحكايات الشعبية، في ذلك الحين، قد غطت المناطق المجهولة التي لم تستطع

الجهود العقلية آنذاك أن تكتشفها فيقول: «خلقت الدنيا على صورة طائر برأسه وصدره وجناحيه وذنبه، فالرأس مكة والمدينة واليمن، والصدر مصر والشام، والجناح اليمن العراق، وخلف العراق أمة يقال لها واق الواق، وخلف ذلك من الأمم ما لا يعلمه إلا الله، والجناح الأيسر السند، وخلف السند الهند، وخلف الهند، أمة يقال لها ناسك، وخلف ناسك أمة يقال لها منسك، وخلف ذلك من الأمم ما لا يعلمه إلا الله عز وجل، والذنب من ذات الحمام إلى مغرب الشمس» (55). ويقول ابن الجوزي في المنتظم: «قال كعب الأخبار: تجد في كتاب الله عز وجل معنى التورية أن الأرض على صفة النسر فالرأس الشام والجناحان المشرق والمغرب والذنب اليمن ولا يزال الناس بخير ما لم يقرع الرأس فإذا قرع الرأس هلك الناس» (56).

غير أننا نجد الرحالة ابن حوقل (القرن الرابع الهجري) يسجل موقفه من خرافات التصور الجغرافي الذي راج في كتابات الرحالة والمؤرخين، وحاول تنزيه كتابه «صورة الأرض» عن ذكر ما لا يعقل، بل ويحسب له أنه ناقش تلك المعتقدات الجغرافية المستقرة في عصره مناقشة علمية، وانتهى إلى نقدها رافضا فكرة تصوير الأرض على شكل طائر بقوله: «فقد اتفق العلماء بمسالك الأرض وبعض الحساب المشار إليهم بعلم الهيئة، فيما تواضعوه من صفات الأرض أنها مصورة بصورة طائر، فالبصرة ومصر الجناحان، والشام الرأس والجزيرة الجؤجؤ، واليمن الذنب، وهذه الحكاية ما رأيتها قط مقررة، وإذا كان الأمر كذلك ففارس وسجستان وكرمان وطبرستان وأذربيجان وخراسان ليست من الأرض، ولا معدودة في حسابها.. وهذا قول يحتاج إلى تقرير بفهم جامع وفكر صحيح ليقف على حق ذلك من باطله...» (57)، غير أن السيوطي قد أشار إلى أن «هذا التشبيه رفعة في القدر وفخرها على البلاد كفخر العلماء على العباد» (58).

بيد أن ما يهمنا هو أن تصور موقع مصر والشام بما فيها القدس في صدر ذلك الطائر أو جناحيه دلالة على إحساس أهلها ومن عاصرهم بأهمية تلك البلاد ومحوريتها ودورها الفاعل في الواقع والوقائع.

فإذا كان الاصطفاء والتكريم مألوفا في الناس وفي الأوقات والأزمنة، فإنه وارد أيضا في الأمكنة والبلاد والأقطار، وهذا ما التفت إليه أعلام الرحالة وكثير من المؤرخين الذين كتبوا عن «فضائل البلدان»، فقد تتبعوا احتفاء القرآن بالقدس عندما ورد ذكرها فيه بصريح اللفظ أو بما دلت عليه القرائن والتفاسير، فيذكر ابن الجوزي في تاريخ بيت المقدس: «عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ هي بيت المقدس ﴿فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ الأقصى. وقوله: «حطة» يعني لا إله إلا الله بحط الذنوب». وعن أبي عبلة في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ قال هو: البقيع الذي إلى جانب طور زيتا (59).

قدر القدس في الأساطير العربية

كما احتفى الموروث الشعبي بالمأثورات النبوية التي جمعها الرحالة والمؤرخون وكتاب الفضائل عن القدس والشام، فجاءت في سيل من النبؤات النبوية تبشر بفتح الإسلام للقدس والشام، وبدورها في دولة الإسلام.

والتي ربما أثرت الروابط المبكرة للعرب في ما بين الجزيرة العربية وبلاد الشام الخاضعة للروم، فضلا عن الروابط الروحية بالقدس، في إفراز إيماءات عميقة عن روابط المسلمين بمصير الشام ومصر عموما، ومصير القدس خصوصا، فيروي الموروث الشعبي عن معاوية بن قرة عن أبيه «أن الرسول قال: إذا هلك الشام، فلا خير في أمتي [60]». كما تذهب مرويات أخرى تعد من ذخائر الموروث الشعبي التي كانت تلبي حاجة ثقافية/ اجتماعية في المجتمع العربي آنذاك، في طريق التبشير النبوي بفتح القدس والشام، كالحديث المروي عن معاذ، أن رسول الله قال: «يا معاذ إن الله عز وجل سيفتح عليكم الشام من بعدي، من العريش إلى الفرات، رجالكم ونساؤكم وإماؤكم مرابطون إلى يوم القيامة، فمن اختار منكم ساحلا من سواحل الشام، أو بيت المقدس، فهو جهاد إلى يوم القيامة [61]». كما نتلمس إشارات من جانب الوجدان الشعبي العربي في الكتابات التاريخية، ومؤلفات الفتوح والمغازي، إلى جانب المرويات الشعبية التي تتخذ من الأحاديث النبوية تكئة أمام ملأ المسلمين لتعضيد موقفها الوجداني في تبشيرها بفتح القدس والشام، فتلمح إلى أن النبي اتجه فعليا في نهاية حياته نحو فتح الشام، وهو ما يظهر من خلال المبادرات التي اتخذها إزاء القبائل العربية النازلة فيها، ومهد النبي لنشر الإسلام عن طريق التراسل مع زعماء القبائل العربية الشامية الحدودية، وقد توصل إلى كسب صاحب إيله (العقبة)، وإلى عقد صلح مع أهل جرباء وإذرع، وهو ما فتح أبواب الشام، وبعث روح المقاومة في نفوس العرب [62]، ولقد اعتبرت بعض المصادر غزوة «دومة الجندل» التي جرت في العهد النبوي أولى غزوات الشام، وكانت غزوة «مؤتة» بداية الصراع بين المسلمين وبيزنطة لتفتح بلاد الشام، وجهز حملة بقيادة أسامة بن زيد لإنفاذه إلى الشمال نحو الشام، وتوفي النبي قبل مسير حملة أسامة، فما كان من أبي بكر إلا أن أنفذها [63].

ويأتي كتاب أبي الحسن علي بن حمد الربيعي المالكي (ت 444هـ) شاهدا على تلك النزعة الشعبية التي تحتفي بالمأثورات النبوية، إذ تضمن قسما خصصه الربيعي لفضائل القدس، في سياق حديثه عن الفضائل، بوصف القدس هنا مركزا للقداسة الشامية، وقد قرأ الربيعي كتابه هذا في مسجد دمشق سنة 435هـ [64]، وتألف كتاب الربيعي من ثمانية عشر بابا، أولها مخصص لفضائل الشام، والبقية في فضائل دمشق، ومن الملاحظ أن كثيرا من الأحاديث التي يوردها عن دمشق والشام، فسرها المفسرون على أنها تشير إلى القدس، مثل الحديث الذي يورده عن أبي ذر «الشام أرض المحشر والمنشر»، أو الحديث المروي عن زيد بن ثابت أنه سمع

النبي يقول: «يا طوبى للشام، يا طوبى للشام، يا طوبى للشام. قال يا رسول الله وبم ذلك؟ قال: تلك ملائكة الله باسطة أجنحتها على الشام [65]». ويروي في باب «ذكر ما ورد في دمشق»، أن قتادة فسر آية ﴿والتين والزيتون﴾ أن «التين جبل دمشق، والزيتون جبل يقع عليه بيت المقدس» [66]، وفي حديث آخر، نسب إلى داوود بن أبي هريرة، «قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): أربع مدائن من مدائن الجنة في الدنيا: مكة والمدينة وبيت المقدس ودمشق» [67]. فيجمع الشام بالمدن المقدسة الثلاث التي تشكل الجغرافيا الروحية للمسلمين، كما يذكر عن سفيان الثوري الحديث «الصلاة في مكة بمائة ألف صلاة، وفي مسجد رسول الله بخمسين ألف صلاة، وفي بيت المقدس بأربعين ألف صلاة، وفي مسجد دمشق بثلاثين ألف صلاة [68]». ولعل مباركة الشام ودمشق هنا هي امتداد لمباركة مدينة القدس، وذلك تفسيرا للآية ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: 71).

تلك المرويات التي اتخذت مسحة إسلامية تعكس بالضرورة أصداء اعتقاد الوجدان الشعبي العربي المسلم أن فتح الشام والقدس كان قدرا مكتوبا اختصهم به الله كما تكشف لنا عن جانب من الأفكار العامية السيارة والشائعة عن بيت المقدس يومئذ، في إطار من المعتقدات والعادات والتقاليد التي سادت الخريطة الثقافية للمشرق العربي في ذلك الوقت. كما أن تلك المرويات كانت ترضي حاجة اجتماعية/ثقافية لشرائح بعينها في المجتمع العربي والإسلامي، خاصة في سياق فترة الفتوحات الإسلامية، وما أيقظته من شعور في الأمم المختلفة التي غلبت على أمرها، ما جعل لها تكئة لانتحال الحديث وإرجاعه إلى الرسول. وإيجاد ما يعزز صلتهم بالإسلام، وتقيم لنفسها أمام ملأ المسلمين حجة ناهضة، تدل على فضل ومكانة أمصارهم ومدنهم على بقية المدن والأمصار الأخرى.

ومن هنا تبادلت الرواية التاريخية والرواية الميتا تاريخية التأثير والتكامل في تفسير الصلات العميقة التي تربط إقواميا وجغرافيا، وروحيا، بين القدس ومكة والمدينة المنورة، والترابط بين الشام والجزيرة العربية تاريخيا وإقواميا وجغرافيا.

المادة الفولكلورية التي تدور حول «فضائل القدس»

شهد القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي بروز مراكز ثقافية عديدة متنافسة على امتداد العالم الإسلامي، كما ازدهر النشاط العلمي والفكري في مصر وبلاد الشام والقدس والمغرب والأندلس، فضلا عن بلدان المشرق الإسلامي، وكان علم التاريخ واحدا من ميادين المنافسة، وتمثلت النتيجة النهائية في ظهور التواريخ المحلية، التي تتحدث عن تواريخ البلدان، ثم ظهرت تواريخ المدن التي ذاعت وانتشرت على مدى عصور الثقافة العربية والإسلامية، فقد وجدت حاجة ثقافية/ اجتماعية جديدة وهي منافسة المراكز الثقافية في مختلف أنحاء دار الإسلام، وكان المسلمون قد صاروا منذ القرن الثالث الهجري أغلبية في البلاد المفتوحة، وأخذت كل جماعة تحاول إبراز فضائل البلد الذي تنتمي إليه [69].

وهنا نجد أن الكلام عن فضائل البلدان كان نوعا من التأليف جمع بين التاريخ والأساطير والموروث الشعبي، فضلا عن الأدب والدين، الذي كان إفرازا للتفاعل القائم بين ما جاء به الإسلام واللغة العربية، والموروثات الثقافية المحلية. في كل مصر من أمصار دار الخلافة والذي كان قد نضج بالقدر الذي جعل لكل بلد شخصيته الثقافية المتمايزة داخل الإطار العام للثقافة العربية الإسلامية كلها (70).

وجرت العادة بين أغلب أصحاب ذلك النوع من التدوين التاريخي في العصور المختلفة، أن يبدأ بعدة فصول تدور كلها حول فضائل المصر أو المدينة، كم مرة ذكر في القرآن الكريم؟ وفي الأحاديث النبوية؟ من نزله من الصحابة والتابعين؟ ثم ينتقل المؤرخ إلى سرد تاريخه منذ بدء الخليقة. وهنا تؤدي الأساطير دورا بارزا وتفعل فعلها في الواقع والوقائع. وعلى الرغم من أن كثيرا من الرحالة ومؤرخي البلدان والفضائل قد دخلوا إلى صميم «فضائل القدس» من بوابات القرآن والأحاديث، فإن باب الأسطورة ظل مفتوحا لم يغلقه أحد إلا القليل.

وتشير المصادر التاريخية إلى أن الكتابات المتعلقة بشأن «فضائل» القدس، لعل أول كتبها، قد ظهرت في القرن الثاني الهجري، الثامن الميلادي، غير أنها فقدت، فيشير إليها حاجي خليفة بقوله: «إن أبا حذيفة إسحاق بن بشر القرشي البخاري (ت 206هـ) ألَّف كتابا بعنوان «فتوح بيت المقدس» في القرن الثاني الهجري، الذي يوحي أن صاحبه كان ملما بأخبار فتح القدس، وما أحاطها من روايات، ومن اشترك فيه من الصحابة» (71). وأعقبه موسى بن سهل الرملي (ت 261هـ) في القرن الثالث الهجري، إذ ألَّف كتابا في فضائل القدس، كما يذكر أنه في القرن الرابع الهجري ظهر كتاب لأحمد بن خلف السبحي بعنوان يجمع بين المدن المقدسة الثلاث: «وصف مكة شرفها الله وعظمها، ووصف المدينة الطيبة، ووصف بيت المقدس المبارك وما حوله» ويقصد هنا ما «حوله» أرض الشام، التي أصابتها المباركة المركزة على بيت المقدس، وأيضا هناك كتاب «من نزل فلسطين من الصحابة»، الذي عثر على مخطوطته أخيرا، أما الكتب الأخرى فلم يعثر عليها إلى الآن (72).

واتسمت تلك المدونات «الفضائلية»، باهتمامها بإبراز مميزات المدينة: تاريخها، جغرافيتها، زراعتها، حيواناتها، وأهم من ذلك، حال سكانها: لغاتهم، وعاداتهم، أديانهم، وتكاد تقترب بعض الدراسات للبلدان من الدراسة الإنثروجرافية، أو الإنثروبولوجية (73).

الموروث الشعبي المتعلق بالشخصية المقدسية

وترك لنا الرحالة والأدباء والفلاسفة صورا حية وصادقة عن مدينة بيت المقدس: الإنسان والحضارة والأرض. فجاءت كتاباتهم بمنزلة وصف تصويري للقدس نابعا من واقع المشاهدة والتجربة الذاتية، ما جعل من سطور كتاباتهم «أتم صورة ترسم حتى الآن لحياة المدينة المقدسة في العصور الإسلامية» ليس باستخدام اللغة التصويرية المجازية فقط، بل بفضل الوصف

البسيط الواضح الذي استخدمه كثير من الرحالة والأدباء الذين جعلوا الأشياء تتمثل حية أمامنا. فيصف المقدسي في كتابه أحسن التقاسيم أهل بيت المقدس في عبارة شعبية بليغة شاعت في عصره فيقول: «وكقولنا: ولا أعز من أهل بيت المقدس، لأنك لا ترى بها بخسا ولا تطفيفا ولا شربا ظاهرا ولا سكران ولا بها دور فسق سرا ولا إعلانا مع تعبد وإخلاص. ولقد بلغهم أن الأمير يشرب فتسوروا عليه داره وفرقوا أهل مجلسه»[74]. ويصف ما تميزت به القدس فيقول: «وبمكة فصاحة، وبمرو دهاة، وصنعاء طيبة الهواء، وبيت المقدس حسنة البناء» [75].

ومن تلك الصور البديعة التي نجدها في كتابات الرحالة والمؤرخين في سياق حديثهم عن عادات وتقاليد أهل بيت المقدس، والتي ظلت إلى وقت قريب لديهم، والتي اشتركت فيها جميع الطوائف من مسلمين ومسيحيين ويهود، عادة إخفاء بعض النقود تحت الأرض، فالاكتشافات الحديثة قد أظهرت أن هذه العادة قديمة، كما كُشِف عن كثير من العملات وبكميات كثيرة، خصوصا القيمة الصغيرة التي وجدت حول بيت المقدس وغيرها من المدن، فقد جرت العادة بأن يخفي الناس هذه النقود داخل أوان فخارية، خشية سطو اللصوص من الحكام عليها، وربما نظروا إلى كثرة تعرضهم للإغارات والمصادرات التي تكرر بكثرة في عصر سلاطين المماليك الجراكسة (784هـ - 922هـ/ 1382م - 1517م). ومن المرجح أن هذه العادة كانت منتشرة بشكل واضح بين سكان القرى حول بيت المقدس، وربما رجع ذلك إلى فقرهم وتعبهم في الحصول على تلك النقود، ما جعلهم يعتزون بها ويتفننون في إخفائها [76] تحسبا لنوائب الدهر.

هذه النظرة المستقبلية الواعية ضد عاديات الزمن تجذرت في الوعي الشعبي لأهل بيت المقدس فغذتها قريحتهم بكثير من الأمثلة الشعبية المملوءة بعصير التجربة الحياتية فيقولون: «قرش الصبا وابن الصبا بتعوضوش» فالقرش الذي يدخره الفرد في شبابه تماما كالابن الذي يأتيه وهو في صباه لا يمكن تعويضهما وفقا للناموس والتجربة الشعبية، وذلك لقيمتهما الجزيلة في شيخوخته [77]. وكذلك إيمانهم بأن: «القرش الأبيض بينفع في اليوم الأسود»، ولتأكيد مستقبل مشرق لهم ولأولادهم تراهم يجدون في البناء كما يهتمون بفلاحة الأرض ويعتبرون في ذلك سعادة يفتخرون بها بين الناس كما يعتز الآخرون بمثل هذه الفئة بقولهم: «يا بخت من بنى وعلّى وراح وخلّى» [78].

ويمكن القول: «إن تلك الأمثال الشعبية قد تولدت من المكابدات واحتكاك المشاعر بالمواقف واصطدام المواقف بالموروث العقائدي، فاكتسبت الأمثال قوة القانون وشرعية الشريعة، وتحولت إلى عملة متداولة تكون في كثير من الأحيان أقوى من العملة النقدية» [79] التي اعتاد أهل بيت المقدس أن يخفوها عن الأعين والتي تتشابه مع عاداتهم في الحرص على إنشاء الآبار بنوعيها (آبار جمع المياه وآبار خزن الغلال) فلا يخلو بيت مقدسي أو مدينة أو قرية فلسطينية منها حتى مدة ليست بالقصيرة. كما خلفوا وراءهم السدود

والقنوات في مدن الجنوب الفلسطيني والتي تؤكد حرصهم على الاحتفاظ بكل قطرة من الماء وكان على رأسهم العرب الأنباط الذين عرفوا كيف يستنبطون الماء من قاع الأرض وحفروا «المطمورة» بالإضافة إلى البئر لخزن الغلال وبنوا في المنزل «الباكية» للغرض نفسه. وقالوا: «خزين الصيف بينفع في الشتا». وأشار صاحب الأنس الجليل إلى وجود برك بالمدينة أُنشئت لهذا الغرض بقوله: «وكان في بيت المقدس ست برك عملها حزقيل أحد ملوك بني اسرائيل منها ثلاث في المدينة: بركة بني إسرائيل وبركة سليمان وبركة عياض، وثلاث خارج المدينة: بركة ماملا وبركتا المرجيع، جعلت تلك خزائن للماء لأهل بيت المقدس» [80]، وعنها يقول الرحالة القزويني: «وفيها عمارات كثيرة حسنة وشرب أهلها من ماء المطر: ليس فيها دار إلا وفيها صهريج» [81]، ويضيف المقدسي عن طرق شرب أهل بيت المقدس: «والماء بها واسع ويقال ليس ببيت المقدس أمكن من الماء والأذان، قل دار ليس بها صهريج وأكثر، وبها ثلاث برك عظيمة: بركة بني إسرائيل وبركة سليمان وبركة عياض، عليها حماماتهم، لها دواع من الأزقة وفي المسجد عشرون جبا متبحرة، وقل حارة إلا وفيها حب مسبل غير أن مياهها من الأزقة، وقد عمد إلى واد فجعل بركتين تجتمع إليهما السيول في الشتاء وشق منهما قناة إلى البلد تدخل وقت الربيع فتملأ صهاريج الجامع وغيرها» [82]، ويعلق الرحالة اليهودي بنيامين التطيلي (القرن السادس الهجري) على طريق شرب أهل بيت المقدس بقوله: «وغالب أهل القدس يشربون ماء المطر يجمعونه في صهاريج معدة لهذا الغرض في البيوت» [83]، وقد أشار الرحالة المدجن في القرن الثامن الهجري إلى أن: «الحرم القدسي كان يجيئه الماء من جبال الخليل لكن ضعفت الملوك وخربت الساقية بعد أن كان الماء يجري في جميع الحرم المقدس واليوم فيه أجباب كثيرة من ماء الثلج والمطر ما يكفي مدينة بيت المقدس خمسة أعوام» [84].

تلك الممارسات والعادات الشعبية تساعدنا في كشف التطور التاريخي والاجتماعي لشخصية أهل بيت المقدس خاصة والشخصية الفلسطينية عامة التي عمدت إلى إخفاء ما تراه ذا قيمة لديها بعيدا عن أعين الناس والولاة والحكام لتتجلى لنا بعض القسمات والملامح التي تبرز شخصية الناس في القدس وفلسطين بكل مقوماتها بين الشخصيات الجماعية الأخرى، وتكشف عن مدى الخوف والكبت اللذين دفعا الناس إلى عمل الحفر العميقة لإخفاء أموالهم. والذاكرة الشعبية لم تنس بعد الحكايات الكثيرة، عن القدور التي يعثر عليها فجأة، وفيها سكة الذهب والفضة التي ضربت في عصر بيننا وبينه قرون وقرون، ولا تزال ألسنتنا تستعمل إلى اليوم عبارات تدل على هذه الصورة، وهي «إخراج ما تحت البلاطة» [85]، وكأن هذه الحيلة نتيجة ظروف تاريخية، ووسيلة حماية مقصودة، وتتصل بالتطور التاريخي للقدس وفلسطين - التي وقع في وجدانها أيام احتكر القلة رزقها وأيام اغتصب

الطغاة والبغاة من الأجانب أرضها - وهذا ما يزيد من أهميتها بوصفها جزءا من تطور الظروف السياسية والاجتماعية والثقافية للقدس وفلسطين (86).

ولعل العثور على تلك النقود داخل أوان فخارية في بيت المقدس يرجع إلى بقايا تقليد شعبي قديم عند إقامة دار جديدة للسكن أن تدفن تحت عتبتها قدر بها بعض العملات أو غيرها بغية التبرك وجعل الدار دار سعادة، أو بمعنى آخر فداء للدار عند أسياد الأرض من أهل الجان بالمال المكتنز في قدر، وفي بعض القصص الشعبي يرد في كثير منها ذكر الكنوز المخبأة في القدور المدفونة تحت العتبة (87).

القدس... العقوبة والتطهير

ومن عادات أهل بيت المقدس التي لفتت أنظار بعض الرحالة الأجانب، أنه كان في وادي اليوسيفات عين ماء تسمى «نبع العذراء» أو نبع النساء المتهمات، حيث جرت العادة على تسميتها بذلك، وعلى أن يجري بها نوع من الاختبار لمن تتهم من النساء بعدم الطهر والشرف، فمن تشرب من ماء تلك العين وتكن مذنبة تمت (88)، أما إذا كانت بريئة فإنها لا تصاب بأي أذى أو ضرر، ومما يؤكد أن هذه العين وتلك العادة قديمتان ما يرويه مجير الدين عنها بقوله: إنها كانت تسمى «عين المقذوفات»، وهي معروفة منذ زمن بني إسرائيل وكانت بالقرب من عين سلوان. ويقول: «عن سعيد بن عبدالعزيز إنه قال: كان في زمن بني إسرائيل في بيت المقدس عند عين سلوان عين وكانت المرأة إذا قذفت أتوابها إليها فشربت منها فإن كانت بريئة لم يضرها وإن كانت غير بريئة طعنت فماتت، فلما حملت مريم عليها السلام أتوا بها وحملوها على بغلة فعثرت بها فدعت الله أن يعقم رحمها فعقمت من يومئذ فلما أتتها وشربت منها لم تزدد إلا خيرا فدعت الله ألا يفضح بها امرأة مؤمنة فغارت تلك العين من يؤمئذ» (89).

ولعل فكرة العقوبة والتطهير المرتبطة بعين المقذوفات نجدها شائعة في التراث الأسطوري لشعوب المنطقة العربية القديمة (السامية)، حيث نجد أن كل شعب أو قبيلة أو رهط أو قوم يحمل معه أسطورته التي دفعت به إلى الوجود، وأحلته محلته، ورسمت لبعضهم أرض ميعاده، وإذا عدنا إلى كتاب التيجان، أخبار عبيدة بن شرية الجرهمي نجد أن عادا ينسب إلى نوح، وكان له عشرة أولاد منهم شداد أول ملوكها الذي بنى مدينة إرم ذات العماد التي استحقت العقاب الإلهي، ثمة حكايات عن إرم تناولها الأجداد والقصاصون الشعبيون، والشعراء والأدباء. بل انعكست فكرة التطهير على تفسير معنى واسم مدينة بيت المقدس في كتابات المؤرخين والرحالة وأصحاب فضائل البلدان، فيقول صاحب الأنس الجليل: «وبيت المقدس، بفتح الميم وسكون القاف، أي المكان المطهر من الذنوب واشتقاقه من القدس، وهي الطهارة والبركة، فمعنى بيت المقدس هو المكان الذي يُتَطهر فيه من الذنوب، ويقال المرتفع المنزه عن الشرك، والبيت المقدس بضم الميم وفتح الدال المشددة، أي المطهر، وتطهيره إخلاؤه من الأصنام» (90).

ومن تراث هذه المنطقة الحكائي، أسطوريا كان أو تاريخيا، دينيا أو شعبيا، ثمة تركيز على عملية تقويم وتطهير مستمرة تقوم على فكرة الجزاء: الذنب والعقاب، الخير والثواب، هذه الركيزة الأخلاقية، واستعجال الحساب في الدنيا، لم يلغها الإسلام بل أكدها، وفصَّل فيها ألوان الثواب والعقاب في الآيات والأحاديث، وسواء فسرت هذه النصوص بمدلولها اللفظي - المادي الواقعي، أو بمد مدلولها الرمزي المعنوي - فإنها لا تخرج عن هذا الإطار، لقد استحق آدم الهبوط إلى الأرض لذنب العصيان، وأصبح وجه حام أسود مع نسله الزنوج لأنه نظر إلى عري أبيه، واستحق قوم نوح وعاد وثمود العقوبة الجماعية لأنهم ضلوا وأضلوا وعتوا في الأرض مفسدين، وعلى البحر الميت ضربت سدوم وعمورة وخرج لوط مع ابنتيه واحتمى بالمغارة ونسل منهم - كما تورد الإسرائيليات - المؤبيين بداة الأردن، والعموريين القبائل الزراعية فيها، ويقال إن موسى حرم على الإسرائيليين قتال المؤبيين والعموريين لأنهم عبريون من نسل لوط، على عكس ما أوصاهم بالنسبة إلى الحثيين والآموريين والكنعانيين. جاء في سفر التكوين «أما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيبا فلا تستبق منها نسمة». هكذا تصبح العقوبة عند يهوه الإله اليهودي نتاجا لشهوة الدم والإفناء للشعوب غير الإسرائيلية، ويقوم بحمل هذا الأمر اليهوي شعب يحترف القتل ويقدس المدنس [91].

الأساطير والحكايات الشعبية التي تناولت آبار وعيون القدس المائية

على الجانب الآخر نجد أنه كان للعيون المائية والآبار في القدس سحرها وعجائبيتها، بل ورهبتها في النفوس على مر العصور، وقد حظيت بعض الآبار والعيون بشهرة تاريخية ودينية كـ «عين سلوان» التي اعتقد الناس في قدسيتها والتي اكتسبتها من المرويات التي أبدعتها القريحة الشعبية بملكاتها الذهنية التي تصل بها إلى حد الموهبة في حياكة القصص الشعبي المدعم بالأدلة والبراهين التي لا جدال فيها والتي قد يعد الاقتراب منها ونقدها من المحاذير الكبرى. ويعلل ابن الوردي تلك القداسة التي أحاطت بعين سلوان فيقول: «وبهذا الخندق عين سلوان، وهي التي أبرأ فيها المسيحُ الضريرَ الأعمى بإذن الله» [92].

ويقول صاحب الأنس الجليل تحت باب «ذكر عين سلوان وغيرها مما هو بظاهر القدس الشريف»: «أما عين سلوان فهي بظاهر القدس الشريف من جهة القبلة بالوادي يشرف عليها سور المسجد القبلي وروي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي (صلى الله عليه وسلم) أنه قال إن الله اختار من المدائن أربعا: مكة وهي البلدة والمدينة وهي النخلة وبيت المقدس وهي الزيتونة ودمشق وهي التين، واختار من الثغور أربعة: إسكندرية مصر وقزوين خراسان وعبدان العراق وعسقلان الشام، واختار من العيون أربعا فيقول في محكم كتابه العزيز: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾، وقال: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ فأما اللتان تجريان فعين بيسان وعين سلوان، وأما النضاختان فعين زمزم وعين عكا، واختار من الأنهار أربعة: سيحان وجيحان والنيل والفرات. وعن خالد بن معدان

إنه قال زمزم وعين سلوان التي ببيت المقدس من عيون الجنة، وعنه أنه قال من أتى بيت المقدس فليأت محراب داوود وليصل فيه وليسبح في عين سلوان فإنها من الجنة ولا يدخل الكنائس ولا يشتر فيها فإن الخطيئة فيها مثل ألف خطيئة والحسنة مثل ألف حسنة» (93).

وعنها يقول الموروث الشعبي: «سلوان محلة في ربض بيت المقدس تحتها عين غزيرة تسقي جنانا كثيرة وقفها عثمان بن عفان على ضعفاء بيت المقدس، قالوا: إن ماءها يفيد السلو إذا شربه الحزين ولهذا قال رؤبة: لو أشرب السلوان ما سلوت» (94)، وعنها يقول الرحالة ناصر خسرو: «ويمر ماء هذه العين بقرية شيدوا فيها عمارات كثيرة وغرسوا بها البساتين ويقال إن من يستحم من ماء هذه العين يشفى مما ألم به من الأوصاب والأمراض المزمنة وقد وقفوا عليها مالا كثيرا» (95).

إن موارد المياه عند الإنسان الديني مكان مقدس، فالمكان في مفهومه غير متجانس دنيويا ودينيا. وإن شعائر دينية معينة تستمر في الحياة، وتقع موارد المياه من ضمنها، تحافظ على قدسية هذه الموارد، كنبع زمزم، وأفضل هدية مباركة يحملها الحاج شيء من ماء هذا النبع، ولهذ ربما حاول الوجدان الشعبي المقدسي أن يربط بين قدسية ماء زمزم وبين بعض العيون الواقعة في بلده التي تتيح لها أن تجد مكانا ونصيبا من تلك القدسية الدينية.

وجاءت رؤية الناس لعيون الماء بالقدس مثقلة بالخيال الذي يكشف عن ماهية القراءة الشعبية للتاريخ، وهي قراءة تعد سندا لوجودهم الآني ودعما لهويتهم وتحقيقا للذات الجماعية التي تصر على إثبات دورها في صياغة التاريخ بشكل مباشر أو غير مباشر، لإزاحة الغبار الذي غطى حياة تلك العيون والآبار التي عليها قوام حياتهم، فتضافرت معا عناصر الخيال وعناصر التاريخ بشكل متناغم بات واضحا في إسهاب الرحالة والمؤرخين والجغرافيين، وكتاب الفضائل في سياق وصفهم لعجائب العيون والآبار، والتفاعل البشري مع صفات تلك الآبار والعيون التي قدموها لنا مزجا بين القياس على الصفات المحسوسة المألوفة وبين التصور الذي اصطنعه ذلك الخيال، من هنا تأتي عجائبيتها ومطلقيتها. مثل تلك العين التي ألمح إليها الوجدان الشعبي بأن بها صفات خارقة لاكتساب الخلود. وذلك في سياق حديثهم عن الخضر عليه السلام، فيقول الموروث الشعبي: «قد ذهبت جماعة من العلماء إلى أن الخضر نبي، وذهب آخرون إلى أنه ولي، وكثير منهم ذهب إلى أنه حي وهو يصلي الجمعة في خمسة مساجد في المسجد الحرام ومسجد المدينة ومسجد بيت المقدس ومسجد قبا ومسجد الطور في كل مسجد جمعة ويأكل أكلتين من كمأ وكرفس ويشرب مرة من ماء زمزم ومرة من جب سليمان الذي ببيت المقدس، ويغتسل من عين سلوان، قال الشيخ أبو محمد نصر البندنيجي سألت الخضر أين تصلي الصبح؟ فقال عند الركن اليماني، قال: وأقضي بعد ذلك شيئا كلفني الله قضاءه ثم أصلي الظهر بالمدينة وأقضي شيئا كلفني الله قضاءه وأصلي العصر

ببيت المقدس، حكى ذلك صاحب «مثير الغرام» وغيره وسبب حياته - على ما حكاه البغوي - أنه شرب من عين الحياة ثم قال عند مجمع البحرين عين تسمى عين الحياة لا يصيب ذلك الماء شيئا إلا حيي» [97].

ولا يمكن أن نخطئ الروابط بين هذا الحطام الرمزي في المعتقدات الشعبية وبين ما شاع بين الناس عن وجود نبات أو ماء سحري مجدد للشباب ومجدد للحياة، والذي يساعد على تأجيل وقوع الموت للإنسان، أو للبطل في الملاحم والحكايات والقصص الشعبي، وقد أتت فكرة ماء أو نبات الشفاء تحولا عن فكرة أسطورية أقدم، وهي فكرة ماء أو نبات الحياة أو الخلود أو تجديد الشباب، وهو ما نلمحه في بعض نصوص التوراة وبعض الملاحم الشعبية التي تضمنت أفكارا أقدم ترتبط بالعبادات الطوطمية [97].

وما يهمنا أيضا في تلك المرويات السابقة أن فكرة الخلود نجدها متجذرة في موروثاتنا الشعبية، فقد سعى لقمان إلى الخلود عن طريق نسوره، كما سعى إليه الخضر، وفاز به في الموروث الشعبي، حتى أصبح رمزا لاستمرار الحياة. ونجد بقايا ذلك في عادة جرت عليها بعض الأمهات، عندما يشرق الطفل وتخاف على حياته، تقول له «خضر» كأنها تطلب له حياة الخضر. وللخضر عند الفلسطينيين مكانة واعتقاد وطقوس يقيمونها في مزاراته المختلفة في معظم أنحاء فلسطين، أبرزها تلك التي بمدينة دير البلح جنوب فلسطين وفي قرية الخضر التي سميت باسمه شمال مدينة الخليل، ويحتفي به المسيحيون من أبناء فلسطين في عيد «مار إلياس» فيقولون: «عيد الخضر حرام حط النير ع البقر»، حيث يصادف عيده يوم السادس من شهر مايو من كل عام، إذ ينتهي ميقات حرث الأرض (كراب وتثنية وتثليث) وتبدأ الحرارة في الارتفاع، لذا يوصون مع ميقات العيد هذا بعدم استخدام البقر للحرث، وكثيرا ما يقدمون النذور في مزاره مستهلين دعاءهم بقولهم: «يا خضر يا أخضر» [98].

والخضر في الموروثات الشعبية الاعتقادية هو الذي دفن آدم، وهو صاحب موسى ووزير ذي القرنين اليمني، وصاحب الظهورات التي تدل عليها المقامات. وبعد الإسلام بقيت أنماط سلوكية جديدة كانت في الأصل تحمل مضمونات رمزية، مثال ذلك: السعي بين الصفا والمروة، وهو الرمز التاريخي لقيام هاجر بالبحث عن أسباب الحياة (الماء) والإشارة إلى هذه النعمة الأساسية التي كانت منها الحياة واختصت بها الأرض دون الكواكب ﴿**وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون**﴾، وإذا أوغلنا في تتبع المعتقد الشعبي بقدسية مياه زمزم التي انبجست في هذه الحادثة التاريخية، على الرغم من أنها مجرد نبع ماء، نستطيع أن نجد الخيط الذي يربط هذا الاعتقاد الشعبي بالفكر الإسلامي نفسه. إننا لا يمكن أن نتجاهل اتجاه هاجر الخارجي في سعيها بين الصفا والمروة مستشرفة قافلة تحمل ماء لتسقي ولدها إسماعيل، واتجاهها الداخلي النفسي بكليتها إلى الله في طلب هذه الحاجة. ومجيء النجاة إلهيا متمثلا في

انبجاس الماء، وهذا يتسق تماما مع دعوة الإسلام إلى طلب الحاجة ممن وحده يُقصَد في الطلب وهو الإله عز وجل.



قبة مسجد الصخرة وصليب كنيسة القيامة بالقدس

ومع مجيء الإسلام وسيادة التوحيد كان من الطبيعي إبعاد المضمون الوثني، مع الإبقاء على سلوك بعض الطقوس القديمة ضمن صياغات جديدة، مثال ذلك طقوس الاستسقاء القديمة للمعبود «حدد»، ثم صياغتها بشكل عقلاني ومنظم في الإسلام، وهو الصلاة والتضرع لله، مع بقاء رموز قديمة في المعتقد الشعبي، كأن يلبس المصلي جبة أو يحمل مظلة إلى أن انتهى ذلك بصياغة الفاصل الغنائي الفني الرائع وهو موشح «اسق العطاش» ونجد استسقاء مغايرا، هو استعطاف الشمس لإرسال نورها ودفئها، والشمس من المعبودات القديمة، وقد أقام عرب الجاهلية لها صنما بيده جوهرة على لون النار، وله بيت وسدنة وحُجَّاب، وكانوا يأتون البيت ويصلون فيه ثلاث مرات في اليوم، يسجدون للشمس إذا طلعت وإذا توسطت السماء وإذا غربت، ولهذا نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن الصلاة في هذه الأوقات [99].

ولا نستبعد أن الوجدان الشعبي الفلسطيني في القدس كان متعمدا إحاطة الآبار والعيون بهالة قدسية، وكان يهدف من وراء ذلك إلى الحفاظ على المياه من العبث والتعدي، فنسجت المخيلة الشعبية حول شريان حياتها أساطير حافظة، وصلت إلى حد العبادة والتقديس أحيانا، لاسيما أن تقديس مصادر المياه ما زال معتقدا لدى كثير من العامة إلى اليوم.

القدس وصبر أيوب!

أسطورية آبار القدس لم تتكون دفعة واحدة، بل استمر كل جيل يضيف إليها من خياله ما يوائم تصورات عصره، وما يزيد من تأثيرها في نفوس محبيه، فتباينت أساطير المياه في القدس وفق الزمان والمكان، ولا يوجد مصدر تناول أي جانب من جوانب القدس إلا وللآبار والعيون فيه مكان ومكانة، فقد ظلت أسطورية مياه القدس وأرضها تسيطر على أذهان وعواطف الناس قرونا طويلة، ظن الوجدان الشعبي فيها أن للآبار خواص سحرية وعجائبية وهو ما نتلمسه في سياق حديث كثير من الرحالة والمؤرخين عن «بئر أيوب» فنجد أن مجير الدين الحنبلي في أنسه الجليل يقول عنها: «بئر أيوب وهي بالقرب من عين سلوان نسبتها إلى سيدنا أيوب عليه السلام، وحكى صاحب كتاب الأنس في معنى هذه البئر قال: قرأت بخط ابن عمي أبي محمد القاسم وأجازه لي قال: قرأت في بعض التواريخ أنه ضاق الماء في القدس بالناس فاحتاجوا إلى بئر هناك فنزلوها طولها ثمانون ذراعا وسعة رأسها بضع عشرة ذراعا وعرضها أربع أذرع، وهي مطوية بحجارة عظيمة كل حجر منها خمس أذرع وأقل، وأكثر في سمك ذراعين وذراع فعجبت كيف نزلت هذه الحجارة إلى ذلك المكان وماء العين بارد خفيف ويستقى منها الماء طول السنة من ثمانين ذراعا، وإذا كان في الشتاء فاض ماؤها وفار حتى يسيح على وجه الأرض في بطن الوادي وتدور عليه أرحية تطحن الدقيق فلما احتيج إليه وإلى عين سلوان نزلت إلى قرار البئر ومعي جماعة من الصناع لأثقبها فرأيت الماء يخرج من حجر يكون قدره نحو ذراعين في مثلها وبها مغارة فتح بابها ثلاث أذرع في ذراع ونصف يخرج منها ريح بارد شديد البرد وأنه حط فيه الضوء فرأى المغارة مطوية السقف بحجر ودخل إلى قريب منها ولم يثبت له الضوء فيها من شدة الريح الذي يخرج منها وهذه البئر في بطن الوادي والمغارة في بطنها وعليها وحولها من الجبال العظيمة الشاهقة ما لا يمكن لإنسان أن يرتقي عليها إلا بمشقة، وهي التي قال الله تعالى لنبيه أيوب عليه السلام ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾، انتهى كلامه، وهذه البئر مشهورة معروفة في كل سنة عند قوة الشتاء وكثرة الأمطار» [100]، ويضيف الرحالة المقدسي: «سلوان: محلة في ربض المدينة تحتها عين عذيبية تسقي جنانا عظيمة، أوقفها عثمان بن عفان على ضعفاء البلد، تحتها بئر أيوب ويزعمون أن ماء زمزم يزور ماء هذه العين ليلة عرفة» [101].

هذه التفسيرات الشعبية التعليلية لأصول نشأة العيون والآبار كانت بمنزلة التعبير عن ثقافة أهل بيت المقدس وأن المجتمع المقدسي عاش حياته الاجتماعية بالشكل الذي يوافق موروثه الثقافي الموغل في أعماق الزمن، والذي يحمل كثيرا من الممارسات التي تداخل فيها الموروث الشعبي مع الديني بكل ما يحمله من أساطير ورموز وحكايات وأشعار. مثل اهتمام أهل بيت المقدس بالاستحمام في بعض العيون والآبار المخصصة لكل داء لديهم، وهو ما ألمح إليه الرحالة شمس الدين المقدسي بقوله: «يذكرون أنه كان عليها بما يدور بيوت كل بيت لعلة فكل

من به تلك العلة واغتسل فيها برأ إلى وقت أرسطاطاليس، ثم سأل ملك ذلك الزمان هدم هذه البيوت لئلا يستغنوا عن الأطباء وصحت لي هذه الحكاية!» [102]، ولعل تلك الرواية تكشف لنا عن احتفاء الوجدان الشعبي وإدراكه لقيمة العلم والعلماء وإعلائه لصوت العلم من خلال سعيه إلى إيجاد دور مؤثر للأطباء في المجتمع!

ويستمر الموروث الشعبي في حديثه عن عجائب العيون والبرك والآبار بالمدينة المقدسة فيعرج بنا على بركة تسمى «بركة سليمان» فيقول: «جعل سليمان عليه السلام تحت الأرض بركة وجعل فيها ماء، وجعل على وجه ذلك الماء بساطا ومجلس رجل جليل أو قاض جليل، فمن كان على الباطل إذا وقع في ذلك الماء غرق، ومن كان عل الحق لم يغرق» [103]، وتشير المصادر التاريخية التي تتحدث عن أهل بيت المقدس إلى أن كثيرا من المسيحيين من أبناء القدس جرت بينهم عادة بالذهاب إلى بركة ماء بداخل المدينة يقال إنها بركة سليمان يذهب إليها المرضى ويظلون ينظرون حتى تتحرك مياهها، وأول شخص ينزل إلى الماء عندما يتحرك يشفى من مرضه [104].

ويمدنا الرحالة المدجن عبدالله بن الصباح (في القرن الثامن الهجري) ببعض عادات أهل بيت المقدس في اعتقادهم ببركة ماء المسجد الأقصى بقوله: «كفى بهذا البيت المقدس أنه تسلم عليه كل ليلة اثنتان وسبعون ريحا إذا كانت آخرها الريح الطيبة تصبح السقوف متاع قباب الحرم تقطر ماء إلى وقت الظهر يكحل الناس بها أعين المرضى فيشفون بإذن الله» [105].

ويهمنا أن نلاحظ تلك الصلة بين المعتقد الشعبي الديني والعادات الجارية، فإذا كان قد نسي هذا المعتقد فإننا نستطيع أن نتعرف عليه من هذه العادات ذاتها، فعادة الشفاء بالاستحمام تأثرت كثيرا بالمعتقدات الخاصة بشفاء أيوب من بلواه. وهو اعتقاد مرتبط بالتراث الخاص بالمنطقة نفسها، الأمر الذي يؤكد صدق تواصل أجيال أهل بيت المقدس وامتداد المعتقدات والممارسات الشعبية المقدسية التي تبرز القسمات الواضحة لشخصية المدينة المقدسة، والتي تؤكد على بقاء الشخصية الفلسطينية في استمراريتها مستوعبة الماضي بعبقه الديني تحمله وتحميه وتأخذ به نورا للهداية مع كل نبي ورسول شرَّف أرضهم وشرفت به. فكان من تلك الكوكبة النبي أيوب عليه السلام العربي الأيدومي الفلسطيني في منتصف القرن الثالث عشر قبل الميلاد. فكان آية في الصبر على الآلام وتحمل المشاق والبلاء دونما استسلام أو يأس. وسجل الفلسطينيون صورة أيوب في ذاكرتهم الشعبية وأمثالهم اليومية وتغنوا به في أهازيجهم، وأسبغوا على قراهم وأديرتهم وآبارهم اسمه، واتخذوا له موسما سنويا تفرد عن المواسم الأخرى، بالإضافة إلى فضيلة الصبر بظاهرة لقائهم على شاطئ البحر، وتمظهر ذلك في أمثالهم الشعبية بقولهم: «صبرنا ع المكتوب صبر أيوب»، «الصابرين ع خير». وقولهم: «من صبر نال ومن لج كفر»، «طولة الروح والصبر أحسن دوا

لعوادي الدهر»، «إن طال مشوارك استرجيه»، «اصبر ع الحصرم بيصير عنب»، ومن قولهم: «الصبر بودي القبر»، «إن صبر صبر وإن ما صبر هادا الحبل وهادا الشجر» (106).

واتخذ المقدسيون والفلسطينيون للنبي أيوب موسما شعبيا اختاروا له يوم الأربعاء من أيام الأسبوع فأسموه «موسم أربعا أيوب» يقام يوم الأربعاء الذي يسبق «خميس الأموات» أو «خميس البيض» الواقع قبل عيد الفصح بثلاثة أيام، ويسميه المسيحيون من الفلسطينيين «عيد العدس» تحريفا لـ «خميس العهد»، كما يحتفل الدروز من الفلسطينيين في موسم يسمونه «عيد النبي أيوب»، حيث يخرج المقدسيون والفلسطينيون في هذا اليوم متجهين نحو البحر يصطحب البعض منهم الإبل والمواشي. ويتجه المرضى خصوصا ممن يعانون الأمراض الجلدية إلى البحر مرددين:

يا اللي بريت أيوب ... ابرينا من ها الداء
يا اللي نجيت بالدعا ... نجينا من ها البلاء
يا رب يا شافي ... بحق سبع بحور
ارفع عذابك ومقتك ... عن عبدك المغرور

وتجد امرأة تشكو عدم الإنجاب وتطلب من الله ببركة النبي أيوب «فك عاقتها» وتقف على شاطئ البحر وبجوار منها عجوز تغرف من مياه البحر (بكيلة أو ما يسمونه كباسات) وتصبها على رأس المرأة العاقر وبعدها تقودها داخل البحر لتغمس برأسها سبع مرات - وعادة ما يكون رأس المرأة مربوطا بخرز - في سبع موجات وهي تستنجد بالأنبياء قائلة: «لا كباس ولا لباس إلا أولاد زي أولاد الناس بحياة الخضر وأبو العباس». وتستغيث أخرى بقولها: «يا بحر أجيتك مدهوشة... بدي ولد والو شوشة... يا بحر أجيتك عطشانة... بدي ولد شوشته مرجانة... يا بحر أجيتك مشتطة.. بدي ولد على راسه حطة».

وفي القدس تذهب العديد من البنات اللاتي لم يتزوجن بعد إلى بركة أيوب فيغتسلن بماء أيوب وهي تناجيه: «يا بير جيتك زايرة... من كتر ما أنا بايرة... كل البنات تجوزت... وأنا عندك دايرة» (107). وفي المعتقد الشعبي تعد مواطن الماء من الأماكن المقدسة التي تستجاب فيها الدعوة. وتذكر روايات سيرة بني هلال أن خضرة الشريفة دعت ربها بجوار الماء أن يمنحها غلاما. واختلفت الروايات في كون هذا الماء عينا أم بركة أم نهيرا أم بحرا، فالمكان المقدس هنا يلعب دورا مهما في استجابة الدعوة لتصبح نبوءة (108).

أما أيوب نفسه الذي تحول في القصص الشعري الغنائي الشعبي العربي إلى أنموذج لصفة الصبر، فنحن نعرف قصته الأصلية الواردة في سفر التكوين (الإصحاح الأول إلى الإصحاح الثاني والأربعين من سفر التكوين) وكيف كان رجلا على قدر كبير من التقوى ووفرة المال وطيب النفس، ثم امتحنه ربه في ماله فصبر، وامتحنه في جسمه «وضرب أيوب بقرح رديء في باطن قدمه إلى هامته، فأخذ أيوب لنفسه شقفة ليحتك بها وهو جالس في وسط الرماد، فقالت له

امرأته: أنت متمسك بعد بكمالك بارك الله وموت فقال لها ألخير نقــبله من عند الله والــشر لا نقبل» وتنتهي القصة المقدسة بأن «بارك الله آخرة أيوب أكثر من أولاده» وضاعف له الراحة ومد في عمره عشر سنين ومائة، ورأى أربعة أجيال من ذريته، وماله يزيد ويثرو. ويعزو الذهن الشعبي إلى أيوب أنه دهن جسمه بدهان نبات الرعرع فشُفي. وهذا النبات عميق الخضرة، كان يستخدم في العقاقير والطيب عند الفراعنة. وأهم من هذا. أن في خضرته العميقة ما يرمز إلى خصوبة تجدد الميلاد في الطبيعة، ذلك الأمر الذي توليه المعتقدات الشعبية أهمية عظمى [109].

ولعل الخوف من انتهاء الحياة على سطح الأرض دفع العامة، حين خسوف القمر، إلى إحداث أصوات عالية بالضرب على الطناجر والهاون والصفائح معتقدين أن القمر قد بلعه الحوت، ونعود إلى الوراء فنجد أن قريشا كان طوطمها الحوت، وفي أسطورة الخلق القريشية أن الله خلق الأرض على ظهر حوت، والحوت في الماء، والماء على ظهر صفاة، والصفاة على ظهر ملك، والملك على صخرة، والصخرة في الريح. إن الحياة تستمر، ليس في شكلها الواقعي على ظهر الأرض فقط، بل في ذلك الحطام الهائل والمتراكم من الرموز الأولى في أغانينا وأشعارنا وأمثالنا الشعبية [110]. فالماء هو مصدر الخصب والحياة، وهناك كثير من العادات والتقاليد تحمل هذه الرموز، ومنها التعميد بالماء [111] وقطرات الزيت كمصدرين للخصب والنور[112]، وبالتالي لا يمكن أن نغفل الروابط بين هذا الحطام الرمزي في المعتقدات، وبين بروز العنصر المائي في أساطير الخلق في مصر القديمة مع المحيط الأزلي الذي يعد عاملا مشتركا في جل أساطير الخليقة في العالم كله، وموارد المياه عند الإنسان مكان مقدس، فالمكان في مفهومه غير متجانس دنيويا ودينيا، وإن كانت شعائر دينية معينة تستمر في الحياة وتقع موارد المياه من ضمنها، وتحافظ على قدسية هذه الموارد.

وإذا حاولنا الوصول إلى الجذور الأسطورية للمياه فسنرى أنها كانت تؤدي دورا بالغ الأهمية في المعتقدات والديانات القديمة والحديثة، وسنجد شواهد ودلائل تشير إلى أي حد يقدسها الناس منذ حقب موغلة في الزمن، وصلاة الاستسقاء الجاهلية ذات دلالة تاريخية ودينية منذ القدم، وكانت تعد من طقوس العرب الدينية القديمة، وكانت تشير بالمثل إلى تقديس الناس للماء لا بذاتها بل بالنظر إلى الأرواح التي تحل فيها. لكن خروج هذه الموارد المائية من دوائر هذه الشعائر، وارتباطها مباشرة بخطة تنظيمية عقلية تقوم عليها الدولة، كشبكات المياه الحديثة، وتخفف الإنسان من القلق في تأمينها أو انقطاعها، أبعد عنها صفة القداسة، إننا نقف اليوم أمام خزانات المياه الرئيسية في المدينة فلا يثير فينا هذا الوقوف أي مشاعر قدسية!

القدس بين الحسد والسحر

كذلك كانت أغلبية سكان بيت المقدس، من مسلمين ومسيحيين ويهود، يعتقدون في الحسد (عين الحسود)، ويعتقدون أنها تسبب المرض والحزن، وأنها يمكن أن تهدم المنازل، وتوقف

الحرث، وتقتل الحيوانات والزرع، كما أنهم يعتقدون أن الأشخاص أصحاب العيون الزرقاء هم الأكثر تأثيرا من حيث الحسد. وللوقاية من عين الحسود فإنهم كانوا يأخذون قطعة من ملابس الشخص الذي يعتقد أنه يحسد غيره، ويحرقونها تحت الشخص الذي أصيب. كما كانت هناك طرق أخرى للتخلص من أثر «عين الحسود»، سواء لدى المسلمين أو المسيحيين (113).

عند الحديث عن عادات أهل بيت المقدس في تعاملهم مع الحسد نجد أن الموروث الشعبي قد غذى تلك المعتقدات بكثير من الأمثلة الشعبية التي تسجل موقف الناس من تلك العادة الذميمة، فيقول الموروث الشعبي الفلسطيني: «عيون لكبار خراب ديار»، وقد وجد الموروث الشعبي طريقة عملية يحترز بها من تلك العين المؤذية بقوله: «العين اللي بتصيب قلعها حلال»، ويصنف الموروث الشعبي الناس إلى صنفين: «الناس يا فسد يا حسد»، فالبعض إما حساد يتمنون زوال النعم عن الآخرين، وإما «فسدة» يبذرون الضغائن والفتن بينهم، وكلاهما ممجوج ويلفظه الوجدان الشعبي الفلسطيني.

وفي الوقت نفسه يرى الوجدان الشعبي أن الغيرة عنده أرحم بكثير من الحسد فيقول: «الغيرة أحسن من الحسد»، ويهزأ الموروث الشعبي بالحاسد عندما تصل به الدناءة إلى حسد أشياء ضئيلة ونعمة متواضعة لشخص بسيط فيقول: «حاسد القط ع كبر ديله»، لكن إيمان الناس بقدرة الله وحكمته جعلهم يؤمنون بالمثل القائل: «إيش بده يعمل الحاسد مع الرزاق». وعليه كانت هناك عدة طرق شعبية بفلسطين عامة، وبالقدس خاصة، لمقاومة الحسد والحاسد إذا ما اكتشفوه من خلال نظراته أن يردوا عليه فورا وفي قلوبهم بكلمة «أخص» أو «خمسة في عين الشيطان»، وأحيانا «خمسة وخميسة»، وأحيانا يردون بصوت مرتفع وبأسلوب مغلف بالطيبة المشفوعة بابتسامة خفيفة قائلين: «اليوم الخميس»، ظنا منهم أنها تعابير شعبية دارجة تمنع الحسد وترد كيده.

وهناك طرق شعبية أخرى كأن يضعون على طاقية الطفل أو على كتفه «خمسة وخميسة» أي يضعون كفا مصنوعة من الذهب أو الفضة أو البلاستيك أو الخشب، ومعها خرزة زرقاء وقطعة من الشبة. ويقول المثل الشعبي الفلسطيني: «بدك شبة وخرزة زرقا» (114).

وإلى اليوم مازال بعض الناس يتحصنون ضد قوى الشر أو المرض بالحجابات والشبة والخرزة الزرقاء، ويرى البعض أن المقدسيين والفلسطينيين إذ يضعون على صدر الطفل قطعة من الشبة والخرزة الزرقاء المثقوبة فهم يرمزون بها إلى شعوب الشمال والبحر الغزاة، الذين عانت فلسطين ويلاتهم كثيرا، والشبة رمز لبياض بشرتهم، أما الخرزة الزرقاء فرمز لزرقة عيونهم (115).

وسنجد في الروايات والأمثال الشعبية المتعلقة بهذا الجانب الاعتقادي أنه قد أُعطيت بعض الأعداد والحروف والأسماء قوى غامضة عبر التاريخ، ومنذ أن اعتبر فيثاغورس الأرقام جوهر كل الأشياء، وتحدث عن تناغمها كما الموسيقى، وحتى ظهور الفرق الغالية في الإسلام

التي تعطي بعض الأعداد قداسة خاصة وقوة أسطورية وبها يُستغاث، والأعداد - أو بعضها - بما تحمل من قوى استسرارية، واتفاق ظهورها في كثير من الأحيان، أحاطت بهذه الأعداد المقدسة هالة أسطورية واستقرت في الوجدان الشعبي الفلسطيني، ومن هذه الأعداد العدد خمسة، ولو استعرضنا ظهور هذا العدد لوجدنا أنه يستحق التأمل والبحث والحديث عن أسطورته وظهوره لا يكاد ينتهي، إنه رمزية تتدرج في نطاق الرمزية الكوزمولوجية، ظلت محافظة على قدسيتها واستمراريتها عبر العصور ولدى أغلب الشعوب، على الرغم من تغير المعتقدات والأديان، شأنها شأن المكان المقدس الذي يكون معبدا وثنيا ثم يصير كنيسة فجامعا فمدرسة دينية. فالخمسة هم أصحاب الكساء أو أهل العبا، وهم: محمد، علي، فاطمة، الحسن، الحسين. وفي القرآن: ﴿وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ و﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ و﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾.

ومن خواص العدد خمسة أنه أول عدد دائري ومعناه أنه إذا ضرب في نفسه رجع إلى ذاتها، وإذا ضرب العدد الخارج من عملية الضرب في نفسه رجع إلى ذاته أيضا، وهكذا دائما (مثال) 5X5 = 25، وإذا ضربت 25X25 = 625 وإذا ضربت 625X625 = 390625، وإذا ضرب هذا العدد في نفسه خرج نفسه وعدد آخر وبهذا حفظ العدد خمسة نفسه وما يتولد منه دائما بالغا ما بلغ. فما أعظم الخمسة والوفق المخمس للحفظ أو ما نجده عند الشعبيين في القدس وفلسطين «خمسة وخميسة». ولما كان العدد خمسة يحفظ نفسه ويحفظ ما يتولد منه [116] وشكل صورته كروي هكذا «٥»، فإن الله سبحانه وتعالى خلق الأرض كروية وكذلك السماوات والهواء وجميع الكواكب والنجوم كروية مثل الخمسة ولذلك تجد الجميع حافظا نفسه وحافظا لما يتولد منه ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾، ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ أي دائرة كالخمسة نهايتها ابتداؤها. أما السنة فإن فيها مشابهة للخمسة في هذا المعنى، لكنها ليست ملازمة كلزوم الخمسة ودوامها، فإنها تحفظ نفسها فقط. فلم يكن غريبا أن تحتل الخمسة تلك المكانة الأسطورية في المعتقد الشعبي عند العديد من الشعوب منذ أزمنة غائرة. ومن الغريب أن نجد بعض الأقوال والأمثال التي تحمل رموزا غامضة تعود إلى تلك الأزمنة وأساطيرها، من ذلك قول العامة: «لا تعدن بتطير بركتن»، والذي يباشر العد يلحقونه بهذه العبارة: «عد جمال أبوك. والإبل وغيرها من الماشية هي المال»، والذي يباشر العد ونحن متخوفون من حسده نقول: «خمسة بعينين الشيطان»، خاصة إذا بلغ العد خمسة وزاد. وإذا بحثنا العوامل التي ساعدت على قدسية العدد خمسة التي أهلتها لأن تكون بمنزلة رصد سحري ضد شر العين، فـ «الخمسة» عدد مقدس عند بعض المذاهب الغالية فهو عدد أصحاب الكساء، وهم في اعتقاد هذه المذاهب خمستهم شيء واحد، والروح حالة فيهم معا، فهم علة الإيجاد وسبب التكوين وسر الوجود، العدد خمسة هو عدد آيات

سورة الفلق، المعوذة التي تقرأ لرد العين، وهكذا فالخمسة مؤهلة لتكون رصدا سحريا ضد قوى الشر مجسدة في كف مبسوطة تعلق على صدر الطفل، أو ما نريد حمايته، ومنه أنه حين تنحر ذبيحة لتفجير بئر ماء، أو اكتمال بناء بيت يغمس المالك يده في دم الذبيحة ويطبعها كفا مبسوطة الأصابع الخمسة على الجدار. والعدد خمسة في الملاعنة يحمل العقوبة الإلهية: الغضب واللعنة ﴿والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين﴾ (117)، وربما كان ذلك وراء تشاؤم بعض أهل فلسطين من العدد خمسة، أو بسبب الفواسق الخمسة التي أباح الإسلام قتلها، وهي فأرة البيت والحية والعقرب والحدأة والغراب، وسميت كذلك بالفواسق على الاستعارة لخبثها. لهذا يتحايل البعض منعا لذكر الرقم خمسة، خصوصا لو سئل أحدهم عن عدد الأولاد أجاب أربعة وواحد منعا للحسد. وتجد البعض من الفلسطينيين لا ينطقون الرقم خمسة دفعا عن أذاه فيقولون في حياتهم اليومية: «عد كف»، وأحيانا يستعيضون بها بكلمة واحدة قائلين «كف»، وبتعبير آخر يقولون: «عدد اليد». وإذا تجاوز أحد الأفراد أن ذكر الرقم واضحا بقوله «خمسة» ردوا عليه «خمسة في عين الشيطان» (118).

على جانب آخر نجد أن من العادات والوسائل الشعبية الأخرى التي لجأ إليها الشعبيون في بيت المقدس والتي انتشرت بين مختلف الطوائف المسيحية بالقدس خلال عصر سلاطين المماليك، أنهم كانوا في حال المرض ينذرون للكنائس والمعابد والأديرة زيتا وشموعا وبخورا، أو ينقلون بعض النباتات الموجودة في جدرانها لإعطائها إلى المريض، أو يحملون بعض الأيقونات إلى غرفته، وكذلك من العادات الخاصة بالمرض أنهم يلجأون إلى تشريط جلد المريض بشفرة حادة كنوع من العلاج الذي له جذور سحرية وأسطورية. وإذا لم يحدث تقدم في حالة المريض فإن الخطوة التالية عادة ما تكون الكي بالنار، وكذلك عند الإصابة بجرح من الجروح فإنهم يغطونه بعجينة من الغبار الدقيق المخلوط بالماء (119)، وربما لجأ كثير من أهل بيت المقدس إلى الأولياء حيث شاعت في ذلك العصر بين المقدسيين عادة الاعتقاد في الأولياء والصالحين الذين يحكى عنهم كثير من الكرامات، مثل الشيخ أحمد جعارة الذي «كان مجذوبا وله كرامات ظاهرة وأهل بيت المقدس يعتقدون صلاحه، وحكيت عنه أشياء تدل على ولايته، وقد توفي في شهر رمضان سنة ثلاث وسبعين وثمانمائة ودفن بماملا بالقرب من القلندرية نفع الله به» (120).

ما يهمنا في الروايات المتعلقة بطرق العلاج من الأمراض هو تلك الأفكار الشعبية المتجذرة في الموروث الشعبي الذي يعتبر أن الجامع أو الكنيسة هما المكان المبارك الذي تُحلّ فيه العقد إذا أتى المرء ببعض الأعمال فيه، مثلما يفعل المقدسيون، إذ تتشابه كثيرا أفعالهم مع الموروثات الشعبية المشبعة بالتراث الأسطوري السامي بالمنطقة العربية، ونجده جليا واضحا فيما يفعله الحلبيون من وضع للأقفال على باب ضريح النبي زكريا في الجامع الكبير بحلب، أو تحنية كفي الطفل فيه ليلة العيد ليكون كثير الرزق، أو تبييت الأرملة أو العانس في جامع البختي ليلا، كي تخطب قبل ظهور

نجمة الصبح (الزهرة)، وهذه العادة التي قد نظنها في شيء من الإسلام، تعود إلى عهود «أساطير الأولين»، والعزى نجمة الصبح هي إحدى بنات هبل الثلاث، وكانت المرأة في الجاهلية إذا عسر عليها خاطب النكاح نثرت جانبا من شعرها، وكحلت إحدى عينيها، وحجلت على إحدى رجليها ليلا وهي تقول: يا نكاح ابغ النكاح قبل الصباح، أي قبل ظهور نجمة الصبح. ومواويلنا الشعبية تحفل بالتغني بنجمة الصبح، وكانت عبادة نجمة الصبح منتشرة في اليمن وخلال أعيادها يقام العرس المختلط، ومن طيور وحيوانات نجمة الصبح المقدسة الحمام والغزال، والعرب يشبهون المرأة الجميلة بالغزال. وتربط الحلبيات في هنهوناتهن بين نجمة الصبح والحب وأفراح العرس: يا نجمة الصبح فوق الدار... عليتي شميتي ريحة الحبايب وجيتي ضويتي.

ومنها ربط إبهامي قدمي الطفل الذي تأخر في المشي بخيط ليقطع الخيط أول خارج من صلاة الجمعة، ويقول له حامله: «فك اشكالو وكول اللي في ديالو». أما الضرب بالمندل فيذكرنا بكأس ججشيد أو مرآة الإسكندر، ويرى فيه الرائي ما يحدث في مناطق بعيدة [121].

القدس والنبوءة

لا تتساوى الأماكن من حيث قيمتها عند معظم شعوب العالم وفي جميع المعتقدات البشرية، فهناك أماكن مقدسة وأخرى دنيوية، والأماكن المقدسة لا تتساوى في قداستها، فهناك درجات لهذه القداسة. ويذكر إلياد أن الرجل المتدين لا يرى المكان متجانس التكوين، فهو يجد فيه بخبرته تقاطعا في اطراده، فبعض الأماكن مختلفة عن الأخرى اختلافا نوعيا، وهو يرى أن هناك أماكن مقدسة وأخرى غير مقدسة أوعديمة البنية أو غير متناسقة أو غير متبلورة. وليس هذا كل شيء، فالرجل المتدين يجد في انعدام تجانس التكوين للمكان تعبيرا في التجربة الخاصة بالتضاد بين المقدس - وهو المكان الوحيد الحقيقي، وهو أيضا المكان الوحيد الموجود في الحقيقة - وبين الأماكن الأخرى المحاطة بامتدادات عديمة الشكل. والتجربة الدينية لانعدام التجانس في شكل المكان هي تجربة أولية تمثلها الإنسان في تصوره لتأسيس العالم وليس هذا الأمر تنظيرا مجردا لكنه في الأساس تجربة دينية تسبق كل تأمل وتفكير عن العالم.

وما يذكره إلياد عن اعتقاد المتدينين الأول ينطبق تمام الانطباق على المعتقد الشعبي في المجتمع العربي، فالأماكن تنقسم في المعتقدات الشعبية إلى قسمين: أماكن مقدسة، وأخرى غير مقدسة يمكن أن نطلق عليها دنيوية، والأماكن المقدسة التي ارتبطت في العقيدة بتجلي المقدس عليها تكون قداستها وفق درجات هذا التجلي [122].

والأماكن ليست على درجة واحدة من القداسة، ففيها درجات تصل إلى قمتها. وفي المعتقد الإسلامي العربي ثلاثة أماكن مقدسة هي: البيت الحرام، ومسجد الرسول بالمدينة، والمسجد الأقصى المعروف ببيت المقدس. ويشترك أصحاب الأديان السماوية والمسلمون في الاعتقاد بقدسية بيت المقدس.

وقد جسد المسلمون، منذ الفتح العمري، تقديسهم الروحي للقدس بأشكال مختلفة، إن كان بتشييد عمارتها، ولاسيما العناية ببناء المسجد الأقصى وما حوله، أو الاتجاه إلى التقرب منه، أو البدء بالحج منها إلى مكة، والسكنى بالقرب منه وتكريس إسلاميته وعروبته في الوعي العربي والإسلامي بكل الطرق.

لم تبدأ علاقة الوجدان الشعبي العربي بالقدس مع الفتح، بل كُرست إسلاميتها منذ ذلك التاريخ، برغم الفسحة الواسعة التي تركت لأصحاب الديانات التوحيدية لممارسة عبادتهم فيها، ومثلما يقول روجيه جارودي: «في عام 638م لم يكن العرب من وصل إلى فلسطين، بل هو الإسلام... إذ إن العرب كانوا في فلسطين منذ أكثر من ثلاثة آلاف عام. أي منذ الهجرات السامية الأولى القادمة من الجزيرة العربية، تلك التي كانت تجوب أرجاء الهلال الخصيب، من عموريين وكنعانيين وعرب، من ذوي أصل إثني واحد وأسرة لغوية واحدة» (123).

ولم تكن واقعة الفتح، في المخيلة الشعبية الإسلامية، سوى تجسيد لنبوءة نبوية سابقة على الواقعة نفسها، وكجزء من التاريخ الماورائي المخطط له ما قبل الزمان ومحفوظ في اللوح الشعبي، من هنا يحضر «الفتح» في الموروث الشعبي تصديقا لوعد نبوي مسبق بهذا الفتح، واكتسب الانتصار الإسلامي على بيزنطة شكلا رمزيا يومئ إلى أسباب علوية وإلى إرادة الله بنصر دينه الحق.

القدس وأحلام العودة!

كانت الأحلام وما فيها من رؤى مصدرا غامضا تؤدي دورا مهما في الموروث الشعبي المرتبط بعمران القدس، إذ كان يتقدم لينبه إلى الأحداث، ويؤشر إلى مكان الخطر أو مكان الانتصار، أو هو كذلك سبب لبناء وتشييد المدن والمساجد والقباب وإضفاء صبغة الكرامات عليها، حيث تعتمد في ذلك على الرؤيا أو الأمر القدري الذي يرد في أثناء النوم، وهو ما أكدته الروايات الشعبية التي دارت حول الأمر الإلهي ببناء بيت المقدس، فيقول صاحب الأنس الجليل: «من العلماء من قال: بنى مسجد بيت المقدس آدم عليه السلام، ومنهم من قال: أسسه سام بن نوح عليهما السلام، ومنهم من قال: أول من بناه وأرى موضعه يعقوب بن إسحاق عليهما السلام، روى أن أباه إسحاق أمره بألا ينكح امرأة من الكنعانيين وأمره بأن ينكح من بنات خاله فلما توجه إلى خاله لينكح ابنته أدركه الليل في بعض الطريق فبات متوسدا حجرا فرأى فيما يرى النائم أن سلما منصوبا إلى باب من أبواب السماء والملائكة تعرج إليه وتنزل، فأوحى الله إليه إني أنا الله لا إله إلا أنا وقد ورثتك هذه الأرض المقدسة وذريتك من بعدك ثم أنا معك أحفظك حتى أدرك إلى هذا المكان فأجعله بيتا تعبدني فيه فهو بيت المقدس» (124)، كما أدت الأحلام دورا في النبوءة بخراب بيت المقدس، فيقول ابن الجوزي في تاريخه: «زعم الأسدي عن أشياخه: أن رجلا رأى في المنام أن خراب بيت المقدس وهلاك بني إسرائيل على يدي غلام يتيم ابن أرملة من أهل بابل

يدعى «بخت نصر»، فأقبل يسأل عنه حتى نزل على أمه وهي تحتطب، فلما جاء على رأسه حزمة حطب ألقاها ثم قعد في البيت فكلمه ثم أعطاه ثلاثة دراهم فاشترى بها طعاما وشرابا، فلما كان في اليوم الثاني فعل به ذلك، وكذلك في اليوم الثالث، ثم قال له: إني أحب أن تكتب لي أمانا إن أنت ملكت يوما من الدهر» [125].



المسجد الأقصى الجريح بالعاصمة الفلسطينية القدس

وربما تسنى لنا إيجاد صلة بين هذه النبوءات وبين بيت المقدس بالرجوع إلى دلالتها الرمزية في المخيلة الشعبية في سياق ما كتبه ابن سيرين [126] عن رؤية بيت المقدس في المنام - إذ اعتمد ابن سيرين البيئة في تفسير الأحلام وربط بينها وبين ما يراه الإنسان في الأحلام ربطا محكما، فكان تفسيره للأحلام يقترب من وجدان الناس السياسي والاقتصادي والاجتماعي الديني والثقافي. فثقافة ابن سيرين في تفسير الأحلام توحي بأن الرجل قد اقترب فيها من آراء نفسية ووجدانية صائبة، وبأنها تلامس الواقع وتعبر عنه بأسلوب ميثولوجي يعبر عن الحقيقة، لاسيما إذا وضعنا أمامنا أقوالا معاصرة لعلم ما فوق الواقع (الميثولوجيا) يقول روجيه جارودي: إن الأسطورة علم أولي. وبناء على ذلك فإن الميثولوجيا في تفسير الأحلام عند ابن سيرين علم أولي أيضا - فلا عجب أن يري ابن سيرين في كتابه «منتخب الكلام في تفسير الأحلام» أنه: «من رأى كأنه يصلي في بيت المقدس ورث ميراثا أو تمسك ببر، ومن رأى أنه على مصلى رزق الحج والأمن لقوله تعالى ﴿**وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى**﴾، ومن رأى أنه يصلي في بيت المقدس إلى غير القبلة فإنه يحج، فإن رأى كأنه يتوضأ في بيت المقدس فإنه يصير فيه شيء من ماله» [127]، كما احتفى الموروث الشعبي كذلك بسليمان عليه السلام باعتباره أحد الذين شاركوا في تعمير بيت المقدس، يقول ابن سيرين في تفسيره: «ومن رأى» سليمان عليه السلام رزق الملك والعلم والفقه، فإن رآه ميتا على منبر أو سرير فإنه «يموت خليفة أو أميرا أو رئيسا لا يعلم بموته إلا بعد مدة»، وقيل من رأى «سليمان انقاد له الولي والعدو وكثرت أسفاره».

كما أن الموروث الشعبي وضع فتح القدس في قلب الرؤية النبوية، فيروى عن شداد بن أوس الخزرجي (ت 58هـ) رواية تعد من ذخائر الموروث الشعبي العربي والإسلامي تقول إنه: «لما

دنت وفاة رسول الله قام شداد بن أوس ثم جلس، ثم قام ثم جلس، فقال النبي ما قلقك يا شداد؟ فقال: يا رسول الله ضاقت بي الأرض، فقال: ألا إن الشام سيفتح إن شاء الله، وبيت المقدس سيفتح إن شاء الله، وتكون أنت وولدك من بعد أئمة بها إن شاء الله» [128].

ومن هنا أيضا ما نسبه الموروث الشعبي إلى النبي قوله: «أيها الناس أريد الروم»، لكن المنية فاجأته، فأكمل أبو بكر الصديق وصيته، وراح يستنفر العرب من أجل فتح الشام وليس بيت المقدس وحده، فجهز أربعة جيوش من أجل ذلك»[129].

لذا توجهت أنظار المسلمين إثر استيلائهم على دمشق، صوب القدس، حيث جمع أبو عبيدة بن الجراح أمراء المسلمين للتشاور معهم، فسألوا عمر حول توجههم: إلى القدس أم إلى قيسارية؟ فكانت نصيحة علي بن أبي طالب، وفق الموروث الشعبي، لعمر أن يكون التوجه إلى فتح بيت المقدس، فأومأ عمر بكتاب إلى أبي عبيدة، جاء فيه «قد أشار ابن عم رسول الله بالسير إلى بيت المقدس، وإن الله سبحانه وتعالى يفتحها على يديك»، وحالما استقبل قادة الجيش الكتاب «فرحوا بمسيرهم إلى بيت المقدس» [130]. تحكم شغف المسلمين للالتصاق بالرموز والمعاني المقدسة الراسخة في خيالهم في طريقة سلوكهم وهم يعبرون مدينة الإسراء والمعراج، والقبلة الأولى، وأرض المحشر والمنشر، فكان أول عمل قام به عمر هو السعي إلى معرفة مكان المسجد الأقصى، والصخرة الشريفة التي عرج منها النبي، فسار مع أربعة آلاف من رجاله، إلى أن وصل إلى مكان الحرم الشريف، ففوجئ بأن الرومان حولوه إلى موقع للزبالة، تتجمع فيه الأقذار، فنظر عمر وتأمل يمينا وشمالا، ثم قال: «الله أكبر، هذا والذي نفسي بيده مسجد داوود عليه السلام، وقد أخبرنا رسول الله أنه أسرى به»، ثم بسط عمر رداءه، وبدأ يكنس الزبل المتراكم على أرض الحرم [131].

كان دخول المسلمين إلى القدس يمثل عودتهم إلى مدينة آبائهم في العقيدة، وعودة الصلة بقبلتهم الأولى، وتذكيرا لهم بالأنبياء الذين رسخ ذكرهم في المدينة، وشكل ذلك فرصة لهم ليظهروا تبجيلهم المناسب لها، فبدأوا ذلك في بناء مسجد على أرض الحرم الشريف، وكان مبنى المسجد خشبيا متواضعا، يتماشى مع مبدأ التقشف الذي طبع أخلاق المسلمين الأوائل [132].

القدس في قمة التاريخ والتفسير

لم يتوقف الاهتمام بالقدس مع انتهاء حقبة الخلافة الراشدة في عام 40هـ، بل اتصلت مظاهر تبجيلها طوال التاريخ الإسلامي، إلى يومنا هذا، وإن اتخذت لها أشكالا ومواقف، فلقد حرص معاوية بن أبي سفيان، الخليفة الأموي الأول، على أن يستقبل مبايعيه من الناس في القدس [133]، وصلى في أثناء ذلك عند جبل الجلجلة، أو جبل الصلبوت، وصلى أيضا عند قبر السيدة مريم [134]، ولقد تولى الأمويون الخلافة إثر انشقاق كبير بين المسلمين، فنقلوا خلافتهم إلى الشام، ومن هنا تحرك التحالف غير المقدس بين رجال الدين والسياسة، وقد تجرأ كثير



مئذنة باب السلسلة بالحرم القدسي

من الرواة القصاصين على اختلاق أحاديث منسوبة إلى الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم كما نسبوا قولها على لسان أئمة أجلاء هم أبرياء مما نسبته المخيلة الشعبية إليهم. وأُعيد بناء عشرات الأحاديث النبوية للنبي لتشمل الشام [135]، مثل الحديث الذي يروى عن زيد بن ثابت عن النبي: «طوبى للشام، إن ملائكة الرحمن باسطة أجنحتها عليها» [136].

لقد حرص الأمويون على أن يولوا القدس أميز القادة الأمويين، وأن يكون لها وال وقاض خاصان بها [137]، لكن أميز ما قدمه الأمويون، هو تشييدهم للجامع الأقصى، ومسجد الصخرة، والحرم، بطريقة لا مثيل لها في التاريخ الإسلامي، فقد بدأ عبدالملك بن مروان (65 – 86هـ)، لسعة علمه وفقهه ومعرفته بمكانة القدس، في بناء أسوارها، وبواباتها، ودار الإمارة بجوار الحرم. وتوج أعماله التبجيلية تلك ببناء مسجد قبة الصخرة، وأشرف بنفسه على بنائه، وخصص لبنائه خراج مصر على مدى سبع سنين [138]. وكان لعظمة البناء المشيَّد، ومشهديته الباهرة، أن اعترف «العباسيون بمأثرته» [139].

وبالفعل، امتازت قبة الصخرة بتصميمها الفريد في تاريخ العمارة الإسلامية، امتزج في روعتها الهندسية الذوق العربي بالأسلوب البيزنطي، حيث اشترك في عمارتها بناة من العرب والبيزنطيين، تحت إشراف رجاء بن حيوة، أحد العلماء المسلمين، جليس عمر بن عبدالعزيز، ويزيد بن سلام المقدسي، فهي قد شُيِّدت فوق الصخرة الشريفة، على ساحات الحرم الشريف، بتشكيل ثماني، هو أقرب الأشكال إلى النمط الدائري، المعبر عن اللانهائية.. واستخدموا الحرف العربي، لغة القرآن، في زخرفة الفسيفساء، فتبعث الصفاء الروحي [140].

واعتاد العرب المسلمون، منذئذ، استعمال الحرف العربي في التزيين، وفي إبراز جماليته، فغطت الكتابة الجدران الداخلية والخارجية للمثمن، التي يبلغ طولها 240 مترا [141]، وكُرِّست النقوش التي تعلو الأقواس والأروقة الداخلية للقبة المشيدة فوق الصخرة للآيات القرآنية التي ترد على الفكرة القائلة بأن الله اتخذ ولدا، وتحذر ﴿**إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السماوات وما في الأرض وكفى بالله وكيلا**﴾ ﴿**لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة**

المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعا﴾ (النساء 171 و172) [142]، واستحوذ البناء المهيب على أفئدة المسلمين، ووجد فيه المتعبدون رمزا للطريق الواجب سلوكه للارتقاء الروحي، وأرشدتهم رموز القبة إلى المراحل التي من الواجب سلوكها للوصول إلى الحقيقة الجوهرية للإسلام، فمدخل المسجد ذو القاعدة المثمنة الأضلاع، بقبته الدائرية، يبدو كأنه يمثل العبور إلى السماء، أما القبة الشاهقة المكسوة بالذهب، فيشبهها الرائي بجبل من نور علوي ويدعوه إلى عالم جديد، يوحي إليه بوحدة الله الأزلية، أو شمس ساطعة، تنقل المشاهد بأضوائها المتلألئة إلى أرفع المشاهد سموا.

لهذا كله جذب مسجد الصخرة المتعبدين والأتقياء والصوفية الذين تحلقوا حوله بزواياهم ومدارسهم، أما الوليد بن عبدالملك (ت 596 - 715م)، فقد استأنف نشاط والده في تكريس إسلامية القدس، فأنجز بناءه (المسجد الأقصى) على الهضبة القدسية نفسها، التي أقيم عليها مسجد الصخرة، إلى الجنوب من هذا الأخير، على الطريق الجنوبي من الحرم، وهذا الحرم بناه أيضا الوليد ليحضن داخله المسجد وقبة الصخرة [143]. ولقد أطلق المسلمون اسم «المسجد الأقصى» على الحرم وما بداخله من المسجد الأقصى، ومسجد الصخرة.

ويُعتقَد أن «مسجد الأقصى» احتفظ قسمه الأوسط بترتيبه الأصلي، على الرغم من عاديات الزمن، وما أصابه من أضرار في زمن الصليبيين، والمسجد مؤلف من جناح مركزي عريض تحده أقواس ترتكز على أعمدة، وعلى جانبيه جناحان، وفي صدر المسجد جناح مصالب ضخم تقف عليه قبة في وسطه، وأضيف إليه اثنا عشر جناحا على طرفي الأجنحة المركزية الثلاثة [144]. وترتكز قبة المسجد على أعمدة عند مفترق الأروقة المتفرعة، وهناك تشابه كبير بين الأعمال التزيينية المنفذة في المسجد الأقصى وتلك المنفذة في قبة الصخرة [145].

وقد أقيم الحرم الشريف بطريقة تجعله يحيط كسياج بالمسجد وقبة الصخرة وغيرهما من المنشآت، ويشرف الحرم على سهل اللطرون من جهة الشرق، ويبلغ طوله 280 مترا في الجنوب، و310 أمتار في الشمال، و462 مترا في الشرق، و 491 مترا في الغرب، ويقوم على رواق يرتكز على أعمدة مربعة الشكل. يمكن الدخول إليها من أبواب كثيرة، كان عددها عند تأسيسه خمسين، بقي منها زمن الحنبلي، آخر العهد المملوكي، خمسة عشر بابا [146]، وتبلغ مساحة المسجد الأقصى، أو المكان المحاط بالحرم مائة وواحدا وأربعين ألف متر مربع [147].

وبجوار الحرم شيدت، في عهد الوليد، كثير من الأبنية العامة، تبركا بالجوار، كان أكثرها فخامة قصر الإمارة، المكون من طابقين، وشيدت سلسلة من المباني بمحاذاة الجدار الغربي للحرم، مهيأة لنزول الحجاج، مع بناء حمامات عامة، وهو ما دفع أرمسترونج إلى التساؤل إن كان الوليد قد اعتزم جعل بيت المقدس عاصمة للدولة الإسلامية.

ولما ولي سليمان بن عبدالملك (ت 99هـ - 717م) الخلافة، بُويع في القدس، ودأب سليمان على التردد إليها، وكان يطيل الجلوس في صحن مسجد بيت المقدس، مما يلي الصخرة، يستقبل الوافدين إليه هناك [148].

لم يقتصر إجلال القدس على الأمويين فقط، بل شمل هذا الإجلال عامة المسلمين بمن فيهم المتشيعون لأبناء علي بن أبي طالب، فقد شاع في الخيال الشعبي أن الدماء نزفت تحت أحجار بيت المقدس، يوم قتل الأمويون الحسين بن علي (ت 61هـ)، فيروي البيهقي عن ابن شهاب أنه في صبيحة قتل الحسين لم يُرفَع حجر في بيت المقدس إلا وجد تحته دم. والأمر نفسه حدث يوم قتل والده علي بن أبي طالب [149]، ثم بعد أن تولى العباسيون الخلافة، ونقلوا مركزها إلى بغداد بدلا من الشام، بقوا على تعلقهم بالقدس، بل حاولوا استثمار قدسيتها ليضفوا على سلطتهم الشرعية، فأشاعوا حديثا نبويا يقول «يخرج من خراسان رايات سود لا يردها شيء حتى تنصب بإيليا» [150]، ولقد حرص العباسيون على أن يولوا على فلسطين أمراء من البيت العباسي، أو بعض الشخصيات المقربة منهم، وألحقوا غالبا فلسطين بمصر أو دمشق [151]، وحرص الخليفة المنصور على زيارة القدس مرتين، في عام (141هـ - 757م)، وفي عام (154هـ - 771م)، وأعاد بناء الحرم الشريف بعد أن هدم الجانبين الغربي والشرقي زلزال عام (161هـ - 776م)، كما زاره الخليفة المهدي بن المنصور عام 780م، وأمر بتعمير ما ضربه الزلزال سنة (158هـ - 774م)، فبُنى المسجد بعناية فائقة، بأموال طائلة، وتكون من رواق أوسط كبير يقوم على أعمدة رخام. وتكتنفه من كل جهة أروقة موازية له [152]، وقد عبرت السياسة الإسلامية المتسامحة مع الأديان الأخرى، لأهل الكتاب، عن نفسها، خير تعبير في العهد العباسي، حينما كرست الرؤية الإسلامية العميقة بيت المقدس مدينة مفتوحة للجميع لممارسة طقوسهم الدينية، والإقامة بها والحج إليها، فخص هارون الرشيد (ت 809م) نصارى القدس بالتسامح والرعاية، حتى أنه سمح لشارلمان بترميم كنائسها، وتبادل الهدايا والبعثات معه، ومنح شارلمان عهدا بحماية الحجاج المسيحيين للقدس، وأرسل له مفاتيح كنيسة القيامة [153] ولقد واصل المأمون الخليفة المستنير سيرة والده هارون، وتوج اهتمامه بها بزيارتها مرتين في أواخر عام (216هـ - 831م) وأوائل (217هـ - 832م)، قادما من دمشق في طريقه إلى مصر [154]. واشترك قادته في إعادة بناء المسجد الأقصى، بعد تعرضه للزلزال، وأشرف على إعادة البناء أخوه أبو إسحاق، وبنى واليه عبدالله بن طاهر أعمدة الرخام [155].

وعبر المسلمون عن أن الإسلام دين جامع، يقبل الديانات التوحيدية، وذلك باحتضانهم كل ما يرمز إلى الديانتين اليهودية والمسيحية، وبجمعهم كل ما عفى عليه الزمن من آثار هاتين الديانتين، فيذكر الحسيني «أن معظم الآثار الموسوية في بيت المقدس درس، وأضحى بحق

كبقية الوشم في ظاهر اليد، غير أن الإسلام حافظ على ما تبقى بعد أن عدها من آثار أنبياء الله المرسلين»، وبالتالي من آثار الإسلام نفسه.

كما رُبط بين بعض بوابات الحرم وذكريات عن أنبياء اليهود، وجعلوا مواقع عدة تذكِّر بالمسيح وأمه، فاعتاد المسلمون الزائرون للقدس الصلاة عند موضع «معجزة زكريا» في الركن الشمالي الشرقي من الدكة، ويوجد في أقبيتها محراب مريم ومهد المسيح، ثم يشرفون على وادي جهنم وجبل الزيتون، وهو مكان يوم الحساب. وشيد العباسيون في القرن التاسع بعض الأضرحة والمساجد الصغيرة في الحرم، بما فيها التي أقيمت على الأماكن التي صلى فيها النبي مع جبريل، وأمَّ فيها الأنبياء جميعا، وشُيِّدت عليه قبة المعراج [156].

القدس والكرامات!

لقد جذبت تلك المنظومة الشعبية المقدسة خيال الصوفية، وبالأخص رحلة الإسراء والمعراج، التي ربطت بين عقائد التوحيد من ديانة إبراهيم الخليل حتى محمد - صلى الله عليه وسلم - وأشارت بإحدى دلالاتها الرمزية إلى أن محمدا خاتم الأنبياء ووريثهم، وذلك حين أمَّ الأنبياء جميعا بجوار الصخرة على أرض الحرم، كما ربطت تلك الرحلة بين مكة والمدينة وبيت المقدس في رباط مقدس يمتد في نهايته السحيقة إلى سدرة المنتهى، فضلا عن أنها أضفت معاني قدسية هائلة على أرض «المسجد الأقصى»، إذ انفتح من عليه درب الاتصال إلى السماء، فأذهل هذا المعراج/ المعجزة خيال المتصوفة لاحقا، فباتوا يتقاطرون إلى القدس للتبرك، ولمحاولة استعادة، ولو من الدرجة الثانية، لحظة العروج تلك، جمع الوجدان الشعبي، فيما تضمنه الإسراء والمعراج [157]، بين الرمز القديم للمكان، أو الحيز المقدس، وبين التوجه الأحدث نحو الشخصية المقدسة الصالحة، حيث أصبح بإمكان البشر والأماكن إيجاد الصلة بين ما هو سماوي وما هو دنيوي [158]، وصارت لقصة الإسراء والمعراج إيحاءاتها الأكثر تجسدا بعد أن بنيت قبلة الصخرة في العهد الأموي، وارتفعت شاهقة في التعالي، تظلل الصخرة التي عرج من فوقها النبي، فانجذب المتصوفة المسلمون إلى جوارها، وتحلقوا حولها. وأثر ذلك فيما بعد في تصورهم الشعبي للبراق، في حادثة الإسراء، فقد صاغ العامة له في أذهانهم ورسومهم الشعبية شكلا مشابها للصنتورات في الميثولوجيا القديمة، تلك الكائنات الخيالية التي نصفها العلوي بشر والسفلي حيوان، وهو حصان على الأغلب.

كانت فكرة أن القرآن «كلام الله» قد أذهلت الصوفيين، فخاضوا تجربة استرجاع تلك اللحظة التي بلغ فيها جبريل هذا الكلام للنبي، وقد عبر الإمام جعفر الصادق عن هذه التجربة، حيث يروى عنه أنه خر مغشيا عليه وهو في الصلاة، فسئل عن ذلك، فقال: «ما زلت أردد الآية حتى سمعتها من المتكلم بها»، ويعلق الإمام الغزالي على تجربة الصادق «فالصوفي لما لاح له نور خاصيته التوحيد، وألقي عند سمعه عند سماع الوعد والوعيد،

وقلبه بالتخلص عما سوى الله تعالى، صار بين يدي الله حاضرا شهيدا، يرى لسانه لسان غيره في التلاوة» (159).

آثاريت المقدس بين التاريخ والأسطورة

وقد يحسن بنا الوقوف مع الكم الهائل من الأساطير التي ساقها الموروث الشعبي في كتابات المؤرخين والرحالة عن القدس. فنلاحظ أنها لم تتكون دفعة واحدة، بل استمر كل جيل يضيف إليها من خياله ما يوائم تصورات عهده، وما يزيد من تأثيرها في أذهان محبيها، لذلك فإن الروايات والأفكار التي راجت وتكونت عن مدينة «القدس أو بيت المقدس»، قد تباينت فيما بين الكتابات التاريخية، ووفقا للزمان والأحداث أحيانا، في تناول الأساطير جملة واحدة من دون تفاصيل محددة متتابعة، فكأنهم بدأوا بالنهاية فاختلط الأول بالآخر، ومن دون اعتبار للمراحل التطورية، التي يمكن أن تكون المدينة المقدسة قد مرت بها من دون حساب العوامل والظروف الموضوعية التي كان محتملا وجودها وراء كل خطوة انتقالية.


قبة السلسلة بالقدس

كما لم تخلُ سيرة مدينة القدس وأخبارها من فكرة الشخصيات الحارسة والطلسمات التي كانت تلازم بناء المدينة المقدسة وعمارتها، سواء قبل الطوفان أو بعده. فنجد الروحانيات والجن والشياطين وحكاياتهم المستمدة من الأساطير لها دور في الروايات الخاصة ببناء المدينة وأسوارها وعيونها ومساجدها وأبوابها القديمة تخلق نوعا من الغموض على المستويين الزمني والمكاني للمدينة تحاول فيه مثل تلك الأخبار خلق صيغة زمنية ومكانية قد يكون لأحداث الرواية فيها نوع من المعقولية بالمعنى العادي. مثال ذلك ما رواه كثير من الرحالة والمؤرخين عن عجائب المدينة المقدسة بقولهم: «ومن العجائب التي ببيت المقدس السلسلة التي جعلها سليمان بن داود عليهما السلام معلقه من السماء إلى الأرض شرقي الصخرة مكان قبة السلسلة الموجودة الآن وفيها يقول الشاعر:

لقد مضى الوحي ومات العلا
وارتفع الجود مع السلسلة

وكانت هذه السلسلة لا يأتيها رجلان إلا نالها المحق منهما، ومن كان مبطلا ارتفعت عنه فلم ينلها، وملخص حكايتها - مع اختلاف فيه - أن رجلا يهوديا كان قد استودعه رجل مائة دينار فلما طلب الرجل وديعته جحد ذلك اليهودي فترافعا إلى ذلك المقام عند السلسلة فأخذ اليهودي بمكره ودهائه فسبك تلك الدنانير وحفر جوف عصاه وجعلها فيها، فلما أتى ذلك المقام دفع العصا إلى صاحب الدنانير وقبض على السلسلة ثم حلف بالله لقد أعطاه دنانيره، ثم دفع إليه صاحب الدنانير العصا وأقبل حتى أخذ السلسلة فحلف إنه لم يأخذها منه ومس كلاهما السلسلة فعجب الناس من ذلك فارتفعت السلسلة من ذلك اليوم لخبث الطويات. وحكي غير ذلك وجعل سليمان عليه السلام تحت الأرض بركة، وجعل فيها ماء، وجعل على وجه ذلك الماء بساطا ومجلس رجل جليل، أو قاض جليل فمن كان على الباطل إذا وقع في ذلك الماء غرق ومن كان على الحق لم يغرق».

ومن العجائب التي كانت أيضا في بيت المقدس في الزمان الأول ما حكاه صاحب مثير الغرام أن الضحاك بن قيس صنع به العجائب الأولى، إذ إنه صنع به في ذلك الزمان نارا عظيمة اللهب فمن عصى الله في تلك الليلة أحرقته تلك النار حين ينظر إليها، والثانية من رمى بيت المقدس بنشابة رجعت النشابة إليه، والثالثة أنه وضع كلبا من خشب على باب بيت المقدس، فمن كان عنده شيء من السحر إذا مر بذلك الكلب نبح عليه، فإذا نبح عليه نسي ما عنده من السحر، والرابعة أنه وضع بابا فمن دخل منه إذا كان ظالما من اليهود ضغطه ذلك الباب حتى يعترف بظلمه والخامسة وضع عصا في محراب بيت المقدس فلم يقدر أحد على أن يمس تلك العصا إلا من كان من ولد الأنبياء ومن كان سوى ذلك أحرقت يده، والسادسة كانوا يحبسون أولاد الملوك عندهم في محراب بيت المقدس فمن كان من أهل المملكة إذا أصبح أصابوا يده مطلية بالدهن، وكان ولد هارون يجيئون إلى الصخرة ويسمونها الهيكل بالعبرانية، وكانت تنزل عليهم عين زيت من السماء فتدور في القناديل فتملأها من غير أن تمس، وكانت تنزل نار من السماء فتدور على مثال سبع على جبل طور زيتا ثم تمتد حتى تدخل من باب الرحم ثم تصير على الصخرة فيقول ولد هارون تبارك الرحمن لا إله إلا هو فغفلوا ذات ليلة عن الوقت الذي كانت تنزل النار فيه، فنزلت ولم يكونوا حضورا ثم ارتفعت النار فجاءوا فقال الكبير للصغير: يا أخي قد كتبت الخطيئة أي شيء ينجينا من بني إسرائيل إن تركنا هذا البيت الليلة بلا نور ولا سراج؟ فقال الصغير للكبير: تعالى حتى نأخذ من نار الدنيا فنسرج القناديل لئلا يبقى هذا البيت في هذه الليلة بلا نور ولا سراج، فأخذا من نار الدنيا وأسرجا فنزلت عليهما النار في ذلك الوقت فأحرقت نارُ السماء نارَ الدنيا، وأحرقت ولدي هارون، فناجى نبي ذلك الزمان فقال يا رب أحرقت ولدي هارون وقد علمت مكانهما فأوحى الله تعالى إليه: هكذا أفعل بأوليائي إذا عصوني فكيف أفعل بأعدائي؟» [160]. ويعلق الرحالة ناصر

خسرو على عجائب قبة السلسلة بقوله: «وبعد قبة الصخرة قبة تسمى قبة السلسلة، وهي السلسلة التي علقها داوود عليه السلام والتي لا تصل إليها إلا يد صاحب الحق، أما يد الظالم والغاصب فلا تبلغها، وهذا المعنى مشهور عند العلماء» (161).

ما يهمنا في تلك الروايات هو انشغال الوجدان الشعبي بقصص الأنبياء التي لم تشبع حاجات هذا الوجدان الروحية، فراح يضيف من تصوراته وموروثاته إلى تلك القصص التي حفظتها لنا كتابات الرحالة والمؤرخين، خصوصا في سياق حديثهم عن كل ما يتعلق بالنبي سليمان عليه السلام، إذ سيظل اللقاء الأسطوري بينه وبين ملكة سبأ واحدا من أكثر اللقاءات إثارة للخيال وحتى لكاتب التاريخ، فإن هذا الخيال يشكل - لا محالة - عنصرا أساسيا من عناصر اللقاء، يصعب إن لم يكن مستحيلا إقصاؤه أو تبريره على حد سواء. وما دام هذا اللقاء قد جرى في ظروف أسطورية مفرغة من أي ممانعات واقعية يمكن أن تكبح خيال المتلقي، أو أن تفرض عليه شروط قراءة خاصة، فقد ظلت القصة محتفظة بسحر لا يقاوم، ومفتوحة باستمرار لضروب مختلفة من التأويل وألقت بظلالها على كثير من الحوادث التاريخية الأخرى التي ارتبطت في الذهنية الشعبية بالنبي سليمان وما يرتبط به من آثار ومدن شارك في بنائها خصوصا قصة بناء مدينة بيت المقدس وما بها من عجائب وآثار ومحاريب. وفي كل تلك الآثار السليمانية تكفل الإخباريون الإسلاميون وغيرهم بوضع تفاصيل مدهشة عن تلك الآثار ذات الطابع الغرائبي المفعم بالسحر. وطور الإخباريون اليهود في عصر الإسلام - ورددها من بعدهم الإخباريون من المسلمين - سلسلة من القصص والمرويات عن تلك المدن أو الآثار المرتبطة بالنبي سليمان، ما أضفى عليها في النهاية هذا القدر من الخيالية.

كما أن حقل الأساطير العربية الذي ظل باستمرار حقلا مفتوحا أمام تقبل المرويات والأحاديث والقصص من دون السؤال عن مصدرها أتاح حتى لرجال دين ثانويين وإخباريين هامشيين أن يكونوا في عداد بناة أرضية ميثولوجية عربية ذات طابع ديني، متقبلة، ومروج لها على نطاق واسع. في كتابات المؤرخين والرحالة، ولعلنا نتلمس أثرا لهذا في سياق حديث العديد من الرحالة عن عصا الأنبياء التي أشار إليها الموروث الشعبي في سياق حديثه عن عجائب بيت المقدس بقوله: «وضع عصا في محراب بيت المقدس فلم يقدر أحد على أن يمس تلك العصا إلا من كان من ولد الأنبياء» (162).

ربما تذكرنا كلمة «عصا» هنا بالمعجزات الموسوية العديدة التي ينسبها رواة التراث إلى موسى عليه السلام والتي نجد إشارات لها في القرآن الكريم أو مدونات التوراة، وهي من عادات التراث الشعبي. كعصا موسى التي أبطلت سحر سحرة الفراعنة مجتمعين، وقضيت عليه تماما، وجاء في المثل الشعبي «اضرب عصاتك واجري وراها»، والعصا التي تسير لا ريب عصا سحرية، وهي فكرة شائعة في الآداب الشعبية، بل إن للعصا أحيانا منفعة سحرية، ومن بين اللغات البدائية التي

جمعت بين صفات الكتابة وصفات الزخارف المتكررة عصا المراسلة التي كانت منتشرة في جهات كثيرة من العالم، وظلت قائمة إلى عهد قريب في السويد والنرويج، وكانت الرسائل المراد تسجيلها على العصا تكتب على شكل حروف وجمل على شكل خطوط متقاطعة أو متعرجة تحفر على ساق العصا نفسها كأنها نقشات زخرفية، وفي أغلب الأمر لم يكن لحامل الرسالة من جهة أخرى أي دراية بمضمونها غير أن عصا الرسائل أو المراسلات اتخذت أيضا في بعض الأحيان صبغة سحرية (163).

كما نجد كيف اختلق «الوجدان الشعبي» كثيرا من التفاصيل فيما يتعلق بكرامات ومعجزات عصا موسى التي ورد ذكرها في القرآن الكريم، حيث أورد لنا أخبارا ترسم ملامح ومعجزات وكرامات لا حصر لها تختلف قليلا فيما بين المؤرخين والرحالة والتي جاءت في سياق الموروث الشعبي الذي جمعه لنا هؤلاء المؤرخون. وتكشف لنا عن جوانب أخرى للقراءة الشعبية لسير الأنبياء، حيث يتفاعل فيها الواقع مع الحلم والأسطورة، وتجسد لنا رد الفعل التخيلي للجماعة الشعبية لطبيعة معجزات الأنبياء وأخبارهم. وهو ما نلاحظه في محاولة كثير من الرحالة والمؤرخين تلمس أخبار تلك العصا التي شغلت حيزا لا بأس به في الميثولوجيا الإسلامية، فيقول الرحالة المدجن عبدالله بن الصباح (في القرن الثامن الهجري) في سياق وصفه للحرم المقدسي: «ومحراب مريم بنت عمران مع نخلتها، ومحراب قبة موسى قيل فيه عصاه والتوراة مدفونة والألواح التي جاء بها موسى من عند الله نزلت عليه بجبل الطور» (164).

أما فيما يتعلق برواية الموروث الشعبي عن السلسلة التي ببيت المقدس فهي تؤكد أن الموروث الشعبي في ذلك الزمان كان على معرفة ويقين بأنه ليس هناك اختلاف بين اثنين أن المال والتجارة هما عنوان للشخصية اليهودية بل للوجود اليهودي، في كل مكان من العالم، حتى أصبحت مفردات التجارة والصيرفة والربا لصيقة بالفرد اليهودي وبسلوكه الملتوي. ومن أجل المال والتجارة يمارس الدهاء والمكر والاحتيال، تحت أسماء الشطارة والذكاء وحسن التصرف واستغلال الفرص. ولعل رواية السلسلة تفصح عن دلالات ارتباط اليهودي بالذهب (165) واستعداد اليهودي لأن يفعل أي شيء في سبيل الحصول على الذهب بطرق مشروعة أو غير مشروعة (166).

كما نجد في الرواية أنها رسالة من الموروث الشعبي في المنطقة بأن المال من دنانير الذهب الأصفر لا وطن له، وهو رفيق دائم لمن يحمله. واليهودي حريص على حمله معه ولو في عصاه، فهو يشتري ويبيع ويقرض بربا فاحش، ويقدم المساعدات للحكام والولاة والقادة لتمويل حروبهم، وبالتالي أصبح المال الذهبي أساس التجارة وعصب الاقتصاد في العصور القديمة والوسطى، وبالتالي ألغى «المال» حدود المكان والزمان، كما لا تخلو الرواية من أن اليهود وأهل الذمة في القدس وجدوا الوسائل العادلة

التي تحمي حقوقهم في حال اختصامهم مع الآخر، وهو ما وجده اليهودي من وسيلة عادلة حين اختصمه صاحب الدنانير، أو في سياق الحديث عن باب اليهود الذي يمنع الظلم. وربما كانت رسالة تحذير من الموروث الشعبي للاحتراز في التعامل مع اليهود بشكل أو بآخر!

أسطورية أنوار بيت المقدس!

كما نجد في الرواية إلى أي مدى كان للزيت أهمية في بيت المقدس، فضلا عن أن تقديس الزيت ما زال معتقدا لدى بعض الطوائف إلى اليوم. بوصف قطرات الزيت مصدرا للنور. وقد حرص الخيال الشعبي على تأمين احتياجات بيت المقدس من الزيت فأخرج من خيالاته كثيرا من المرويات التي نسبها إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وكبار الصحابة التي تحتاج إلى التيقن من صحتها، فيقول صاحب مثير الغرام تحت بابا «فضل إسراج بيت المقدس وعمارته وأن الإسراج للعاجز عن التحمل إليه يقوم مقام الزيارة»: «عن أنس رفعه: من أسرج في بيت المقدس سراجا لم تزل الملائكة تستغفر له ما دام ذلك السراج فيه»، ويشير في موضع آخر نقلا عن سلسلة رواة عن الرسول قال «من لم يأت ببيت المقدس فيصلي فيه فليبعث بزيت يسرج فيه» (167)، لاسيما أن الإخباريين قد تكفلوا بوضع عناصر أسطورية حول قيمة زيت بيت المقدس وقدرته على الشفاء من الأمراض، ونلحظ ذلك في القرن الثامن الهجري، في سياق حديث الرحالة المدجن عن الحرم القدسي الشريف بقوله: «وفيه اثنتان وسبعون شجرة من أشجار الزيتون يعصرونها وزيتها يشفى به المرضى»، ثم يعضد من مصداقية حديثه عن بركة زيت الحرم القدسي بقوله: «وكفى أن به سبعة عشر محرابا صلى فيها الأنبياء كلهم» (168).

وبدت القدس في زمن نشأتها مدينة متلألئة كمدن حكايات ألف ليلة وليلة، إذ نجدها مدينة تؤدي فيها الجواهر والمعادن النفيسة ذات الخواص السحرية دورا لا بأس به في إضاءة المدينة المقدسة، فيقول الدينوري في كتابه الأخبار الطوال: «وكان داوود عليه السلام ابتدأ بناء مسجد بيت المقدس، فتوفي قبل استتمامه، فاستتمه سليمان، وأتم بناء مدينة إيليا، وقد كان أبوه ابتدأها قبله، فبنى مسجدها بناء لم ير الناس مثله، وكان يضيء في ظلمة الليل الحندس إضاءة السراج الزاهر، لكثرة ما كان جعل فيه من الجواهر والذهب، وجعل اليوم الذي فرغ فيه منه عيدا في كل سنة، فلم يكن في الأرض عيد أبهى ولا أعظم خطرا منه، ولا أحسن منظرا، فلم يزل المسجد على ما بناه سليمان حتى غزا بخت نصر بيت المقدس، فأخربها، ونقض المسجد، وأخذ ما كان فيه من الذهب والفضة والجوهر، فنقله إلى العراق» (169).

ولا يمكن أن نخطئ الروابط بين هذا الحطام الرمزي في المعتقدات الشعبية وبين الحاجة إلى النور كضرورة لاستمرار الحياة، واتخاذ ما يرمز إليه وسيلة لبلوغ الأرب، دعت الإنسان إلى إشعال الشموع في مزارات القديسين والأولياء وفي أعياد الميلاد، وإلى وضع قناني الزيت

في الأضرحة. والزيت هو مادة النور، وذكر في القرآن لمقاربة التشبيه بالنور الإلهي ﴿يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء﴾ (النور- ٣٥).

على الجانب الآخر، نجد أن القدس أضفت على تاريخها خصوصية شديدة عند ارتباط نشأتها بكائنات غيبية وظروف غامضة، فالجن يبني ويعمر، والسحر والطلسم يحمي ويقهر، وبنيان الأسوار والأبواب يبهر، والراجح أن حكايات السحر والطلسمات والكائنات الغيبية هذه شأنها شأن أخبار الخوارق والمعجزات تعكس قدرا كبيرا من الانبهار والإعجاب الممزوجين بالنقص الحاد في المعلومات التاريخية، ولا غرابة في أن تحظى مدينة القدس بهذا القدر الكبير من اهتمام الموروث الشعبي، فقد كانت محط رحل الأنبياء الذين شكلوا البوتقة النورانية التي تلتقي عندها كل أشكال الموروث الشعبي. من هنا أضفى الموروث الشعبي على مدينة بيت المقدس أبعادا أسطورية حين تخطى حدود العالم المحسوس ليصل إلى طلاسمها وتماثيلها العجائبية التي تتداخل مع العالم اللامرئي والتي يحتمل اقتباس بنيتها من تراث أقدم وتدل على ما أحاط بمدينة القدس من أخبار وأساطير وأوصاف ينعكس بعضها على ما ورد في مدن ألف ليلة البحرية الواقعة في المحيط وغيره. ومن أمثلة ذلك ما تناقله الرحالة والمؤرخون حول ما يسمى «طلسم الحيات» بالقدس، فيقول الموروث الشعبي الذي نقله لنا كثير من الرحالة والمؤرخين: «قال الحافظ بن عساكر قرأت في كتاب قديم فيه وفي بيت المقدس حيات عظيمة قاتلة غير أن الله تعال قد تفضل على عباده بمسجد على ظهر الطريق أخذه عمر بن الخطاب رضي الله عنه من كنيسة هناك تعرف بقمامة، وفيه أسطوانتان كبيرتان من حجارة على رأسهما صور حيات يقال إنها طلسم لها فمتى لسعت إنسانا حيةٌ في بيت المقدس لم تضره شيئا وإن خرج عن بيت المقدس شبرا من الأرض مات في الحال، ودواؤه من ذلك أن يقيم في بيت المقدس ثلاثمائة وستين يوما، فإن خرج منه وقد بقي من العدة يوم واحد هلك»، وذكر الهروي أيضا نحو هذا في كتاب الزيارات له قال صاحب مثير الغرام - رحمه الله: «وقد أخبرني الفقيه شمس الدين محمد بن علي بن عقبة وهو عدل فاضل ثقة أن ذلك اتفق لشخص سماه هو وأُنسيت اسمه كان يلعب بالحيات فلدغته حية فخرج من المقدس فمات، وهذا يؤيد ما ذكراه، قلت وهذا المسجد معروف وهو بحارة النصارى بالقدس الشريف بجوار كنيسة من جهة الغرب، عن يمينه السالك من درج القمامة الخانقاه الصلاحية والذي يظهر أن طلسم الحيات بطل منه والله أعلم. ولما انتهت عمارة مسجد بيت المقدس شرع سليمان في بناء دار مملكته بالقدس الشريف واجتهد في عمارتها وتشييدها وفرغ منها في مدة ثلاث عشرة سنة، وانتهت عمارتها في السنة الرابعة والعشرين من ملكه» [170].

وفي موضع آخر يقول صاحب الأنس الجليل: «إن الضحاك بن قيس وضع كلبا من خشب على باب بيت المقدس، فمن كان عنده شيء من السحر إذا مر بذلك الكلب نبح عليه، فإذا نبح عليه نسي ما عنده من السحر» [171].

وتعكس الروايات السابقة إلى أي مدى انشغلت الذهنية الشعبية في القدس بفكرة الأرصاد والطلاسم والأحراز التي تقي من الأرواح الشريرة وغيرها، يُعرِّف المعجم الوسيط الطلسم بأنه خطوط وأعداد يزعم كاتبها أنه يربط بها روحانيات الكواكب العلوية لطبائع السفلية لجلب أو دفع أذى، وهو لفظ يوناني لنعت كل ما هو غامض ومبهم كالألغاز والأحاجي. ووفق ابن خلدون فإنه إذا كان السحر هو اتحاد روح بروح، ولا يحتاج الساحر فيه إلى معين فإن الطلاسم يحتاج فيها الساحر إلى معين فيستعين بروحانيات الكواكب وأسرار الأعداد وخواص الموجودات وأوضاع الفلك المؤثرة في عالم العناصر.

ولعل الحديث عن طلسم الكلب وطلسم الحيات في بيت المقدس يدل على أنه لم تكن تلك الأفكار المرتبطة بسحرية الصور والزخارف غريبة عن الأفكار التي سادت المنطقة آنذاك، إذ نقرأ في أساطيرنا وقصصنا الشعبي عن الثياب والستور المسحورة المطلسمة التي نسجت عليها زخارف ونقوش من شأنها إكساب لابسها بعض المميزات الخارقة، كما نجد فقرة في سيرة فيروز شاه (وهي إحدى القصص الشعبية المسلسلة الذائع انتشارها): «ثم أخذته إلى صندوق من الحديد ففتحته وأخرجت منه ثوبا مزركشا بالفضة وقفطانا منقوشا بالنقوش الرفيعة وبطلاسم لا يحسن قراءتها إلا كل ساحر، ومصور عليه من الصور أشكال كصور النسر والغراب والباشق وكبار الطيور، والأسد والفيل والكلب وكبار الحيوانات والزواحف، وصور مردة من الجان وشياطين وغير ذلك، مما يبهج النظر ويخيف القلب، فقال لها: لمَ هذه الثياب؟ قالت: إذا لبسها الإنسان يأمن كل سحر، ولا تصيبه عين، فهي منيعة ولابسها يأمن كل غائلة وهذه أعجب ما صنعت» [172].

وفي الحياة الشعبية نرى رواسب ومتبقيات من هذه المعتقدات لا تزال قائمة وتتردد كثيرا في مصنفات السحر الشعبي بأساليب وطقوس متنوعة، فتصنع من رسوم الحيوان طلاسم لتحقيق أغراض مثل صيد السمك، أو نفي العقرب، أو الحدأة، إلى غير ذلك، وهم يقصدون ساعة معينة عند عمل هذه الطلاسم، فعلى زعمهم أن ذلك يجعل الأثر قويا، وفي الحكايات الشعبية ظهرت النصب المطلسمة التي تعقد عندها الرياح العاتية، ومن ذلك ما جاء في حكاية ذي القرنين، حين عبر بجيشه بحر الظلمات، وما ذكر عن النصب الذي أقامه فرعون مصر، فأباد جميع اليهود الذين حاولوا العودة بعد طردهم، حيث صعقهم الصنم المحصن بالأسماء المطلسمة [173].

أما الثعبان أو الحية التي طالما ظهرت مع طلسمات الموروث الشعبي لحماية القدس وغيرها من مدن الشرق الأدنى القديم فهي دون سائر الحيوانات الأخرى لها تاريخ طويل تحفه الأساطير من جوانبه كافة. وتكاد لا تخلو أمة من أساطير دارت حولها، وخلاصة ما قيل عنها أنها تمتلك العشب ذا القوة السحرية، كما نظر إليها كجن أو شيطان له قوة خارقة تلحق الأذى أو الجنون بكل من يحاول إيذاءها، وارتبطت حياة الناس بالحية ارتباطا وثيقا لانتمائها إلى

عالم آخر، ويفوق طاقة الإنسان [174]. كما أن الأفعى أو الحية لعبت دورا مهما في الموروث الشعبي حيث قامت بدور الحارسة أو الحامية للإنسان، كما تقوم بمطاردة من يمثلون الدنس في الجماعة، ولذا لا نعجب حين نجد أن بعض أسوارنا وأبوابنا التاريخية، حتى في العهد الإسلامي، منقوش عليها ذلك الرصد السحري، لإرهاب العدو ومنع دخوله: باب الحيات، باب الأسود... إلخ.

والثابت تاريخيا أن الكنعانيين قد عبدوا «الحية»، أي الثعبان، وقد بدا ذلك واضحا في اكتشاف كثير من التماثيل المجسدة للحية أو الثعبان في منطقة «تل بيت مرسم» بجنوب هضبة الخليل التي تعود للفترة الواقعة بين 2000 و1600 سنة قبل الميلاد، كما ظهرت أشكال الثعابين في تلك الفترة على كثير من الأدوات والأواني الخاصة بالكنعانيين، كما نقشوها على أختامهم (الجعارين) التي عثر عليها في مدينة تل العجول جنوب مدينة غزة.

وأخذت «الحية» مكانها الفاعل في الوجدان الشعبي الفلسطيني وتفكيره على الرغم من الشقة الزمنية الهائلة، فأُطلق عليها عدة تسميات مثل «الحية، الزعرة، الرقطاء، العربيد... إلخ» ودارت حولها العديد من الحكايات الشعبية الفلسطينية، وظلت «الحية» ماثلة في الذاكرة الشعبية الفلسطينية لوجودها وانتشارها في الوسط البيئي على اختلافه: في الصحراء الفلسطينية بالنقب، وبداخل الكهوف الجبلية، وبين نباتاته البرية بداخل حقوله تمثل الرعب لما تتميز به من قدرة على اللدغ والاختفاء بسرعة فائقة ومن دون أن يراها أحد أو يسمع مجرد صوت لها فيسجلون هذا الموقف المرعب بقولهم: «زي الحية بيقرص ويلبد»، «دوا الحية العصية»، «مطرح العقرب لا تقرب ومطرح الهام افرش ونام»، تأكيدا على عدم إيذائه ما دام الإنسان نائما لا يفكر في الاعتداء عليه، في حين قد تلسع العقرب في كل الحالات. وقد تجد البعض من الفلسطينيين يستثمر رأس الأفعى في كثير من الحجب والتعاويذ حيث يتمتمون ويعزِّمون عليه بعد قطعه قائلين: «ثور يا ثار بن بكر» ليضعوه في قطعة من القماش كحجاب للمرأة التي تحلم بأن أحدا يريد ضربها أو التي لا تحمل أو تأخر حملها، كما يضعون فيها حرز يوضع فوق رأس من يشكو الصداع.

ومن الوصفات الشعبية الفلسطينية التي تُستَخدم الحية فيها نجد الشعبيين يضعون رأس الحية أو الأفعى مع تكاكة العلب، بالإضافة إلى سبع خيوط حريرية مختلفة الألوان وسبع إبر طرش (طباعة) وسبع إبر خرس (للخياطة)، ووضعها جميعا في قطعة قماش كحجاب يوضع داخل المخدة. وهناك من يأكل نصف الأفعى «الحية» كوصفة شعبية للرجل الذي لا ينجب [175]، وعلى الرغم من ذلك يؤكد الوجدان الشعبي الفلسطيني أن: «عمر الحية ما بتصير خية»، ولعل معاناة الشعب الفلسطيني من ويلات موجات الاستعمار التي تعرض لها جعلته يعبر عن ذلك بقوله: «إن كانت الحية بتنحط في العب عمر العدو ما بيصير محب» [176].

القدس وطلاسم الأبواب!

والقدس بحكم تاريخها وموقعها، كانت خبرتها طويلة، لأنها خبرة تاريخ وحضارة وتنوع سكاني وديني، وبالتالي كان لهذا كله دور كبير وفعال في تشكيل وتلوين الموروث الشعبي المقدسي في تعامله مع غير الإنسان، من آثار عمرانية أو طير أو حيوان أو نبات أو جماد، نرى رؤيته الخاصة التي تجعل منها عوالم أسطورية تتعانق بحميمية مع حقائق التاريخ، فما من بناء في القدس العتيقة إلا وتروى حوله الحكايات، في بعضها عناصر حقيقية من التاريخ، ومعظمها نسجته المخيلة الشعبية الثرية، وهذا شأن المكان الذي تتراكم فيه طبقات التاريخ، فالأسطورة بقيت في الضمير الجمعي، وعبرت عن نفسها في مفردات التراث العمراني المقدسي الثري، الذي لا يستطاع تفسير كثير من ظواهره الحاضرة إلا من خلال دراسة عملية التطور التي مر بها ورؤية الناس له، إذ هو المسرح الكبير الذي تجلت فوقه خصائصهم وخصالهم بشكل غير عادي، فهو يكشف عن الناس - في العصور الإسلامية - في أفضل أحوالهم وأسوئها في آن واحد.

كانت أول مفردة في منظومة التراث العمراني المقدسي هي الأبواب إذ كان معلما قديما قدم مدن هذا الجزء من العالم، وما برح الرحالة والمؤرخون يشيرون إلى أبواب بيت المقدس. ولتتبلور لدينا الدلالة الحضارية للأبواب بما يعنيه من أمن وأمان من ناحية، كما أنه في الوقت نفسه يعكس دلائل ضعف وخوف من الجماعات الخارجية التي تنظر بعين الحسد، وتتحين أي فرصة لضعف المدينة للانقضاض عليها، إضافة إلى شعور أهلها بأنهم لم يعودوا قادرين على إيقاف الهجوم الذي يهدد بلادهم، وهذا ما نلمسه في طيات حكايات الموروث الشعبي الدائر حول الطلاسم والأرصاد السحرية بأسوار وأبواب المدينة، ومنها أيضا باب التوبة الأسطوري الذي تحدث عنه الرحالة والمؤرخون بقولهم: «إنه بآخر المسجد من جهة الشرق مما يلي محراب داوود مكان معقود به محراب، وقد عرف هذا المكان بسوق المعرفة، ولا أعرف سبب تسميته بذلك، والظاهر أنه من اختراعات الخدام لترغيب من يرد إليهم من الزوار. ونقل بعض المؤرخين أن باب التوبة كان في هذا المكان، وأن بني إسرائيل كانوا إذا أذنب أحدهم ذنبا أصبح مكتوبا على باب داره فيأتي إلى هذا المكان ويتضرع ويتوب إلى الله ولا يبرح إلى أن يغفر الله له، وأمارة الغفران أن يمحى ذلك المكتوب عن باب داره، وإن لم يمح لم يقدر أن يتقرب من أحد ولو كان اقرب الناس إليه» (177). ويضيف القزويني عن سليمان عليه السلام أنه كان قد: «بنى في بيت المقدس بيتا وأحكمه وصقله فإذا دخله الورع والفاجر كان خيال الورع في الحائط أبيض وخيال الفاجر أسود» (178)، واختلق الوجدان الشعبي الأحاديث والتفسيرات والتأويلات لآيات القرآن الكريم لتأكيد قيمة القدس الروحية والعجائبية والمعنوية فيما يتعلق بأسوار مدينة القدس. وتحضر هذه المعاني عند تأويلهم لبعض الآيات القرآنية، كتفسيرهم

للآية ﴿واستمع يوم ينادي المنادي من مكان قريب﴾ (ق: 41) أن المنادي هو إسرافيل، «ينادي من بيت المقدس بالحشر، وهو (أي بيت المقدس) وسط الأرض» [179]. وعن عبدالله بن عمر (ت 65هـ - 684م) قال: «إن السور الذي ذكره الله في القرآن: ﴿فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب﴾ (الحديد: 13) هو سور بيت المقدس الشرقي، باطنه الرحمة، أي المسجد، وظاهره من قبله العذاب: وادي جهنم» [180].

أسطورية جبل بيت المقدس

جذبت جبال القدس إلى زيارتها كثيرا من الصحابة والتابعين، والعباد، للتعبد فيها، والتبرك في مشاهدها، وبعضهم فضل الإقامة فيها، وأحيانا حبذوا الموت والدفن في أطرافها، لاعتقادهم أنها أرض المحشر والمنشر، ولقد استثمر الوجدان الشعبي ملكة الابتكار، وأطلق لخياله العنان كي يبرز مدى التبجيل والتقديس الذي أحاط بجبل زيتا ببيت المقدس، وقد كان الدافع الروحي هو المحرك لخيال الضمير الشعبي الابتكاري فيما يخص «جبل زيتا أو طور زيتا» ،«إذ كان رفع المسيح من طور زيتا» (جبل شرقي بيت المقدس) [181]، أضف إلى ذلك شيوع كثير من الأخبار عن معجزات وكرامات تنسب إلى عدد من المدفونين بسفحه، إذ إن في سفحه عددا لا بأس به من قبور الأولياء والصالحين والصحابة والتابعين والأنبياء، وفيه دفن جماعة من شهداء المسلمين في الفتحين العمري والصلاحي، وفيه دفنت رابعة العدوية المشهورة بين المقدسيين بأم الخير، وكانت أشجار الزيتون تغطيه في سالف الأزمان غير أن الجراد وبني آدم قد أتوا على هذه الأشجار [182]، فضلا عن مزارات يؤمها الناس من المسيحيين والمسلمين مع أهل بيت المقدس ككنيسة الصعود مما سمح للخيال بأن يشكل تاريخ هذا الجبل كما يشاء له، ويقيم بناءه الفني كما يحلو له، مبالغا في محاولته الوصول إلى قلب المتلقي والتأثير فيه. خاصة أن جبل زيتا لم يكن مجرد جبل يلفه الصمت والمهابة، بل كان مسرحا للنشاط اليومي للناس بفضل المأثورات الدينية الشعبية وارتباطه بقصص الأنبياء. يقول صاحب مثير الغرام، نقلا عن سلسلة رواة: «عن خالد بن معدان، قال: حاج جبل بيت المقدس إلى ربه تبارك وتعالى فقال: أي رب خلقتني جبلا فذا ذا كدي، وخلقت الأرض من غيري وفجرت فيها الأنهار، وأنبت فيها الأشجار، وأخرجت منها الثمار فأوحى الله تعالى إليه: يا جبل بيت المقدس، وهل تدري ما مثلي ومثلك، مثل رجل ابتنى قصرا، ثم ابتنى في ذلك القصر دارا، وجعل فيها أهله وماله، عيني عليك بالطل والمطر لا أنساك حتى أنسى عيني، ولا أنساك حتى تنسى ذو رحم ما فيرحمها» [183].

عجائبية وقداسة جبل زيتا تكشف لنا عن مدى تجذر الديني، وأيضا الغيبي، في الوعي وأطر حياتنا، وانعكاس ذلك كله على النصوص في شكل يقين وحقائق لدرجة أن الاقتراب منها أحيانا يعد من المحاذير الكبرى. فالقصة التي افترشت كتابات الرحالة والمؤرخين وأصحاب

الفضائل عن عجائبية جبل زيتا يبدو أنها تأثرت بتلك المفاهيم التي سادت العالم حول أسطورية الجبال، وكذلك ربما تأثرت بمعطيات عبادة العرب للأصنام التي كانوا يزعمون بشأنها: «أن الشياطين تدخل فيها وتخاطبهم منها وتخبرهم ببعض المغيبات» (184) وإيمانهم بحلول هذه القوى الخفية في كل ما حولهم من مظاهر الطبيعة، ولعل بعض الجبال كان لها النصيب الأوفر من ذلك، حتى غدت ذات أثر في حياة الإنسان، وحسبنا معرفة أن الجبال عدت من الأمكنة الأسطورية في ملحمة «جلجامش» كجبل «الأرز»، بوصفه موطن الآلهة، وكان جلجامش وأنكيدو يقدمان له قربانا، طالبين أن يواتيهما الجبل بحلم مطمئن كما جاء في نص الملحمة: وأمام الإله شماس (أي الشمس) حفر بئرا، وصعد جلجامش إلى الجبل (185)، وقدم وجهته إلى البئر، وقال: أيها الجبل أرسل حلما (186).

القدس وسر الخرزة الكنعانية المفقودة!

أما الأخبار المتوارثة عن الملوك الأسطوريين الذين حكموا بيت المقدس والذين أضفت عليهم الميثولوجيا الإسلامية كل ما يلزم من العناصر المنشطة للخيالية في التلقي، فلم يكونوا مجرد شخصيات أدبية نسج صورها خيال المؤلفين الشعبيين، بل كانوا أشخاصا واقعيين تدعم واقعيتهم بعض الشهادات التي لا يرقى إليها الشك كالنصوص الدينية وبعض النقوش التي عثر عليها المنقبون وعلماء الآثار، فضلا عن الأخبار المتوارثة عن بعض الشخصيات الدينية مثل النبي سليمان وداوود عليهما السلام التي تكشف لنا أخبارهم عن مفهوم الدين لدى الناس، وكيف أنه لا ينفصل عن السحر، وتكشف لنا عن جانب مهم من نفسية الناس وتطلعنا على مشكلات كلية تتلخص في نظرة الإنسان إلى الكون الذي يعيش فيه، وأن هذا الوجود الكلي يتمثل منذ أقدم العصور حتى الآن في قوى مرئية وأخرى خفية.

ويتمظهر ذلك في كثير من الروايات التي أدت فيها القوى غير المرئية دورا فاعلا في الواقع والوقائع، وربما تمظهر ذلك عند كثير من الرحالة، مثل الرحالة اليهودي بنيامين التطيلي (القرن السادس الهجري)، في سياق حديثه عن جبل صهيون وأسطوريته ربما خدمة للطرح اليهودي المتعلق بنشأة المدينة فيقول: «وحدث قبل خمس عشرة سنة أن تداعى جدار البيعة الذي على جبل صهيون، فأمر البطريرك بعض أتباعه من الرهبان بإعادة رمه، وأوصاهم بأن يأخذوا الحجارة من أسوار صهيون الشرقية... وحدث أن عاملين تربط بينهما صداقة وثيقة، وهما يشتغلان منفردين، اقتلعا حجارة فوجدا تحتها فجوة تؤدي إلى غار عميق. فقال أحدهما للآخر: «هلم نر ما في هذا الكهف عسانا نعثر على كنز». ولما وجدا نفسيهما وسط قاعة كبرى محكمة، معقود سقفها على أساطين من رخام موشاة بفضة وذهب. وفي القاعة خوان عليه صولجان وتاج من خالص الذهب. يتوسط القاعة قبر داوود ملك إسرائيل عليه السلام، وإلى يساره قبر ولده سليمان وقبور سائر الملوك من آل داود. ووجدوا كذلك صناديق مقفلة لم يعرفا

مضمونها. وبعد أن مضت برهة وجيزة على ولوجهما القاعة، هبت ريح صرصر عاتية طوحت بهما إلى الأرض، فبقيا بلا حراك حتى وقت الغروب، وعندها هتف بهما صوت آدمي يقول: «انهضا وبارحا هذا المكان!»، وهرول الرجلان نحو ظاهر الكهف فأسرعا إلى البطريرك يقصان عليه ما شاهداه وما سمعاه، فاستدعى البطريرك إليه إبراهيم القسطنطيني الناسك وقص عليه الحادث فأيد كون هذا الكهف مرقد الملوك من آل داوود، أما العاملان فإنهما لازما فراش المرض من هول ما شاهداه (187).

ما يهمنا في تلك الرواية هو مدى تأثرها الواضح بالسير الشعبية العربية التي كانت رائجة في المجتمع العربي، بل إن مراجعة كتب الرحالة الجغرافيين العرب والمؤرخين والمفسرين، ومقارنتها بالسير الشعبية تؤكد حقيقة التأثير والتأثر هذه بجلاء ووضوح. كما أن هناك محفزات شجعت القاص الشعبي في مدينة بيت المقدس على أن ينسج هذا النسيج الأسطوري المتعلق بقبر سليمان ووجوده في أحد جبال بيت المقدس، ومن ذلك ما روي عن النبي سليمان وعن كنوزه، وعن تسلطه على عالم الجن. وقد استغل القصص الشعبي ذلك في ملاحمه وسيره الشعبية أبدع استغلال، حين جعل سيف بن ذي يزن في سيرته الشعبية يبحث عن كنوز الملك سليمان، وجعل عاقصة تطلب بدلة بلقيس مهرا لزواجها من عيروض. بل جعل الرهق الأسود من الجن الذين عصوا النبي سليمان، ثم إن سيف آصف بن برخيا الذي كان الملك سيف يقطع به رقاب الإنس والجن، ويختبر به المؤمن الصادق والمسلم المنافق، كان ملكا لأحد وزراء النبي سليمان.

كما أن في سيرة ملك اليمن سيف بن ذي يزن نجد أنه قد حملت الجن الملك سيف إلى مكان كنوز النبي سليمان، وفي أثناء التجوال وجد سيف نفسه فوق جبل شاهق، فسأل سيف الجني أرميش وقال: لكن يا أخي من يحكم على هذا المكان؟ فقال: يحكم عليه أستاذك، وهو الخضر عليه السلام. فقال له يا سيدي فرجني على بعض هذه الأماكن، فقال له مرحبا بك. ووضع يده ومشيا سبع خطوات ووقفا، فهبت عليهما روائح زكية، ونظر الملك سيف فرأى قصورا عالية وفيها قناديل معلقة، وهي قناديل من الجوهر تضيء آناء الليل وأطراف النهار، ولم يكن فيها دهان ولا دخان ولا نار، فلما نظر الملك سيف تعجب وقال: لا إله إلا الله إبراهيم خليل الله، سبحانه خلق الخليقة وأحصاها وبسط الأرض ودحاها، ثم إن الملك سيف التفت إلى ذلك الرجل وقال له يا سيدي: وأنتم كيف تصلون إلى هذه الأماكن وأنتم في مساكن بعيدة عنها، بأي شيء تعرفون الأوقات حتى تصلوا فيها؟ فقال: اعلم يا ملك أن في هذا الجبل ملكا من عند الله إذا جاء الوقت وقف على رأس الجبل ينادي الله أكبر» (188). وتستمر أحداث السيرة حتى حصل الملك سيف على مبتغاه واستولى على كنوز سليمان وفيها بدلة بلقيس التي كانت قد أوصت بأن تكون للملك اليماني بعد أن تفتح له الكنوز بابها فور نطقه بحسبه ونسبه،

وكان من جملة أفعاله أنه سأل جميع الجان الموكلين بالكنوز عن الذخائر فأعجبته ذخيرة واحدة وهي في كنز «كوش بن كنعان»، وهي خرزة ذات أوجه سبعة، وكل وجه عليه اسم خادمه، وكل من يملكها تطيعه الخدام ويطيعه أهل الأقاليم» وبعد عدة تطورات تُسرَق تلك الخرزة بمعرفة الجابية ابنة الملك جبرون وتهرب بها إلى بيت المقدس خوفا من سطوة أبيها، حيث ذاع صيتها في معرفة الغيبيات، وجاء الأمير الفتى «مصر» إليها ليسأل عن خرزته المحبوبة والمفقودة فسلمته إياها بعد أن أحبته وأرادت أن تتزوجه، فوافق مصر ووعدها بأن يتزوج بها فور طلاقها من أخيه» (189).

عجائب أشجار ونباتات القدس

وتخطى البعد العجائبي للقدس في مخيلة الرحالة والمؤرخين ليصل إلى عالم النباتات العجيبة والأشجار الغريبة الأطوار. ذات القوى السحرية التي تعد من أبرز (التيمات) التي انتشرت في كثير من الأساطير والحكايات الشعبية وغيرها من أنواع القصص الشعبي، التي جمعها لنا الرحالة والمؤرخون عن أشجار القدس التي تحتوي على قدرات غرائبية، فيشير صاحب «مثير الغرام» إلى عجائب شجر بيت المقدس فيقول: «عن حماد بن زيد عن عطاء بن السائب أن سليمان بن داوود عليهما السلام سجد في بيت المقدس سجدة ورفع رأسه وحوله نبات وكل شجرة تقول: أنا شجرة كذا وكذا، تدعوه تقول: أنا شفاء من كذا وكذا، حتى قالت واحدة: أنا الخروب أخرب بيت المقدس» (190).

ويضيف الطبري في تاريخه قائلا: «عن مرة الهمداني عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قال كان سليمان يتجرد في بيت المقدس السنة والسنتين والشهر والشهرين، وأقل من ذلك وأكثر، يدخل طعامه وشرابه فأدخله في المرة التى مات فيها فكان بدء ذلك أنه لم يكن يوم يصبح فيه إلا نبتت في بيت المقدس شجرة فيأتيها فيسألها ما اسمك فتقول الشجرة: اسمي كذا وكذا، فيقول لها: لأي شيء نبت؟ فتقول نبت لكذا وكذا. فيأمر بها فتقطع، فإن كانت نبتت لغرس غرسها، وإن كانت نبتت دواء قالت نبت دواء لكذا وكذا، فيجعلها لذلك حتى نبتت شجرة يقال لها الخروبة فسألها: ما اسمك؟ قالت: أنا الخروبة. قال: لأي شيء نبت؟ قالت: نبت لخراب هذا المسجد، قال سليمان: ما كان الله ليخربه وأنا حي، أنت التي على وجهك هلاك وخراب بيت المقدس، فنزعها وغرسها في حائط له ثم دخل المحراب فقام يصلي متكئا على عصاه فمات» (191). كما يحدثنا صاحب الأنس الجليل عن شجرة يقدسها الناس ببيت المقدس ويزورونها ويتبركون بها فيقول: «وبطور زيتا شجرة خرنوب عندها مسجد لطيف وتحت المسجد مغارة مأنوسة ويقصد الناس هذا المكان للزيارة، وتسمى هذه الشجرة خزنوبة العشرة، ولا أدري ما السبب في تسميتها بذلك، لكن اشتهر هذا الاسم عند الناس، والله أعلم بحقيقة الحال»(192).

كما تحدث الموروث الشعبي عن شجر باب الرحمة، فيقول صاحب «مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام»: «لما فرغ سليمان عليه السلام من بناء بيت المقدس أنبت الله له شجرتين عند باب الرحمة: إحداهما تنبت الذهب والأخرى تنبت الفضة، فكان في كل يوم ينزع من كل واحدة مائتي رطل ذهبا وفضة، ففرش المسجد بلاطة ذهبا وبلاطة فضة، فلما جاء بخت نصر خربه واحتمل معه ثمانين عجلة ذهبا وفضة وطرحها برومية» (193). على هذا النحو بنى سليمان مدينة القدس وفرشها بالذهب والفضة والمعادن النفيسة ليتجلى لنا إلى أي مدى يأخذ الوجدان الشعبي في إيجاد حلول عاجلة للمشكلات التي اعترضت مراحل بناء وتجهيز المدينة المقدسة.

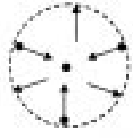
فالانتقال المتخيل الذي قام به الضمير الشعبي إلى عالم الأشجار والنباتات العجائبي، بعيدا عن عالمه الواقعي، ربما ليطرح في هذا العالم رؤاه وآلامه وأحلامه التي لم تتحقق في دنيا الواقع.

خرج الضمير الشعبي بتطلعاته الخيالية بعيدا عن أرضه بحثا عن الحياة المثالية التي يئس من وجودها عليها، فبرزت لديه الدعوة إلى القيم المثالية التي يمكنه تحقيق الخلاص للبشر مما ألم بهم من مفاسد وظلم. ولا يزال الوجدان الشعبي واحدا من أهم الأصوات الداعية إلى القيم الإنسانية الفاضلة، فهو سبيل الرقي وسلم المعالي. ويتمظهر ذلك بوضوح أكثر في سياق حديث الرحالة والمؤرخين عن عجائب إحدى الصخور التي عثر عليها أحد الرواة، فيقول شهاب الدين المقدسي في سماعياته الواردة في كتابه مثير الغرام نقلا عن سلسلة رواة: «... سمعت ذا النون يقول وجدت صخرة ببيت المقدس عليها أسطر محيت لمن ترجمها، فإذا عليها مكتوب كل عاص مستوحش، وكل مطيع مستأنس، وكل خائف هارب، وكل راج طالب، وكل قانع غني، وكل محب ذليل» (194).

الملائكة في القدس!

ولم يكن عجيبا أن تتردد عن القدس الأساطير والحكايات الشعبية في كتابات الرحالة والمؤرخين، ولكن أقرب الأشياء إلى العجب هو إيمان كثير من الرحالة والمؤرخين بحقيقة تلك الحكايات والأساطير، بل والدفاع عنها، فالعجب ليس منصرفا إلى إثباتهم هذه الأساطير عن مصادرهم، وانصرافهم إلى ما جبل عليه الرحالة والمؤرخون من التصديق لأكثرها، بل التدليل على صحتها، وإن كان فيها ما يمجه العقل، ويأباه الذوق، ومن ذلك قول الرحالة عبدالغني النابلسي (الذي زار القدس في العصر العثماني) مدللا على صحة ما ورد في رحلته إلى القدس من وجود ملائكة رآها في ضريح موسى الكليم عليه السلام والذي يقع شرق بيت المقدس فيقول: «عزمنا على زيارة نبي الله موسى بن عمران فسرنا بعد طلوع الشمس بساعتين... بعد قطعنا كل فج عميق وكان وقت الظهر دخل وفات. وكادت تدرك المشاة وفاة،

من شدة الدغر والوعر. فأشرفنا من ذلك الشاهق العالي، ووجدنا ذلك النور المتلألئ وأقبلنا على ذلك الكثيب الأحمر، وقد بُني حوله بالجص والحجر الأغبر، ثم لم نزل نازلين وفي سيرنا مسرعين. إلى أن وصلنا إلى ذلك الحرم الأمين، ثم قمنا إلى جهة المزار العظيم. والقبر الذي أشرقت عليه أنوار الكليم، فدخلنا إلى قبالة القبر الشريف وقرأنا الفاتحة فى ذلك المقام المنيف. وإذ بالخيالات تلمع في داخل تلك القبة بحيث تتحير فيها عيون الأحبة. وهناك من الحضور ما يشهد أنها خيالات الملائكة تصعد وتنزل من حضرة الملكوت على هاتيك التربة المباركة، وقد ذكر الشيخ يوسف بن محمود بن أبي اللطف المقدسي في رسالته ما ملخصه أنه وجد الناس من أهل العلم وغيرهم يبحثون في ذلك عن ثلاثة أشياء: الأول عن هذا القبر المشهور الذي لموسى، شرقي بيت المقدس، على ذلك الكثيب الأحمر وما يظهر في القبة المبنية عليه من داخلها من الخيالات الصاعدة والنازلة على صور مختلفة، وأهل بيت المقدس يقصدونه في كل سنة عقب الشتاء ويقيمون عنده أياما، وقد ظهرت في هذا المكان أشياء من أنواع المعجزات منها اشتعال الأحجار إذا أوقدها الإنسان فإنها تشتعل كما يشتعل الحطب اليابس» (195)، وتظهر أنوار الملائكة كذلك عند الرحالة النابلسي في سياق حديثه عن قبة الصخرة فيشير إلى ذلك بقوله: «فصلينا ركعتين في تلك المغارة المباركة التي لا تزال مهبطا لأنوار الملائكة» (196).



كنيسة القيامة إحدى أهم وأكبر الكنائس بالعاصمة الفلسطينية القدس

وهكذا، حاول النابلسي، أن يلح على توكيد هذا الخبر بما فيه من الأساطير والخرافة - المدركة نكارتها لدى مطالعتها - موهما بصحته، استنادا إلى أقوال السابقين، معتقدا أن العلم والفهم ينفيان الارتياب فيه، بل فيهما الدليل على تصديقه. بيد أننا يجب ألا نغفل حقيقة أن بعض الروايات التي يعدها البعض مجرد حكايات أسطورية قديمة لا يقبلها عقل أو نقل، يعتبرها آخرون من موقع فهمهم الديني وموقعهم الزمني حقيقة تاريخية لا جدال فيها، ويتلمس موظفوها كل سبيل تربطهم بما يحبه الناس وينقادون إليه من حكم وأمثال وأحاديث ومراجع علمية دينية في محاولة من جانب الرحالة والمؤرخين لتقديم رؤية متماسكة للأبعاد الزمنية الثلاثة: الماضي والحاضر والمستقبل، وتحتل الخرافة والأساطير مكان الصدارة من هذه المفاتيح الثلاثة. ولقد استثمر الوجدان الشعبي ملكة الابتكار، وأطلق لخياله العنان كي

يبرز مدى التبجيل والتقديس اللذين أحاطا بسهول القدس، وقد كان الدافع الروحي هو المحرك لخيال الضمير الشعبي الابتكاري في القدس، إذ نجد مثالا لذلك في جعبة الرحالة الفارسي ناصر خسرو علوي في سياق حديثه عن بيت المقدس فيقول: «ورأيت قبة من الحجر المنحوت مقامة على بيت لم أر أعجب منها، حتى أن الناظر إليها ليسأل نفسه كيف رفعت في مكانها؟ ويقول العامة إنها بيت فرعون. اسم هذا الوادي وادي جهنم، وقد سألت عمن أطلق هذا اللقب عليه فقيل إن عمر رضي الله عنه أنزل جيشه أيام خلافته في سهل الساهرة هذا، فلما رأى الوادي قال هذا وادي جهنم فإن الصدى يرتفع من هناك، وقد ذهبت فلم أسمع شيئا» [197] ونجد ناصر خسرو (القرن الخامس الهجري)، حين يسأل عن وادي جهنم، ولا يجد إجابة كافية، يسأل ويدقق ويستنتج، وساعتها يكون أكثر دقة، وأقرب إلى الصواب، فإن عقله الواعي، كان طيعا في إعطائه الجواب الصحيح أو الأقرب إلى الصحة إن ترك له فرصة البحث والاستنتاج.

أما صاحب الأنس الجليل فيقول عن وادي جهنم: «وروي أن عمر رضي الله عنه لما فتح بيت المقدس مر بكنيسة مريم التي في الوادي فصلى بها ركعتين ثم ندم لقوله هذا واد من أودية جهنم، ثم قال وما كان أغنى عمر أن يصلي في وادي جهنم. وعن كعب الأحبار أنه قال لا تأتوا كنيسة مريم التي ببيت المقدس - أي كنيسة الجيسمانية - والعمودين اللذين في كنيسة الطور فإنهما طواغيت ومن آتاهما حبط عمله. وبالقرب من قبر مريم في الوادي المعروف بوادي جهنم بذيل جبل طور زيتا قبة من بناء الروم يسميها الناس طرطور فرعون ويرجمونها بالأحجار»[198]. ويعلق المقدسي بقوله: «وحدثونا عن ابن عباس أن الساهرة هي أرض القيامة بيضاء لم يسفك عليها دم» [199].

عجائب القدس ارتبطت كذلك بالأحلام في كتابات الرحالة والمؤرخين إذ جاءت القدس في الأحلام كجذر مشتعل يضيء التلغيز الغافي ويلغم علاقات الرائي بالحلم وبالرحلة في اشتباك التفسير مقابل التأويل وبتقابل معطيات الحلم التي صيغت بتوجيه معطيات مترسبة في الذاكرة، من جراء تفكير وتأمل وضغوط واقعية، بحقائق الواقع وتمحيصاته، هذا الواقع الذي عالجته وعدلته وساهمت في رسم ملامحه الأحلام والاستيهامات. وقد شكلت القدس، كمكان في الرحلات أو الكتابات التاريخية التي تحدثت عنها، عنصرا قويا لأنها الصفحة التي يتم عليها تسويد الأحداث ونموها، وبالتالي فهي في نص الحلم المتخلل في هذا السياق يحضر استراتيجيا مولدا، لأن بعض الأحلام الواردة في بعض الكتابات التاريخية والرحلات تستدعيها أمكنة النوم التي حضرت بكثرة مع ابن الرحالة المقدسي بقوله: «وسمعت أبا علي الحسن بن أبي بكر البناء يقول كان قبر يوسف دكة، يقال إنه قبر بعض الأسباط حتى جاء رجل من خراسان وذكر أنه رأى في المنام أنه ذهب إلى بيت المقدس وأعلمهم أن ذاك يوسف

الصديق، قال فأمر السلطان والدي بالخروج وخرجت معه، قال: فلم يزل الفعلة يحفرون حتى انتهوا إلى خشب العجلة وإذا بها قد نخرت ولم أزل أرى عند عجائزنا من تلك النحاتة يستشفين بها من الرمد» [200] المكان يؤرخ للحلم ويؤرخ له كونه مكانا مقدسا أو استثنائية تجوز صدقية الحلم وامتداده في الصحو بعد النوم، وتحقق وعوده وإلزاماته. يتمظهر ذلك عند الرحالة ناصر خسرو في سياق حديثه عن زيت بيت المقدس فيقول: «وسمعت من ثقات أن وليا رأى النبي عليه السلام في المنام فقال له: «ساعدنا في معاشنا يا رسول الله»، فأجابه النبي عليه السلام: «على خبز الشام وزيته». والشام هنا يقصد بها بيت المقدس [201].

وترد القدس أو بيت المقدس في الحلم ورودا واضحا ومتعينا حينما يكون القصد منه التبئير، وهو أمر بلغ حدا من التعجب والأسطورة في الأحلام المتخللة في كتب الأخبار والرحلات بشكل خاص ثم بقية السرود العربية الأساسية بشكل غني.

القدس والفردوس الموعود!

يجيء هذا الغنى أيضا من انفتاح العجائبي على السجلات الشعبية والمتخيل بكل أنواعه ومراجعه التاريخية والدينية والثقافية، ما أعطى له أنوية وقنوات تنهض بتشغيل الحكي وتفعيل المتخيل، حيث ارتباطات العجائبي كثيرة إضافة إلى أنه يتغير بتغير العصور والثقافات، وتوجهات الرؤى والتحولات الممكنة في النسق والمرجع. فما يعتبر في عصر ما من باب العجيب قد تزال عنه هذه الصفة فيفقدها في عصر موال. كما يتخذ تلوينات مغايرة مع كل مؤلف جديد حيث العجيب كذلك وفق المسافة التي تفصل بينه وبين تصور مألوف للواقع يزيد من أهميته ظهور عنصر النبوءة ليضفي على المكان قداسة ومهابة، وهو ما يتمظهر بوضوح في حديث الكثير من الرحالة والمؤرخين عن إحدى الآبار التي لها مكانة روحية عند أهل بيت المقدس، وهي «بئر الورقة» فيقول الموروث الشعبي: «بجامع النساء بئر عن يسرة الداخل من الباب الكبير تسمى بئر الورقة وقد ورد في أمر الورقة حكايات وأخبار وأحاديث كثيرة مختلفة، فمن ذلك ما رواه أبو بكر بن أبي مريم عن عطية بن قيس إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال ليدخلن الجنة رجل من أمتي يمشي على رجليه وهو حي فقدمت رفقة بيت المقدس يصلون فيه في خلافة عمر رضي الله عنه فانطلق رجل من بني تميم يقال له شريك ابن حيان يستقي لأصحابه فوقع دلوه في الجب فنزل ليأخذه فوجد بابا في الجب يفتح إلى الجنان فدخل من الباب إلى الجنان فمشى فيها وأخذ ورقة من شجرها فجعلها خلف أذنه ثم خرج إلى الجب فارتقى فأتى صاحب بيت المقدس فأخبره بما رأى من الجنان ودخوله فيها فأرسل معه إلى الجب ونزل الجب ومعه أناس فلم يجدوا بابا ولم يصلوا إلى الجنان فكتب بذلك إلى عمر فكتب عمر يصدق حديثه في دخول رجل من هذه الأمة الجنة يمشي على قدميه وهو حي، وكتب عمر أن انظروا إلى الورقة فإن هي يبست وتغيرت فليست من الجنة

فإن الجنة لا يتغير منها شيء، وذكر في حديثه أن الورقة لم تتغير وورد في ذلك أحاديث بغير هذا اللفظ، ويقال إن الجب هو هذا الذي بالمسجد الأقصى عن يسرة الداخل للجامع» [202].
تلك القراءة الشعبية لعمران القدس جاءت زاخرة أيضا بالحكايات الشعبية والأسطورية والنبؤات والإشارات التلميحية، وهو ما يعكس بوضوح تأثير ذلك النوع من القصص التاريخي الذي كان شائعا في المجتمع العربي يومئذ على أيدي الإخباريين والرواة الذين كانوا يعقدون مجالسهم في المساجد والمحافل وساحات الإنشاد الديني، ولما كانت الرواية شفوية كان لا بد من عنصر الإثارة والتشويق لجذب انتباه السامعين، ومن الواضح أن الرحالة والمؤرخين قد اعتمدوا على جانب كبير من هذه الروايات الشفوية التي تروي تاريخ المدينة المقدسة.

ولعل عنصر اختفاء باب الجنة في بئر الورقة من شأنه أن يؤجج العجائبي المرتبط بالقدس ويعمق مساربه، خالقا نفقا آخر في جسم النص الرحلي والتاريخي للارتباط بالشرايين الأخرى التي تبقى غير بعيدة عن أفق النسق الثقافي الذي أنتج تلك الرواية. فالاختفاء بدوره يؤسس لعوالمه انطلاقا من استحضاره لتأكيد قدسية وعجائبية البئر اعتمادا على السند التاريخي والديني مما يساعد على بناء مسار العجائبي وترسيم خطابه. كما يمثل عنصر الاختفاء في الرواية الشعبية تقاطعا مع الخارق، فعجائبية القدس عموما بهذا الحضور هي مسار استراتيجي في النص الرحلي والتاريخي، والعجائبي متجذر في الثقافة العربية ومرتبط بعناصر/ محفزات تستمد قوتها من التاريخ والدين لتدعيم الرؤية والخطاب [203].

ويبدو أن الحديث عن بئر الورقة يتشابه كثيرا مع حكايات الرحلات الخيالية التي حاولت استشراف الغيب وساعدت على إرواء ظمأ النفس التواقة إلى معرفة شيء عن مصائر البشر بعد الموت. وكذلك عن معرفة أوصاف الجنة وما ينتظر المرء الصالح من نعيم وفواكه وأشجار وعيون بشر بها القرآن الكريم.

فقام الوجدان الشعبي بتلك الرحلة الخيالية إلى الجنة عبر آبار القدس لتعكس آمال الإنسان وطموحاته التي يريد تحقيقها، وذلك بعد أن يقتحم عوامل مجهولة. ربما تكون قد شغفته شوقا لكشف مجاهيلها. فكانت الرحلة إلى الجنة التي شغفته حبا وتطلعا وسيلة لتحقيق الوعد الإلهي الخالد في القرآن الكريم، ووسيلة معرفة واستشراف للمستقبل الذي ينتظر الإنسان، وطريقا يصل المرء من خلاله إلى فكرة أن القدس، كما كانت أقرب الدروب إلى السماء في رحلة المعراج، فهي أيضا أقرب الطرق إلى الفردوس الموعود، ولكي يضفي الراوي على كلامه جوا من الصدق المغلف بالحقيقة يعمد إلى سرد الخبر بأسماء رواة يحرص فيها على التسلسل، لغرس الإيحاء بمصداقية ما يروى وإلباسه ثوب الحقيقة، على الرغم من اتجاهه الفولكلوري الواضح فيقول صاحب «مثير الغرام»: «روي عن ابن عباس ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما مرفوعا: أقرب الأرض إلى السماء بيت المقدس باثني عشر ميلا... وروي عن

علي بن أبي طالب قال: أوسط الأرضين بيت المقدس وأرفع الأرضين كلها إلى السماء بيت المقدس بينهما أربعة عشر ميلا... وعن عمر: صخرة بيت المقدس أقرب بقعة إلى السماء بأربعة فراسخ.. وعن قتادة عن كعب: بيت المقدس أقرب الأرض إلى السماء بثمانية عشر ميلا» [204]، فتأثير قصة الإسراء والمعراج واضح ولا شك في تصورات القاص أو الراوي الشعبي، وقد أتاحت قصة الإسراء فرصة للخيال الشعبي لأن يعبر من خلالها عما يساوره من أفكار إزاء العالم الآخر.

إذن فمدينة القدس كانت مسرحا يستعرض فيه الموروث الشعبي العربي قدراته الفكرية وملكاته الذهنية، يوجه فيها الدعوة بضرورة الاهتمام بالدفاع والذود عن المدينة العتيقة، ويؤكد قدسيتها ومكانتها الروحية. كما كانت روايات «بئر الورقة» بالقدس تصورا أسطوريا للوجدان الشعبي يطرح من خلاله رؤيته للجنة وفهمه لها، وعبر من خلالها عن موقفه من المدينة المقدسة، مستفيدا في ذلك كله من قصة الإسراء والمعراج، ومن التصور الإسلامي للجنة، وإن كان لا يعبر بالضرورة عن صورة الجنة في الإسلام، مما يجعل صورة الجنة في الكتابات العربية هي تصور الوجدان الشعبي لها.

وهو ما نلحظه من أحاديث الرحالة والمؤرخين عن أن مداخل الجنة ومخارجها تبدأ من القدس فيقول الموروث الشعبي معضدا حديثه بأقوال منسوبة إلى الرسول: «روي أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ليلة أسري به رأى الحور العين مكان قبة السلسلة والصحن محيط بقبة الصخرة الشريفة على حكم التربيع» [205]. وفي رواية أخرى أوردها صاحب «مثير الغرام» تقول نقلا عن سلسلة رواة: «بينما الرسول يمشي في صحن المسجد، لقيه جبريل عليه السلام فقال: أتحب أن ترى الحور العين؟ قال: نعم، قال: فأدخله الصخرة، ثم أخرجه إلى الصفة، فخرج عليهن، فإذا نسوة جلوس، فسلم عليهن» [206]، ويتمظهر ذلك أيضا في سياق الحديث عن: «البلاطة السوداء (وهي التي من داخل الباب الشامي من أبواب الصخرة ويعرف هذا الباب بباب الجنة)، حكي أنه رؤي الخضر عليه السلام يصلي هناك والله أعلم ويقال إن قبر سليمان عليه السلام بهذا الباب» [207]، ما يهمنا في الروايات السابقة هو أن صعوبة الوصول والإحاطة بتاريخ بعض الأماكن المقدسة في القدس وأصلها جعلت المؤرخين والرواة والرحالة في حيرة دفعتهم إلى الهروب من المأزق، بمقولة «والله أعلم». واختلق الموروث الشعبي بعض الروايات ونسبها إلى كبار الصحابة لإضفاء المصداقية على ما يقولونه.

ولم يكتف الوجدان الشعبي بعشرات الأحاديث التي تشير إلى وجود أنهار وورقات وأشجار الجنة فضلا عن الحور العين ببيت المقدس، بل إنه أعلنها صريحة ولسان حاله يقول: إن القدس هي جنته، وإنها هي عنده القدس بغير بديل، فيقول شهاب الدين المقدسي تحت باب أسماه «بيت المقدس من مدائن الجنة» عن سلسلة رواة: قال رسول الله - صلى الله عليه

وسلم: «أربع مدائن في الدنيا من الجنة: مكة، والمدينة، وبيت المقدس، ودمشق» [208]، بل كانت القدس هي السماء بعينها في الوجدان الشعبي الذي كان تتوق نفسه إلى أن يعيش ويموت في ترابها بغير بديل، ويشير إلى ذلك صاحب «مثير الغرام» بقوله: «عن أبي هريرة عن النبي - صلى الله عليه وسلم: من مات في بيت المقدس فكأنما مات في السماء» [209].

ولم يعجز الخيال الشعبي عن تبرير أسباب تلك المكانة الربانية التي اختص الله بها القدس والتي اعتبرها من فضائلها، ليجد ضالته في رواية أخرى يعضد بها ما ذهب إليه من تلك المكانة الإلهية مؤداها أنه قيل: «عن عمران بن الحصين قال قلت يا رسول الله ما أحسن المدينة؟ قال لو رأيت بيت المقدس. قال: قلت أهي أحسن منها؟ فقال: كيف لا تكون أحسن منها وكل من فيها يزار ولا يزور وتهدي إليه الأرواح ولا يهدى روح بيت المقدس لغيرها غير أن الله أكرم المدينة الشريفة وطيبها بي وأنا فيها حي، وأنا فيها ميت، ولولا ذلك ما هاجرت من مكة فإني ما رأيت القمر في بلاد أبدا إلا وهو بمكة أحسن، وروي أن موسى نظر وهو ببيت المقدس إلى نور رب العزة ينزل ويصعد إلى بيت المقدس، وعن كعب قال: باب مفتوح من السماء من أبواب الجنة ينزل منه النور والرحمة على بيت المقدس. كل صباح حتى تقوم الساعة والطل الذي على بيت المقدس شفاء من كل داء لأنه من الجنة» [210]، ويضيف أيضا: «وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: قال رسول الله: من أراد أن ينظر إلى بقعة من بقع الجنة فلينظر إلى بيت المقدس، وقال كعب: إن الله ينظر إلى بيت المقدس كل يوم مرتين، وقال أنس بن مالك رضي الله عنهما: إن الجنة لتحن شوقا إلى بيت المقدس وبيت المقدس من جنة الفردوس، والفردوس بالسريانية البستان» [211].

القدس وأسطورة العنقاء!

واستطاع الوجدان الشعبي أن يطوي الزمان والمكان ويغير ما يشاء من أحداث التاريخ ليقدم لنا رؤية شعبية تسير في خط متواز مع القراءة التاريخية للمكان فيقول صاحب الأنس الجليل: «إن الله تعالى تكفل لمن سكن بيت المقدس بالرزق إن فاته المال، ومن مات مقيما محتسبا في بيت المقدس فكأنما مات في السماء، ومن مات حول بيت المقدس فكأنما مات في بيت المقدس، وأول أرض بارك الله فيها بيت المقدس، والأرض المقدسة التي ذكرها الله في القرآن فقال: ﴿إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين﴾ هي أرض بيت المقدس وكلم الله موسى في أرض بيت المقدس، وتاب الله على داوود وسليمان عليهما السلام في أرض بيت المقدس، ورد الله على سليمان ملكه في بيت المقدس، وبشر الله زكريا بيحيى في بيت المقدس، وسخر الله لداوود الجبال والطير في بيت المقدس، وكانت الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم يقربون القرابين ببيت المقدس، وتغلب يأجوج على الأرض كلها غير بيت المقدس، ويهلكهم الله في أرض بيت المقدس، وينظر الله كل يوم بخير إلى بيت المقدس» [212].

وحرصت الحكايات الشعبية المتعلقة بمصر في كتابات الرحالة والمؤرخين على تضمين نصوصها طيورا خارقة ظلت حبيسة الفولكلور والحكايات الشعبية من أجل بناء عجائبيتها وإضفاء طابع المبالغة عليها والإدهاش، لتخرجهم من دائرة المألوف. ويأتي ذلك في إطار حرص الخيال الشعبي على تأكيد قيمة معينة أو رمزية خاصة. فيلجأ إلى تصوير ذلك الشخص أو الكائن في إطار المبالغة والتضخيم لإثبات استمرار الرعاية الربانية للقدس، ويتمظهر ذلك عند الإبشيهي في سياق حديثه عن طائر العنقاء الأسطوري الذي ادعى أنه خلق من أجل حماية القدس من الوحوش التي تحوم حول بيت المقدس فيقول: «حكى الزمخشري في ربيع الأبرار أن الله تعالى خلق في زمن موسى عليه الصلاة والسلام طيرا يقال له العنقاء، له وجه كوجه الإنسان وأربعة أجنحة من كل جانب، وخلق له أنثى مثله ثم أوحى الله تعالى إلى موسى أني خلقت خلقا كهيئة الطير وجعلت رزقه الوحوش والطير التي حول بيت المقدس، قال فتناسلا وكثر نسلهما فلما توفي موسى عليه الصلاة والسلام انتقلت إلى نجد والعراق فلم تزل تأكل الوحوش وتخطف الصبيان إلى أن تنبأ خالد بن سنان العبسي فشكوها له فدعا عليها فانقطعت وانقطع نسلها وانقرضت» [213]، ونلمح تشابها مع قصة العنقاء التي تحمي بيت المقدس في أحسن التقاسيم فيقول المقدسي: «إن الكلب يعدو خلف الوحش، فإذا بلغ ذلك الحد (حد جبل زيتا ببيت المقدس) وقف» [214].

تلك المرويات التي اتخذت سندا دينيا تعكس بالضرورة أصداء اعتقاد المقدسيين والمسلمين والعرب بأن خيرات القدس كانت خيرا إلهيا اختصهم به الله ومنح مدينتهم شهادة الخلود التي جعلتها غير قابلة للزوال أو الاحتلال أو التجزئة أو الاحتواء حتى إن تطاول عليها أقزام في غفلة من الزمن، كما تكشف لنا عن جانب من الأفكار العامية السيارة والشائعة عن القدس يومئذ، في إطار من المعتقدات والعادات والتقاليد التي سادت الخريطة الثقافية للمشرق العربي في ذلك الوقت. كما أن تلك المرويات كانت ترضي حاجة اجتماعية/ ثقافية لشرائح بعينها في المجتمع المقدسي، خاصة بعد الفتح الإسلامي للقدس، وما أيقظه من شعور في الأمم المختلفة التي غُلِبت على أمرها، ما جعل لها تكئة لانتحال الحديث وإرجاعه إلى الرسول. وإيجاد ما يعزز صلتهم بالإسلام، وتقيم لنفسها أمام ملأ المسلمين حجة ناهضة، تدل على فضل ومكانة أمصارهم ومدنهم على بقية المدن والأمصار الأخرى.

العالم الغيبي للقدس

وفي القدس يتحالف الغيبي مع الأسطورة فيحييها، ولا تعود نتاجا ميتا لعصور فائتة، أو سردا لا طائل منه إلا الإغراب أو الإمتاع، بل تظل طاقة حية لا تكف عن توليد الاعتقاد بروحانية القدس وبقوة وسلطان من شيد تلك المدينة، فتعد شهادة متجددة لها. فمدينة كهذه

كان لا بد للعناصر الأسطورية من أن تجد محلا بها في أخبار أصول تلك المدينة وأن تمتلئ سيرتها بالعديد من سمات الأسطورة الموزعة في مختلف كتب الرحالة والمؤرخين الذين كتبوا عنها متأثرين، بروح الموروث الشعبي المثقل بحكايات الجن والعفاريت المساعدة في عمران مدن الشرق الأدنى القديم، واحتفى الخيال الشعبي بتلك المدينة فجاءت رؤيته لها مثقلة بالعناصر الغيبية الأسطورية والخيالية التي لا نجدها أحيانا إلا في قصص وحكايات ألف ليلة وليلة، حيث يصف الرحالة والمؤرخون وكتاب الفضائل أسطورة بناء بيت المقدس بقولهم: «... وخبر ذلك ما روي أن الله عز وجل لما أوحى إلى سليمان عليه السلام أن ابنِ بيت المقدس جمع حكماء الإنس والجن وعفاريت الأرض وعظماء الشياطين وجعل منهم فَريقا يبنون، وفريقا يقطعون الصخور والعمد من معادن الرخام، وفريقا يغوصون في البحر فيخرجون منه الدر والمرجان، وكان الدر ما هو مثل بيض النعام وبيض الدجاج، وأخذ في بناء بيت المقدس وأمر ببناء المدينة بالرخام والصفاح وجعلها اثني عشر ربضا، وأنزل كل ربض منها سبطا، من الأسباط وكانوا اثني عشر سبطا، فلما فرغ من بناء المدينة ابتدأ في بناء المسجد فلم يثبت البناء فأمر بهدمه ثم حفر الأرض حتى بلغ الماء فأسسه على الماء وألقوا فيه الحجارة، فكان الماء يلفظها فدعا سليمان عليه السلام الحكماء الأحبار ورئيسهم آصف بن برخيا واستشارهم، فقالوا: إنا نرى أن نتخذ قلالا من نحاس ثم نملأها حجارة ثم نكتب عليها الكتاب الذي في خاتمك ثم نلقي القلال في الماء، وكان الكتاب الذي على الخاتم لا إله إلا الله وحده لا شريك له محمد عبده ورسوله، ففعلوا فثبتت القلال فألقوا المؤن والحجارة عليها وبني حتى ارتفع بناؤه، وفرق الشياطين في أنواع العمل فدأبوا في عمله، وجعل فرقة منهم يقطعون معادن الياقوت والزمرد ويأتون بأنواع الجواهر، وجعل الشياطين صفا مرصوصا من معادن الرخام إلى الحائط المسجد، فإذا قطعوا من المعادن حجرا أو أسطوانة تلقاه الأول منهم ثم الذي يليه ويلقيه بعضهم إلى بعض حتى ينتهي إلى المسجد، وجعل فرقة لقطع الرخام الأبيض الذي منه ما هو مثل بياض اللبن بمعدن يقال له السامور والذي دلهم على معدن السامور عفريت من الشياطين كان في جزيرة من جزائر البحر فدلوا سليمان عليه السلام عليه فأرسل إليه بطابع من حديد، وكان خاتمه يرسخ في الحديد والنحاس فيطبع إلى الجن بالنحاس وإلى الشياطين بالحديد ولا يجيبه أقصاهم إلا بذلك، وكان خاتما نزل عليه من السماء حلقته بيضاء وطابعه كالبرق لا يستطيع أحد أن يملأ بصره منه، فلما وصل الطابع إلى العفريت وجيء به قال له: هل عندك من حيل أقطع بها الصخر فإني أكره صوت الحديد في مسجدنا، هذا والذي أمرنا الله به من ذلك الوقار والسكينة؟ فقال له العفريت: إني لا أعلم في السماء طيرا أشد من العقاب ولا أكثر حيلة منه، وذهب يبتغي وكر عقاب فوجد وكرا فغطى عليه بترس غليظ من حديد فجاء العقاب إلى وكره فوجد الترس، فبحثه برجله ليزيحه

أو ليقطعه فلم يقدر عليه فحلق في السماء ولبث يومه وليلته، ثم أقبل ومعه قطع من السامور فتفرقت عليه الشياطين حتى أخذوها منه وأتوا بها إلى سليمان، وكان يقطع بها الصخرة العظيمة. وكان عدد من عمل معه في بناء بيت المقدس ثلاثين ألف رجل وعشرة آلاف يتراوحون عليهم قطع الخشب في كل شهر عشرة آلاف خشب. وكان الذين يعملون في الحجارة سبعين ألف رجل وعدد الأمناء عليهم ثلاثمائة غير المسخرين من الجن والشياطين، وعمل فيه سليمان عملا لا يوصف وزينه بالذهب والفضة والدر والياقوت والمرجان وأنواع الجواهر في سمائه وأرضه وأبوابه وجدرانه وأركانه ما لم ير مثله وسقفه بالعود اليلنجوج وصنع له مائتي سكرة من الذهب وزن كل سكرة عشرة أرطال وأولج فيه تابوت موسى وهارون عليهما السلام» [215].

ما يهمنا في رواية تأسيس وبناء مدينة بيت المقدس السابقة أن الذهنية الشعبية متشبعة بالأساطير المتأثرة بالإسرائيليات التي تلح من دون حجة مؤكدة على إرجاع أصل كل المباني في بيت المقدس إلى سليمان عليه السلام، على أن هذا لا ينتقص من أهمية الواقعة في حدودها الميثولوجية، ذلك أنها ارتبطت بالفعل، وعلى نحو ما بأمر إلهى، وتبع ذلك بأمر ملكي من سليمان عليه السلام. كما أن الوجدان الشعبي متشبع تماما بفكرة المزج بين الدين والأسطورة، بل وحتى السحر، وهو لا يزال متغلغلا في حياته الاجتماعية والثقافية والسياسية.

القدس وأساطير المعادن السحرية

وكما أن الميثولوجيا الإسلامية هي التي اقترحت في قراءتها للنص القرآني - من قبل - أن نتقبل من دون سؤال المصدر، شخصية آصف بن برخيا كاتب سليمان، على أنه هو الجني الذي ندب نفسه لحمل العرش الخاص بملكة سبأ والإتيان به في طرفة عين، فإن تلك الميثولوجيا هي التي اقترحت أيضا أن نتقبل من دون سؤال المصدر شخصية آصف بن برخيا كاتب سليمان كي يكون رئيسا للحكماء والأعوان الذين استشارهم سليمان عند بناء مدينة بيت المقدس.

وقد واصلت الميثولوجيا الإسلامية - من دون أدنى تحفظ عن عملها المتقن - تزويدنا بكل ما يلزم من عناصر التلقي المصمم لأغراض تصعيد وتنشيط هذه الخيالية وبث موتيفاتها لإلباس روايتها ثوب المصداقية والخيال [216]، ففي رواية بناء بيت المقدس لعلنا نلحظ ظهور المعادن - خاصة معدن النحاس - بكثرة في أعمال بناء مدينة بيت المقدس (في سياق البحث عن حلول لترسيخ بناء أساس المدينة) في قولهم: «فدعا سليمان عليه السلام الحكماء الأحبار ورئيسهم آصف بن برخيا واستشارهم فقالوا إنا نرى أن نتخذ قلالا من نحاس ثم نملأها حجارة ثم نكتب عليها الكتاب الذي في خاتمك «فوجود النحاس يتكرر كثيرا فيما يتعلق بنشأة المدينة، وعلاقة النحاس بعالم السحر قوية في الآداب الشعبية - ولعل هذا صدى من أصداء الاعتقاد العام حول خواص النحاس السحرية، وهو كثير الظهور في وصف الأبواب السحرية

عادة والقصور والتماثيل العجائبية. فمن المعروف أن الطقوس السحرية والأساطير الشعبية قد تأثرت بالنحاس والبرونز فاتخذت منهما هي الأخرى مادة لتعاويذ السحر استمرت - برغم انقضاء آلاف السنين - تشغل حيزا كبيرا من فكر الوجدان الشعبي حتى يومنا هذا، حيث نرى ما تبقى منها قائما في صورة أسحار أو تمائم أو فوازير متداولة عند الشعبيين.

ونجد أن الصناع الذين اختصوا بتشكيل هذه المعادن، سواء أكانت نحاسا أم حديدا أم برونزا، قد أحيطوا منذ القدم بأساطير رفعتهم أحيانا إلى مرتبة الآلهة. فنجد مثلا في المعتقدات الفينيقية القديمة إلها يدعى «حداد»، وهو إله الرعد. كأنه بأصواته التي يصدرها يدق بمطرقته على السندان، وهو السماء، ليصنع أدوات الحديد [217]، ويقول ابن شاهين في كتاب «الإشارات في علم العبارات»: «إن ابن سيرين حين سئل عن النحاس قال إنه يؤول على أوجه، فمن رأى أنه أصاب نحاسا فإنه يصيب خيرا أو رزقا. وقيل عند النابلسي من رآه فإنه يصيب مالا من قبل اليهود والنصارى»[218]. وسبك النحاس اصطناع معروف لما فعله الإسكندر من سبك النحاس على سد يأجوج ومأجوج. ومن رأى أنه أصاب نحاسا غير معمول فإنه دخان وهول، وإن كان معمولا فهو من الخدم، «وأما السندان» فإنه يؤول بالقوة وربما كان مالا على قدر ثقله. وقال جعفر الصادق: «السندان يؤول على خمسة أوجه: رجل جليل القدر، ومنفعة، وقوة، وولاية، وإقبال في الأشغال».

ومن بين العقائد المرتبطة بالحديد والنحاس أيضا اقترانهما منذ القدم بعقائد كانت تُتخذ منها وسيلة لطرد الشياطين، كدقات الأجراس والآلات الموسيقية المختلفة، مثل المثلث والجُنْك الذي نرى إيزيس الممثلة في كثير من تماثيل دولة البطالمة في مصر ممسكة به، ومتخذة منه سلاحا لطرد الأرواح والشياطين الضارة.

القدس وأسطورة خاتم سليمان عليه السلام

يبدو أن فكرة خاتم سليمان الذي تكمن فيه قوى خارقة كانت سببا في ظهور كثير من المأثورات العربية وغيرها، حيث كان بطل هذه المأثورات «الخاتم المطلسم الذي يحقق الأماني» والذي نجد ثمة علاقة بينه وبين فكرة تحقيق الأماني في تفسير ابن سيرين بقوله: «وأما الخاتم فدال على ما يملكه ويقدر عليه، فمن أعطى خاتما أو اشتراه أو وُهب له نال سلطانا أو ملك ملكا إن كان من أهله، لأن ملك سليمان عليه السلام كان في خاتمه وأيضا فإنه مما تطبع به الملوك كتبها والأشراف خزائنها. وقد يكون من الملك دار يسكنها أو يملكها وفصة بابها وقد يكون امرأة يتزوجها فيملك عصمتها ويفتض خاتمها ويولج إصبع بطنه فيها ويكون فصه وجهها» [219]، ويقول الموروث الشعبي: إن سليمان سخر كثيرا من الجان كعقاب لهم لخدمة بعض الأدوات كعبيد أو خدام يلبون رغبات من يملك هذه الأداة، من ذلك اللوح الذي يتحكم في الجني (عيروض) الذي يخدم سيف بن ذي يزن في سيرة سيف، وكذلك الخادم الموكل



مسجد قبة الصخرة وهو بخلاف المسجد الأقصى

بالسوط المطلسم، والطاقية المخفية، والجراب الذي لا نفد ما فيه، وكثيرا ما تتردد في ألف ليلة وليلة تلك الأقسام التي وضعها سيدنا سليمان الحكيم لقهر الجني - كما يقول الموروث الشعبي - يردد هذه الأقسام الكاهن أو الساحر لإرغام الجني على الطاعة وتنفيذ الأوامر [220]، فذلك كله حلم ومنى ليس لهما من الواقع أصل. ويمثل نوعا من الهروب من الواقع الأليم، هذا الهرب نجده سائدا في القصص الشعبية، حيث يرسم القاص البطل وقد حصل على المال بغير جهد، فهو يلقاه كل صباح «تحت سجادة الصلاة» أو الوسادة، شأنه شأن البطل الذي يقطع الآماد على بساط سحري حين كان الانتقال من بلد إلى آخر مشقة عظيمة. أو أن يحقق الإنسان كل ما يتمنى بحصوله على خاتم سليمان، وهو الخاتم الذي استطاع سليمان به أن يستخدم الجن ويسخرها، فحملت له البساط، وقطعت له الأحجار، وبنت له القصور، وفجرت له الأنهار والآبار، وصورت له التماثيل من خشب ونحاس ومعادن أخرى، كأنها الحياض التي تروي الأرض لطولها وعرضها. وبواسطة هذا الخاتم - كما يقول الموروث الشعبي - ملك سليمان البلاد.

ويقول الموروث الشعبي: إن سر قوة الخاتم والعزائم المرتبطة به ليس في الخاتم، بل في وجود اسم الله الأعظم عليه. وهو ما ظهر جليا في الرواية الشعبية الخاصة ببناء بيت المقدس إذ تقول: «... ثم نكتب عليها الكتاب الذي في خاتمك ثم نلقي القلال في الماء وكان الكتاب الذي على الخاتم لا إله إلا الله وحده لا شريك له محمد عبده ورسوله» [221]، لهذا ظهر في المصنفات

الشعبية عدة صور لخاتم سليمان (خاتم سليمان هو نجمة سداسية استخدمت على نطاق واسع في أعمال السحر المرتبط بالجان، وهناك صور من هذا الخاتم قُسِّم فيها إلى مثلثات أو معينات عمرت بأرقام ترتبط بحساب الجمل، أي القيمة العددية لها). ربما يكون أقرب إلى تفسير مضامين المعتقد من هذه الصور ما يقال إنها تعمل على زيادة القوة الجنسية للإنسان عند جماع زوجته، حيث يكتب في ورقة ثم تشمع، أو ينقش في رصاصة ثم يوضع تحت اللسان عند الحاجة، أو يعلق على الظهر. وحول الخاتم أدعية خاصة وله ساعة معينة وبخور خاص، كما أن له ترتيلا يتلى بطريقة خاصة ويشتهر في هذا الباب حل المربوط أو المعقود، وهو الموضوع الذي يأخذ المكانة الكبرى في مصنفات السحر الشعبي العربي والموروثات الشعبية العربية (222).

القدس في السير الشعبية العربية

جدير بالذكر أن الأساطير والحكايات الشعبية التي صاغها الوجدان الشعبي حول أصول نشأة مدينة القدس لم تتسرب إلى كتابات الرحالة والمؤرخين فقط، بل نجد صداها في السير العربية والشعبية التي إن دلت فإنما تدل على أن وجدان الشعب قادر على طي الزمان والمكان، وفتح المغاليق الموصدة، وحل الطلسمات المجهولة في إطار من الخرافة والخوارق، التي لا تخضع لأبعاد الزمان ومقاييس المكان وطاقة البشر، ومعنى ذلك أن السير العربية والشعبية أصبحت مادة خصبة لدراسة العديد من العناصر الثقافية ذات الجذور الضاربة في القدم، سواء على المستوى المعتقدي أو على مستوى الممارسة الفعلية، أو حتى على مستوى تطور «الحكاية» من ناحية الشكل الأدبي، بدءا بالأسطورة ومرورا بالملحمة والحكاية الخرافية والحكاية الشعبية وصولا إلى الصياغات النهائية التي اتخذتها السير الشعبية والتي تعد الأسطورة من أبرز الأصول الثقافية القديمة التي تمثل مرجعية مهمة للسير الشعبية.

ومن السير الشعبية التي مثلت الأساطير المرتبطة بالمدينة المقدسة إحدى المرجعيات الثقافية لها: سيرة سيف بن ذي يزن التي تمتلئ بالعديد من عناصر وسمات الأسطورة، موزعة في مختلف مواضع السيرة، ومن تلك السمات البارزة في السيرة سمة أسطورية المكان.

والمكان في سيرة سيف بن ذي يزن يتسم ببعد أسطوري واضح يقدمه لنا الخيال الشعبي مزجا بين القياس على الأماكن المحسوسة المألوفة والتصوير الذي اصطنعه ذلك الخيال الأسطوري، ومن هنا تأتي «عجائبيتها وغرابتها ومطلقيتها»، وذلك حتى لو تضمن تقديم هذه العوالم ذكر بعض المعارف الجغرافية اليسيرة، كأسماء البلدان والأنهار والجبال وغيرها، وعلى الرغم من أن السيرة ذكرت أسماء: القدس والحبشة واليمن والمغرب ومصر والشام واليونان والنيل والفرات. فإن هذه الأسماء لم تدل على مواقع جغرافية واقعية، بل كانت دلالات الأسماء مجرد خلفية لعالم أسطوري بالفعل، ومن ذلك القدس التي وردت في السيرة في طور النشأة والتكوين في زمن يستحيل أن يكون هو زمن النشأة الفعلية للمدينة العتيقة أرضا وشعبا.

ولعل عودة عجلى إلى كتابات الرحالة والمؤرخين المسلمين ورواياتهم السابقة عن أصول ونشأة المدينة المقدسة تؤكد حقيقة مؤداها أن المخيلة الشعبية - في العصور الإسلامية - لم تكن تختلف كثيرا عن مخيلة المؤرخين والرحالة والمتعلمين أو المخيلة العلمية آنذاك، حيث تتداخل الأساطير التعليلية والشعبية والدينية وتلتقي عند الخطوط العريضة لنشأة القدس، ما يعني أن القاص الشعبي كان على معرفة وثيقة بهذا الموروث الفولكلوري التاريخي الجغرافي المتعلق بالقدس على نحو يسمح له بإعادة إنتاج هذا الموروث (العلمي بمفهوم ذلك الزمان).

هكذا، إذن، كان احتفاء الموروث الشعبي الذي حفظته لنا الكتابات التاريخية وكتابات الرحالة وأصحاب فضائل البلدان عظيما بالقدس العربية وآثارها التي يرجع تاريخها إلى عصور موغلة في أعماق الزمن، كما أن معظمها يحمل من الآثار المادية ما يدل على أن ثمة حضارة تليدة هي التي أفرزت مثل هذه الآثار العظيمة، بيد أن انقطاع أخبار هذه الحضارة القديمة، نتيجة لبعد الزمان، أفسح في المجال أمام الخيال لسد الثغرة الناجمة عن نقص المعلومات من ناحية، والتعبير عن الرؤية الشعبية للتاريخ الذي أنتج آثار القدس وحضارتها من ناحية أخرى [223].

عتبة خروج

لقد آن لنا أن نضع رحلنا، ونشرع في كتابة تصوراتنا واستنتاجاتنا بعد تلك السفرة المضنية التي قمنا بها إلى أساطير مدينة القدس العربية في كتابات الرحالة والمؤرخين، مع الأخذ بأن الدراسة لا تدعي أنها قد وصلت إلى نتائج مهمة، أو أحكام مقررة في الموضوع. فقد شُغِلت الدراسة بالبحث نفسه، في أكثر الأحيان، عن النظر إلى غاية أخرى غير الاستمرار فيه، على أمل أن تصل الدراسة إلى غايتين: الأولى، أن نقف على بعض سمات الكتابة التاريخية المتعلقة بالقدس، وروحها لدى الرحالة والمؤرخين المسلمين وأصحاب فضائل البلدان، وأنماط التفكير السائد آنذاك. أما الغاية الثانية، فهي محاولة الوصول إلى تفهم نفسية هذا الشعب الذي طالما أكد ولا يزال على عروبة القدس، لأنها أصدق مما قد توصلنا إليه دراسات أخرى، أدق وأعمق، ومرجع ذلك ما حمله الموروث الشعبي لرؤية الناس لتاريخ المدينة المقدسة، وتفسيره لمسيرتها الحضارية، كما تشي بكل ما كان يحرك الوجدان الشعبي من قيم، أو مثل عليا، في إطار من النظام الأخلاقي الذي حكم حركته في الزمان والمكان. ومما يعبر به الناس عن أنفسهم وعما يربطهم بمدينتهم المقدسة بشكل تلقائي.

وإذا كان الظهور الاعتقادي للأساطير أو لرواسبها المعرفية في الإنسان، قد يؤدي إلى تراكم التخلف، فإن الظهور الواعي لها في الإبداع الأدبي والفني، وحتى الفلسفي، يمكن أن يحقق له عمقا تاريخيا ومعرفيا أكبر، ويقدم له صفات جمالية آسرة وغير محدودة. ويدعم جوانبه الوظيفية والتربوية والأخلاقية والاجتماعية والقومية والإنسانية، فيبعده عن الخطاب المباشر، ويضعه على مسار حركي ما بين الواقع الصلب، والمتخيل الثر.

إن انبعاث أسطورة ما، ووضعها أساسا لمسار فكري أو سياسي، يمكن أن يؤديا إلى تغيير مجرى التاريخ في منطقة ما، كانبعاث أسطورة الميعاد في فلسطين، ويمكن لمجموعة من الأساطير أن تُستَغل لتكون الأساس لمنظومة فكرية عنصرية توسعية، متخذة القوة والمنطق السياسي سبيلا لتحقيق غايات معينة. وهو ما يحدث الآن في مدينة القدس التي ظلت أرض صراع دام قرنين من الزمان، من القرن الحادي عشر إلى القرن الثالث عشر الميلادي، وهي الآن أرض صراع استكمل قرنا من الزمان، ولم تظهر بعد فواتح انتهائه.

لقد اختار جماعة من كهنة اليهود، من أجل تحقيق أهدافهم منذ القدم، مجموعة من الشعارات والرموز الملفقة والمثقلة بالخيال، وجعلوا لها مسمى دينيا أسطوريا، لأنهم يدركون جيدا الدور الفاعل والمؤثر للأساطير، فعكفوا على وضع كتابهم الذي سموه «التوراة» ونسبوه إلى موسى عليه السلام، ثم عمدوا بعد ذلك إلى توظيف الخيال الشعبي في كتابهم هذا توظيفا تاما خلال سنوات عمل طوال، خدمة لآمالهم المزعومة، ولقد استطاعوا بهذا الأسلوب أن ينفذوا إلى وعي أتباعهم ويدفعوهم نحو الهجرة والقتال وبذل التضحيات.

إذن فما أنشئ كيانهم إلا تحت عناوين مشبعة بالخيال انتزعوها من وحي أساطيرهم ومدوناتهم التوراتية فأطلقوها، وزمجروا بها، وروجوا لها بكل الوسائل وفي مختلف المناسبات، فهللوا بأساطير من مثل «أرض الميعاد» و«شعب الله المختار» و«هيكل سليمان» و«نجمة داوود» و«ميراث الأنبياء» و«أرض الآباء» و«جبل الرب» و«العرق السامي» وغيرها من أشكال متنوعة، ثم أخرجت على هيئة أساطير ذات تعابير رنانة مؤثرة فاعلة قادرة على الوصول إلى وجدان أصحابها، تبث العاطفة وتهز المشاعر وتزرع الإيمان بالمبدأ والتفاني من أجله، خاصة عند العامة، ولقد تمكنوا بالفعل من أن يجدوا محل القبول ووجه الرضا لدى أتباعهم.

فإذا كان أصحاب المدونات التوراتية قد اعتمدوا هذا السلاح ونجحوا فيه إلى حد بعيد، أفلا يكون من الأولى أن نقف نحن أمام خطواته الناجحة تلك بحيادية وبوعي، وعلى مبدأ تقدير العقل، لندرس حقيقة الأساطير ودورها في حياة الفرد والجماعة، ثم نتفحص الأساطير والمدونات في تراثنا العربي القديم، ما هي وما مضامينها وما هو مصدرها ومن القائم عليها؟ فإن خلصنا إلى أنها مصدر صادق ومعتمد من مصادر التاريخ أوليناها من الدراسة اللائقة ما تستحق، فلعل بها من الكنوز والأسرار ما يعيننا على اختراق النظام المعرفي السائد اليوم والمغلف بسياج حصين، ومن ثم يفتح أمامنا المجال نحو تأسيس نظام معرفي سليم، يوصلنا إلى الحقيقة المغيبة وسط هالات التعتيم وسحب الضباب، التي وصلت إلى حد تجمد فيه الوعي وفقدت الثقة بالذات وبالمقدرات، وإلى حد فشلت الأمة في تبوؤ مكانتها التي تستحقها [224]، فكانت النتيجة، وبكل أسف، أن انحط مقامها وعجزت عن النهوض بأدوارها التي هي قادرة عليها. وإذا قمنا بذلك نكون قد رددنا أسطورتهم

المشوهة تلك بالسلاح الذي صالوا به علينا وجالوا، ولكن بهيئته السوية النقية، أعني بأسطورة الحقيقة والصواب.

ونحن نعرف أن الصراع القائم ليس صراعا دينيا حضاريا فقط، ولكنه صراع سياسي أيضا، ونحن لا نستطيع أن نغفل الصبغة الدينية له، وهو صراع أدت فيه الأسطورة دورا فاعلا ومؤثرا، فالقدس لا يمكن أن تستحيل إلى أنها محض موقع وعاصمة، فهى ليست «برلين» يمكن أن تحل محلها «بون» في الضمير الشعبي الألماني، وهي ليست «إسطنبول» يمكن أن تحل محلها «أنقرة» في الضمير الشعبي التركي [225]. لكنها - كما يؤكد الوجدان الشعبي العربي والمسيحي والإسلامي - «القدس» بغير بديل. وهي لب الصراع القائم، وهي سطوته، ومن ملكها ملك فلسطين كلها، ففلسطين بغير القدس لا تكون أكثر من سيناء مصر أو جولان سورية أو شريط حدود لبنان الجنوبي، قضية تحرير سياسي بحت. ولربما لا نكون مبالغين إذا قلنا: من ملكها أوشك أن يملك الدنيا كلها. فقد روى الموروث الشعبي: «ملك الأرض أربع أنفس، مؤمنان وكافران، فأما المؤمنان فسليمان بن داوود وذو القرنين، وأما الكافران فبخت نصر ونمرود» [226]، فبيت المقدس «لم يبق ملكٌ من ملوك الدنيا إلا قاتل عليه وطمع في امتلاكه» [227].

ولكون الخيال ميدانه طلق تختلط فيه الصور وتتوالد كما تشاء من دون قيد حتى ليصعب إيجاد الفواصل أحيانا عندما نؤصل لنشأة القدس، أرضا وشعبا وعمرانا، فذلك الحدث في ذاته - إن شئنا التأريخ له - سيصبح بلا أدنى شك خارج إطار العصور التاريخية وينتمي بشدة إلى عصور الأسطورة ما يجعله يتخطى حدود الزمن، وهو ما نتلمسه في كتابات الرحالة والمؤرخين في سياق محاولاتهم للتأصيل لنشأة القدس وتسجيلهم لتجاربهم ومشاهداتهم الواقعية، متعدين منطق العقل أحيانا، ومقتربين من الخيال الشعبي والانغماس في عالم الأساطير في وصفهم التفصيلي لآثار وعمران القدس التي قد يكون لها وجود فعلي ملموس أو آثار لا وجود لها في عالم الواقع التي كثيرا ما كانت مرتعا خصبا للخيال تؤدي فيه الملائكة وبعض المخلوقات الأسطورية دورا لا بأس به.

وتنوع المكان عندهم تنوعا كبيرا، من الآبار والعيون التي تسكنها الروحانيات والملائكة، إلى الأسوار المرصودة، والجبال الشاهقة، والصخور المقدسة والأحجار السحرية، والبرك الغامضة، والقصور المطلسمة، ومن عالم الجن والشياطين والسحرة إلى الحيوانات والطيور، والنباتات العجيبة والجواهر المتلألئة، في إطار غرائبي أبدعه المعتقد الشعبي المقدسي، ونقله لنا المؤرخون في كتاباتهم، مستعيرين هيكل الأساطير والحكايات الشعبية، دون المضمون، فلم يستعينوا بشكل الأساطير، والحكايات الشعبية الرائجة، آنذاك. بل اكتفوا فقط بروحها، وصبوه في شكل جيد ممزوج بالحقائق التاريخية. الممزوجة بالمعتقدات الشعبية التي تستند إلى قسط كبير من الخيال. بيد أن ما نسج حول القدس على أنه مجرد أساطير أو خرافات

هو تاريخ حقيقي اندثر تحت عدة طبقات من الأخبار والقصص الشفاهية لإضفاء طابع غرائبي على الأحداث. فالميثولوجيا العربية الإسلامية تتضمن التاريخ ولكن لا تقوله، ويتعين علينا باستمرار أن نستنطق هذه الميثولوجيا عبر إبداء أقصى جهد ممكن لإزاحة ما تراكم من طبقات الخيال السميكة لنعرف من نحن وإلى أين؟ الأمر الذي يمكننا من أن نظهر صلتها بالعقائد والطقوس التي سبقتها في الأزمنة الغابرة، فنبين بهذه الكيفية تشكل الطقوس القديمة بعقلية العصر الذي انتهت إليه، ما يساعدنا على تقديم قراءة مفتوحة لتلك الممارسات الشعبية ولتاريخ المدينة كلها، لاعتقادنا بأهمية الوعي بالموقف الراهن للثقافة الشعبية، وإدراك مكوناتها وعناصرها، وطرحها كوثيقة علمية تاريخية أكثر صدقا واحتراما - أحيانا - من الحولية والوثيقة أو البردية التاريخية التقليدية، إذ إنها - الوثيقة الرسمية - لم تعد تكفي لتوضح لنا وضع المجتمع، والكيفية التي رأى بها أصحاب ذلك المجتمع أنفسهم وأرضهم، والصورة التي يرسمونها لأنفسهم أو يضعون ذاتهم وتاريخهم داخل إطارها.

فلا يزال هذا الموروث يحتل مكانة مهمة في حياتنا الشعبية، ويشكل جزءا لا يستهان به من إطارنا الثقافي، ويرتبط بوشائج خاصة بكل من العالم الفيزيقي والعالم الغيبي، وأضحى جزءا لا يتجزأ من تاريخ الوطن والمجتمع والذي هو الشوق حقا إلى الحياة. وهو يحتاج إلى دراسات تجلي غوامضه وتزيل الصدأ، وترفع منه العوالق وتقدح فيه شرارة الوعي (بتجنب سلبياته التي فرضت علينا قيودا من السلوك والفكر) لتعطي صورا أكثر مصداقية عما حوته الكتابات التاريخية ذات الصبغة التقليدية الرسمية، فالفهم الدقيق للموروث الشعبي هو عصب السياق الحقيقي للتعامل معه، ومن ثم يجب أن ننظر إليه من داخل أنفسنا، ومن خلال أيديولوجية الجماعة الشعبية، بحثا عن مصادر الإلهام فيه باعتباره إنتاجا ثقافيا ينطوي على الذات الحضارية.

وقصارى القول: قد لا يعتبر هذا البحث متكاملا في فكرته، فربما ظهرت فيه بعض ثغرات، ولكنه يعتبر في مجموعه محاولة لإثارة الوعي أو قل «عودة الوعي» بتراثنا الحضاري المتعلق بالعاصمة الفلسطينية: القدس، وهو يصدر عن رؤية تلتمس في الماضي التفسير الشعبي لتاريخ القدس. أو ما يمكن أن نسميه «البعد الثالث» للدراسات التاريخية المتعلقة بالمدينة المقدسة، أي التفسير النفسي والوجداني ورؤية الجماعة الإنسانية لذاتها ولمدنها وللكون والظواهر والأحداث من حولها.

وختاما، فما من خاتمة فنحن لم نبدأ بعد في دراسة وتحليل المصادر التاريخية والسرديات والمدونات العربية المتعلقة بالقدس، على الوجه الأمثل. ولم نبرز دلالات ما حملته من أخبار وحكايات شعبية وأساطير لا نزال نرفضها في البحث، ولا نعتمد عليها على الرغم من أنها كانت هي التاريخ الذي يصدقه آلاف وآلاف من الناس - عامة وخاصة - والتي كانت هي التاريخ الذي عاش ولا يزال يعيش عليه كثير ممن يفوقون قراء الكتب العلمية عددا وإيمانا بصدق التاريخ... فلنبدأ ... ربنا زدنا علما وتواضعا ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما.

الهوامش

1 قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك التاريخ السياسي والاجتماعي، القاهرة 2008، ص202، مازن عوض الوعر: التفكير اللغوي عند الجغرافيين والرحالة العرب، مجلة التراث العربي - دمشق 2006، العدد 104، السنة السادسة والعشرون - ديسمبر، ص23.

2 محمد الفاسي: الرحالة الشهير أبو عبدالله محمد العبدري، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، مجلد 9 و10، مدريد 1962، ص1.

3 كراتشكوفسكي: الأدب الجغرافي عند العرب (ج1، ترجمة: صلاح الدين عثمان، القاهرة، 1965)، ص 332.

4 لم يحظ الأدب الشعبي العربي بالقيمة الفنية الاعتبارية اللائقة به على المستوى الرسمي، وظل، بعد معرفته الطويلة، مهمشا ومنبوذا، وبعيدا عن التناول والدرس، والبحث والتقصي لأسباب عديدة، في طالعها: عدم اهتمام أولي الأمر والولاة والأمراء والملوك وأصحاب الأدب به لأنهم جميعا عدوه أدبا للعامة، يحتفي بالصعاليك، والشذاذ، والجواري والقينات، والمعارك الوهمية، وطقوس السحر والشعوذة، وفنون الاحتيال والمداورة، والتشاطر الكاذب (من الشطارة)، وبالحكايات التي لا تؤهلها خرافاتها أن تدون وتسجل في القراطيس، ومن ثم لأن منشئي الأدب الشعبي كانوا يحتفون بالسجع، والترادف، والتوازن، والإطناب، والتطويل، والالتفات، وبصياغات بعيدة عن نهج البلاغة العربية، ومن بعد هذا كله لأن مصنفي الأدب العربي وناسخيه عدوا الأدب الشعبي بلا قيمة أحيانا لما فيه من سلوكيات وأساليب بعيدة عن الأخلاق وتوجهاتها، وأحيانا لأنه يدور في عوالم الخيال والإضافات كالغولة، والعفاريت، والبحور السبعة... إلخ. إضافة إلى ما سلف، اقتنع مصنفو الأدب العربي بأن كثيرا من الأدب الشعبي أدبٌ وظيفي - شفهي، حاضنته الأساسية، بل موزعته الأساسية هي الجدات اللواتي ابتدعن الخرافات، والحكايات من أجل السمر في الليالي، وهدهدة الأطفال وتخويفهم حصرا من الليل والعتمة. للمزيد راجع دراسة عمرو عبدالعزيز منير تحت عنوان «الحضارة المصرية القديمة بين المعتقدات السحرية والأساطير العربية» مكتبة النافذة، القاهرة 2008، ص8، الأساطير المتعلقة بمصر في كتابات المؤرخين المسلمين (دار عين)، الطبعة الأولى، القاهرة 2008، ص5.

5 مصطفى مراد الدباغ، بلادنا فلسطين، الجزء الأول، القسم الأول، بيروت 1965، صفحة 41.

6 لوران جاسبار، تاريخ فلسطين، منشورات وزارة الدفاع السورية 1969، دمشق، صفحة 55، شمس الدين الكيلاني: رمزية القدس الروحية، قداسة المكان (منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق2005م)، ص 18.

7 شمس الدين الكيلاني: رمزية القدس الروحية، قداسة المكان، ص 19 وما بعدها.

8 محمد محمد حسن شراب: بيت المقدس والمسجد الأقصى. دار القلم. دمشق 1994. صفحة 38 - 43.

9 خالد عبدالرحمن العك: تاريخ القدس العربي القديم، مؤسسة النوري، دمشق 1986. صفحة 38. شمس الدين الكيلاني: رمزية القدس الروحية، ص 20وما بعدها.

10 شراب. مرجع سابق، صفحة 34، شمس الدين الكيلاني: مرجع سابق، ص27.

11 مصطفى مراد الدباغ، صفحة 56.

12 فيليب حتى، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج1، ترجمة جورج حداد وعبدالمنعم رافق، بيروت 1985، ص 223.

13 جاسبار، صفحة 37، شمس الدين الكيلاني: رمزية القدس الروحية، قداسة المكان، ص20.

14 المصدر السابق، صفحة 44 - 48، شمس الدين الكيلاني: مرجع سابق، ص22.

15 شراب، مرجع سابق، صفحة 64.

16 ياقوت الحموي. معجم البلدان، الجزء الأول، اختيار عبدالإله نبهان، وزارة الثقافة. ص 168 - 171.

17 شهاب الدين أبي تميم المقدسي (ت765هـ):مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام (تحقيق: أحمد الخطيمي، دار الجيل، بيروت)، ص211.

18 ناصر خسرو علوي: سفرنامة (ترجمة يحيى الخشاب، سلسلة الألف كتاب الثاني،العدد 122)، ص67.

19 نبيه العاقل، موقف سكان بلاد الشام من الفتح (ندوة) المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام. عمان 987، ص 164.

20 المصدر نفسه، ص153. وانظر شمس الدين الكيلاني: رمزية القدس الروحية، قداسة المكان، ص23.

21 الطبري، ج1، ص209.

22 ينظر للطوفان كحدث عالمي لكثرة انتشاره وإن بتفاصيل مختلفة يقترب بعضها من الحادثة الحقيقية التي حدثت كما في أساطير السومريين والبابليين، ويبتعد بعضها الآخر عن تلك التفاصيل بحيث يطغى الخيال على الحقيقة كما في أساطير الإغريق والهنود، وتبدو رواية التوراة والطوفان متشابهة مع رواية الطوفان في الأساطير السومرية والبابلية. أما القرآن الكريم فقد أجمل القصة كما ذكرنا ولم يحدد مكان وزمان الطوفان، ولم يحدد من كان مع نوح، لكن أكد حقيقة الطوفان: للمزيد انظر:

محمد خليفة حسن: الأسطورة والتاريخ في التراث الشرقي القديم، ص37 - 50،

مجموعة من الباحثين: طوفان نوح بين الحقيقة والأوهام (سلسلة السراة، الطبعة الأولى، البحرين، 2005)، ص12،

كارم محمود عزيز، النموذج الفولكلوري للبطل في العهد القديم دراسة مقارنة، رسالة دكتوراه – غير منشورة – المعهد العالي لحضارات الشرق الأدنى القديم، جامعة الزقازيق 1997، ص45 - 145،

فراس السواح: مغامرة العقل الأولى، ص157 - 210،

محمد الحامدي: الطوفان بين الحقيقة والأسطورة (مجلة التراث العربي، العدد 58، دمشق 1995)، ص67.

23 قسم أوجسطين تاريخ العالم إلى عصور ستة وجعل مجرى العصور الستة مماثلة لمراحل عمر الإنسان وكانت غايته أن يوضح أن الوجود الإنساني سوف ينتهي بعودة المسيح وقيام القيامة في اليوم السابع، وجاء التقسيم على النحو التالي: من آدم إلى الطوفان، من الطوفان إلى إبراهام، من إبراهام إلى داوود، من داوود إلى الأسر البابلي، من الأسر إلى ميلاد المسيح، العصر الحاضر أنظر:

قاسم عبده قاسم: تطور منهج البحث في الدراسات التاريخية، ص45،

بيريل سمالي: المؤرخون في العصور الوسطى (ترجمة: قاسم عبده قاسم، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة 1984)، ص 39،

آلبان ويدجري: التاريخ وكيف يفسرونه من كنفوشيوس إلى تونبي،(ترجمة: عبدالعزيز جاويد، سلسلة الألف كتاب الثاني، العدد 221، القاهرة 1996)، ص 183.

24 فراس السواح: مغامرة العقل الأولى دراسة في الأسطورة السورية وبلاد الرافدين، الطبعة العاشرة، دار علاء الدين، دمشق 1993، ص157.

25 أحمد عثمان: تاريخ اليهود (الجزء الأول، مكتبة الشروق، القاهرة 1994)، ص5.

26 ذكرت قصة «نوح» في عدة سور بشيء من التفصيل في «الأعراف» و«هود» و«المؤمنون» و«الشعراء» و«القمر» وسورة نوح، وتختلف الآيات بالألفاظ وفق ما تكون الغاية من إيراد الآيات والمراد من معناها. وروت التوراة في سفر التكوين في الإصحاح السادس والسابع والثامن قصة الطوفان، فأسهبت في سرد الأحداث، وبينت الأسباب والنتائج. ورواية التوراة فيها عناصر مشابهة للعناصر الموجودة في أساطير بلاد ما بين النهرين، وتختلف عنها في جوانب أخرى، وقد أثرت هذه الرواية في كل أتباع الأديان الثلاثة: الموسوية والمسيحية، والإسلام.

27 **السامية**: نسبة إلى سام بن نوح (أما الحامية: فهي نسبة إلى حام بن نوح)، واليافثية نسبة إلى يافث بن نوح.

28 المقريزي (تقي الدين أحمد بن على بن عبدالقادر بن محمد - ت845هـ): الخطط المقريزية المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (أربعة أجزاء، طبعة سلسلة الذخائر من طبعة بولاق، الأعداد 51 - 54، القاهرة 1999)، ج1، ص 325.

29 المقريزي (تقي الدين أحمد بن على بن عبدالقادر بن محمد - ت845هـ): ضوء الساري لمعرفة خبر تميم الداري (مخطوط مصور غير محقق، بالمكتبة الخاصة للمؤلف)، الورقة الثانية.

30 ابن خلدون (عبدالرحمن بن خلدون - ت808هـ): تاريخ ابن خلدون (الجزء الثاني، سلسلة الذخائر، العدد 154، القاهرة 2007)، ص 5.

31 المسعودي (أبو الحسن على بن الحسين) ت346هـ: أخبار الزمان ومن أباده الحدثان من الأمم الماضية والأجيال الخالية (ط.الأولى، الرياض 1415هـ)، ص58.

32 البيروني (أبي الريحان محمد بن أحمد): الآثار الباقية عن القرون الخالية (مكتبة المثنى، بغداد، د.ت)، ص24.

33 محمد فيض الله الحامدي: طوفان نوح بين الحقيقة والأسطورة، ص67، مجموعة من الباحثين: طوفان نوح بين الحقيقة والأوهام، ص217.

34 مجير الدين الحنبلي: الأنس الجليل،ج1، ص112.

35 شعيب حيليفي: الرحلة في الأدب العربي التجنس، آليات الكتابة، خطاب المتخيل (كتابات نقدية، العدد 121، القاهرة 2002)، ص448.

36 القزويني: (زكريا بن محمد بن محمود - ت682هـ): آثار البلاد وأخبار العباد، (جزآن، الطبعة الأولى، سلسلة الدراسات الشعبية، العددان 77 و78، القاهرة 2003)، ج1، ص149.

37 ابن عساكر الإمام الحافظ أبوالقاسم علي بن الحسن بن هبة الله الشافعي. تهذيب تاريخ دمشق الكبير. الشيخ عبدالقادر رثبة بدران. (ج1. دار المسيرة، ط2، بيروت 1979). ص 22.

38 أحمد سوسة. العرب واليهود في التاريخ، العربي للنشر والطباعة والتوزيع ط8. دمشق بدون تاريخ، ص 70.

39 المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين - ت346هـ): مروج الذهب ومعادن الجوهر(أربعة أجزاء، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، الطبعة الخامسة، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض 1973). ج1. ص35.

40 مصطفى مراد الدباغ. القبائل العربية وسلائلها في بلادنا فلسطين، بيروت، 1979، ص 174.

41 ابن كثير (الحافظ أبي الفداء إسماعيل ابن كثير القرشي - ت774هـ): البداية والنهاية، (الطبعة السادسة، دار المعرفة، بيروت، 2001) ج2. ص 156.

42 المصدر نفسه، ج1. ص 196.

43 المسعودي. مروج الذهب. ج2، ص 106 - 110، اليعقوبي. تاريخ اليعقوبي. ج1. مصدر سابق. ص 234 - 240.

44 ابن كثير. ج1. مصدر سابق. ص 44. والطبري. ج1. ص 203 و204.

45 ابن كثير. المصدر نفسه. ص40.

46 ياقوت الحموي. معجم البلدان. ج1. دار صادر. بيروت. 1955. ص375.

47 المصدر نفسه. ص375.

48 ابن الكثير. ج1. مصدر سابق. ص97.

49 المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم (طبعة بريل، الطبعة الثانية، ليدن 1909)، ص151.

50 مجير الدين الحنبلي. ج1. مصدر سابق. ص22.

51 ابن حوقل. أبو قاسم النصيبي: كتاب صورة الأرض (منشورات مكتبة الحياة. بيروت 1992)، ص153.

52 شهاب الدين أبو عمرو بن تميم المقدسي. مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام. (تحقيق أحمد الخطبي دار الجيل بيروت من دون تاريخ. ج1). ص85 و86.

53 ابن كثير، ج9. مصدر سابق. ص154. وابن عساكر ج1. مصدر سابق. ص196.

54 ابن عساكر. ج1. مصدر سابق. ص37.

55 ابن زولاق (الحسن إبراهيم بن الحسين الليثي - 387:306هـ): فضائل مصر وأخبارها وخواصها، (تحقيق: علي عمر، س. مكتبة الأسرة، القاهرة 1999م)، ص12، المقريزي: الخطط، جـ1، ص25، الإسحاقي (محمد بن عبدالمعطي بن أبي الفتح بن أحمد بن عبدالغني بن علي المنوفي): أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول، (سلسلة الذخائر، العدد 35، القاهرة 1998م)، ص8.

56 أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن الجوزي: المنتظم في التاريخ (طبعة مكتبة السعادة، القاهرة، د.ت)، ص7.

57 ابن حوقل: مصد سابق، ص88.

58 السيوطي (جلال الدين - ت 1911م): كوكب الروضة في تاريخ النيل وجزيرة الروضة) تحقيق: محمد الششتاوي، الطبعة الأولى، دار الآفاق العربية، القاهرة 1997م) ص338.

59 ابن الجوزي: تاريخ بيت المقدس، ص11. المقدسي: أحسن التقاسيم، ص187.

60 أبو حسن الربيعي المالكي. فضائل الشام ودمشق. تحقيق: صلاح المنجد. المجمع العلمي العربي. دمشق. 1950. ص 9.

61 الحنبلي، ج1. مصدر سابق. ص 228.

62 إبراهيم زيد الكيلاني، المراسلات النبوية مع بعض القبائل العربية في جنوب الشام. (ندوة المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام. عمان. 1997). ص 85.

63 أكرم زعيتر: القضية الفلسطينية (القاهرة 1955م). ص 25، شمس الدين الكيلاني: مرجع سابق، ص69.

64 أبو الحسن علي بن محمد الربيعي المالكي. فضائل الشام ودمشق (تحقيق وتقديم صلاح الدين المنجد. دمشق 1950. «مقدمة المحقق») ص13 و14.

65 المصدر نفسه، ص 4.

66 المصدر نفسه، ص 26.

67 المصدر نفسه، ص 29.

68 المصدر نفسه، ص 36 و37.

69 قاسم عبده قاسم: تطور منهج البحث في الدراسات التاريخية، ص139.

70 قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور (الطبعة الثانية، دار عين للدراسات، القاهرة 1998م)، ص 56.

71 حاجي خليفة. كشف الظنون، ج2. بيروت دون تاريخ. ص 124.

72 د. محمود إبراهيم، فضائل بيت المقدس في مخطوطات عربية قديمة. المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. الكويت 1985. ص 75.

73 شمس الدين الكيلاني: مرجع سابق، ص 69 - 71.

74 المقدسي: مصدر سابق، ص 5.

75 نفسه، ص17.

76 علي السيد علي: القدس في العصر المملوكي (الطبعة الأولى، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة 1986م)، ص260 و261.

77 سليم عرفات المبيض: ملامح الشخصية الفلسطينية في أمثالها الشعبية (سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة 2006م)، ص225.

78 سليم المبيض: نفسه، ص226.

79 للمزيد انظر: إبراهيم شعلان: الشعب المصري في أمثاله العامية (سلسلة الدراسات الشعبية، العدد 88، القاهرة 2004م)، ص6.

80 مجير الدين الحنبلي: مصدر سابق، ج 2، ص59.

81 القزويني، زكريا بن محمد بن محمود (ت682هـ): آثار البلاد وأخبار العباد، (ج1، الطبعة الأولى، سلسلة الدراسات الشعبية، العددان 77 و78، القاهرة 2003م)، ص149.

82 المقدسي: مصدر سابق، ص87.

83 التطيلي (بنيامين بن يونة التطيلي النباري الأندلسي: رحلة بنيامين التطيلي) ترجمة: عزرا حداد، دراسة وتقديم: عبدالرحمن الشيخ، طبعة المجمع الثقافي، أبوظبي 2002م)، ص252.

84 المدجن، عبدالله بن الصباح: رحلة المدجن الأندلسي المعروفة بـ «أنساب الأخبار وتذكرة الأخيار» (تحرير وتعليق محمد بنشريفة، الطبعة الأولى، دار أبي رقراق، الرباط 2008م)، ص190.

85 عبدالحميد يونس: مجتمعنا (سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة 1998م)، ص114.

86 للمزيد انظر/عمرو عبدالعزيز منير: الحضارة المصرية القديمة بين المعتقدات السحرية والأساطير العربية (مكتبة النافذة، القاهرة 2009م)، ص78.

87 هناك العديد من الخرافات الغريبة نشأت حول موضوع عتبات الأبواب في كل العصور القديمة والحديثة، والتي نلمح لها أثرا في مدونات التوراة على لسان «اليهوه»: «وفي ذلك اليوم أعاقب كل الذين يقفزون فوق العتبة، الذين يملأون بيت سيدهم ظلما وغشاء» (سفر صفينا، الإصحاح الأول، آية 9)، ويبدو من هذا التصريح، أن من يتخطى العتبة واثبا يرتكب إثما يستحق عليه غضب الرب، شأنه شأن إثم الخداع والغش. وتعتقد بعض الشعوب أن الأعتاب تسكنها الأرواح، وربما كان هذا الاعتقاد في حد ذاته كافيا لتفسير الإحجام عن وطء العتبة وأن الأرواح التي تستقر عند الأعتاب هي أرواح الموتى، وبناء على ذلك فإن الجو السحري الذي أحاط بالأعتاب في الخيال الشعبي جعله يخلق عادة حمل العروس فوق العتبة يوم الزفاف أو أن تتخطى العروس العتبة من دون أن تمسسها قدماها، وهو حذر ينتشر بين كثير من الشعوب. (جيمس فريزر: الفولكلور في العهد القديم (التوراة)، ص 625، ومن المحتمل أن تلك المعارضة الشديدة للمس الأعتاب - فيما يبدو - ترتكز على اعتقاد ديني في أن هناك خطرا يسكن في الأعتاب، وربما كان هذا الاعتقاد في حد ذاته كافيا لتفسير الإحجام عن وطء العتبة بالأقدام أو الجلوس فوقها، وربما نلمح أثر ذلك في الأغاني الشعبية المصرية التي تؤديها الأمهات للطفل عند محاولته الأولى ممارسة الأنشطة الإنسانية المهمة لأول مرة في حياته كالمشي والكلام فتقول: «تاتا خطِي العتبة... تاتا حابه حابه». وتمسك الأم بيدي طفلها وتحاول أن تجعله واقفا ليخطو خطواته الأولى ممسكا بها ومعتمدا عليها كي يتخطى العتبة من دون أن يطأ أو «يدوس» عليها. للمزيد انظر عمرو عبدالعزيز منير: الأساطير المتعلقة بمصر في كتابات المؤرخين المسلمين (دار عين للدراسات والبحوث، القاهرة 2008)، ص145، الحضارة المصرية القديمة، ص78.

88 علي السيد علي: القدس في العصر المملوكي، ص267.

89 الأنس الجليل: ج2، ص407 و408، شهاب الدين المقدسي: مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام، ابن الجوزي (أبي الفرج عبدالرحمن بن علي):فضائل القدس، ص89.

90 مجير الدين، الأنس الجليل، ج 1، ص28.

91 عبدالفتاح رواس قلعة چي: رموز وأساطير في الموروثات الشعبية، مجلة التراث العربي، العدد 68، دمشق 1997م.

92 سراج الدين بن الوردي (ت 861هـ): عجائب البلدان من خلال مخطوط خريدة العجائب وفريدة الغرائب (تحقيق:أنور زناتي، القاهرة د.ت)، ص51.

93 مجير الدين الحنبلي: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل،ج 2، ص57.

94 القزويني: آثار البلاد، ج 1، ص152.

95 ناصر خسرو علوي: سفرنامة، ص68.

96 الأنس الجليل، ج 2، ص29.

97 راجع سفر التكوين - الإصحاح الثاني والثالث، محمد خليفة حسن: الأسطورة والتاريخ في التراث الشرقي القديم (عين للدراسات، القاهرة 1999م)، ص138، كارم محمود عزيز: الأسطورة فجر الإبداع الإنساني، سلسلة الدراسات الشعبية، العدد 66، القاهرة 2002م، ص421، عمرو عبدالعزيز منير: الحضارة المصرية القديمة، ص89.

98 سليم المبيض: ملامح الشخصية الفلسطينية، ص72.

99 عبدالفتاح رواس قلعة چي: رموز وأساطير في الموروثات الشعبية، ص45.

100 الأنس الجليل: ج 2، ص59.

101 المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص98.

102 المقدسي: مصدر سابق، ص185.

103 مجير الدين الحنبلي: مصدر سابق، ج 1، ص128.

104 علي السيد علي: مرجع سابق، ص262.

105 عبدالله بن الصباح: الرحلة، ص189.

106 سليم عرفات: مرجع سابق، ص67.

107 للمزيد راجع: سليم عرفات المبيض: مرجع سابق، ص77 - 79.

108 راجع ما ذكره: أحمد شمس الدين الحجاجي: النبوءة أو قدر البطل في السيرة الشعبية العربية (سلسلة الدراسات الشعبية، القاهرة 2001م)، ص33 و34.

109 أحمد رشدي صالح: الأدب الشعبي (سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة، 2002م)، ص137 و138.

110 عبدالفتاح رواس قلعة چي: مرجع سابق، ص55.

111 التعميد هو أول الطقوس المسيحية وأهمها على الإطلاق، فمن دونه لا يمكن أداء بقية الطقوس الأخرى، فهو شرط أساسي للخلاص ودخول ملكوت الرب وفقا لكلمات عيسى ابن مريم «ما من أحد يمكنه أن يدخل ملكوت الله إلا إذا ولد من الماء والروح» - (يوحنا 3:5) ويجري في أثناء التعميد تجديد روح المولود من خلال غمره في الماء ثلاثا باسم الأب والابن والروح القدس، وبذلك يكون قد توحد مع المسيح وهيئة الكنيسة. ويجب تعميد المواليد في أسرع وقت ممكن بمجرد بلوغهم ثمانين يوما للبنات وأربعين يوما للغلمان، وبعد غمر المولود في الماء ثلاثا ترسم شارة الصليب اثنتين وثلاثين مرة بالزيت على بشرة المولود، ذكرا كان أم أنثى. انظر: عمرو عبدالعزيز منير: الأساطير المتعلقة بمصر في كتابات المؤرخين، ص211.

112 لعلنا نلحظ أن الزيت يعد طقسا أساسيا ذا وظيفة تطهيرية في أحد الأعياد التي تسمى عيد الحنكة، إذ يقول القلقشندي في صبح الأعشى، ج1: «عيد الحنكة وهو ثمانية أيام يوقدون في الليلة الأولى من لياليه

على كل باب من أبوابهم سراجا وفي الليلة الثانية سراجين... وهكذا إلى أن يكون في الليلة الثامنة ثمانية سرج وهم يذكرون أن سبب اتخاذهم لهذا العيد أن بعض الجبابرة تغلب على بيت المقدس وفتك باليهود وافتض أبكارهم، فوثب عليه أولا كهانهم وكانوا ثمانية فقتله أصغرهم، وطلب اليهود زيتا لوقود الهيكل فلم يجدوا إلا يسيرا وزعوه على عدد ما يوقدونه من السرج على أبوابهم في كل ليلة إلى تمام ثماني ليال فاتخذوا هذه الأيام عيدا وسموه الحنكة، ومعناه التنظيف لأنهم نظفوا فيه الهيكل من أقذار شيعة الجبار وبعضهم يسميه الرباني». انظر عمرو عبدالعزيز منير: الأساطير المتعلقة بمصر في كتابات المؤرخين، ص 211.

113 علي السيد علي: القدس في العصر المملوكي، ص261.

114 سليم المبيض: ملامح الشخصية الفلسطينية في أمثالها الشعبية، ص208 و209.

115 عبدالفتاح رواس قلعة چي: مرجع سابق، ص56.

116 عبدالفتاح السيد الطوخي: قدرة الخلاق في علم الأوفاق (المكتبة الثقافية، بيروت 1992م)، ص14.

117 عبدالفتاح رواس قلعة چي: مرجع سبق ذكره، ص56.

118 سليم المبيض: مرجع سابق، ص163.

119 علي السيد علي: مرجع سابق، ص262.

120 مجير الدين الحنبلي: الأنس الجليل، ج 1، ص191.

121 عبدالفتاح رواس قلعة چي: رموز وأساطير في الموروثات الشعبية، ص56.

122 أحمد شمس الدين: النبوءة (سلسلة الدراسات الشعبية، العدد 57، القاهرة 2001)، ص21.

123 روجيه جارودي، فلسطين أرض الرسالات السماوية (دمشق، 1988)، ص 119.

124 مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج 1، ص29.

125 ابن الجوزي: المنتظم في التاريخ، ج 1، ص16.

126 عاش ابن سيرين في القرن الرابع الهجري - العاشر الميلادي - وهي مرحلة تاريخية مفعمة بالأحداث والتناقضات والمآسي تميزت بتسلط البويهيين وتخاذل العباسيين وبانقسام المجتمع العربي الإسلامي إلى دويلات متنافرة بحكم المتخاذلين والمغامرين، وفزع الناس إلى ابن سيرين ليفسر لهم أحلامهم وفق مستلزمات الشريعة السمحة، ولقد أعطى ابن سيرين دورا مميزا للبيئة في تفسير الأحلام، يقول ابن سيرين (وما كان له طبع في الصيف، وطبع في الشتاء، عبر عنه في كل حين يرى فيه الطبع وقته وجوهره في ذلك الوقت، كالشجر والثمر والبحر والنار والملابس والمساكن والحيات والعقارب، وما كان له طبع بالليل وطبع بالنهار عبر عنه في رؤية الليل بطبعه، وفي رؤية النهار بعادته، كالشمس والقمر من كانت له في الناس عادة لازمة من المرئيات، في سائر الأزمان، أو في وقت منها دون وقت، ترك فيها، وعادته التي عوده ربه تعالى، كالذي اعتاد إذا أكل اللحم في المنام أكله، وإذا رأى الدرهم دخلت عليه أفاد مثلها في اليقظة، وإذا رأى الأمطار رآها في اليقظة، أو يكون عادته في ذلك وفي غيره على ضده وعلى خلاف ما في الأصول» (تفسير الأحلام الكبير، لابن سيرين، بيروت، لبنان، 1994م، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ص8).

137 محمد بن سيرين: منتخب الكلام في تفسير الأحلام (طبعة مكتبة دار الإسلام، القاهرة، د.ت).

138 ضياء الدين المقدسي، فضائل بيت المقدس، (تحقيق: مطبع الحافظ، دار الفكر، دمشق، 1985، ص7، وانظر: محمد حسن شراب، بيت المقدس والمسجد الأقصى، دمشق 1994)، ص 83.

عارف باشا العارف القدس، (دار المعارف بمصر، من دون تاريخ)، ص 44 و45. شمس الدين الكيلاني:

129 مرجع سابق، ص56 وما بعدها.

130 الواقدي، فتوح الشام، الجزء الأول، بيروت دار الجيل، من دون تاريخ، ص 229.

131 القاضي مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل قسم أول (نسخة في المكتبة الوطنية بحلب)، قسم أول، ص 237.

132 أرمسترونج، القدس، ترجمة: نصر/فاطمة، وعناني/ محمد، مصر، سطور، ص 389.

133 د. إسحاق موسى الحسيني: عروبة بيت المقدس، مركز أبحاث منظمة التحرير، بيروت 1969، ص 50.

134 عبدالعزيز الدوري، فكرة القدس في الإسلام، مجلة شؤون عربية، بيروت، عدد 24، 1983، ص141، شمس الدين الكيلاني: مرجع سابق، ص75.

135 الإمام المنذري، الترغيب والترهيب، ج4، حققه مصطفى محمد عمارة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر 1969، ص 59 - 63، حيث يجمع ثمانية عشر حديثا من فضائل الشام.

136 الدوري، مصدر سابق، ص 47 - 148.

137 الحنبلي، مصدر سابق، ص 47 - 148.

138 شهاب الدين أبو محمد بن تميم المقدسي: مصدر سابق، ص 241.

139 الدوري، مصدر سابق، ص 143 و144.

140 نبيه العاقل، الموسوعة الفلسطينية، الجزء الثاني، المجلد ثاني، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت 1990، ص 325 و326.

141 مارجريت فان برشيم وسلاوج أوري، القدس الإسلامية (تعريب: د. عطا الله وهبه والدكتور سامي حسن والدكتور شوقي شعث، دار الشام، دمشق 1994)، ص53.

142 أرمسترونج، مصدر سابق، ص 403.

143 مارجريت فان برشيم، ص 83.

144 جورج مارسيه، الفن الإسلامي (ترجمة عفيف بهنسي، وزارة الثقافة، دمشق، 1968)، ص 35 و36، شمس الدين الكيلاني مرجع سبق ذكره، ص197.

145 فان برشيم وأروبي، مصدر سابق، ص 83.

146 المصدر نفسه، ص 37.

147 شراب، مرجع سابق، ص 351.

148 الحنبلي، ج1، ص249، وشهاب الدين المقدسي، ص 345 و346.

149 شهاب الدين المقدسي، مصدر سابق، ص340، ص181.

150 الدوري، مصدر سابق، ص 148.

151 العاقل، مرجع سابق، ص 305.

152 شراب، مرجع سابق، ص286. شمس الدين الكيلاني: مرجع سابق، ص78.

153 شمس الدين السيوطي، اتحاف الأخصى بفضائل المسجد الأقصى، القسم الثاني ص182.

154 الطبري. ج8، ص657.

155 الدوري. مرجع سابق، ص 149، وشراب: مرجع سبق ذكره، ص387.

156 أرمسترونج: مرجع سابق ص 416 و417.

157 كانت الرحلة الخيالية الشعبية في الملاحم وسيلة للإنسان القديم للوصول إلى عالم الموتى المجهول تارة، وصفحة يستشرف من خلالها الرحالة آفاق المستقبل وغامض الغيب تارة أخرى، كما تبدو الرحلة الخيالية صورة معكوسة للحياة الاجتماعية في عصر صاحب الملحمة. ثم جاء الإسلام فأعطى المسلمين تصورا غنيا وعميقا عن اليوم الآخر، وهو حق وصدق، كما أغنى خيالهم، وأشبع نفوسهم، وأراح أرواحهم بحديث الإسراء والمعراج، وكان الاعتقاد به ركنا من أركان الإيمان لديهم، ولذلك استقر في نفوسهم وأشبع لديهم الرغبة في معرفة العالم الآخر. لهذا كله، لم يظهر نص أدبي يتصور الرحلة إلى العالم الآخر إلا في عصور متأخرة، ولعل أول ما ظهر في هذا المجال هو قصة الإسراء والمعراج التي توسعت في حديث الرسول عن الإسراء والمعراج، وهي نص شعبي نسب إلى ابن عباس رضي الله عنهما. انظر محمد الصالح سليمان: الرحلات الخيالية (منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق 2000م)، ص13.

158 كارين أرمسترونج: القدس، ص380.

159 الإمام الغزالي، أبو حامد (505هـ): إحياء علوم الدين، المجلد الخامس، بيروت، دمشق دار الفكر، 1994، ص 64.

160 الأنس الجليل: مصدر سابق ج1، ص122 - 125، القزويني: آثار البلاد، ج1، ص220، شهاب الدين المقدسي: مصدر سابق، ص179، الأبشيهي: (شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الأبشيهي المحلي) (- 850 790هـ): المستطرف في كل فن مستظرف، جزآن، الطبعة لأخيرة، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة 1952م، ج2، ص199.

161 ناصر خسرو علوي: سفرنامة، ص80.

162 الأنس الجليل: مصدر سابق، ج 1، ص122 - 125.

163 سعد الخادم: الفن الشعبي والمعتقدات السحرية (سلسلة الألف كتاب، العدد 488، القاهرة 1964م)، ص72.

164 عبدالله بن الصباح: مصدر سابق، ص190.

165 من الطريف أن الخليفة العباسي العاشر المتوكل على الله، أعطى لكل ملة دينية لونا خاصا بها ، فالمسلمون لهم اللون الأبيض، دلالة على الفطرة، والنصارى لهم اللون الأزرق دلالة على السماء حيث رفع النبي عيسى عليه السلام، والمجوس لهم اللون الأحمر دلالة النار، أما اليهود فقد خصص لهم اللون الأصفر دلالة الذهب من شدة حبهم له وتعلقهم به. وفي الموروث الشعبي اليهودي أن البقرة الصفراء ستكون مقدمة لمجيء العصر المشيحاني. راجع جمال البدري: اليهود وألف ليلة وليلة (الدار الدولية للاستثمارات الثقافية، القاهرة 2000م)، ص94.

166 جمال البدري: مرجع سابق، ص 91 - 95.

167 شهاب الدين أبي محمود المقدسي: مصدر سابق، ص 229 و230.

168 عبدالله بن الصباح: مصدر سابق، ص189.

169 ابو حنيفة الدينوري: «الأخبار الطوال» (طبعة مكتبة زاد المسلم، القاهرة من دون تاريخ)، ص8.

170 الأنس الجليل، ج 1، ص127، شهاب الدين المقدسي: مثير الغرام، ص183.

171 الأنس الجليل، ج 2، ص125، شهاب الدين المقدسي: مصدر سابق، ص179.

172 قصة فيروز شاه: المجلد الأول، مطبعة عبدالحميد حنفي، سنة 1366هـ.

173 سليمان حسن: الرموز التشكيلية، ص33.

174 أحمد النعيمي: الأسطورة في الشعر العربي قبل الإسلام، ص180.

175 سليم عرفات المبيض: مرجع سابق، ص58 و59.

176 نفسه، ص60.

177 مجير الدين الحنبلي: الأنس الجليل، ج 2، ص15.

178 القزويني: آثار البلاد، ج 1، ص149.

179 شهاب الدين المقدسي: مصدر سابق. وأيضا ضياء الدين المقدسي. مصدر سابق. ص 44 و45.

180 شهاب الدين المقدسي: مصدر سابق. ص 74.

181 الأنس الجليل، ج1، ص167، النابلسي: الحضرة الأنسية في الرحلة القدسية، ص44.

182 عارف العارف: المفصل في تاريخ القدس (الجزء الأول، الطبعة الخامسة، مكتبة المعارف، القدس، 1999م)، ص440.

183 شهاب الدين المقدسي: مصدر سابق، ص262.

184 أحمد النعيمي: الأسطورة في الشعر العربي، ص165، لطفي حسين سليم: الأسطورة والإسرائيليات (سلسلة الدراسات الشعبية، العدد 52، القاهرة 2000)، ص134.

185 وتتضمن هذه الملحمة رحلتين: الأولى رحلة جلجامش مع أنكيدو إلى جبال الأرز وقتلهما إله الشر، ثم رحلة جلجامش وحده بعد موت صديقه أنكيدو إلى عالم الموتى وركوبه البحار والمحيطات وعودته بزهرة الخلود ثم نزوله إلى البئر والتهام الأفعى تلك الزهرة. وتمثل الرحلة الأولى صراع الإنسان مع قوى الشر، كما تمثل الرحلة الثانية بحث الإنسان عن سر الحياة وصراعه مع الموت ذلك المجهول. لقد كانت رحلة جلجامش تعبيرا عن توق الإنسان إلى المعرفة وكشف المجهول ومحاولته معرفة سر الحياة والخلود. والقضاء على قوة الموت والفناء.

186 محمد خليفة حسن: الأسطورة والتاريخ في التراث الشرقي القديم، ص90 و91.

187 رحلة بنيامين، مصدر سابق، ص254.

188 للمزيد عن أبعاد علاقة السير الشعبية بالحوادث التاريخية راجع ما كتبته الدكتورة نبيلة إبراهيم: من نماذج البطولة الشعبية في الوعي العربي (طبعة ندوة الثقافة والعلوم، دبي 1993م)، ص144.

189 اعتمدنا هنا على الملخص الرائع الذي قدمته الدكتورة نبيلة إبراهيم لسيرة سيف بن ذي يزن في كتابها من نماذج البطولة الشعبية، ص118، وما بعدها، كذلك تصفحنا للسيرة الشعبية سيف بن ذي يزن، طبعة مكتبة الدراسات الشعبية، القاهرة 1999.

190 شهاب الدين المقدسي: مثير الغرام، ص228.

191 الطبري: تاريخ الطبري، ج 1،356 .

192 الأنس الجليل، ج2، ص61. الرواية قد تعكس بعض ملامح تضمنتها أفكار أقدم ترتبط بالعبادات الطوطمية والطقوس الخاصة بها، فلم يكن تقديس الأشجار بين العرب - قبل الإسلام - بأقل من تقديس الأصنام والجبال والآبار، ذلك لاعتقادهم أن هذه الأشجار فيها أيضا «قوى روحية» كامنة فيها وأن لهذه القوى أثرا خطيرا في حياتهم، ويبدو أن الاعتقاد بوجود الأرواح أو الحياة في الأشجار كان مقصورا على أنواع بعينها مردها إلى ضخامة هذه الأشجار وقوتها وثمرها الكثير أو نفعها. نوري حمودي القيسي: الطبيعة في الشعر الجاهلي (الطبعة الأولى، دار الإرشاد، بيروت 1970)، ص 69.

193 شهاب الدين المقدسي: مصدر سابق، ص147، مجير الدين الحنبلي: مصدر سابق،ج1، ص119.

194 شهاب الدين المقدسي: مصدر سابق، ص184، مجير الدين الحنبلي: مصدر سابق، ج1، ص256.

195 عبدالغني النابلسي (ت1143هـ):الحضرة الأنسية في الرحلة القدسية (طبعة جريدة مطبعة الإخلاص، القاهرة 1902م)، ص47.

196 الحضرة الأنسية، ص20.

197 ناصر خسرو علوى: سفرنامة، ص68.

198 الحنبلي: الأنس الجليل، ج 2، ص62.
199 المقدسي: أحسن التقاسيم، ص89.
200 المقدسي: أحسن التقاسيم،ج، ص43.
201 سفر نامة، ص67.
202 شهاب الدين المقدسي: مصدر سابق، ص184، مجير الدين الحنبلي: مصدر سابق.
203 للمزيد عن عناصر الاختفاء في النصوص العربية راجع شعيب حليفي: الرحلة في الأدب العربي، ص454 وما بعدها.
204 شهاب الدين المقدسي: مثير الغرام، ص242.
205 الأنس الجليل، ج 2، ص19.
206 شهاب الدين المقدسي: مصدر سابق، ص255.
207 الأنس الجليل، ج 2، ص236، شهاب الدين المقدسي: مثير الغرام، ص256.
208 مثير الغرام، ص259.
209 نفسه، ص247.
210 الأنس الجليل، ج1، ص238.
211 نفسه،ج1، ص239.
212 نفسه، ج1، ص240.
213 الإبشيهي: المستطرف، ج2، ص257.
214 المقدسي: أحسن التقاسيم، ص98.
215 مجير الدين الحنبلي: الأنس الجليل،ج1، ص119، ابن الجوزي (أبي الفرج عبدالرحمن بن علي): فضائل القدس (تحقيق جبرائيل سليمان جبور، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1989م)، ص79.
216 للمزيد حول أثر النبي سليمان في الأساطير العربية. انظر فاضل الربيعي:الشيطان والعرش رحلة النبي سليمان إلى اليمن (دار رياض الريس، بيروت 1996م).
217 سعد الخادم: مرجع سابق، ص77.
218 تفسير الأحلام وتعطيره وتعبيره، مصدر سابق، ص613.
219 ابن سيرين: مصدر سابق، ص589.
220 سليمان محمود حسن: الرموز التشكيلية في السحر الشعبي، سلسلة آفاق الفن التشكيلي، هيئة قصور الثقافة، القاهرة 1999م، ص171.
221 الأنس الجليل: مصدر سابق،ج1، ص119.
222 سليمان حسن: الرموز التشكيلية في السحر الشعبي، ص160.
223 قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور، ص 72.
224 للمزيد حول فكرة كون الأسطورة مصدرا معتمدا من مصادر التاريخ راجع الدراسة التأسيسية لمجموعة من الباحثين تحت عنوان «الأسطورة توثيق حضاري» (مطبوعات جمعية التجديد الثقافية، البحرين 2005م).
225 راجع ما كتبه طارق البشري: عن القدس وفلسطين (حولية أمتي في العالم، مركز الحضارة للدراسات السياسية، القاهرة 1999م)، ص41.
226 ابن الجوزي: المنتظم في التاريخ، ج1، ص21.
227 رحلة المدجن، مصدر سابق، ص194.

عالم الفكر
العدد 4 المجلد 38 أبريل - يونيو 2010

سياسات وإجراءات علي أكرم بك (*) (متصرف القدس) حيال الهجرة والاستيطان اليهودي في مدينة القدس 1906 - 1908

د. محمد عيسى صالحية (**)

كتب محمد نامق، كمال بك، في منظومته التي رثى فيها نفسه قبيل موته سنة 1314هـ/1896م: «لو زالت أنقاض قبري ودرست معالمه، فسيبقى اسمي حيا بين قومي، وهذا عزائي الوحيد»(1). ولا أخال هذا القول إلا متحققا أيضا في سيرة ولده علي أكرم بن محمد نامق (كمال بك)، بن مصطفى عاصم بن شمس الدين بك بن أحمد راتب باشا طوبال عثمان باشا، الصدر الأعظم في عهد السلطان محمود الأول في القرن الثامن عشر.

(*) علي أكرم بك بن محمد نامق (كمال) 1867 ـ 1937م، ولد في مدينة إستانبول في 2 أغسطس 1867م، درس في رشدية إستانبول الكائنة في حي الفاتح، اعتنى به والده وكان يحضر له مدرسين خصوصيين فكان يتقن العربية والفارسية والفرنسية، عمل في المابين السلطاني سكرتيرا للسلطان عبدالحميد الثاني مدة 18 سنة، ثم عين متصرفا على القدس في 2 ديسمبر 1906، ووصل القدس يوم 19 ديسمبر وظل فيها حتى غادرها في 13 أغسطس 1908 بعد عزله بثلاثة أسابيع، عين واليا على بيروت لأيام ثم حاكما لجزر البحر المتوسط (بحر سيفيد)، استقال من العمل 1913، درس الآداب في جامعة إستانبول (دار الفنون) وفي المدرسة العالية في غلاطه سراي وأجبر على الاستقالة سنة 1923، ثم طرد سنة 1933 لأنه كان يدعو إلى إصلاح الجامعات التركية، توفي في 27 أغسطس 1937 في إحدى جزر بحر إيجه إثر إصابته بمرض السرطان. انظر:

Iradeler Dahiliye 325/3, 16 1324, Basbaknlik Arsive, BBA, Ismail Parlatir, Ali Ekrem Bolayir, Ankra, 1987, p5; Mertin Kayahan Ozgul, Ali Ekrem Hatirlari, Ankra, 1991, p16; Selma Ekrem book, Unveiled, The autobiography of a Turkish Girl, New York, 1930, p12.

(**) أستاذ التاريخ العربي والإسلامي.

تربى علي أكرم في كنف والده، وتلقى العلوم في المدرسة العسكرية الأساسية العليا، وكان يتقن اللغات العربية والفارسية والفرنسية، وعمل سكرتيرا في مكتب السلطان عبدالحميد الثاني، مكتب السكرتارية الخاصة، وعمل في السلك الإداري، فقد عمل مفوضا في عكا، وواليا لجزائر البحر المتوسط، جزيرة رودس، وكان واسع الثقافة، وعلى دراية بالسياسة الدولية، وعرف عنه دراسته لجميع مؤلفات والده، ومنها تراجم الأحوال (ترجمة صلاح الدين والسلطان سليم والفاتح وأمير نوروز)، والحكايات والروايات الوطنية ورسائل والده. ومقالات والده في مجلة «تصور أفكار» وترجماته من الفرنسية إلى العربية، وكان يحتفظ بنسخة من كتاب والده في التاريخ العثماني بأجزائه الاثني عشر[2].

عُيِّن علي أكرم بك حاكما متصرفا للقدس في 2 ديسمبر 1906م. والولاية تشمل القدس ويافا وغزة والخليل وعكا، وأحيانا تضاف ألوية ونواح وقرى وبلدات عديدة. والملف المحفوظ في أرشيف ما يسمى بدولة إسرائيل (الكيان الإرهابي) بالقدس، والمصنف تحت رقم I/f.83 وبالعبرية د/I فيه أكثر من 300 ورقة تشتمل على الرسائل والتقارير والتلغرافات السرية المرسلة إلى الصدارة العظمى، والأخرى المرسلة إليه من إستانبول أو من الحكام الإداريين في القائمقاميات والأقضية والنواحي، ومن قادة الشرطة ودوائر الألوية المختلفة، مجالس الألوية والبلديات. ورسائل من نظارة الداخلية والعدلية والمذاهب، وكثير من استفسارات الباب العالي، ورسائل مرسلة إلى قناصل الدول الأجنبية في المتصرفية، وكذا تعليمات وفرمانات. وقوانين، صدرت استجابة لأهمية وواقع المتصرفية[3].

ومن الجدير بالذكر أن معظم الوثائق كانت باللغة العثمانية، غير أن من ضمنها أكثر من أربعين وثيقة باللغة العبرية، فيها كثير من المصطلحات الآرامية القديمة، تخلو منها لغة اليادیش (العبرية)، التي ظهرت حديثا.

ويتضح من أوراق الملف أن علي أكرم بك كان على دراية بما يحاك لفلسطين من استيطان لليهود في البلاد المقدسية وفلسطين عامة، من خلال عمله في سكرتارية المابين السلطاني واطلاعه على التقارير والمعروضات السرية المبعوثة من حكام الولايات والموظفين ورجال الخفية (المخابرات)، ومن خلال مراسلاته مع أصدقائه في فلسطين، وتوليه التحقيق السري في بعض القضايا المتصلة بالاستيطان اليهودي، لاسيما أنه يحظو بثقة وتأييد السلطان عبدالحميد الثاني، ثم زياراته الاستطلاعية لفلسطين قبيل تعيينه متصرفا للقدس؛ ففي أثناء عمله في سكرتارية المابين السلطاني، تلقى رسالة من والي سنجق معان، حسين حلمي، تاريخها 17 أكتوبر 1894م/1310هـ يعلمه فيها أهمية سنجق معان لدى اليهود، استنادا إلى ما ذكر في التوراة. ويورد: أن استيطان اليهود في هذه المناطق سيحولها إلى منطقة يهودية، ومن ثم إقامة دولة لهم، مثلما فعل الأرمن، وأرفق برسالته خريطة تبين المناطق التي وصل إليها

الاستيطان اليهودي، ويقترح عليه دفع الباب العالي لإصدار فرمان يمنع بصورة قطعية هجرة اليهود واستيطانهم في تلك البلاد[4]، وبعد زيارته لعكا أكد علي أكرم بك أنه قام بالتحقيقات السرية بشأن قيام اليهود بشراء أرض في القدس، واتصل بكثير من أفراد الرعايا السلطانية ليمنع اليهود من شراء الأراضي والاستيطان[5].

توجه علي أكرم بك إلى متصرفية القدس لمزاولة مهمات منصبه، وهو على دراية بالصعوبات والعوائق والمشكلات التي ستواجهه. وتتمثل في الأعداء الأقوياء في المتصرفية وهم، اليهود، ورجال الإدارة الفاسدون. وعلى الرغم من تحذير أصدقائه له من أن إعلانه الحرب على اليهود سيكون ضربا من الجنون، وأكثر من ذلك، فإن التصدي لليهود ورجال الإدارة من الفاسدين لن يحقق سوى إلحاق الضرر به[6].

وكانت خطوته الأولى في مركز المتصرفية دراسته العميقة للمسألة اليهودية، وذلك باطلاعه على معظم الوثائق المحفوظة في أرشيف المتصرفية، من تعليمات وقرارات وإجراءات، ليتعرف على المشكلات التي واجهت أسلافه، وتحديد الأسباب والعوائق التي كانت تحول دون تنفيذ قرارات منع انتقال الأراضي وشرائها من قبل اليهود، وكذا منع إقامة الزوار والحجاج من اليهود أكثر من المدة التي سمحت بها التعليمات والقرارات وتراخي رجال الإدارة العامة، وتواطئهم مع الزعامات اليهودية وقناصل الدول الأجنبية، وسماسرة تهريب اليهود وشراء الأراضي بالحيل والخداع[7].

وعلى ضوء اطلاعه على التجربة المتراكمة لمن سبقوه من موظفي الجهاز الإداري من متصرفين وقائمقامين وكبار موظفي الشرطة والموانئ والجمارك ومديري الدوائر، فقد حدد لخطته مسارين:

المسار الأول: التصدي لليهود وأساليبهم.

المسار الثاني: تطهير الجهاز الإداري من الفاسدين (المرتشين والمتواطئين).

يرى علي أكرم بك أنه لا يوجد في كل مناطق ومدن الخلافة العثمانية مشكلة مثل مشكلة اليهود في القدس، فهي معقدة وذات أبعاد متشعبة ومتقلبة، وذلك بسبب تدخل الدول العظمى حتى غدت مسألة سياسية كبرى[8].

وإزاء هذه المسألة اتبع الإجراءات التالية:

ـ عمم على قناصل الدول الأجنبية التعليمات التي كانت قد صدرت من دائرة أمور داخلية، باب عال، مكتوبي قلمي، بخصوص الزوار اليهود إلى فلسطين. مذكرا إياهم بموادها الأربع، وهي: التزود بجواز سفر أو تذكرة مرور وتحديد الميناء الذي سينزلون به، ويحتفظ بجوازاتهم عند شرطة الميناء، ويعطون تذكرة مرور صالحة للإقامة لمدة ثلاثة شهور، وتنظم جداول بأسمائهم وتاريخي الدخول والمغادرة لمتابعتهم وإخراجهم إن تخلفوا، ثم مراقبة خروجهم والبحث والتحري عن المتخلفين وإبعادهم قسرا من البلاد[9].

- كما نبه مجالس الإدارة في الألوية والقائمقاميات إلى الصلاحيات الممنوحة لكل مجلس بالإشراف على تسجيل الأراضي بعد الكشف عليها، ويحق للمجالس عدم المصادقة على البيوعات التي يعقدها الأجانب[10].

ومن الجدير بالذكر أن الأوامر الرسمية وتعليمات أذونات الزيارة أو الحج للأجانب، خصوصا اليهود، كانت من الناحية النظرية كافية، غير أن المشكلة تكمن في تراخي المأمورين وتواطؤ كثير منهم لقاء الرشا والعطايا والهدايا، أو الالتفاف على الأوامر والتعليمات بالاستعانة بقناصل الدول الأجنبية أو بالحيل والتلاعب. وبالتالي عدم تنفيذها بأمانة وصدق وإخلاص، فيغضون الطرف عن البعض وعدم التدقيق فيها. ويؤكد علي أكرم بك أنه وجد اليهود في القدس أقوى مما يتصور، ولذا رسم سياسته وإجراءاته ضد أعمالهم الفاسدة بمنتهى الحرص والاتزان، فاعتمد منهج تطهير الجهاز الإداري من العناصر الفاسدة، وتخليص الجهاز من الأدران التي علقت به، بل واقتلاعها من جذورها، وبث عيونه وعناصر الخفية في متصرفيته في الدوائر المهمة، وعين الموظفين الأكفاء والموثوقين في المناصب الرفيعة، خصوصا في نقاط العبور إلى فلسطين، سواء في الموانئ أو المعابر البرية، فطلب إلى ناظر الداخلية نقل محمد آصف بك، قائمقام قضاء بئر السبع، الذي عزل من بئر السبع واستدعي إلى إستانبول نتيجة سعي اليهود ضده لدى السلطات في إستانبول لموقفه المناهض لمشاريع اليهود الاستيطانية في منطقة بئر السبع، وقد نجح علي أكرم بك في تثبيته لقائمقامية يافا[11]، كما عين محمد فوزي قائدا للشرطة في يافا، وغيرهم كثيرون.

وقد أشعرت إجراءاته اليهود بقوة سلطة الدولة وصرامة هيبتها، ولذلك فإنهم لا يستطيعون أن يمدوا أيديهم في جيوبهم وفعل ما يشاءون[12] إزاء سياسة وإجراءات علي أكرم بك ضد الهجرة والاستيطان وتملك الأراضي، إذ اعتمد علي أكرم بك سياسة تقوم على البحث والتقصي والدراسة في مواجهة خطط وأساليب اليهود في المتصرفية، وكانت عناصرها تتمثل في:

- تحديد أسباب هجرة اليهود غير الشرعية من أوطانهم الأصلية.
- أساليب اليهود في حيازة الأراضي وتملكها بالحيل والخداع والتلاعب.
- مراقبة ما يجري في نقاط العبور إلى فلسطين، الموانئ والمعابر البرية وضبطها.
- الشرطة والجندرمة ودورهما في تنفيذ الأوامر والتعليمات.
- تدخل قناصل الدول الأجنبية في تسهيل دخول المهاجرين الموسويين غير الشرعيين، وحيازة الأراضي وبناء المستوطنات.
- إعلام المركز في إستانبول، الباب العالي والنظارات المختصة بما يحدثه هؤلاء في المتصرفية.

كتب علي أكرم بك في تقريره إلى الصدر الأعظم عن الهجرة اليهودية وأسبابها ما يلي:

- تقوم عدة عائلات ببيع ممتلكاتها وأراضيها وتصفي كل أعمالها في موطنها الأصلي، وتقطع كل علاقاتها مع الوطن الأم، ولا يبقى أمامها إلا أمر واحد، وهو الهجرة إلى بلاد أخرى، والاستيطان فيها، وبالتالي فإنهم يأتون إلى فلسطين، ومن ثم السكن في القدس، أما يهود روسيا فإنهم يتركون بلدهم للحفاظ على حياتهم وبقائهم لأنهم مضطهدون في وطنهم روسيا، ويهود فرنسا وأمريكا إنما يريدون الهجرة بحثا عن توسيع تجاراتهم طلبا للربح، ويفضل البعض منهم القدوم إلى القدس لأسباب دينية، وقد أسهم أغنياء يهود أوروبا مثل روتشيلد وهريش وقبلهما مونتفيوري، في دفع الفقراء اليهود الأجانب للهجرة إلى فلسطين والاستيطان فيها، هذا علاوة على الأمن والاستقرار والسعادة التي يحصلون عليها في ولايات الدولة العثمانية، والتي لم يروا مثلها في أي مكان آخر في العالم مقارنة بالذل والاحتكار والاضطهاد التي يواجهونها في البلاد التي كانوا فيها، وهذه من أهم الأسباب الدافعة إلى هجرتهم إلى القدس.

ويوضح علي أكرم بك بكل صراحة: أن الهدف من قدوم اليهود هو تكثير عددهم من مختلف الجنسيات الأجنبية ومن الرعايا العثمانيين واستقرارهم، وبالتالي ستعاني فلسطين أزمة اجتماعية واقتصادية وإدارية، وأكثر من ذلك ستؤول الأمور إلى إعلان حكومة مستقلة كما حصل عند الأرمن، وسيعملون على تشكيل الفرق المسلحة بمساعدة الدول الأجنبية مستفيدة من قانون الحماية والامتيازات[13].

لقد أدرك علي أكرم بك ومن قبله حسين حلمي متصرف معان، وفي مرحلة مبكرة من تاريخ نشأة الحركة الصهيونية، سنة 1905م أو سنة 1906م، الهدف الحقيقي من الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وهو إعلان حكومة مستقلة لليهود في فلسطين، وهو إدراك وفهم يتفوق على إدراكات كل من أحمد لطفي السيد، الذي سارع إلى حضور حفل افتتاح الجامعة العبرية بالقدس سنة 1925م. وبعض الزعامات العربية آنذاك والزعامات الفلسطينية أمثال راغب النشاشيبي وصبحي الخضرا وأسعد الشقيري وبولس شحادة وغيرهم.

وتصدى علي أكرم بك، وفقا للوثائق المحفوظة في ملفه، لمحاولات الشركات اليهودية التي أنشئت في المتصرفية في عهده بقصد شراء وحيازة الأراضي بأساليب التحايل على القوانين والقرارات الصادرة لمنع الموسويين (اليهود) من التملك في فلسطين، ومن هذه جمعية السنترال الإسرائيلية، وجمعية الإليانس والشركة المصرية، وبخصوص الجمعية الأولى، السنترال، فقد وقعت مراسلات بين نظارتي عدلية ومذاهب والصدارة العظمى، وبين متصرفية القدس ودائرة الصدارة العظمى، وجاء في الوثيقة الأولى:

نظارتا عدلية ومذاهب.

مديرية أمور جزائية.

عدد 288

حضرة سامي جناب صدارتنا

معروض:

بسبب التدابير المتخذة لعدم تمكين اليهود من التملك في أرض فلسطين، فقد شُكِّلت جمعية السنترال الإسرائيلية، وذلك للتحايل على القوانين لتملك الأراضي، ووفق المخابرة، أصبحت كل الشركات والأفراد من اليهود، يتصلون مع هذه الشركة المذكورة لتسهيل عمليات البيع والشراء.

لقد تم إشعار المفتشين العدليين في ولايتي بيروت وسورية بشأن هذه الجمعية، واتخاذ الإجراءات اللازمة في فلسطين لعدم تمكين اليهود من التملك، خصوصا عن طريق هذه الجمعية.

12 **من جمادى الأولى** 1324**هـ،** 21 **يونيو** 1322(*)

(ناظر) وزير العدلية

وجاء في الوثيقة الثانية:

من أوراق الباب العالي

قدس متصرفي قلعي

باب عال

دائرة صدارة عظمى

شيفرة قلمي

عدد

شيفرة (تلغراف)، من متصرفية القدس إلى دائرة الصدارة العظمى، جواب 22**يونيو** 1322**هـ، استفسار بشأن تأسيس جمعيات يهودية لشراء الأراضي في فلسطين.**

توجد عدة جمعيات موسوية (يهودية) في فلسطين، هدفها شراء الأراضي في فلسطين لإسكان المهاجرين الموسويين، وقد أُسست حديثا جمعية جديدة باسم السنترال، بقصد شراء الأراضي، وذلك باللجوء إلى أساليب التحايل على القوانين والقرارات الصادرة لمنع بيع

(*) يقول الباحث في الثقافة التركية الأستاذ منذر أبوهواش، عند سؤاله عن التقويم المستخدم في الدولة العثمانية، وهو التقويم الرومي: «بناء على ما تذكره موسوعة الإنسكلوبيديا الإسلامية المنشورة باللغة التركية، فإن التقويم الرومي استُحدث في العام 1790م (1205هـ)، وذلك بهدف استخدامه في تنظيم الشؤون المالية للدولة العثمانية آنذاك، ويبدأ اليوم الأول للتاريخ الرومي في يوم 14 مارس 494م، وهذا يعني إضافة 594 سنة و13 يوما إلى التاريخ الرومي من أجل استخراج ما يقابله بالتاريخ الميلادي. وقد كان العثمانيون يستخدمون إسماء الأشهر الميلادية باللغة العثمانية.

الأراضي للموسويين، أما ما يتعلق بالأراضي الأميرية التي فلا تباع إلا عن طريق الدفتر السلطاني، مع وجوب التبليغ بعدم إجراء أي بيع من الأراضي إلا بعد الحصول على إذن سلطاني، 27 يونيو 1322هـ متصرف القدس(14) رشيد.

ومع أن المراسلات كانت من المتصرف سلفه، فإن علي أكرم بك، هو الذي تولى متابعة نشاط جمعية السنترال، ولاحقها في الدوائر والمؤسسات، وأفشل كل أساليبها في التحايل والتلاعب على القوانين والقرارات.

ولاحق علي أكرم بك اثنين من كبار زعماء اليهود في المتصرفية، بسبب أساليبهم الشيطانية في التحايل والتلاعب على القوانين والقرارات الصادرة بمنع بيع الأراضي لليهود هما: عينتابي، مدير جمعية الإليانس: الاتحاد الإسرائيلي العالمي التي أُسست سنة 1860م من قبل يهود فرنسيين بهدف تقديم العون والمساعدة السياسية والثقافية لليهود أينما كانوا، وإنشاء المستوطنات الزراعية وعينتابي، مدير الإليانس، متوطن في القدس، وينشط لشراء أراض داخل متصرفية عكا، وكان قد تملك أراضي كثيرة من الفلاحين المسلمين ونقلها إلى اليهود، وبعد أن أصبحت عملية البيع والشراء في القدس صعبة من يوم إلى آخر، فهو يسعى إلى شراء أراض في عكا، وفي ولاية بيروت، خصوصا من أراضي صفد وطبريا، وجميع الأراضي التي يريد شراءها ثمنها من أموال من جمعية الإليانس الإسرائيلية، ويشتريها قطعة قطعة ويجمعها لتصبح قرى يهودية وأراضي واسعة للاستيطان الزراعي.

ولديه أساليب شيطانية باستعمال أسماء مستعارة لأولئك الذين يعملون في الجمعية. والتلاعب على لجنة مبايعات الأملاك في يافا(15).

إن مسألة شراء الأراضي تعتبر قضية خطيرة، ولا بد من إجراء اللازم بحقها. ورفع علي أكرم بك توصية بشأنها إلى الصدارة العظمى، لإصدار القرار واتخاذ الرأي السديد(16).

وعينتابي نفسه كان متورطا أيضا في نشاطات الشركة المصرية التي أُسست في مصر برأسمال مصري محلي وأجنبي قدر بملايين الجنيهات، وتطمح الشركة إلى امتلاك أراض في ولايتي سورية وبيروت، خصوصا القدس وحلب، ولدى بحث وتقصي علي أكرم بك عن مصادر تمويل تلك الشركة، ثبت لديه أن اليهود هم المالك الأكبر للشركة، ومن المؤسسين عرف صابر بك (من مصر)، ونجيب ملحم، وعينتابي المشار إليه ويعقوب مائير (حاخام سالونيك سابقا). وقد عملت الشركة على شراء أراض في يافا في وادي الحوارث (هوفر) (سهل حوفر)، تبلغ مساحتها 40 ألف دونم، وتعود ملكيتها إلى عائلة يافية نصرانية. وتقع الأرض على بعد ست ساعات من يافا، ما بين يافا وحيفا، تمتد على شاطئ البحر، ولها ميناء، وتتصل بسهول حيفا، كما أجرت الشركة المصرية مفاوضات سرية مع المندوب السامي البريطاني في مصر، لعقد صفقة، يُباع بموجبها وادي الحوارث للإنجليز، مقابل

منطقة ذهب، وكان عينتابي ومائير حريصين على كتمان علاقتيهما بالشركة الإنجليزية، ولما علم علي أكرم بك أن المتعاقدين على الصفقة يلجأون إلى إستانبول لإنفاذها بالأساليب المعروفة، فقد أسرع بتسجيل الأرض باسم الفيلق الخامس لتكون قاعدة للأسطول البحري العثماني، ووسع ميناءها لاستقبال الأسطول البحري[17].

وعليه، فقد أصدر قراره بطرد عينتابي من المتصرفية، وعزله من جميع مجالسها، وشكل لجنة للتحقيق في كيفية تملكه للأراضي في كل أنحاء المتصرفية.

أما يعقوب مائير: اليوناني الموطن، فقد قَدِم إلى القدس قبل عشر سنوات مع عائلته واستقر فيها، وحصل على التابعية العثمانية، وكان حاخاما لليهود في مدينة سالونيك، وحين خضعت للسيطرة اليونانية، هاجر منها إلى القدس، ومن ثم انتخبته الهيئة الانتخابية النصرانية في القدس حاخاما، حيث حصل على أصوات أكثر من منافسه حاييم موشيه إليسار، الابن الأكبر للحاخام الأكبر (حاخام باشي) يعقوب شاؤول الذي توفي سنة 1906م، ولما لم يوافق عليه الحاخام الأكبر في إستانبول أصبح تعيينه غير قانوني، وعليه لم تصادق الدولة على تعيينه، وظل ممنوعا من ممارسة الوظائف في الدولة، ويعقوب مائير معروف بمعاداته للدولة ويتبنى فكرا مضرا بالدولة العلية، وقد توصلت تحريات علي أكرم بك إلى تورط يعقوب مائير في قضايا التحايل والتلاعب لمصلحة الشركة المصرية، فسعى لدى دائرة الصدارة العظمى ونظارتي العدلية والمذاهب لعدم توليه القدس أو وكالة حاخامية سالونيك، ونجح في ذلك، وفرض رقابة صارمة على اتصالاته ووسائله في التلاعب على القرارات والتعليمات لتملك الأراضي في المتصرفية أو غيرها من الولايات العثمانية[18].

وتناهت أخبار إلى مسامع علي أكرم بك بأن بعثة أجنبية تقوم بالحفريات الأثرية في قرية سبسطية التي تفيد بعض الروايات التاريخية غير المؤكدة بوجود قبر النبي يوسف هناك، ويتوافد إلى القرية مهاجرون أجانب يحاولون شراء مساكن وأبنية لإقامة المدارس والمكاتب، فبادر إلى الاتصال بمجلس إدارة لواء نابلس ونبه إلى خطر هؤلاء الأجانب، وعلى الفور أصدر المجلس أمرا بصفة إعلان جاء فيه: «بناء على المحاذير السياسية يجب ألا تجرى الحفريات إلا بعلم المجلس، وعدم البيع والشراء إلا لعثماني بموجب معاملة قانونية»[19].

كما بادر إلى التعميم على الكنائس والمؤسسات الأجنبية بمحتوى التعليمات والأوامر الصادرة عن الباب العالي بتاريخ 28 من ربيع الآخر 1313هـ، سبتمبر 1896/1316م المتضمنة معرفة نوعية الأراضي المراد إنشاء المباني عليها العائدة للكنائس والمؤسسات الأجنبية، إذ لا تجوز قطعيا إقامة الكنائس والمؤسسات الأجنبية على الأراضي الوقفية، كما لا يسمح لليهود أو النصارى بالسكن في المناطق الموجودة فيها آثار قديمة في أقضية صفد وطبريا وكل أنحاء فلسطين، وإن وقعت المخالفة فيهدم البناء فورا[20].

ويضيف علي أكرم بك في أحد تقاريره «إذا بقيت الشركات والجمعيات ذات رأس المال العظيم في أوروبا تعطي المساعدات المالية لليهود، فإن هذا سيعطي الإمكان والحرية لرؤساء اليهود لتنظيم القوافل المؤلفة من 200 ـ 250 مهاجرا أو أكثر للقدوم إلى فلسطين، وكانوا يأتون من روسيا وإيطاليا ورومانيا والنمسا وألمانيا ومن أي مكان آخر، ويستقرون في القدس أو غيرها بعد أن ينتشروا في أقطار مجاورة لفلسطين»[21].

وعلى الجانب الآخر، كان علي أكرم بك يدرك تماما أن واحدا من أهم أسباب تكثير عدد اليهود في المدن الفلسطينية وأريافها هو ظاهرة الفساد التي عشعشت بين رجال الإدارة العثمانية، وتكالب عديد منهم على الرشا والعطايا والهدايا، خصوصا أولئك الذين يشرفون على نقاط العبور إلى فلسطين، سواء في ميناءي يافا وحيفا أو في ميناءي بيروت والإسكندرية، أو نقاط العبور البرية من الجليل الأعلى أو العريش ومن ثم في تغاضي رجال البوليس والجندرمة عن تنفيذ التعليمات والقرارات بحق الممنوعين من الإقامة والمتخلفين عن المغادرة وموظفي الجمارك ومديري دائرة النفوس والمالية ومديري الطابو والتسجيل وحتى كبار الموظفين أمثال القائمقامين ورؤساء المجالس اللوائية ومديري النواحي، علاوة على السماسرة وقناصل الدول الأجنبية.

وقراءة أوراق علي أكرم بك المحفوظة في ملفه تفيد بأنه اعتمد سياسة صارمة تجاه كل ما سبق، فطلب من قائمقام يافا ومدير الشرطة إعداد تقارير مفصلة عن واقع ما يجري في ميناء يافا، وبالتحديد الإجراءات الإدارية المتبعة في الميناء المذكور، وتحديد طرق الاحتيال والتسهيلات التي نجح من خلالها اليهود في البقاء والاستيطان في فلسطين.

وقد رفع قائمقام يافا محمد آصف بك تقريرا إلى علي أكرم بك رقمه 198مرسل من يافا قائمقام ملغى، تاريخه 26 يونيو 1906/1323م كتب على خمس ورقات من الحجم الكبير، والمعروض (التقرير) يدل على وعي كامل ودراية تامة بمشكلة دخول وتهريب اليهود إلى فلسطين، فيذكِّر بالتعليمات والقرارات الصادرة بمنع دخول اليهود وإقامتهم وحيازتهم الأراضي، ويركز على دور قناصل الدول الأجنبية في مساعدتهم، ويقترح عدة إجراءات يجب اتخاذها وتطبيقها لمكافحة كل ذلك، وينبه إلى سوء استعمال الموظفين العثمانيين لوظائفهم، ودور السماسرة في تعطيل تنفيذ الأوامر والتعليمات.

ويحذر القائمقام محمد آصف بك من أهداف اليهود النهائية وهي تكثير أعدادهم في فلسطين واستقرارهم فيها، لأن الأمور ستؤول إلى إعلان حكومة مستقلة لهم وتشكيلهم الفرق المسلحة. ويؤكد محمد آصف بك أنه يدخل إلى فلسطين من ميناء يافا المئات من اليهود. وكانت أهم القضايا التي عرضها في تقريره.

أولا: يعتبر اليهود هذه البلاد مقدسة وقد اعتادوا على زيارتها والحج إليها من روسيا والنمسا وألمانيا، والزيارة وهي في حقيقتها هجرة؛ إذ يحضرون إلى فلسطين مزودين بالأموال

من الجمعيات والمؤسسات في بلادهم لشراء الأراضي والبيوت للتوطن ومن ثم الاستقرار مع عائلاتهم، ويدخلون بشكل حر لعدة سنوات ويبدأون في الاستيطان في هذه البلاد، ومن مدة سنة كان حضرة رؤوف باشا، متصرف القدس، واليا على سلانيك، وقد عرض موضوع الهجرة ومنعها وأفاد بأن الهجرة تزيد من سنة إلى سنة، وكان منه تسهيل دخول المهاجرين، وكان متعاونا مع اليهود.

ثانيا: من المعروف أن المهاجرين اليهود يدخلون عن طريق شركات معينة مثل شركة روتشيلد ويسكنون ويشترون الأراضي الأميرية ويزرعون الأشجار من دون إذن من السلطات، ويتم ذلك عن طريق الحيل والدسائس بحجة أنها أرض ملك صرف، ويقيمون على تلك الأراضي التي حازوها القرى اليهودية، محتالين على القانونين 5571 نمر و32 المتعلقين بإقامة البناء بإذن مسبق وينشئون المباني المكونة من 15 ـ 20 دارا من دون رخصة، وبهذه الطريقة يقيمون مئات العمارات. وأنهم في حال تملكهم الأراضي وفق قانون استملاك الأجانب ينجزونها عن طريق دائرة الأراضي، ويدفعون الرسوم البلدية والضبطية من دون وساطة بشكل مباشر أو من دون الرجوع إلى قناصل دولهم، ولا يعتبرون الشروط الإدارية ويتجاوزونها من أجل سرعة إنجاز معاملاتهم بالرشوة.

ثالثا: يأتي حراس القناصل (القواس) والسماسرة عند وصول السفن إلى ميناء يافا ويأخذون المهاجرين اليهود، كلا وفق جنسيته، ويخرجون من الميناء على مسؤولياتهم، غير أن البعض منهم يحمل تأشيرات، والبعض يحمل جوازات سفر، وآخرين لا يحملون شيئا، ويأتون إلى الممالك العثمانية، مثل مصر وبلغاريا، ويمكثون فيها مدة معينة ويحصلون في تلك الفترة على تذاكر مرور عثمانية أو يدفعون عند الوصول 40 قرشا جزاء (غرامة) ويدخلون البلاد في حماية القناصل ويتجولون بصورة حرة، وبهذه الطريقة يدخل إلى البلاد مئات اليهود الممنوعين من الإقامة ويدفعون 40 قرشا، ويسمح لهم بالبقاء لمدة ثلاثة أشهر، وبعد هذا يجب إخراجهم بالقوة، لكن القناصل يدعون أن البعض قد مات، ويطلبون إعادة جوازات السفر وتضطر الحكومة المحلية إلى إعادتها وفق الأصول بتسليم الهوية الحمراء وأخذ الجوازات.

رابعا: من المعلوم أن التدابير اللازمة لتطبيقها على الورقة الحمراء هي الخروج بعد إقامة الشهور الثلاثة المسموح بها، لكن نسبة كبيرة من اليهود في يافا يساعدهم القناصل، وذلك بإعطائهم جوازات جديدة حيث أصبحوا يتحكمون في إخراجهم من عدمه والبقاء في البلاد.

خامسا: إن سوء تصرف المأمورين بالأراضي وملكيتها سهَّل لليهود الأجانب إقامة المباني على الأراضي الأميرية باعتبار أن هذه الأراضي ما هي إلا ملكية خاصة يحق لهم بيعها وذلك بالاتفاق مع السماسرة واليهود ويسلمونهم الجوازات ويتلاعبون بالقيود ومن ثم إعادة تسجيلها وهذا هو التخريب بعينه.

سادسا: الهدف من هجرة اليهود هو زيادة أعدادهم في فلسطين، من مختلف الجنسيات ومن الرعايا العثمانيين اليهود الذين يحضرون ويستقرون فزاد عددهم بشكل كبير ما يسرع باحتمال حصول أزمة إدارية، وحتى ربما يؤدي إلى إعلان حكومة مستقلة (لا سمح الله). مثلما حصل للأرمن وتشكيلهم فرقا مسلحة بمساعدة الأجانب لهم، وذلك بموجب قانون الحماية للأجانب وعملوا جمعية إفساد، وبدأوا يعقدون اجتماعات في دار مستأجرة من قبل الروس ومنعوا الموظفين العثمانيين من الدخول إليها، وقد كتب آصف إلى القنصل الروسي بصدد ذلك.

ولكن القنصل اعتذر وقال: هذا اجتماع للجمعية الصهيونية، وفي آخر أيام أغسطس دعا المؤتمر الصهيوني إلى تشكيل جمعية عامة. وطلب الحصول على التراخيص لها، ومن قراراته الاتفاق على زيادة عدد اليهود وإسكانهم في البلاد من أجل أن يزيدوا على السكان الأصليين.

سابعا: اليهود الذين يتم إخراجهم أو إعادتهم من السفن يأخذون جوازات سفرهم، ويعودون في الليلة نفسها إلى حيفا أو بيروت وينزلون في الميناء ويرجعون ثانية عن طريق البر.

ثامنا: وعليه يجب اتخاذ التدابير اللازمة للحد من ذلك وهي:

1 ـ الحد من وجود اليهود وعدم السماح لهم قطعيا بالدخول، لكن هذا العمل من الصعب تطبيقه، فيجب إخراج الذين لا يحملون الجوازات أو التأشيرات بموجب القوانين وبيع أملاكهم لأجل نزع فكرة التوطن من أذهانهم، ويجب عدم السماح لليهود الذين لا يحملون جوازات سفر بالدخول، بمن فيهم العاطلون عن العمل واللصوص.

2 ـ الذين يدخلون عن طريق الحيلة ويتنقلون من ولاية إلى ولاية، من دون تذاكر مرور، يُعادون رأسا إلى ولايتهم، ويجب بيع أملاكهم أيضا في الولاية التي يكونون فيها.

3 ـ اليهود الأجانب الذين يدخلون عن طريق جوازات سفر منتظمة وصحيحة مسموح لهم بالإقامة مدة ثلاثة أشهر، ويعطون ورقة حمراء، وتؤخذ الجوازات منهم، وأرى أن يفرض عليهم 30 ـ 50 ليرة تأمينا، وهنا لا يجوز للقناصل أن يتدخلوا وأن تؤخذ منهم كفالة بشرط الخروج من البلاد، وإذا لم يخرجوا، يجب إخراجهم بالقوة، ويجب إثبات وجودهم يوميا لدى الشرطة من أجل التوقيع ولو كان بشكل يومي، وتزاد عملية مراقبتهم ورصدهم والتفتيش عليهم .

4 ـ يجب عدم السماح لليهود الأجانب بتغيير تبعيتهم (جنسيتهم) بشكل قطعي وكلي، لأن كثيرين منهم، عن طريق الحيلة والخداع، يدعون أنهم عثمانيون ويمتلكون الأراضي والعقارات، وبعدها يظهرون تبعيتهم الأجنبية من أجل حمايتهم وفق قانون الامتيازات.

5 ـ بموجب الأوامر العلية الصادرة في العام 1315هـ/1897م تُهدَم الأبنية غير المرخصة وعدم المساعدة في إنشاء أي أبنية من دون تراخيص.

6 ـ إن فساد المأمورين وخداعهم بتسجيل الأراضي الأميرية، وأراضي الملك من دون مستندات شرعية وقانونية، يُوجب أن تحول المعاملة قبل إعطاء سند الملك إلى مجلس القضاء ومجلس اللواء لتدقيقها، ومن ثم تحول إلى الميري والخزانة الجليلة.

7 ـ إنشاء مراكز بوليس على طريق حيفا بهذا الخصوص.

ثامنا: ولترتيب أمور الميناء نطلب تعيين موظف مسؤول عن الميناء يكون راتبه 1555 قرشا، شرط أن يكون من غير سكان البلاد، ويكون معه موظف أمين راتبه ألف قرش شهريا، وموظف للرسوم، وتشكل منهم لجنة من أجل تسجيل القادمين والهدف من ذلك الحد من الرشوة، ويأخذون شكل مجلس قضاء بصفة رسمية ويتناوبون على الدوام، وتنظيم قيودهم يوما بيوم ويعملون عدة نسخ ويسلمونها إلى الإدارة، وكل أسبوع تسلم كشوفهم إلى مجلس اللواء للختم عليها ويبين عدد الجوازات، وعدد التذاكر الممنوحة، وبعثها إلى مركز البوليس وذلك من أجل أخذ التدابير اللازمة وضبط الأمور، والذين يخالفون ذلك يُرحَّلون.

وأصدر علي أكرم بك أوامره إلى رئيس الشرطة (الكوميسير) محمد فوزي بمتابعة ما يجري في ميناء يافا، وضرورة إبلاغه فورا بالبرق بكل طارئ أو مخالفة تقع في الميناء، فقد أبرق علي أكرم بك إلى محمد فوزي مستفسرا عن المهاجرين اليهود، وجاء الرد فورا أن مسألة المهاجرين اليهود طرفنا ليست لها نهاية، نرجو أخذ التدابير العاجلة والمساعدة الجليلة بهذا الخصوص، لوضع حد لمشكلة تدفق اليهود إلى البلاد[22]. وتلقى علي أكرم بك تقريرا مفصلا تاريخه 17 يونيو 1323 من قائد الشرطة (الكوميسير) محمد فوزي، بيَّن فيه رأيه بموضوعية بخصوص المهاجرين الممنوعين من الإقامة، ويشرح بإسهاب طرق الاحتيال والتلاعب في القرارات والتعليمات، ويؤكد تراخي وعدم انضباط رجال الإدارة في تنفيذ التعليمات والبراءات التي صدرت منذ أكثر من 15 سنة، وبالتالي فقد وصلت إلى فلسطين أعداد كبيرة من اليهود، وأقاموا بصورة مخالفة لقانون الإقامة بسبب حصانة الامتيازات من قبل الدول الأجنبية، وكانت لهؤلاء اليهود نشاطات اقتصادية وتجارية وصناعية سهلت لهم القبول لدى رجال السلطة العثمانية. ويقترح مجموعة من الإجراءات اللازم اتخاذها، وينبه إلى الاعتوار الذي شاب حتى التعليمات والقرارات السابقة، ومنها على سبيل المثال:

ـ إن المنع كان مقتصرا على رعايا روسيا والنمسا وإيران ورومانيا، أما رعايا الدول الأخرى مثل أمريكا وفرنسا وألمانيا وبريطانيا فكانوا أحرارا[23]. وتبين أن قسما من اليهود يدخلون عن طريق الناصرة بوساطة العربات والبهائم بعد وصولهم إلى ميناء بيروت وميناء حيفا، ومن ثم ينتقلون إلى القدس ويافا والمستوطنات ويستقرون بالاستعانة بالسماسرة والقناصل وبعض المأمورين بالمساعدة والتسهيل واللين والاحتيال والرشا[24]. واقترح محمد فوزي اتخاذ الإجراءات الفورية التالية:

- تخفيض مدة الإقامة من ثلاثة أشهر إلى شهر واحد.

- أخذ صورة فوتوغرافية لليهود عند وصولهم إلى الميناء، وتثبت على كل جواز سفر صورة حامله.

- إعطاء لجنة ميناء يافا صلاحيات تجاه المسافرين، وذلك بتحميل الذين يحصلون على تذاكر بوساطة العربات وإرسالهم إلى القدس، وإرسال معلومات فورية عنهم إلى القدس بالبرقيات.

- التعاون مع القناصل لإخراج المتخلفين عن انتهاء إذن الإقامة، ولو عن طريق القوة وإجبارهم على ذلك.

- تقام نقاط تفتيش سرية في الأماكن المناسبة من رجال الجندرمة والشرطة حول نابلس وحيفا.

- تشكيل لجنة في كل من القدس ويافا وتكون معتمدة ومقبولة من المتصرفية ويعين عليها رئيس براتب عال وكاف، حتى لا يرتشوا ويفسدوا بالمال.

- تسجيل القادمين في جداول، تبين الطريقة التي حضروا بها، وشهرة كل واحد، وترفع إلى القائمقام والمتصرف أسبوعيا، وتحفظ جوازاتهم في قومسيون الميناء، وتنظيم دفاتر بأسمائهم، وترفع إلى لجنة التدقيقات، لتُفحص عند انتهاء المدة، ويُبعَد المتجاوزون عن طريق القناصل، ويجب تنفيذ كل إجراءات المنع والحفاظ عليها[25].

وقد بادر علي أكرم بك إلى إرسال مذكرة إلى الصدر الأعظم فريد باشا طالبا تشكيل لجنة لتدقيق التعليمات والتقيد بأوامر الدولة العلية، وقد كلف قائد الجندرمة رضا بك وقائد الطابور الألاي أمين بذلك[26].

وفي ملف أوراق علي أكرم بك عشرات الوثائق تبين إجراءات إدارات نقاط العبور في الموانئ البحرية وفي نقاط العبور البرية ووسائل تهريب اليهود بوساطة قوارب قناصل الدول الأجنبية والبواخر التي ترفع علم تلك الدول، وتقديم الكفالات لمن لا يحملون جوازات السفر، إذ تملأ القوارب بمجموعات من 20 - 30 وينزلون على الأرصفة، بفضل رفرفة الأعلام الأجنبية على تلك القوارب[27]، ويتوزعون على القنصليات. ومن ثم يتسربون سرا إلى المدن والمستوطنات. ومن يدخلون حجاجا أو زوارا، وتحجز جوازات سفرهم في الميناء وتصرف لهم تذاكر مرور حمر، تسمح لهم بالإقامة لمدة ثلاثة شهور.

ويرى علي أكرم بك عدم فعالية تلك الإجراءات، فلدى اليهود ومسانديهم من القناصل والسماسرة القدرة على الالتفاف على الإجراءات والتعليمات، فالجندرمة لا تستطيع مراقبتهم، ولا متابعتهم[28]، فعندما يصل اليهودي إلى فلسطين يدخل إلى بيته أو بيت أقاربه، وهم يستطيعون إخفاءه بسهولة، ومن ثم يهرب من بيت إلى بيت وهو لا يحدد مكان سكنه حتى إن

كان لدى الشرطة القدرة والنوايا الصادقة في أداء عملها، وحتى إن سخرنا كل الشرطة ورجال الجندرمة والبلدية واللواء والمحافظة وكل القوى الحكومية، ووضعت كل مهماتها الأخرى جانبا، وحصرت جهودها في متابعة المتخلفين والممنوعين من الإقامة فلن تستطيع الوصول إلى أي هدف. ويلقي باللوم من جانب آخر على الفاسدين من رجال الإدارة، ويعتبر أن تشديد الإجراءات وصرامة التعليمات تفيد من الجانب الآخر الفاسدين، حيث ستزيد رشا وإكراميات وعطايا وهدايا الفاسدين، فالتذكرة الحمراء التي تبلغ رسومها ليرة ونصف الليرة. سيحصل عليها اليهودي المخالف بليرتين وأكثر، فمن الصعب مقاومة البعض إغراءات الذهب الأصفر اليهودي، المتدفق كالنهر من كل اتجاه، ولا غرابة في اشتداد الرغبة والطلب للحصول على التذكرة الحمراء، لأنها غدت ركيزة تؤمن لليهود سلامة إقامتهم، علما بأن 90% من اليهود يصلون يافا من دون جوازات سفر أو بجوازات سفر مزيفة، ولم تعد التذكرة الحمراء عائقا أمام استقرار اليهود، إذ عرف اليهود كيف يستفيدون منها وغدت ورقة مساعدة لهم، ويقرر علي أكرم بك أنه لم يُبعَد يهودي واحد بعد انتهاء إذن إقامته، وفي ميناء يافا خلال الشهور الثلاثة الأخيرة من مارس إلى نهاية يونيو 1907 أكثر من 1750 جوازا لمتخلفين من اليهود، تهربوا واحتالوا واستوطنوا، والأنكى من ذلك كان رد قنصليات بلادهم: إما أنهم ماتوا وإما أنها لا تعرف أماكن إقاماتهم، حتى إن أرسلنا مذكرات جلب لمثولهم أمام المحاكم المدنية، فإن هذه المذكرات القضائية يكون نصيبها الإهمال أو إيداعها أدراج المكاتب[29]. وحتى إذا عزمت المتصرفية على إعادة أي يهودي إلى وطنه، وإذا بذلت جهدا لإخراج ولو يهودي روسي واحد على سبيل المثال. فستتدخل السفارة الروسية في إستانبول لمصلحته وستثير قضية تجعلها مهمة وخطيرة وستضر بالعلاقات العثمانية الروسية.

لقد حاول علي أكرم بك - بوطنيته الصادقة وإخلاصه لقضايا أمته - تفعيل اقتراحات المتصرفية إلى الصدارة العظمى المرسلة بتاريخ 15 أبريل 1900م/1316هـ القاضي بإقامة محطات للبوليس والجندرمة على الطرق البرية وعلى السواحل للحد من موجات الدخول والتهريب، مع تعيين أنفار بوليس برتبة كوميسير أول وثان وثالث وتوزيعهم على المحطات المقترحة وصرف علاوات لهم، وتشكيل لجان لتعقب اليهود الممنوعين من الإقامة في القدس ويافا لتعمل ليل نهار، وتُصرَف لها رواتب كافية، وإذا ظهر منها تقصير تؤخذ في حقهم الإجراءات النظامية[30].

وأصدر مذكرة بضم قضاء الناصرة التابع للواء عكا إلى متصرفية القدس لاعتبارات طائفية وفصله عن ولاية بيروت، وأنجز طريقا بين الناصرة وطبريا، وأمر بإقامة محطات الشرطة والجندرمة على الطريق بين بيروت وطبريا والناصرة لضبط حركة الزوار والحجاج وغيرهم من اليهود[31]، كما أنشأ أربعة مخافر حماية للحدود بين متصرفية القدس وأراضي

مصر، وإقامة مخفر في رفح، وألزم الأجانب بضرورة حمل تذاكر المرور عند تنقلهم بين المدن بمن فيهم اليهود[32].

وطلب علي أكرم بك إلى دائرة النفوس في القدس ضرورة موافاته بتقارير أسبوعية عن أعداد اليهود في المدينة المقدسة، وتقارير عن اليهود الممنوعين من الإقامة بعد انتهاء أذونات الإقامة وبلدانهم التي قدموا منها، وفي الملف أكثر من 30 جدولا إحصائيا لهؤلاء المخالفين من اليهود.

وعلى الجانب الآخر، فقد كان علي أكرم بك جادا ومخلصا في مكافحة ظاهرة الفساد التي علقت بالجهاز الإداري في المتصرفية، واقتلاعها من جذورها.

ومنذ توليه المتصرفية، فقد أوقف عن العمل، خلال ثمانية أشهر، ثمانية عشر موظفا، وارتفع العدد إلى 54 بنهاية ولايته التي لم تتجاوز العشرين شهرا.

وبدأ بقائمقام يافا أحمد بك الكردي الدمشقي، فهو يصفه بالوغد الذي تولى منصبه عن طريق الرشا، وبدأ عمله بالسرقة في يافا، واستغل إعلان الدستور، واستخدم الحرية من أجل الإجرام وممارسة الأعمال الدنيئة، ولذا فقد أوقف هذا النذل، كما يذكر، عن عمله وحقق هو شخصيا معه[33]. كما طالب بعزل مدير الحسابات في القدس حسان أنبر، الذي لا يهتم إلا بمصالحه الشخصية وباع أراضي كثيرة إلى اليهود، مع أن تعليمات الصدارة تمنع ذلك، وقد حقق هو شخصيا في التهم المنسوبة إلى مدير الحسابات، وبالفعل فقد عُزِل[34]، كما أرسل نسخة من التحقيق الذي قام به مع مدير حسابات الوقف الإسلامي في القدس، وكان على علم واطلاع بالتعليمات والقرارات، ويورد علي أكرم بك قائمة بالمخالفات والجرائم التي ارتكبها، ومنها:

- وقع على اتفاقية مع اليهود وباع أراضي تابعة للوقف السلطاني، وأراضي ميري تابعة للدولة.
- سرق عائدات الوقف السلطاني لمدة تتراوح بين 6 و7 سنوات.
- باع مياه السبيل الذي أنشأه صلاح الدين في المدينة للنصارى فقط .
- تسلم تبرعات المصريين لمسجد قبة الصخرة المشرفة وسرقها.
- سمح للمصريين بترميم قبر داود عليه السلام من دون الحصول على إذن السلطة أو مأموريها.
- ظلم الفقراء والمساكين الذين يعتمدون في معاشهم على عائدات الوقف السلطاني والميري ما جلب التعاسة والشقاء لهم.

وأوقع علي أكرم بك العقاب بمدير الميناء في يافا والذي كان يعمل في التهريب، وبضابط الجندرمة الذي ارتكب أعمالا إجرامية، وهؤلاء كانوا شركاء لمدير حسابات الوقف[35]. وطرد وعزل وعاقب كثيرا من كبار الموظفين. من قضاة ومديرين ورجال شرطة وجندرمة وكتاب محاكم. وإجراءاته ضد مائير وعينتابي كنا قد أشرنا إليها سابقا. وتحدى علي أكرم بك صنفا آخر من

الفاسدين، والذين يصفهم بالمجرمين والأوغاد، وقد اتخذوا من الناس صيدا ثمينا لتنمية ثرواتهم وهم عدد من الرجال المجرمين من عائلات الحسيني والخالدي والداودي والنشاشيبي في القدس، وخصوصا الأنذال منهم، أمثال عثمان النشاشيبي، الذين طردوا من المحاكم بسبب جرائمهم، وقد أفشل مساعيهم لبيع أراضيهم للسماسرة اليهود عن طريق الخداع مخالفين قانون الأراضي، وضمان العشر (الخاص الشاهاني، السلطاني) بأسعار رخيصة، وابتزاز المواطنين الفقراء والتسلل إلى وزارات الدولة واستخدام قوتهم كأداة قذرة للفساد[36].

وعلى الرغم من كل هذه الإجراءات والسياسات التي نفذها، فإنه يؤكد أن جميع هذه الإجراءات الإدارية والسياسات لم تنجح في وقف الهجرة اليهودية، ولم تحل دون امتلاك اليهود الأراضي في فلسطين، ويحدد العلة الحقيقية في مؤامرات الدول الأجنبية على الولاية العثمانية في فلسطين والتي ينفذها قناصلهم في فلسطين بدعم نشط من الحكومات والشركات والمؤسسات الأوروبية اليهودية، فالأعشار السلطانية المترتبة على عوائد قرية عين كارم لا يمكن المطالبة بها إلا من خلال القنصل الروسي الذي رفض بإصرار الاستجابة لطلبات المتصرف المتكررة، ومثله فعل قنصل فرنسا وقنصل بريطانيا، ومثلها مشاركة قناصل كل الدول الأجنبية في التسهيل والتلاعب والاحتيال وتقديم الرشا لاستيطان اليهود وحيازة الأراضي.

وملف علي أكرم بك متخم بالرسائل والمعروضات والمذكرات والشيفرات يشكو فيها من تجاوز القناصل على التعليمات والقرارات، ونجاحهم في الوصول إلى أغراضهم من خلال عملائهم والمتواطئين معهم في إستانبول[37].

وعلى صعيد آخر، فإن علي أكرم بك كانت له معرفة ودراية بقرارات المجلس البلدي لمدينة القدس، ويعمل ما وسعه الجهد على الارتقاء بالمدينة والحفاظ على أمنها واستقرارها، والحفاظ على إسلاميتها، حتى إن تلاعب بعض أبناء العائلات المذكورة ضد سياسته وضد مدينتهم، فقد عمل على إنشاء دوائر حكومية في القدس وفي المتصرفية، المجدل وخان يونس والفالوجة.

وأشرف على طرح مناقصة لإنشاء هذه الدوائر[38]، ومن القرارات اللافتة للنظر تطبيق أحكام قانون التمتع (ضريبة الدخل) بالإعفاء بحق المكلفين بلا فرق بالتابعية، وعدم تداول القطع النحاسية المصنوعة من قبل الموسويين في المدينة، وكل من تجاسر وتداول بذلك تحصل مجازاته الشديدة[39]، وقرار يقضي بالتلقيح المجاني لكل سكان القدس ضد مرض الجدري الذي اجتاح المدينة سنة 1323هـ[40]، وآخر بتزويد المدينة بالمياه لسد عوز الأهالي، وكلف شركة سكة الحديد العثمانية بتولي ذلك[41]، وتعيين نواطير في شوارع وأزقة المدينة لمنع التسول[42]، حتى الحيوانات من البهائم والبغال والجمال والعربات التي تجرها الخيول، فقد حدد الأحمال الواجب تحميلها عليها، ونشر إعلانا بذلك، وقد يفهم من ذلك لتحصيل الضرائب المقررة على الأحمال وعدم زيادتها وحفاظا على عدم إعاقة المرور في شوارع المدينة الضيقة أصلا، غير أن

جانب العناية بالحيوانات كان له مكان في القرار[43]، وكذا اللقطاء الذين يعثر عليهم، فقد تقرر صرف مبالغ مالية لرضاعة اللقيط وتربيته[44].

وقد أحصى الباحث أكثر من مائة قرار اتصلت بتنمية المدينة اقتصاديا، وصحيا وأمنيا ورعاية اجتماعية، بل إنه اقترح إضاءة المدينة، وذلك بوضع آلة على نهر الأردن، الشريعة، للاستفادة من قوة جريان الماء لإضاءة المدينة[45]. وحتى جلب المياه من نهر العوجا إلى يافا. وجلب المياه من عيون الفوار وعين قارة إلى القدس[46].

ثم كانت الحادثة الكبرى في حياته الإدارية فقد ضبط عن طريق أحد العملاء السريين، الملقب بإسحاق داوود، كمية من الأسلحة، العتاد والرصاص والديناميت والبنادق العثمانية من نوع مارتين وبنادق مصرية مخبأة في دير السريان وفي مستشفى اليهود والكنيس اليهودي الألماني، ولدى توليه التحقيق ثبت أن امرأة ألمانية، وأحد خدامها من اليهود، وديك البوسي اليهودي وإسحاق مردخاي اليهودي الذي يقطن طبريا وعبدالغني برو من عكا كانوا يشكلون شبكة للمتاجرة بالسلاح وشراء البنادق والتدريب عليها وتوزيعها على القرى اليهودية، وألقي القبض عليهم وأرسل إلى الصدارة العظمى بتفاصيل التحقيق مع هذه الشبكة[47]، وصدقت رؤياه فقد انتقل اليهود إلى إنشاء الفرق المسلحة.

وتحركت مراكز القوى ضده وخصوصا اليهود، ويذخر ملفه بالوثائق التي يفهم منها السعي إلى إقناعه المركز في إستانبول بعدم نجاحه في ضبط الأمن والاستقرار في المتصرفية، فأثارت النزاعات والصراعات بين القبائل البدوية في المتصرفية، وأثير اللاتين ضد الأقباط بشأن مكانة كل طائفة نصرانية في سيطرتها على كنيسة القيامة، وجد القناصل في السعي ضده في إستانبول، وخصوصا مائير وعينتابي وآل التيان الإقطاعيين، وأتموا صفقتهم المتصلة بوادي الحوارث في إستانبول من دون الرجوع إليه، وأبناء العائلات المقدسية، النشاشيبي والحسيني والداودي والخالدي، أثارت الشكاوى ضده في مجلس المبعوثان، ولدى جمعية الاتحاد والترقي وفي الصحافة[48]، ودفع اليهودي إسحاق مناشه حتى بعد الإطاحة به إلى التقدم بشكوى ضد علي أكرم بك، في محكمة رودس، إحدى جزر البحر المتوسط، يدعي بدين له في ذمة علي أكرم بك[49]، وفي المركز سعى به رضا بك ورفيق بك، وكان عرش السلطان عبدالحميد يتهاوى، والمؤامرات تحاك ضد السلطان، فقد وقع الانقلاب ضد السلطان عبدالحميد الثاني 20 أبريل 1325 / 27 أبريل 1909م.

ويكتب علي أكرم بك إلى رفيق بك في إستانبول (الباشا الوزير المعظم) والذي إنحاز إلى رضا بك قائد الجندرمة في إفساد العلاقة بين علي أكرم بك وتوفيق باشا (الصدر الأعظم)، يطلب تحقيق العدالة فيما يصله ويتساءل: هل يمكن أن توافقوا على التضحية بموظف خدم الدولة أكثر من 28 سنة. ويعتبر من المخلصين الأوفياء للسلطان[50].

ولكن أنى للمخلصين للسلطان عبدالحميدالثاني أن يستجاب لهم؟ فقد بدأت عجلة الانقلاب، الصدر الأعظم توفيق باشا ومحمود شوكت، قائد الفيلق الثالث، وناظر الداخلية رءوف وغيرهم، وفي 24 يوليو 1908 وصله كتاب عزله من متصرفية القدس، بعد أسابيع معدودة قضاها في ظل الحكم الدستوري الجديد (إعادة العمل بدستور 1876م. وإطلاق الحريات وإجراء انتخابات لمجلس المبعوثان). وقبل رحيله بعث بمذكرة، شيفرا كتبها بخطه وبعث بها إلى ناظر الداخلية، اشتملت على خلاصة تجربته في المدينة المقدسة، وطرح مجموعة من الأفكار والقضايا التي يمكن أن تستفيد منها الإدارة الجديدة لمتصرفية القدس لأهميتها التي تتقدم على جميع الولايات الأخرى، ومن هذه القضايا:

أولاها: قضية طائفة اليهود التي لا تبخل في تقديم كل أنواع المغريات لأجل التوطن وشراء الأراضي في القدس، وهم يعتقدون أن القدس ملك لهم.

ثانيتها: المدينة، قدسيتها معروفة لدى المسيحيين، ولهذا فلها أهمية استثنائية عند الدول الأوروبية الكبرى، وتحظى باهتمام خاص لدى فرنسا التي تبسط حمايتها على الكاثوليك، وروسيا التي تدعي رئاسة العالم الأرثوذكسي وعلى الدوام تثور المنازعات عند أماكن الحج المقدسة في المدينة، وتصور بالحدث الخطير الأكبر، وتكون مقدمة لسفك الدماء بين الطوائف المسيحية، ولذا كان هذا الأمر يستلزم تدخل الشرطة والقوات العسكرية.

الثالثة: متصرفية القدس تمتد إلى الحدود المصرية، لذا كان لسنجق القدس أهمية أمنية خاصة عند بريطانيا.

الرابعة: أعيان ووجهاء القدس الذين جمعوا الثروات وأقاموا المباني وحازوا الشهرة من خلال تسلطهم على الشعب والمساس بحقوق أبناء الأمة، وهناك فارق بين هؤلاء وأصحاب النفوذ في الولايات الأخرى، فقد عرفوا بتحديهم الدائم للحكومة، فهم يسيطرون على السكان، خصوصا البدو، ويذكر كيف اضطر توفيق بك عندما كان متصرفا للقدس إلى اللجوء إلى إجراءات حاسمة وجدية، وحاصر غزة لفرض النظام ووقف القتال بين عشيرتي العزازمة والترابين من قبائل قضاء بئر السبع، ونفى بعض زعماء العشيرتين إلى الأناضول، ويشير إلى إجراءاته وسياسته ضد الوجهاء والأعيان الفاسدين من عائلة الحسيني والخالدي والداودي والنشاشيبي.

كما نبه إلى التأثيرات المحتملة التي قد تبرز بسبب إعلان الدستور، وانتشار أفكار الحرية في المتصرفية والتي تعيش ظروفا شاذة.

ومن وجهة نظره، فإن الحرية ستستخدم في القدس استخداما سيئا جدا، لأن عصابات الوجهاء المتوحشين، كما يذكر الذين يعتبرون الشعب صيدا دائما لهم، لاسيما أن هذا الشعب لا حول له ولا قوة، ويفتقر إلى القدرة على فهم الحرية ويعاني الأمية والجهل، وسيعتبر الحرية

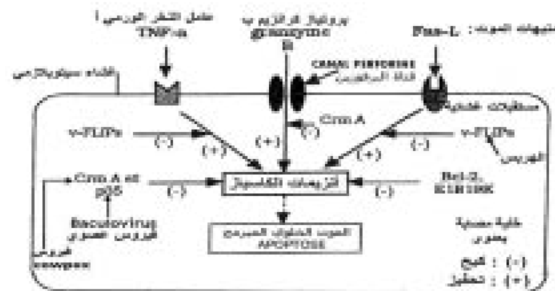
أداة فعالة جدا لخلخة الاستقرار وأداة مهمة لتحصيل الامتيازات، وبالتالي هز استقرار النظام في البلاد، وعليه فإن الدولة ستضطر في النهاية إلى تسيير الحملات العسكرية لتأديب أبناء الشعب في مدينة القدس، بل في المتصرفية كلها.

إن المسألة اليهودية قد ألحقت بعلي أكرم بك الضرر، وأطاحت بمستقبله بوصفه واحدا من أخلص رجالات الدولة العثمانية.

ما كان علي أكرم ليخون قضية بلده، ولا أن يفرط في قدسية البلاد التي بارك الله حولها، وما كان التاريخ غير أن يسجل سيرته في صفحاته البيضاء الناصعة وبأحرف من نور ساطع، وكان من الرجال المؤمنين الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه. وستظل ذكراه في أفق الزمان تجول.

عالم الفكر
العدد 4 المجلد 38 أبريل - يونيو 2010

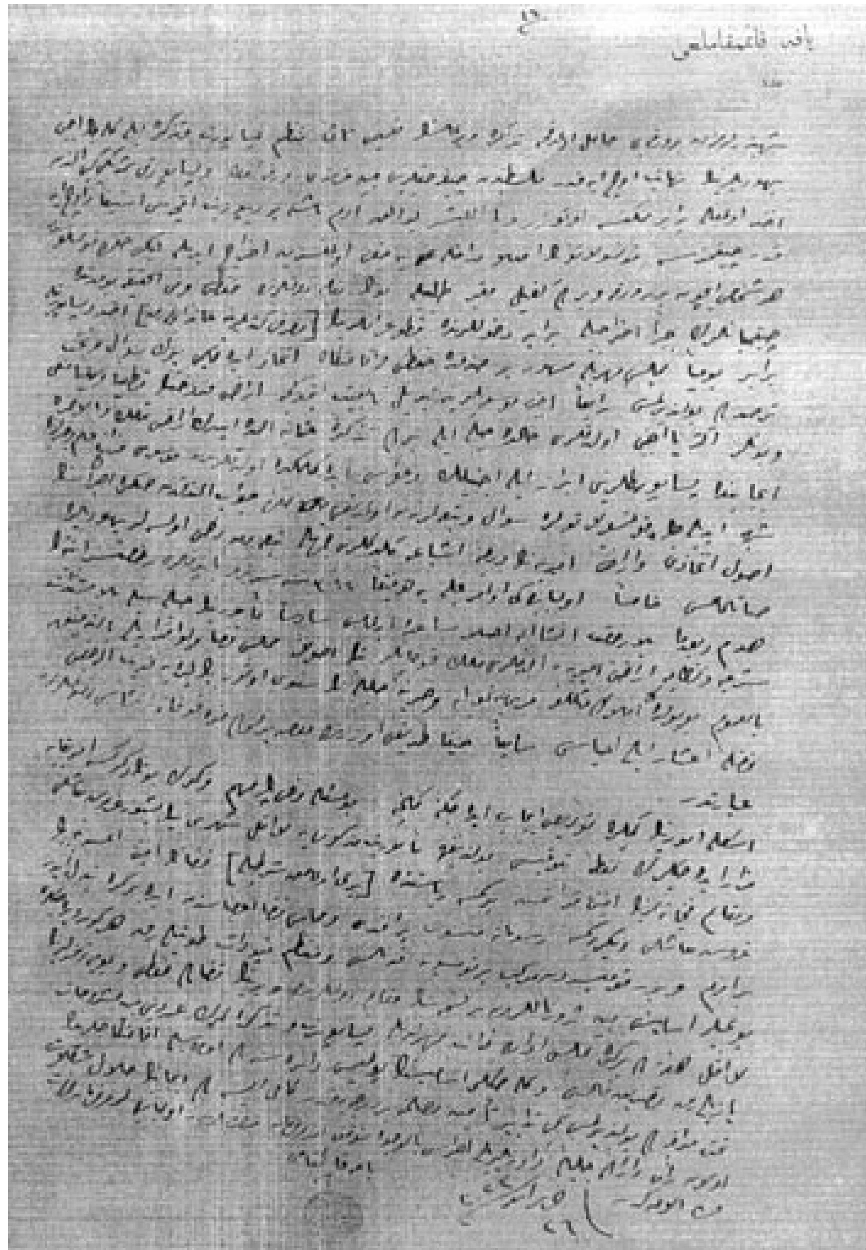
نماذج من الوثائق العثمانية المحفوظة في ملف علي أكرم بك



الشكل(14). المحرضات و استراتيجية كبح أو حفز الموت الخلوي المبرمج.
يتم انطلاق موت الخلية المبرمج نتيجة استجابات و تعريض المستقبلات الغشائية النوعية بالمنبهات الخاصة بها و هي: Fas-L و Granzyme B و TNF-α. و يمكن ايصال اشارة الموت هذه نحو عناصر الاستجابة أي الكاسبازات التي تتولى المراحل النهائية من موت الخلية. إلا أن بعض المسببات المرضية تتداخل مع الكاسبازات إما بطريق مباشرة كـ (Crm A، p35) أو بطريق غير مباشرة عبر مسالك التثبيط ... و تكون النتيجة النهائية كبح عملية الموت المبرمج و بقاء الخلية المعفنة على قيد الحياة.

معروض محمد آصف بك، قائمقام يافا تاريخه 26 يونيو 1906/1323م

ترجم في البحث

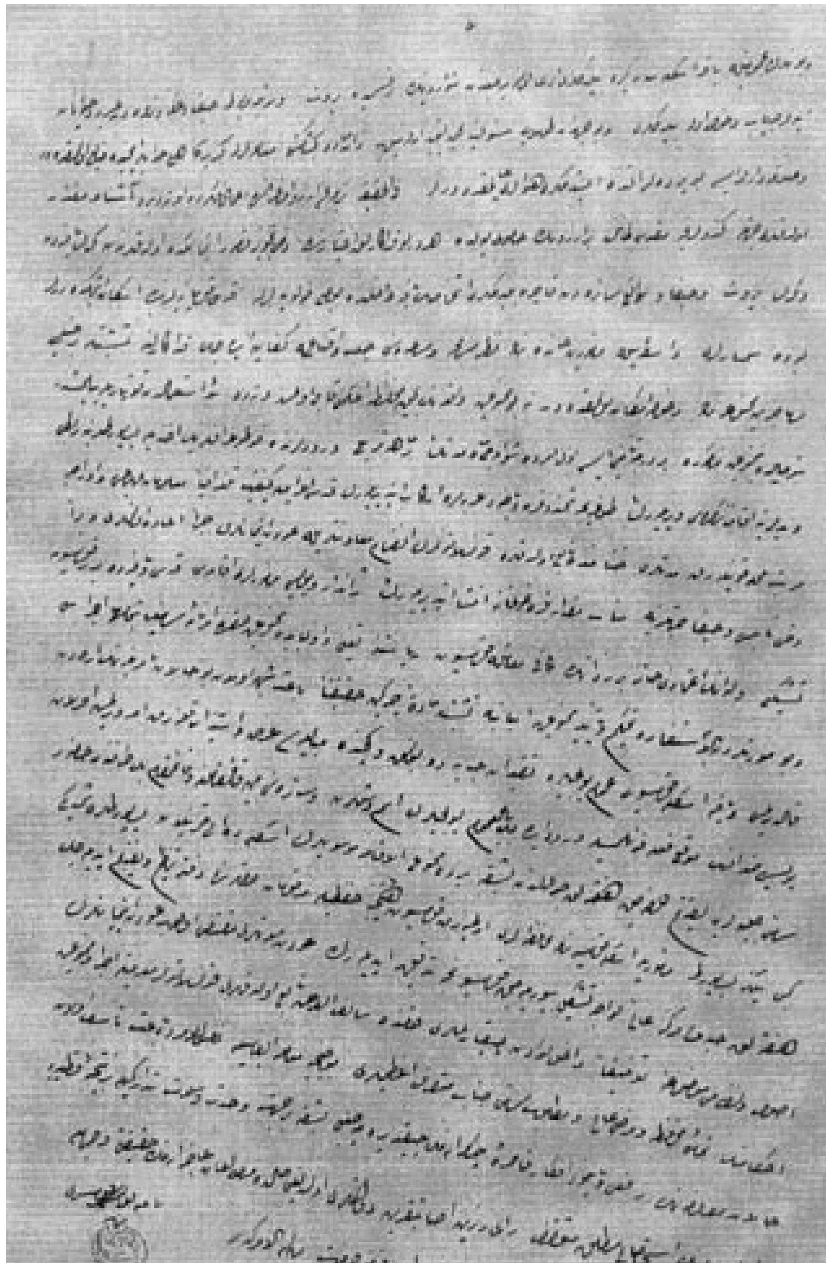


الصفحة الأخيرة من تقرير محمد آصف بك

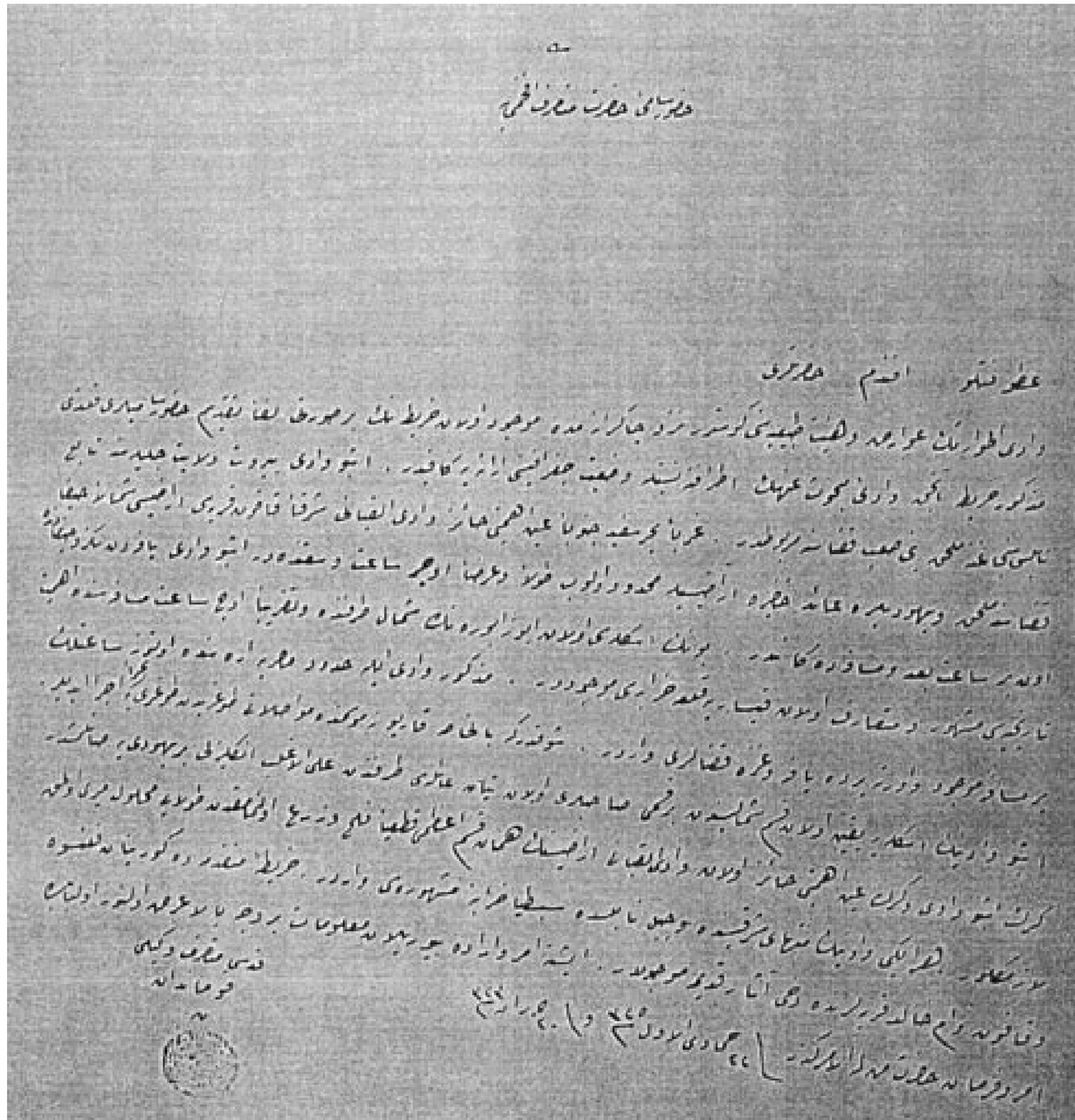
عالم الفكر
العدد 4 المجلد 38 أبريل - يونيو 2010



تقرير قائد شرطة يافا محمد فوزي بن علي أفندي الكاتب الأول
تاريخه 17 يونيو 1323 - ترجم في البحث



الصفحة الثانية من تقرير محمد فوزي



التواطؤ لبيع أراضي وادي الحوارث لليهود ـ مساحة الأرض أربعون ألف دونم

بتاريخ 22 جمادى الأولى 1325هـ / 20 يونيو 1323 رومي



اوراق نومروسی

احضار نومروسی

بدايت محكمه‌سی حقوق دائره‌سنه مخصوص دعوتنامه

مذكرة إعلام الدعوى التي تقدم بها اليهودي الروسي إسحاق مناشه

ضد علي أكرم بك مدعيا بدين لليهودي في ذمة علي أكرم بك مقداره ثمانون قرشا. انظر الترجمة في الصفحة التالية

النسخة الأصلية/أصلي

طلبية خاصة لقسم الضرائب والجباية لمحكمة الصلح

شكوى ضد جناب الوزير السابق لجزر البحر المتوسط أكرم بك المديون لإسحاق مناشه الذي يسكن الحي اليهودي في جزيرة رودوس لتحصيل 80 قرشا.

تبحث هذه الدعوى في محكمة الصلح في رودوس يوم الأربعاء الثاني من سبتمبر 1326 رومي في الساعة السادسة، وفي هذا اليوم يترتب على الجانبين بأنفسهم أو موكليهم للحضور إلى القسم المذكور وإذا لم يحضر أحدهم أو أحد موكليهم سيتم الحكم حسب طلب الطرف الموجود حتى وبغياب الطرف الآخر.

هذه الاستمارة تكتب بنسختين وتعطى للمدعى عليه.

1 سبتمبر 1326 رومي (1909م)

1 سبتمبر 1326 رومي

الخاتم الرسمي

الهوامش :

1 محمد نامق، كمال بك، كتاب فاتحة الفتوحات العثمانية، تعريب: عبدالله مخلص، حيفا، المطبعة الوطنية، 1909. ص 5.

2 أوراق علي أكرم بك، ملف f.83/I، مسودة عريضة صادرة من متصرف القدس الشريف إلى الصدر الأعظم، تاريخها 23 يوليو 1907، محمد نامق، كتاب فاتحة الفتوحات العثمانية، ص 17 و18.

3 السلطان عبدالحميد الثاني، ثبتت سنة 1305هـ/1887م متصرفية القدس ولاية مستقلة عن سورية شملت جنوب فلسطين ووسطها تقريبا، انظر، شولش، فلسطين، 23 ـ 42.

4 أوراق علي أكرم بك، وثيقة عثمانية وعبرية تاريخها 7 أكتوبر سنة 1310هـ/1894م، «يضيف حسين حلمي أن توجهاته مركزة بأبعاد المبشرين الإنجليز الذين جاءوا إلى المنطقة باسم الجمعيات الشرقية، ويعملون على تحويل بعض المسلمين من البدو إلى المذهب المسيحي البروتستانتي».

5 أوراق علي أكرم بك، وثيقة تاريخها 3 يونيو 323 رومي 1907م.

6 أوراق علي أكرم بك، وثيقة، معروض للصدارة العظمى، تاريخها 16 أغسطس 1323هـ/1905م، ووثيقة أخرى تاريخها 29 أغسطس 1326هـ/1907م.

7 أوراق علي أكرم بك، وثيقة معروض إلى الصدارة العظمى تاريخها 23 يوليو 1326هـ/1907م.

8 الوثيقة السابقة.

9 وثيقة رقم 427/198/F أرشيف دولة إسرائيل، وأوراق الباب العالي رقم 62/901.

10 قانون تملك الأجانب سنة 1867م، انظر سجل محكمة القدس الشرعية رقم 356، ص99، تاريخ 9 صفر 1285هـ/1868م.

11 برقية شيفرة من متصرف القدس إلى الصدر الأعظم وتثبيت القائمقائم محمد آصف بك، تاريخها 14 مارس 1324هـ/1906م.

12 أوراق علي أكرم بك، رسالة ضد وشايات اليهود والفاسدين، تاريخها 29 أغسطس 1326هـ/1907م.

13 أوراق علي أكرم بك، تقرير بخصوص الهجرة اليهودية رفعه إلى الصدر الأعظم، تاريخه 23 يوليو 1326هـ/1907م، ووثيقة «معروض» محمد آصف إلى المتصرف علي أكرم بك، رقم 16 تاريخه 26 يونيو 1323هـ/1906م.

14 B.E.O. Defter.318.No.214942 تاريخها 27 يونيو 1322هـ.

15 لجنة المبايعات تنظر في الأمور المتعلقة ببيع الأراضي وشرائها في قضاء يافا خوفا من انتقالها إلى اليهود وتتكون من مقائمقام يافا رئيسا والنائب الشرعي والمفتي ومدير المال وكاتب الويركو وأمين الصندوق ووكيل الأوقاف وكاتب الطابو وعضو من مجلس إدارة القضاء، انظر يوقلمة يافا 9 سبتمبر 1290 مالية /1874م، ص 21.

16 أوراق علي أكرم بك، تاريخها 23 ربيع الأول 1325، 23 أبريل 1323هـ.

17 أوراق علي أكرم بك، تاريخ الوثيقة 3 يونيو 1325هـ/1907م، بالعثمانية والعبرية. شناق، العلاقات بين العرب واليهود، 273 ـ 275 (الأرض كان قد اغتصبها آل التيان الإقطاعيون من الفلاحين بحيلة كبرى).

18 انظر B.E.O. No 232274 تاريخ 23 جمادى الأولى 1325، 22 يونيو 1323، أوراق علي أكرم بك، تلغراف مشفر إلى سكرتارية الباب العالي من متصرفية القدس، تاريخها 3 يوليو 1323 رقم 92 ، وشيفرة من حسين حلمي تاريخها 21يونيو 1323، 28 يونيو 1323هـ (وبعض أوراق هذه الوثائق ترجم إلى العبرية، ومحفوظ في ملف علي أكرم بك).

19 دفتر قرارات وتحارير مجلس لواء نابلس 4/1325/4,7/14، 30 أغسطس 1325هـ، ص 29، دفتر /505/3/27 25، ص 175، 1326 هـ/1908م.

20 أوراق علي أكرم بك، مذكرة من والي عكا إلى طابو الناصرة 28 ربيع الآخرى 1313هـ، سبتمبر 1316/1899م، 11 شعبان 1316هـ /13 ديسمبر 1315هـ/1897م ودفتر محفوظات بلدية القدس، دفتر قرارات 12 يونيو 1316هـ، 1899/7/13م.

21 أوراق علي أكرم بك، تقرير من علي أكرم بك إلى الصدارة العظمى، تاريخه 23 يوليو 1326هـ/1907م، وانظر أيضا، شناق، محمود نهار، العلاقات بين العرب واليهود 1293 ـ 1333هـ، 1876 ـ 1914م، ط فلسطين 1425هـ/2005، ص 660 ـ 662.

22 شيفرة علي أكرم بك رقم 356 وجوابها رقم 357 وتاريخها شعبان 17/1325يونيو 1323.

23 أوراق علي أكرم بك، تقرير محمد فوزي إلى علي أكرم بك تاريخ 17يونيو 1323هـ/1906.

24 الوثيقة السابقة.

25 أوراق علي أكرم بك، تقرير محمد فوزي إلى المتصرف علي أكرم بك، تاريخ 17 يونيو 1323هـ، انظر الشناق، العلاقات، ص 663 ـ 665.

26 أوراق علي أكرم بك، مذكرة إلى الصدر الأعظم، تاريخها 23 يونيو1323هـ/1906.

27 أوراق علي أكرم بك، تاريخ 23 يوليو 1907 (تقرير إلى الصدارة العظمى).

28 الوثيقة السابقة نفسها.

29 أوراق علي أكرم بك، تقرير إلى الصدارة العظمى، رمضان 1326هـ/أكتوبر1907م.

30 مذكرة المتصرفية إلى الصدارة العظمى، تاريخها 15 أبريل 1316هـ/1900م.

31 B.E.O.No. 215237، تاريخ 16 جمادى الآخر 1324هـ/15 يونيو 1322.

32 B.E.O. defter 318 No. 21850 .IRA.1906,1324H.

33 أوراق علي أكرم بك، وثيقة رقم 29، 29 أغسطس 1907م.

34 أوراق علي أكرم بك، رسالة تاريخ 23 أكتوبر1323هـ.

35 أوراق علي أكرم بك، شيفرة إلى السكرتارية الرئيسية في الصدارة تاريخها 13 أكتوبر 1907م.

36 أوراق علي أكرم بك، رسالة إلى وزارة المالية تاريخها 16 أغسطس 1908م، للحقيقة فبعد عزل علي أكرم بك، فإن أنفارا من هؤلاء قد باعوا شيئا من أراضيهم التي كانوا قد اغتصبوها من الفلاحين وأراضي الوقف والخاص السلطاني، بشأن هذا انظر،

Stein, Kenneth. W, The Land Question of Palestine , 1917-1939 London and .U.S.A. 1984. pp.228-239

– أفنيري، أريه .ل، دعوى نزع الملكية، الاستيطان اليهودي والعرب، ترجمة: بشير يوسف البرغوثي، عمان، دار الجليل، 1986، ص 203 ـ 211.

37 بشأن دور القناصل انظر، أوراق علي أكرم بك، وثيقة القنصلية الإنجليزية ملحق رقم 791/22/f. تاريخ 19 ديسمبر 1323هـ، وثيقة هجرة اليهود تاريخ 23يوليو 1907، 27 يونيو 1324هـ، 26 يونيو 1300هـ/1882م.

38 قرارات المجلس البلدي، القدس، 21 نوفمبر 1322، وثائق وقرارات المجلس محفوظة عند الباحث (نسخة فريدة).

39 قرارات، 10 مارس 1323هـ/1905م.

40 قرارات بتاريخ 19 مارس 1323هـ/1905م.

41 قرارات بتاريخ 7 يونيو 1323هـ/1905م.

42 قرار 29 يناير 1324هـ/1906م.

43 قرار تاريخه 3 فبراير 1906/1324م.

44 قرار تاريخه 23 فبراير 1324هـ/1906م، 8 يناير 1324هـ/1906م.

45 يلدز متنوعي معروضات أوراق، رقم 463 تاريخ 1323هـ ـ 1327هـ/1905مـ1909م، (أوراق علي أكرم بك) Y.Mtv.No.285/162.22.8/324.

46 ملفات القنصلية الألمانية F 456/473 أغسطس 1325هـ/1907 (أوراق علي أكرم بك).

47 تقرير إلى الصدارة 29 أغسطس 1907، B.E.O. Defter 273,(No.58887).

48 انظر صفقة وادي الحوارث .Stein. The Land Question , The Wadi Hawarrith Affair,P.76-79 وانظر أيضا، أفنيري، دعوى نزع الملكية، قضية وادي الحوارث (أيمك هيفر، وادي حوفر)، ص 124 ـ 135.

49 مذكرة أخطار الدعوى لدى محكمة صلح رودوس تاريخها الأول من سبتمبر 1325 فبراير/1909م وحول الشكاوى ضد علي أكرم بك، السعي به في إستانبول، انظر الوثائق ذوات التواريخ 6 يونيو 1323هـ/1907م، 7 يونيو 1907م المحفوظة في ملفه والمترجمة إلى العبرية أيضا.

50 رسالة علي أكرم بك إلى الباشا الوزير تاريخها 11 يونيو 1907م.

المصادر والمراجع :

اعتمد البحث بصورة أساسية على الملف المحفوظ في أرشيف دولة إسرائيل Israel State Archive في القدس، وصنف تحت ملف علي أكرم بك، رقم I/f.83.(*)

الوثائق المدروسة من الملف:

أ - الشيفرات (البرقيات، التلغرافات المشفرة):

- شيفرة صادرة من ولاية بيروت عن باب عال، تلغراف نامه سامي، مرسلة من متصرف القدس، قدس متصرف قلعه، بتاريخ 14 يونيو 1323 جوابا على استفسار الصدارة بتاريخ 10 يونيو 1323، بشأن منع الهجرة اليهودية، وضرورة اتخاذ التدبيرات اللازمة وفق اللوائح.
- شيفرة (برقية) صادرة من «قدس تحريرات قلمي مسوداتي» قلم التحريرات القدس، المسودة بتاريخ 20 يونيو 1323، تتصل بجمعية الإليانس الإسرائيلية، الاتحاد الإسرائيلية، وعلاقة يعقوب مائير حاخام سلانيك السابق معها، والتحري عنه وضروة عزله من وظائفه والبرقية مرسلة إلى المفتش بولاية (روم إيلي ولايات شاهانه سي مفتشلكه، شفره).
- شيفرة قلمي، دائرة صادرة عظمى، باب عال، من الصدارة إلى مفتش الروماللي، عدم المصادقة على تعيين يعقوب مائير وكيلا لحاخام القدس الشريف، وعدم استخدامه بتاتا، لأنه مضر ومعاد للدولة، تاريخه 21 يونيو 1323، ومرسلة من المفتش حسين حلمي (مترجمة إلى العبرية).
- شيفرة من متصرف القدس إلى الصدر الأعظم، تتعلق بتعيين محمد آصف بك قائمقاما ليافا، تاريخها 14 مارس 1906م/1324.
- شيفرة (برقية) إلى السكرتارية الرئيسية في الصدارة، تاريخها 13 أكتوبر 1907، تتعلق بالأخطار الأجنبية المحيطة بالقدس.
- شيفرة إلى علي أكرم بك، رقمها 356 وجوابها رقم 357 تاريخها شعبان 1325 هـ 17 يونيو 1323 رومي، حول أعداد اليهود في القدس والأراضي التي يحاولون شراءها.
- عرض وبيان من قائمقام الناصرة إلى حضرة الجناب السامي، المتصرف الأفخم تاريخه 14 جمادى الآخرة 1326هـ، و30 يونيو 1324 رومي (مالية). نمرة 34 لفتح طريق بين بيروت والناصرة وطبريا وموجبات ذلك الاقتصادية والأمنية.
- يافا قائمقام ملغي، عدد 18، معروض من قائمقام يافا محمد آصف بك إلى سامي الجناب، المتصرف الأفخم، تاريخها 21 جمادى الأولى 1325هـ، 18 يونيو 1323(رومي). تتصل بالمهاجرين اليهود وحفظ جوازات سفرهم لدى سلطات ميناء يافا (الإجراءات المتخذة).
- معروض من محمد آصف بك، قائمقام يافا إلى المتصرف علي أكرم بك، رقمه 16ن تاريخه 26 يونيو 1906/1323م يعرض للمسألة اليهودية، الهجرة والتحايل والتلاعب، ويقترح وسائل وتدابير واجب اتخاذها للحد منها.
- تقرير من دائرة نظارتي النفوس، قدس متصرفلغي، 21 يونيو 1323.
- تقرير من مديرية جباية التحصيلات بشأن التحقيقات مع قائمقام يافا السابق أحمد الكردي بك الشامي وعبدالرحمن أخو مدير المالية في لواء يافا، تاريخه 24 يوليو 1324.
- تقرير كتبه علي أكرم بك إلى الصدارة العظمى، دراسة عن الأحوال في المتصرفية تاريخها 29 أغسطس

(*) منذ سنة 2000م أغلق الأرشيف أمام الباحثين، وفرضت رقابة صارمة حتى على الباحثين من اليهود.

1907 الواقع والأخطار اليهودية وأطماع القناصل والفساد الإداري من قبل كبار موظفي الدولة والعائلات المتنفذة في المتصرفية، وهو من أهم التقارير.

- تقرير قائد الشرطة محمد فوزري بن علي أفندي الكاتب الأول في ميناء يافا فيه تحديد للإجراءات والتدبيرات المتخذة لضبط دخول وخروج الحجاج والزوار والسياح وخصوصا اليهود، وفيه نقد للثغرات التي ينفذ منها اليهود والقناصل بقصد التحايل والتلاعب، تاريخه 17 يونيو 1906/1323م.

- تقرير رفعه علي أكرم بك إلى الصدر الأعظم في إستانبول بخصوص الهجرة اليهودية، وتدخل القناصل سواء في القدس أو إستانبول تاريخه 23 يوليو 1907/1326م، ومعروض آخر تاريخه 16 أغسطس 1323/1905.

- تقرير شكوى ضد علي أكرم بك، تاريخها 6 يونيو 1907/1325م و7 يونيو 1907م رفعها اليهود وبعض الأعيان في القدس.

- مذكرة إخطار دعوى رفعت ضد علي أكرم بك لدى محكمة رودوس، جزائر بحر سفيد تاريخها الأول من سبتمبر 1325رومي، 1909م المدعى عليه اليهودي إسحاق مناشه وقد ادعى أن له دينا في ذمة علي أكرم بك.

- رسالة شخصية من والي سنجق معان، حسين حلمي إلى علي أكرم بك عندما كان يعمل في سكرتارية (المابين) السلطاني تاريخها 7 أكتوبر 1310/ 1894تتصل بأطماع اليهود في الاستيطان بالمنطقة وخصوصا مدين (الرسالة مترجمة إلى العبرية أيضا).

- رسالة من علي أكرم بك إلى الباشا الوزير يبين فيها محاولات رجال الإدارة الفاسدين والمتواطئين ضده، والذين يحاولون الإيقاع، تاريخه 11 يونيو 1907م.

- رسالة من علي أكرم بك يفند بها وشايات اليهود وإفسادهم للرعايا وإثارتهم ضده، مرسلة إلى الصدارة العظمى، تاريخها 29 أغسطس 1326هـ/1907م.

ب - أوراق الباب العالي B.E.O

- Defter, 318 تاريخه 1322/1/15 ـ 1327/2/20 (1904 - 1909) القدس، الوثيقة رقم 214947، عريضة خصوصية من المتصرف أحمد رشيد إلى الصدارة العظمى، إستانبول، تتعلق بالجمعيات الإسرائيلية، الإليانس والسنترال والتحايل لشراء وحيازة الأراضي من قبل اليهود الأجانب تاريخها 19 جمادى الأولى 1324هـ، 28 يونيو 1322 رومي.

- Defter, 318 تاريخه 1322/1/15هـ ـ 1327/2/20هـ (1904 ـ 1909م) القدس، الوثيقة رقم 2152237 تاريخها 19 جمادى الآخرة 1324هـ، 28 يونيو 1322رومي، تعمير طريق بين الناصرة وطبريا.

- الدفتر السابق، وثيقة رقم 229470 تاريخها 23 ربيع الأول 1325هـ/ 23أبريل 1323 رومي تتعلق بعينتابي، مدير الإليانس ومحاولته شراء أراض في عكا لمصلحة الجمعية اليهودية في القدس.

- وثيقة رقم 232274 تاريخ 23 جمادى أول 1325هـ 28 يونيو 1323 رومي، الحذر من يعقوب مائير وعمله في القدس.

- يلدز متنوعي معروضات (أوراق)،

Yildiz Sadaret Resmi Maruzat Evraki LY.A.Res: Y.A.Res defter No. 493

ـ وثيقة رقم 285/162، تاريخها 22 صفر 1322هـ/5 أبريل 1322 رومي: اقتراح بإضاءة مدينة القدس، بتركيب ماتور على نهر الشريعة ـ نهر الأردن.

ـ Defter, 273 رقم 58887 تاريخ 14 ذي الحجة 1313هـ/ 15 مارس 1312 رومي، برقية من الصدارة إلى ولاية بيروت ومتصرفية القدس، تتصل بشراء أسلحة وإدخالها إلى الأديرة والمنازل اليهودية في طبريا، والمخبر إسحق داود وضرورة البحث والتحري عن ذلك.

ـ صورة المضبطة المرفوعة إلى الصدارة السلطانية بتاريخ 15 شعبان 1316هـ، بشأن هجرة اليهود إلى فلسطين والتلاعب والتحايل على القوانين واللوائح والتعليمات.

Iradeler Dahiliye 325/3, 16 شوال 1324, Basbakanlik Arsive, BBA.

إرادة داخلية بتعيين علي أكرم بك متصرفا على القدس بتاريخ 16 شوال 1324هـ/2 ديسمبر 1906م.

ج ـ قرارات من دفاتر مهمات المجالس البلدية ومجالس إدارات الألوية والدفاتر الخاصة بمجلس بلدية القدس لدى الباحث نسخ منها وهي فريدة:

ـ قرارات 12 يونيو 1899م

ـ13 يوليو 1899م

ـ قرار بتاريخ 10 مارس 1323هـ/1905م

ـ قرار بتاريخ 19 مارس 1323هـ/1905م

ـ قرار بتاريخ 27 يونيو 1323هـ/1905م

ـ قرار بتاريخ 29 يناير 1324هـ/1906م

ـ قرار بتاريخ 3 فبراير 1324هـ/1906م

ـ قرار بتاريخ 23 فبراير 1324هـ/1906م

ـ قرار بتاريخ 8 يناير 1324هـ/1906م

ـ قرارات مجلس إدارة لواء قضاء يافا.

ـ يوقلمه يافا، 19 سبتمبر 1874هـ، 1290 مالية، ص 21.

ـ قرارات وتحارير مجلس إدارة لواء نابلس (التمتع والويركو).

تاريخ 13 أغسطس 1325هـ رقم 1/14، Defter 1414/1325.

تاريخ 1326هـ/1908م، رقم Deft. 505/3/27/25.

ـ ملفات القنصلية البريطانية رقم 7291/22/f تاريخ 19 ديسمبر 1323هـ دور القنصلية في إخفاء اليهود المخالفين والمتهربين من الشرطة العثمانية الساعية إلى إبعادهم وإخراجهم من القدس وفلسطين.

ـ ملفات القنصلية الألمانية رقم 456/473/f تاريخ 23 أغسطس 1325/1907م (أوراق علي أكرم بك، إيصال المياه إلى بلدية القدس).

د. المصادر والمراجع:

- أفنيري، إريه. ل

دعوى نزع الملكية (الاستيطان اليهودي والعرب)، ترجمة: بشير يوسف البرغوثي، عمان، دار الجليل، 1986.

- شولش، الكزاندر

تحولات جذرية في فلسطين 1856 ـ 1882م، ترجمة: كامل العسلي، عمان، الجامعة الأردنية، 1988م.

- شناق، محمود نهار

العلاقات بين العرب واليهود في فلسطين 1293 ـ 1323 هـ (1876 ـ 1914م)، فلسطين، حلحول، مطبعة بابل الفنية، 1425هـ/2005م.

- كمال بك، محمد نامق

فاتحة الفتوحات العثمانية، تعريب: عبدالله مخلص، حيفا، المطبعة الوطنية، 1909.

جـ . المصادر الأجنبية:

- Ismail Parlatir,

Ali Ekrem Bolayir, Ankra, 1987.

- Metin Kayahan Ozgul,

Ali Ekrem Hatiralari, Ankra, 1991.

- Selma Ekrem book, Unveiled,

The autobiography of a Turkish Girl, New York, 1930.

عالم الفكر
العدد 4 المجلد 38 أبريل - يونيو 2010

القدس تحت الاحتلال الصهيوني: تهويد المعالم والسكان

د. محسن محمد صالح (*)

الاحتلال الصهيوني للقدس

أعلن قادة الحركة الصهيونية إنشاء «إسرائيل» في مساء يوم 14 مايو 1948، واحتل الصهاينة غربي القدس، وطردوا 60 ألفا من سكانها العرب، من أحياء مأمن الله، والبقعا الفوقا، والبقعا التحتا، والقطمون، والطالبية، والمصرارة، والكولونيالية الألمانية، والحي اليوناني، وقسم من أبي طور وحي الثوري.

ويملك الفلسطينيون نحو 88.7 في المائة من مجمل مساحة القدس الغربية، التي هوَّدها الصهاينة وبنوا أحياء سكنية يهودية فوق أراضيها، وأراضي القرى العربية المصادرة حولها، مثل قرية لفتا التي بُني عليها البرلمان الإسرائيلي (الكنيست) وعدد من الوزارات، وقرى عين كارم ودير ياسين والمالحة وغيرها (1).

وفي الفترة من 1948 إلى 1967 توسعت حدود بلدية القدس الغربية من 16261 دونما (16.3 كم^2 تقريبا) إلى 38100 دونم (38.1 كم^2)، واستُقدم 54 ألف مستوطن يهودي للقدس خلال الفترة من 1948 إلى 1951، استُوعب معظمهم في بيوت المقدسيين العرب التي هُجِّروا منها. وقد ظل عدد اليهود يشهد نموا ملحوظا، حيث قفز من 84 ألفا في نوفمبر عام 1948 إلى197 ألفا في يونيو 1967، وفي تلك الفترة استولت السلطات الإسرائيلية على المناطق المحيطة بغربي القدس وقراها، وبنت نحو خمسين مستوطنة يهودية عليها (2).

(*) الأستاذ المشارك في الدراسات الفلسطينية - المدير العام لمركز الزيتونة للدراسات والاستشارات - بيروت.

وفي العام 1967 أكملت إسرائيل احتلالها لشرقي القدس الذي كان تحت السيطرة الأردنية، والذي يعد جزءا من الضفة الغربية. ومنذ ذلك الوقت بدأ حملة تهويد محمومة لشرقي القدس، فأعلن عن توحيد شطري القدس تحت الإدارة الإسرائيلية في 27 مايو 1967، ثم أعلن رسميا في 30 يوليو 1980 أن القدس عاصمة أبدية موحدة للكيان الإسرائيلي (3).

لقد كان التركيز على القدس مسألة مركزية في الفكر اليهودي الصهيوني، لما تمثله من أبعاد دينية وتاريخية، وقبل أن ينشأ الكيان الإسرائيلي بنحو خمسين عاما قال هرتزل T. Herzl، مؤسس المنظمة الصهيونية العالمية: «إذا حصلنا على مدينة القدس، وكنت لا أزال حيا وقادرا على القيام بأي عمل، فسوف أزيل كل شيء ليس مقدسا لدى اليهود فيها، وسوف أحرق جميع الآثار التي مرت عليها قرون» (4).

لقد صدرت عشرات القرارات الدولية عن الأمم المتحدة ومجلس الأمن الدولي برفض ضم الكيان الإسرائيلي لشرقي القدس، ورفض أي إجراءات مادية أو إدارية أو قانونية تغير من واقع القدس واعتبار ذلك لاغيا، واعتبرت هذه القرارات الكيان الإسرائيلي قوة احتلال يجب أن تخرج من القدس (ومن الضفة الغربية وقطاع غزة ككل). وقد صدر أول هذه القرارات في 4 يوليو 1967 عن الجمعية العامة للأمم المتحدة تحت رقم 2253، وظلت القرارات تتوالى إلى أن ضم الكيان الإسرائيلي القدس رسميا إليه، فاتخذت الجمعية العامة للأمم المتحدة قرار ES712 في 29 يوليو 1980 بأغلبية 112 صوتا مقابل 7 أصوات وامتناع 24، يدعو «إسرائيل» إلى الانسحاب الكامل من دون شروط من جميع الأراضي العربية المحتلة بما فيها القدس. واتخذ مجلس الأمن في 30 يوليو 1980 بأغلبية 14 صوتا ضد لا شيء، وامتناع الولايات المتحدة عن التصويت قرارا بإعلان بطلان الإجراءات التي اتخذها الكيان الإسرائيلي لتغيير وضع القدس، مؤكدا ضرورة إنهاء الاحتلال الإسرائيلي. وجاء قرار الأمم المتحدة رقم 22/58 بتاريخ 3 ديسمبر 2003 لينص على أن قرار إسرائيل فرض قوانينها على مدينة القدس لاغ وباطل. واستمرت القرارات في الصدور إلى الآن، غير أنها، وإن كانت تعترف بحقوق الفلسطينيين، فأنها تفتقر إلى الجدية والآلية اللازمتين لإرغام الكيان الإسرائيلي على احترام القرارات الدولية (5).

وقد قامت السلطات الإسرائيلية بحملة محمومة لتهويد الأرض والإنسان في القدس، وسعت إلى طمس هويتها العربية والإسلامية، فصادرت الأراضي والممتلكات، وبنت الأحياء الاستيطانية والمستعمرات، واستقدمت اليهود من كل مكان، ووضعت المقدسيين في أحوال بئيسة وقاسية وفي بيئة طاردة، ضاربة بكل الشرائع والمواثيق الدولية عرض الحائط، فاتفاقية لاهاي الدولية لعام 1907 لا تجيز للدولة المحتلة مصادرة الأملاك الخاصة، فالمادة 56 تقرر أن الدولة المحتلة هي بمنزلة مدير للأراضي في البلد المحتل. واشترطت معاملة ممتلكات البلديات وممتلكات المؤسسات المخصصة للعبادة والأعمال الخيرية والتربوية، والمؤسسات

الفنية والعلمية كممتلكات خاصة عندما تكون ملكا للدولة، وحظرت كل حجز أو تدمير أو إتلاف عمدي لمثل هذه المؤسسات والآثار التاريخية والفنية والعلمية (6).

كما نصت المادة 49 من معاهدة جنيف الرابعة، بشأن حماية الأشخاص المدنيين وقت الحرب في 12 أغسطس 1949، على أنه لا يحق لسلطة الاحتلال نقل مواطنيها إلى الأراضي التي احتلتها، أو القيام بأي إجراء يؤدي إلى التغيير الديموجرافي فيها. ونصت المادة 53 من المعاهدة نفسها على أنه لا يحق لقوات الاحتلال تدمير الملكية الشخصية الفردية أو الجماعية أو ملكية الأفراد أو الدولة التابعة لأي سلطة في البلد المحتل (7).

الاعتداء على المسجد الأقصى

سعت السلطات الإسرائيلية إلى تحقيق وجود يهودي دائم ومباشر في المسجد الأقصى ومحيطه، وحاولت جعله منطقة متنازع عليها مع المسلمين، وعملت على التهيئة لمصادرة أجزاء منه، والسيطرة عليه في مراحل لاحقة، تمهيدا لبناء ما يسمى الهيكل الثالث. وشجعت أو تغاضت عن الاقتحامات المتكررة للمتطرفين اليهود، الذين يدعون أن لهم حقا في الصلاة في «جبل الهيكل»، كما سعت إلى تحويله منطقة مفتوحة أمام اليهود والسياح، ليأخذ شكل المتحف والمزار السياحي، ولتنزع عنه هيبته ومكانته وطبيعته الإسلامية. كما سمحت السلطات الإسرائيلية ببناء الكنس عند أسوار المسجد ككنيس المدرسة التنكزية، وأسفل منه كقنطرة ويلسون، وفي محيطه ككنيسي خيمة إسحاق وكنيس هوفير، لإضفاء الطابع اليهودي على البلدة القديمة، وتسهيل عمليات اقتحام المسجد، وتوفير غطاء لأعمال الحفريات. وتحاول السلطات الإسرائيلية التدخل المباشر في إدارة المسجد الأقصى، فهي تتدخل في عمل دائرة الأوقاف، وتقيد حركة موظفيها، وتعطل عمل الطواقم الفنية والهندسية للأوقاف، وتمارس عملية تحكم في دخول المصلين المسلمين وتحديد أعمارهم، كما أخذت تتحكم في عملية دخول السياح إلى المسجد (8).

حفريات وأنفاق

بدأ اليهود حملة محمومة من الحفريات تحت المسجد الأقصى والمنطقة التي حوله، مركزين على المنطقة الغربية والجنوبية للمسجد، محاولين إيجاد أي دليل حول هيكلهم. ومنذ العام 1967 مرت الحفريات بعشر مراحل، كانت تتم بنشاط ولكن بهدوء وتكتم، وركزت على المنطقتين الغربية والجنوبية للمسجد الأقصى، صادرت خلالها السلطات الإسرائيلية كثيرا من المساجد والمباني التاريخية الإسلامية وهدمتها، فهدمت مثلا في الفترة من 14 - 20 يونيو1969 نحو 31 مبنى إسلاميا تاريخيا وشردت سكانها. وقامت دائرة الآثار الإسرائيلية بعمل حفريات جنوب شرقي المسجد الأقصى 1973 - 1974، حتى اخترقت الحائط الجنوبي للمسجد أسفل محراب الأقصى وأروقته الجنوبية الشرقية (9). وفي الفترة من 1970 إلى 1988 نفذت عدة

جهات إسرائيلية حفريات النفق الغربي للأقصى، على الرغم من قرارات اليونسكو التي دانت إسرائيل بسبب ذلك، وامتد النفق أسفل المحكمة الشرعية، ومر تحت خمسة أبواب من أبواب المسجد الأقصى، كما مر تحت مجموعة من الأبنية الدينية التاريخية والحضارية، بما في ذلك أربعة مساجد، ومئذنة قايتباي، وسوق القطانين، وعدد من المدارس التاريخية. ووصل عمق الحفريات إلى ما بين 11 و 14 مترا تحت الأرض، وبلغ طول النفق 450 مترا، وارتفاعه 2.5 متر ونتج عن هذه الحفريات تصدع عدد من الأبنية منها الجامع العثماني، ورباط الكرد، والمدرسة الجوهرية، والمدرسة المنجكية. وحاول الصهاينة إيصال النفق بقناة كان قد اكتشفها عالم الآثار كونراد تشيك في القرن التاسع عشر، في 7 يوليو 1988 لكن تصدى لهم المواطنون، ما اضطر السلطات الإسرائيلية إلى التوقف. ثم أعادوا الكرة في عهد حكومة نتنياهو وتمكنوا من فتح باب ثان للنفق من جهة المدرسة العمرية. وأُعلن افتتاح النفق في 24 سبتمبر 1996، وهو ما أثار انتفاضة فلسطينية ومواجهات دامية في تلك الفترة [10].

وفي الفترة من 1990 إلى 2000، قامت دائرة الآثار الإسرائيلية بعمل حفريات جديدة سعت من خلالها إلى إزالة آثار القصور الأموية المكتشفة، وأنشأت درجين ومصطبتين رخاميتين فوق الآثار الأموية عند الجدار الجنوبي للمسجد الأقصى. كما أشرفت وزارة الأديان الإسرائيلية في الفترة من 1990 إلى 2004 على حفريات النفق الغربي ومراسم الصلاة داخله، أمام حائط البراق، وأقامت كنيسا في أوسع جزء من النفق، وهو ضمن الآثار الأموية [11].

وتزايد عدد مواقع الحفريات حول المسجد الأقصى أخيرا ليصبح 25 موقعا في صيف 2009، منها 12 موقعا نشطا، و13 موقعا مكتملا. ويقع 11 موقعا منها جنوب المسجد و13 موقعا غربه وواحد شماله [12].

وفي مطلع العام 2008 كشفت مؤسسة الأقصى عن حفر السلطات الإسرائيلية نفقا جديدا ملاصقا للجدار الغربي للمسجد الأقصى يمتد لمسافة 200 متر، يبدأ من أيسر ساحة البراق متجها إلى داخل البلدة القديمة، ثم يتجه النفق شمالا إلى داخل البلدة القديمة، ويمر من تحت عشرات البيوت المقدسية، ويصل إلى منطقة شارع الواد، حي حمام العين، حيث توجد منطقة حفريات. كما تعمق السلطات الإسرائيلية الحفريات وتوجهها نحو باب السلسلة، حيث تتجه الحفريات عكسيا من منطقة حمام العين جنوبا نحو ساحة البراق، لربط طرفي النفق، وإيصال ساحة البراق ومنطقة باب المغاربة بالكنيس اليهودي عند حمام العين [13]. وفي قرية سلوان الواقعة جنوبي المسجد الأقصى المبارك كُشِف عن نفق جديد طوله 600 متر، يمتد من حي وادي حلوة في قرية سلوان، ويصل إلى الزاوية الجنوبية الغربية للمسجد الأقصى المبارك.

وفي منتصف شهر فبراير 2008، وقع انهيار بالقرب من سبيل قايتباي، داخل ساحات المسجد الأقصى، بين بابي المطهرة والسلسلة، وكشف عن تشققات واسعة في بيوت المقدسيين

الواقعة في المنطقة نفسها [14]، كما كشفت الجبهة الإسلامية المسيحية في يوليو 2008 عن أن التصدعات والشقوق تزداد وتتسع في المباني والمساكن الموجودة في الجهة الجنوبية من الأقصى وفي منطقة وادي حلوة، وصولا إلى عين سلوان، إضافة إلى عدد كبير من البيوت التاريخية الملاصقة للسور الغربي للمسجد، خصوصا الأحياء الملاصقة للأقصى، وعلى رأسها حي باب العمود وباب السلسلة وباب الحديد، حيث وصل عدد البيوت التاريخية التي لم تعد صالحة للسكن في هذه المنطقة، من جراء التصدعات الكبيرة والخطيرة في سقوفها وجدرانها، إلى 13 بيتا، في الوقت الذي يرفض أهلها هجرها حتى لو هُدمت فوق رؤوسهم [15].

انتهاكات واعتداءات

بدا التحريض اليهودي الصهيوني تجاه الأقصى واضحا منذ العشرينيات من القرن العشرين، واشتعلت بسبب ذلك ثورة البراق في العام 1929 ضد المطالب اليهودية بالحائط الغربي للمسجد الأقصى (حائط البراق) الذي يسمونه حائط المبكى. والحائط والمنطقة التي حوله هما في الحقيقة أرض وقف إسلامي مثبتة بالشهادات والوثائق، وهو ما اعترفت به حتى لجان التحقيق الدولية [16]، وفي 11 يونيو 1967 طردت القوات الإسرائيلية سكان حي المغاربة، بعد توجيه إنذار بالخروج لدقائق قليلة، وتبع ذلك تدمير منازل الحي البالغة 135 منزلا مقابل حائط البراق، ومعظمها أملاك أوقاف إسلامية، كما دُمر مسجدا البراق والأفضل في الحي نفسه. ودمُر الحي على رؤوس أصحابه ودفنت الجثث تحت الأنقاض باعتراف الصهاينة. وطردت القوات الصهيونية نحو أربعة آلاف فلسطيني من حي الشرف أو ما يعرف بالحي اليهودي والمنطقة المحيطة به. ونُزعت ملكية 200 عائلة عربية من بيوتها هناك [17].

حَرَّمت الأغلبية العظمى من حاخامات اليهود دخول اليهود المسجد الأقصى أو ما يسمونه «جبل الهيكل»، إذ إن دخول اليهود العاديين غير الطاهرين منطقة «قدس الأقداس» يعد خطيئة كبيرة في الشريعة اليهودية. غير أن مسألة الدخول إلى الأقصى والصلاة فيه تحولت مع الزمن إلى جزء من الصراع على هوية المكان وملكيته، خصوصا بعد أن فشل اليهود في اكتشاف أي آثار تدل على الهيكل أو تدعم ادعاءاتهم في المكان. لذلك فقد تزايد عدد الحاخامات والجمعيات والمتنفذين اليهود الذين يدعون إلى حق الصلاة في «جبل الهيكل»، كما تزايدت الاعتداءات على الأقصى في محاولة لجعل المسجد الأقصى مكانا مشتركا للمسلمين واليهود. وكان الموقف القانوني الإسرائيلي مشابها للموقف الديني، غير أن المحكمة الإسرائيلية العليا تغير موقفها مع الزمن، فاعتبرت في العام 1993 أن الدخول إلى «جبل الهيكل» هو من حرية العبادة، لكن القرار بقي مجمدا لسنوات. وفي العام 2005، سمحت المحكمة لليهود ليس بالدخول فقط، بل بالصلاة في المسجد الأقصى [18].

أما الاعتداءات على المسجد الأقصى، فقد حدث 40 اعتداء خلال الفترة من 1967 إلى 1990، ولم تنفع التسوية السلمية واتفاقات أوسلو في وقف الاعتداءات، فسُجِّل 72 اعتداء خلال الفترة من 1993 إلى 1998، ما يشير إلى ازدياد الحملة الشرسة ضد أحد أقدس مقدسات المسلمين. وكان من أبرز الاعتداءات عملية إحراق المسجد الأقصى في 21 أغسطس 1969 التي اتهم فيها مسيحي متعصب يدعى دينيس مايكل روهان Denis Rohan وينتمي إلى كنيسة الله. وقد أتت النيران على أثاث المسجد وجدرانه، كما أحرقت منبره العظيم الذي بناه نور الدين زنكي، ووضعه صلاح الدين الأيوبي فيه بعد تحرير الأقصى من الصليبيين في العام 1187م. وقد أخلت سلطات الاحتلال سبيل روهان بعد محاكمة صورية حكمت بأنه لا يتحمل مسؤولية جنائية لأنه «مجنون». وقد تلكأت سلطات الاحتلال في المساعدة على إطفاء الحريق، بل وعرقلت جهود المسلمين الذين اندفعوا بالآلاف لإطفائه [19]. وقد أُنشئت منظمة المؤتمر الإسلامي بعد شهر من هذا الحريق عندما تنادى زعماء دول العالم الإسلامي لمناقشة سبل حماية المسجد الأقصى والقدس الشريف، غير أن ضعف الدول الإسلامية، وتضارب ولاءاتها وأيديولوجياتها، وعدم تبني خطوات عملية جادة من قبلها، جعلت هذه المنظمة مؤسسة تكاد تكون عديمة الجدوى، ولا تتجاوز أعمالها عقد الاجتماعات وإصدار البيانات وتفريغ المشاعر.

وفي الأول من مايو 1980 اكتشفت محاولة لتدمير الأقصى عندما وُجد بالقرب منه أكثر من ألف كيلو من مادة «تي.إن.تي». وفي أبريل 1982 اقتحم جندي يهودي اسمه آلان جودمان المسجد الأقصى، وأطلق النار على حارس البوابة، ثم هرع إلى مسجد قبة الصخرة وهو يطلق النار بغزارة وبشكل عشوائي، فأصاب عددا من المصلين، وشاركه جنود متمركزون على أسطح المنازل المجاورة في إطلاق النار تجاه قبة الصخرة، فتدافع المسلمون نحو المسجد لحمايته وأصيب نحو مائة مسلم في هذه المواجهات. وفي الوقت نفسه استخدمت الولايات المتحدة حق النقض الفيتو لإسقاط مشروع إدانة مجلس الأمن الدولي لهذا الحادث في 20 أبريل 1982، وتكررت محاولات نسف المسجد الأقصى في يناير وأغسطس وديسمبر 1984، وفي 17 أكتوبر 1989 وضعت جماعة أمناء الهيكل اليهودية حجر الأساس لبناء الهيكل الثالث قرب مدخل المسجد الأقصى [20].

ويسهر المسلمون في القدس وفلسطين على حماية الأقصى على الرغم مما يعانونه من احتلال وقهر، وهم يهبون دوما للدفاع عن حرمته بأجسادهم وحجارتهم، بعد أن فقدوا النصير العربي والإسلامي. فلم تخلُ أي محاولة اعتداء يهودية من قيام المسلمين بالتصدي لها، حتى لو أدى ذلك إلى ارتكاب مجازر بحقهم، كما حدث في 8 أكتوبر 1990 عندما استشهد34 وجرح 115 آخرون، عندما حاولت جماعة يهودية وضع حجر أساس الهيكل داخل المسجد الأقصى. وكما حدث في 25 - 27 ديسمبر 1996 إثر انتفاضة الغضب التي اندلعت بسبب افتتاح

اليهود نفقا تحت الجدار الغربي للمسجد الأقصى، ما أدى إلى استشهاد 62 فلسطينيا، وجرح 1600 آخرين، وقد أدى تدخل الشرطة الفلسطينية إلى جانب الفلسطينيين إلى مقتل 14 جنديا صهيونيا وجرح خمسين آخرين (21).

وكانت زيارة أرييل شارون زعيم حزب الليكود الاستفزازية إلى حرم المسجد الأقصى في 28 سبتمبر من العام 2008 هي الشرارة التي فجرت انتفاضة الأقصى، التي كانت إحدى أبرز انتفاضات الشعب الفلسطيني، حيث سقط في المواجهات الأولى خمسة شهداء، وجرح أكثر من مائة. وقد استمرت هذه الانتفاضة خمس سنوات استشهد فيها أكثر من 4160 فلسطينيا، وجرح أكثر من 45 ألفا، لكن صمودهم ومقاومتهم أديا إلى مقتل نحو 1060 صهيونيا وجرح أكثر من 6250 آخرين.

وأعلن متطرفون يهود أن العام 2005 هو عام الهيكل المزعوم، وشهد المسجد الأقصى عددا من الاعتداءات التي نفذها مستوطنون يهود بالتواطؤ مع حكومة الاحتلال، كان أبرزها محاولة الاقتحام التي دعت إليها جماعة «رفافا» المتطرفة في العاشر من أبريل 2005، والتي أفشلها الفلسطينيون الذين هبوا للدفاع عن الأقصى، لكن المتطرفين دعوا إلى اقتحام المسجد من جديد في 6 يونيو، غير أن المحاولة باءت بالفشل أيضا، واستمرت المحاولات بعد ذلك بوتيرة أقل حدة. كما استمرت أعمال التحضير للهيكل حيث بُني مجسم له يبلغ طوله 25 مترا في مستوطنة كريات شمونا شمال فلسطين المحتلة، إضافة إلى تجهيز ملابس «الكاهن الأعظم في الهيكل» وعرضها للجمهور (22).

وقد نفذ متطرفون يهود 12 اقتحاما جماعيا في الفترة من 21 أغسطس 2006 إلى 21 أغسطس 2008، كما نفذت قوات الاحتلال ستة اقتحامات (23)، وفي الفترة من 21 أغسطس 2008 إلى 21 أغسطس 2009 نفذ المتطرفون 30 اقتحاما جماعيا، كما نفذت قوات الاحتلال ثمانية اقتحامات، وهو ما يعني مضاعفة الاقتحامات منذ بدايتها في الفترة الأخيرة (24).

واستمرت محاولات حكومة الاحتلال خلال العام 2005 للسيطرة على المسجد الأقصى، حيث بنت في 20 أبريل جسرا في منطقة حائط البراق، يهدف إلى إدخال أكبر عدد من اليهود والسياح الأجانب إلى المسجد الأقصى، عن طريق باب المغاربة الذي تسيطر عليه شرطة الاحتلال ، كما كُشف عن انتهاء سلطات الاحتلال من بناء الجزء الأكبر من المدينة الدينية السياحية أسفل المسجد الأقصى، التي تقع على عمق 14 مترا (25).

وكشف الشيخ رائد صلاح في 3 يناير 2006، في مؤتمر صحافي، عن وجود كنيس يهودي أسفل المسجد الأقصى مكون من طابقين: الأول مصلى للنساء، والثاني للرجال وتقام فيه الصلوات ويقع بجوار قبة الصخرة على بعد 97 مترا عن مركزها، كما أضاف صلاح أنه أُقيمت سبع غرف أسفل الأقصى، وأن الحفريات متواصلة (26)، وفي سبتمبر 2007 أعلنت السلطات

الإسرائيلية افتتاح هذا الكنيس في حدود الجدار الجنوبي للمسجد الأقصى، وأسفل باب السلسلة، وقد افتُتح الكنيس بعد أن أُجريت للموقع أعمال تجديد وترميم واسعة بتمويل من يهود أوكرانيا [27]، وأُطلق على هذا الموقع اسم «خيمة إسحق»، وبعد أن حصلت جمعية عطيرت كوهانيم Ateret Kohanim على تراخيص البناء، تبين فيما بعد أن عائلة موسكوفيتش Mosco-vitch قد اشترت الموقع، وأن سلطة الآثار تحفر تحت بقايا الكنيس، وأن صندوق تقاليد حائط المبكى يستغل الفراغات تحت الكنيس ليقيم مركزا ثقافيا ومتحفا. ويمر النفق بشكل عرضي مع النفق الموازي للحائط الغربي، مارا تحت الحي الإسلامي. وقد أكدت بلدية القدس أن المستوطنين قد حصلوا على رخصة بناء الكنيس [28].

وفي 13 مارس 2006 افتتح الرئيس الإسرائيلي موشيه كتساف Moshe Katsav، بحضور رئيس بلدية القدس أوري لوبوليانسكي Uri Lupolianski والحاخامين الرئيسيين في الدولة العبرية، غرفة جديدة للصلاة في ساحة البراق، وتقع هذه الغرفة تحت المبنى الشهير باسم مبنى المحكمة في القدس. وقد دعا كتساف خلال الافتتاح إلى حفر طريق يربط «ساحة المبكى» بـ «حوض داوود»، وهو ما يعني مزيدا من الحفريات تحت المسجد الأقصى [29]. ووُضع مخطط شبه جاهز لإقامة نفق يوصل سلوان بالمصلى المرواني تمهيدا لتحقيق حلمهم بإقامة كنيس فيه [30].

وكان من الأعمال الاستفزازية أن منظمة يهودية تسمى «معهد الهيكل» نصبت شمعدانا ذهبيا، أسمته «شمعدان الهيكل» قبالة باب المغاربة، بالقرب من الجهة الغربية للمسجد الأقصى. وهو شمعدان مصنوع من الذهب الخالص ويزن 45 كيلوجراما. وقد نُصب في موقع ظاهر وعال يقابل المسجد الأقصى من جهة الغرب [31].

وقد شهدت الفترة التي تزامنت مع الحرب على غزة إجراءات أمنية غير مسبوقة قلصت عدد المصلين في المسجد الأقصى خلال أيام الجمع إلى ما لا يزيد على ثلاثة آلاف مصل فقط، حيث كان الاحتلال يفرض طوقا أمنيا على البلدة القديمة ويحيطه بطوق أمني أوسع في محيطها، ويمنع كل من هو دون الخمسين عاما من الدخول للصلاة في المسجد الأقصى، كما كان يمنع حتى سكان البلدة القديمة الذين تقل أعمارهم عن الخمسين من دخول المسجد، وهي إجراءات لم يتخذها المحتل مسبقا حتى خلال انتفاضة الأقصى.

جسر باب المغاربة

وفي 30 يونيو 2006 ذكرت صحيفة «هآرتس» أن سلطة الآثار ستبدأ عمل حفريات وإزالة السواتر الترابية المؤدية إلى جسر باب المغاربة، أحد أبواب المسجد الأقصى. وقد طرحت سلطات الاحتلال في 13 أغسطس 2006 مناقصة لهدم طريق باب المغاربة، ورصدت حكومة الاحتلال 1.1 مليون دولار ميزانية لتنفيذ ذلك [32]. وفي أوائل فبراير 2007 عملت الجرافات

الإسرائيلية على إزالة التلة الترابية المحاذية لباب المغاربة في حرم المسجد الأقصى. وأعلنت سلطات الاحتلال الإسرائيلي أنها تقوم بأعمال ترميم في طريق باب المغاربة، تستهدف إقامة جسر علوي جديد، يحل محل الجسر القديم، الذي انهار قبل ذلك بعامين، بفعل عاصفة جوية. وقد اعترف قسم المراقبة، في البلدية اليهودية للقدس، بأن الحفريات تتم من دون خطة واضحة، وبلا ترخيص قانوني، سواء من البلدية نفسها، أو من اللجنة اللوائية للتنظيم والبناء [33].

وقد أحدثت أعمال التجريف والحفريات الإسرائيلية، عند باب المغاربة، موجة استياء فلسطينية وعربية وإسلامية واسعة. ونفى علماء المسلمين ومسؤولو الأوقاف ما ادعته السلطات الإسرائيلية من وجود أي تنسيق أو تفاهم مسبق حول حفريات باب المغاربة. وقد رأى علماء المسلمين ومسؤولو الأوقاف في فلسطين أن إسرائيل ترغب، من خلال ما تسميه ترميما، في السماح بدخول جماهيري كبير إلى باب المغاربة، عن طريق ساحة البراق والحي اليهودي. وأنها تهدف إلى تغيير معالم المنطقة وكشف الحائط الغربي للأقصى، وتعريضه للانهيار، والعبث بالآثار الإسلامية، كمرحلة أولى لوضع اليد على مسجد البراق، الذي يقع داخل أسوار المسجد الأقصى، كموطئ قدم للسيطرة على الأقصى [34].

وقد أصرت إسرائيل على الادعاء أن ما تفعله لا يضر بمقدسات المسلمين، ولا بالوضع القائم، ووافقت على أن تقوم لجنة تركية متخصصة بالتحقق من الأمر. وبالفعل فقد درست لجنة تركية الإجراءات الإسرائيلية في منطقة باب المغاربة، وأصدرت اللجنة تقريرها في خريف العام 2007، الذي أكد عدم شرعية الإجراءات الإسرائيلية، ومخالفتها لمصالح المسلمين وللقانون الدولي، وطالبت بوقفها فورا.

ويظهر أن السلطات الإسرائيلية لم تأبه باحتجاجات المسلمين، إذ انتظرت كالعادة تراجع حدة الاحتجاجات الإسلامية، واستجابت للضغط الذي مارسه على الحكومة حاخام المبكى وصندوق إرث المبكى، لتقوم في منتصف ديسمبر 2007 بإصدار أوامرها لسلطة الآثار الإسرائيلية بمواصلة العمل في منطقة طريق باب المغاربة، وإنهائه بأسرع وقت ممكن. كما قررت الحكومة الإسرائيلية أن تدعم سلطة الآثار بـ 900 ألف دولار فورا لاستكمال العمل، على أن تحول لاحقا مبلغ 3.5 مليون دولار لتنفيذ بناء جسر دائم، وتحديد مساره، بعد مصادقة لجنة التنظيم والبناء الإسرائيلية في القدس. وتضمنت تعليمات اللجنة الوزارية المعنية، التي يرأسها رئيس الوزراء السابق إيهود أولمرت Ehud Olmert نفسه، إزالة الآثار الإسلامية العثمانية التي تعود إلى ما بعد العام 1700 ميلادية [35]. وفي إطار هذه السياسة صادقت اللجنة اللوائية للتنظيم والبناء على مخطط لتوسيع ساحة النساء في ساحة البراق المجاورة لباب المغاربة (باب النبي)، حيث ستُعد الفراغات في المباني التي سيعثر عليها بجانب

الساحة لاستخدام المصلين اليهود (36). ورفضت اللجنة المحلية للتخطيط والبناء التابعة لبلدية القدس جميع الاعتراضات على خطة جسر باب المغاربة، وتمت الموافقة على جسر قصير نسبيا، يتيح دخول 300 شرطي دفعة واحدة إلى ساحة الحرم، ويفتح المجال لتدفق اليهود بأعداد كبيرة إلى باحة المسجد (37).

تهويد البلدة القديمة ومحيطها

يسعى الصهاينة إلى تحويل الهوية الإسلامية للبلدة القديمة في القدس إلى هوية يهودية، وإنشاء مدينة يهودية مقدسة موازية وتشترك معها في المركز ذاته، وهو ما يعرف بمشروع «القدس أولا». يشمل مشروع «القدس أولا» إقامة 15 مشروعا رئيسيا لتهويد القدس، تستهدف تسعة منها المسجد الأقصى. وتمتد هذه المدينة أسفل المسجد الأقصى وفي ضاحية سلوان وأجزاء من الحي الإسلامي وحارة الشرف (الحي اليهودي) في البلدة القديمة، وترتبط بمجموعة من الحدائق والمتنزهات والمتاحف والمواقع الأثرية المقامة فوق الأرض في محيط البلدة القديمة، وتمتد جنوبي البلدة القديمة حيث ضاحية سلوان، وشرقها حيث جبل الزيتون وضاحية الطور، وتطلق دولة الاحتلال على مشروع إنشاء المدينة اليهودية هذه اسم «مشروع تأهيل الحوض المقدس»، ويعمل في هذا المشروع عدد كبير من الهيئات الحكومية والجمعيات الاستيطانية التي من أبرزها سلطة الآثار، وجمعية الحفاظ على تراث الحائط الغربي، ومؤسسة مدينة داوود، وجمعية أمناء الهيكل، وجمعية عطيرت كوهانيم، وشركة تطوير الحي اليهودي.

حفريات

تنشط أعمال الحفريات والبحث عن الآثار، خصوصا عند المسجد الأقصى والبلدة القديمة في القدس، والحفريات الإسرائيلية لم تكن يوما موجهة لمعرفة الحقيقة بقدر ما كانت تسعى إلى إثبات الادعاءات اليهودية، وإلى محاولة إيجاد أدلة على روايات التوراة المحرفة والروايات التاريخية الإسرائيلية. وهناك امتناع إسرائيلي متشدد عن إشراك أوساط علمية عالمية، غير يهودية أو محايدة، في الحفريات حول المسجد الأقصى. وهو ما يؤكد أن سلطات الاحتلال تسعى إلى تكييف الآثار المكتشفة واستنطاقها لإثبات المقولات اليهودية الصهيونية. وقد طمست السلطات الإسرائيلية متعمدة الآثار الإسلامية المكتشفة، وغيرت معالم المكان وزورت هويته الأصلية، واعترف الكاتب الإسرائيلي داني رابينوفيتش في مقال نشره صيف العام 1998 بأنه عمل في العام 1968 متطوعا في حفريات حائط المبكى، وكان مما أسفرت عنه هذه الحفريات مبان أموية. وأنه حين عاد إلى الموقع في بداية السبعينيات لم يجد لهذه المباني أي أثر، حيث أُزيلت من المنطقة بكاملها. ولاحظت أوساط علمية غربية الأمر ذاته، ففي رسالة نشرتها في جريدة التايمز اللندنية 17أغسطس 1972، أشارت عالمة الآثار البريطانية كاثلين كينيون Kathleen Kenyon (رئيسة مدرسة الآثار البريطانية في القدس) إلى أن إتلاف الأبنية

الإسلامية على طول سور الحرم القدسي يعتبر جريمة كبرى، وأن على الرأي العام العالمي تقديم كل دعم لإيقاف هذه الأعمال البربرية. وذكرت المتطوعة الإيرلندية باولا جيرانتي، التي عملت مع البروفسور الإسرائيلي يعقوب بيلج في الحفريات حول الحرم القدسي، أن علماء الآثار الإسرائيليين لا يسعون إلا إلى الكشف عن التاريخ اليهودي للقدس، ويتعمدون طمس معالم العصور التاريخية الأخرى [38].

وقد زادت الحفريات الإسرائيلية على ستين حفرية [39]، وأظهرت هذه الحفريات آثارا إسلامية وبيزنطية ورومانية ويبوسية [40]. وتشكلت مدينة من الأنفاق التي قد تصل في بعض الأحيان إلى عمق أربعين مترا تحت الأرض، وهو ما يشكل خطورة على أساسات المسجد الأقصى. وقد نفذ الإسرائيليون حفريات مختلفة برئاسة نحمان أفيجاد Nahman Avigad، وبنجامين مازار B. Mazar، ولوكس Lux، ومارجوفسكي Margovsky، وكوفمان Kaufman، ومئير بن دوف Ben-Dov... [41] وغيرهم.

ونُفذت حفريات في البلدة القديمة وفي سلوان في الفترة بين 2000 و2008. وتركزت الحفريات في حي المسلمين في البلدة القديمة بجوار حمام العين وباب السلسلة وشارع الواد وباب الغوانمة. وشملت الحفريات جميع قرية سلوان التاريخية التي كانت تشكل مدينة يبوس قبل خمسة آلاف سنة، واكتُشفت آثار القناة اليبوسية الصخرية التي كانت تنقل المياه إلى سكان يبوس [42].

وقد قطعت سلطات الاحتلال شوطا كبيرا في إنشاء مدينة يهودية مقدسة «مزورة» ضمن مشروع تأهيل «الحوض المقدس»، متحدية جميع قرارات منظمة اليونسكو UNESCO والأمم المتحدة التي دانتها. وتقوم بالحفريات بذريعة الاستكشاف العلمي، لكنها تتخذ فعلا وسيلة لتصديع ما فوقها من أبنية سكنية وتجارية ودينية وحضارية والتسبب في انهيارها، ثم هدمها وإجلاء سكانها.

وتنشط جمعيات صهيونية في إقامة مشاريع تهويدية في القدس، فقد كشف في 21 يونيو 2006 عن اتفاق تمت بلورته بين جمعية عطيرت كوهنيم الاستيطانية وبلدية القدس، لفتح نفق يصل بين مغارة سليمان (تصيد ياهو)، التي يوجد مدخلها بالقرب من باب العمود، وأحد البيوت (منزل هتسلام)، الذي تسيطر عليه الجمعية منذ 20 عاما، خلف مدرسة الميلوية، وأن هذا النفق إذا تم فإنه ستتم السيطرة على الحي الإسلامي في المدينة القديمة، وتحديدا حارة السعدية والمئذنة الحمراء، مع الإشارة إلى أن هذا المشروع يندرج تحت مشروع القدس2020 لتهويد البلدة القديمة. ويدور الحديث عن حفريات قد تصل إلى مسافة 150 مترا من سور الحرم القدسي الشريف، وتتصل الجمعية مع سلطة الآثار الإسرائيلية بهدف حفر هذا النفق [43]، وهناك مخطط يعزز ذلك التوجه، وهو الذي أعدته شركة إعمار وتطوير الحي اليهودي

في البلدة القديمة، والذي يهدف إلى بناء موقف سيارات مكون من أربعة طوابق جنوبي الحرم القدسي، يشمل أماكن تجارية وفنادق، وستبلغ مجمل مساحته 18 ألف متر مربع [44]. وبدأت سلطة الآثار الإسرائيلية حفر نفق تحت الحي الإسلامي بالبلدة القديمة، حيث سيرتبط هذا النفق الذي يمر تحت منازل الحي الإسلامي بنفق حائط البراق [45].

إقامة الكُنُس

وكشفت جمعية الأقصى لرعاية الأوقاف والمقدسات الإسلامية عن سعي مجموعة كبيرة من قادة المستوطنين، وأعضاء كنيست يهود ورجال أعمال، بالتعاون مع الملياردير اليهودي الأمريكي الأصل أيري رينات، الذي تبرع بمبلغ 100 مليون دولار، لإقامة كنيس يهودي على أنقاض مبنى المحكمة الشرعية الإسلامية، بالقرب من باب القطانين، بدعوى أن المبنى - في الأصل - كان كنيسا في الماضي [46]، كما استمرت الحكومة الإسرائيلية في سياسة التهويد، بإعلانها افتتاح كنيس في البلدة القديمة ضمن مخططها لإقامة عشرة كنس، كما أقيم كنيس يهودي في «حارة الشرف» له قبة مقببة مقابل قبة المسجد الأقصى لتكون جزءا من الصورة العامة للمدينة. وأعلنت بلدية القدس مخططا إسرائيليا بهدف الاستيلاء على أراض من قرية سلوان، ومصادرة 150 دونما لإسكان المهاجرين اليهود [47]، كما باشرت البلدية في إجراءات المصادقة على إقامة كنيس في حي سلوان، وهذا المبنى يحتوي على مكتبة وحضانات أطفال وعشر غرف سكنية وساحة تحت الأرض، تتسع لمائة سيارة [48]، وتنشط في المنطقة جمعية العاد Elad Foundation أو مدينة داوود، التي وضعت نصب عينيها هدف الاستيلاء على البيوت العربية في المنطقة، باعتبارها جزءا من «الحوض التاريخي المقدس».

مصادرة الأرض والاستيطان

وقد تابعت السلطات الإسرائيلية مصادرة أراضي شرقي القدس وبناء المستوطنات والأحياء اليهودية عليها. ففي يناير 1968 صادرت 3345 دونما من أراضي قرى شعفاط والعيسوية وجبل المشارف ولفتا، كما صادرت 485 دونما من أراضي خلة نوح التي تتبع البلدة القديمة في القدس. وباشرت في إنشاء أولى المستوطنات الإسرائيلية شرقي القدس وهي مستوطنة رامات إشكول، ومستوطنة جفعات شابيرا (التلة الفرنسية)، ومستوطنة معلوت دفنا. وبعد ذلك بثلاثة أشهر صادرت 116 دونما في البلدة القديمة في القدس لإقامة الحي اليهودي فيها، كما صادرت 765 دونما أخرى من أراضي قريتي حزما وبيت حنينا، وأقامت عليها مستوطنة نفي يعقوب[49]، وتوالت عملية إنشاء الأحياء والمستوطنات اليهودية شرقي القدس، حتى صُودر 25402 دونم، وبُني 15 حيا ومستوطنة يهودية عليها. وقد تضمنت بالإضافة إلى ما سبق مستوطنات راموت، وتلبيوت الشرقية، وجيلو، وعطروت، وماميلا، ورامات راحيل، وبسغات زئيف، وهارحوما (جبل أبو غنيم)، وريخس شعفاط، وجفعات همتوس [50].

وكانت السيطرة على حي الشرف أو ما يعرف بالحي اليهودي من أخطر الإجراءات الإسرائيلية في البلدة القديمة المسورة في القدس. إذ أصدرت السلطات الإسرائيلية في 18 أبريل 1968 أمرا بمصادرة 116 دونما تشمل ذلك الحي، وشارع باب السلسلة، وهي الباشورة، وحي المغاربة. وكانت تضم خمسة مساجد، وزاويتين، وأربع مدارس، وسوقا أثرية، و700 مبنى كان اليهود يملكون منها قبل حرب 1948ما مجموعه 105 مبان، أما ما كان يملكه العرب فكان 595 مبنى تضم 1048 شقة سكنية، يقطنها ستة آلاف فلسطيني، و437 محلا تجاريا، ويضم الحي أوقافا لآل الخالدي، وآل العسلي، وآل الجاعرني. وتمكنت السلطات الإسرائيلية تحت وسائل الضغط المختلفة من طرد آخر عائلة عربية (عائلة أيوب توتنجي) من هذا الحي، وذلك في العام 1980، كما تمكنت من توسيع مساحة الحي إلى 180 دونما في العام 1993، مع العلم بأن مساحة القدس القديمة المسورة هي نحو 1010 دونمات (كيلو متر مربع واحد تقريبا) يقع المسجد الأقصى على 141 دونما منها، وهناك 868 دونما أحياء سكنية [51].

وتسعى شركة تطوير الحي اليهودي إلى تسجيل 1300 عقار في البلدة القديمة في سجلات الأراضي في «الطابو». وبموجب ذلك صودر 382 وقفا ذريا، و15 إسلاميا، و9 أوقاف كنسية و257 ملكية خاصة، وستة أوقاف بلدية. وذكر تقرير صادر عن وزارة الأوقاف والشؤون الدينية الفلسطينية أنه في العام 2008 كشف عن تسجيل وتثبيت 120 عقارا في القدس للمستوطنين، وذلك من خلال وثائق مزورة وبصورة غير قانونية. كما كُشف عن نوايا سلطات الاحتلال بتسجيل ما مساحته 137 دونما من الأراضي والعقارات في منطقة باب المغاربة، والبؤر الاستعمارية داخل البلدة القديمة، والتي تعود إلى الوقف الإسلامي [52].

وتشجع السلطات الإسرائيلية إقامة البؤر الاستيطانية في البلدة القديمة ومحيطها، والتي تهدف أساسا إلى إخلاء الأحياء الفلسطينية التي تنتشر فيها، كما تشكل هذه البؤر خلايا نشطة للمساعدة في أعمال الحفريات أو بناء الكنس. ويسيطر مستوطنون يهود على ما يتراوح بين 75 و 80 موقعا، ويوجد فيها نحو 900 مستوطن أكثر من نصفهم من طلبة المدارس الدينية [53].

وهناك تعاون وثيق بين الجمعيات الاستيطانية في البلدة القديمة و«دائرة أراضي إسرائيل»، فقد كشفت الصحف العبرية عن أن الأخيرة سربت ما يزيد على 70 عقارا لهذه الجمعيات. ويلقى هذا النشاط تحديدا دعما كبيرا من «حارس أملاك الغائبين» الإسرائيلي، ومن دوائر رسمية مثل وزارات البناء والإسكان والداخلية وبلدية القدس. كما تبين أن «دائرة أراضي إسرائيل» تؤجر أراضي فلسطينية إلى جمعية عطيرت كوهانيم، وأن مئات الدونمات من هذه الأراضي تسربت بالفعل لمصلحة الجمعيات الاستيطانية ولمصلحة مقاولين وشركات بناء إسرائيلية [54].

واستمرارا لسياسة تهويد البلدة القديمة قام المتطرفون اليهود التابعون لمدرسة جاليسيا الاستيطانية Galetsia بأعمال حفر وإزالة الأتربة في سوق الصاغة القديم أسفل المنطقة المعروفة بالصبرة، بهدف الاستيلاء عليها وتوسيع المدرسة، وتبلغ مساحة السوق أربعة دونمات [55]، وأقرت بلدية القدس في يوليو 2005 مشروع مخطط بلدي لبناء 21 وحدة سكنية وكنيس على مساحة 3.8 دونم في منطقة برج اللقلق في الزاوية الشمالية الشرقية للبلدة القديمة. وضمن هذه الأرض 1.9 أملاك غائبين [56]. ويجري الاستيلاء بشكل متواز على بيوت فلسطينية في حي القرمي، عندما استولت الجمعيات الاستيطانية على بيت في الطابق الأول من بناية عائلة زلوم [57].

أما حي سلوان فيمتد من الزاوية الجنوبية الشرقية للبلدة القديمة في اتجاه وادي حلوة ويسكنه نحو 50 ألف فلسطيني، ويعيش في وسطهم 16 عائلة استيطانية يهودية، ونحو 300 مستوطن من طلاب المدارس الدينية، كما أقيم كنيس في المنطقة. وتسعى المخططات الإسرائيلية إلى بناء قرية «أثرية» مكان المنازل الفلسطينية في سلوان والتي تشير إليها المصادر الإسرائيلية باسم مدينة داوود. وتدعي مؤسسة أنها تسيطر على 55% من منطقة «مدينة داوود»، وتعمل «العاد» كجسم شبه حكومي وتسيطر على الأنشطة الأثرية في المنطقة. وقد استولت العاد على ثلاث وحدات استيطانية تضم 11 منزلا في منطقة واد حلوة. وهي تدير في سلوان مدرستين دينيتين وحضانة أطفال، ومركزا لاستقبال طلاب المدارس الدينية المتطرفة [58]. وكان رئيس بلدية القدس أوري لوبوليانسكي قد أعلن في أكتوبر 2007 مشروع بناء 20 ألف وحدة سكنية جديدة في المناطق الواقعة بين الأحياء العربية، وخاصة في سلوان [59].

كما أعلن عن مشروع لإقامة مائتي وحدة استيطانية في منطقة الشيخ جراح على مساحة 18 دونما. ويهدف المشروع إلى هدم الحي الموجود حاليا، والذي تسكنه أربعون عائلة فلسطينية، وإقامة وحدات يهودية، من أجل إيجاد امتداد استيطاني يهودي يحيط بالبلدة القديمة، حيث توجد أغلبية فلسطينية كبيرة [60]، ويجري حاليا تنفيذ مخطط إسرائيلي بلدي لإقامة مستوطنة يهودية جديدة في حي الشيخ جراح على أرض كرم المفتي التي يقع عليها فندق شبرد، تضم 122 وحدة استيطانية، بالإضافة إلى روضة للأطفال وكنيس يهودي ووحدات فندقية. وكانت السلطات الإسرائيلية قد وضعت يدها على الأرض وباعتها عن طريق حارس «أملاك الغائبين» إلى المليونير اليهودي موسكوفيتش Irving Moscovitch (مع العلم أن مالكي الأرض حاضرون، وليسوا غائبين ويتمتعون بإقامات في القدس) [61].

وعلى طريقة فرض سلطة الأمر الواقع، جعلت الحكومة الإسرائيلية منطقةً واسعةً تحيط بالبلدة القديمة من الجنوب والشرق حديقةً عامةً، ثم حولت سيطرتها إلى حركة العاد، بقرار من سلطة الطبيعة والحدائق الإسرائيلية في العام 2002. وهناك خطط لنقل السيطرة على حديقة

عامة أخرى شمال شرق البلدة إلى متطرفين يهود. وكُشف في مايو 2009 عن خطة حكومية تتولاها سلطة تطوير القدس بالتعاون مع المنظمات الاستيطانية، تشمل إقامة تسع حدائق ومواقع سياحية ومسارات حول البلدة القديمة بهدف تغيير الوضع الجيوسياسي القائم [62].

وأدعت جمعية عطيرت كوهانيم، أن لديها ترخيصا من الجهات المسؤولة لبناء 300 وحدة سكينة في مكان مقر الشرطة الإسرائيلية في حي رأس العمود [63]. وكانت جمعية قانونية يسارية إسرائيلية قد كشفت عن أن صفقة قد أُبرمت بين الجمعيات الاستيطانية اليهودية والحكومة الإسرائيلية، تقضي بوضع يد هذه الجمعيات على مبنى كبير للشرطة الإسرائيلية في وسط حي رأس العمود، مقابل تمويلها لإقامة بناء جديد لهذه الشرطة على أراض فلسطينية في محيط المدينة في المنطقة المسماة «إي1» (E1)، وهو المشروع الاستيطاني الذي يربط مستوطنة معاليه أدوميم Ma'ale Adummim شرقي القدس، بالقدس الغربية [64]. ومن جهة أخرى، فإن أعمال الحفر تحت مسجد عين سلوان مستمرة من قبل مؤسسة العاد الاستيطانية [65]، وتتولى المؤسسة نفسها إقامة موقف لسيارات المستوطنين في منطقة سلوان [66].

وفي العام 2005 حدثت فضيحة بيع أملاك الكنيسة الأرثوذكسية التي كشف عنها في 18 مارس، وهي عبارة عن صفقة سرية وُقعت بين مجموعتين يهوديتين استيطانيتين وبين البطريركية الأرثوذكسية اليونانية، وقد اشترت بموجبها المجموعتان اليهوديتان الأراضي التي يقوم عليها فندق إمبريال وفندق البتراء و27 محلا تجاريا تملكها البطريركية في ساحة عمر بن الخطاب، بمنطقة باب الخليل في البلدة القديمة بالقدس. وهي الفضيحة التي تفاعلت حتى أطاحت بالبطريرك إيرينيوس الأول في 5 مايو بعدما تأكد تورطه. ومع انتخاب المجمع المقدس لبطريركية الروم الأرثوذكس في القدس المطران ثيوبيلوس الثالث بطريركا جديدا للكنيسة الأرثوذكسية في 22 أغسطس، استمرت محاولات حكومة الاحتلال لابتزازه وإعاقة المراسم الرسمية لتنصيبه بأن ربطت مصادقتها على تعيينه بمصادقته على بيع الأملاك التابعة للكنيسة اليونانية في القدس. كما شملت الاعتداءات الإسرائيلية الأوقاف المسيحية، حيث حُولت كنيسة إلى كنيس يهودي في القدس الشرقية، وقد ذكرت صحيفة معاريف أن الصفقة أثارت أزمة ديبلوماسية حادة مع الفاتيكان وألمانيا الراعية للكنيسة، فقد ثبت أن جهات يهودية اشترت الكنيسة وحولتها كنيسا لليهود، وهذا في حد ذاته يدخل ضمن مسلسل صفقات البيع والشراء غير القانونية، والسرية في القدس [67].

ولإحكام السيطرة الإسرائيلية على المدينة وخاصة البلدة القديمة و«الحوض المقدس»، فقد أعلن عن مخطط يهدف إلى تعزيز هذه السيطرة على القدس الشرقية، خاصة البلدة القديمة والمسجد الأقصى المبارك والأماكن والمقدسات المسيحية، وتحويلها إلى مرجعية وإدارة

إسرائيلية تتولى الإشراف عليها وعلى ما يسمى «الحوض المقدس». ويشمل المخطط الجديد كثيرا من المشاريع الاستيطانية الهادفة إلى نزع السيطرة عن الأراضي والأوقاف الإسلامية والمسيحية، وتحويلها إلى دائرة يجري استحداثها من قبل الحكومة والبلدية ولجنة تطوير البلدة القديمة و«دائرة أراضي إسرائيل» (68).

في السياق نفسه، بدأت السلطات الإسرائيلية، بمؤازرة بلدية القدس، تنفيذ مشروع نظام عربات معلقة (قطار كهربائي) لنقل السواح والزوار إلى حائط البراق(69). واستمر تجريف الأرض الفلسطينية لمصلحة تنفيذ مشروع القطار الخفيف في القدس الشرقية لربط المستوطنات الإسرائيلية مع القدس الغربية. وقد عهدت وزارة النقل الإسرائيلية والبلدية إلى اتحاد شركات خاصة ببناء الخط الأول من مشروع القطار، وترأست هذا الاتحاد شركة سيتي باس City Pass consortium، وهو يضم أيضا شركتين فرنسيتين هما: ألستوم Alstom SA وفيولا إنفايرومنت Veolia Environnement SA وثلاث شركات إسرائيلية. وتمنح الشركتان الفرنسيتان - من خلال إسهامهما في تطوير مشروع القطار الخفيف - الشرعية لضم إسرائيل، غير القانوني، للقدس الشرقية (70).

ووفقا لبيانات منظمة عير عميم Ir Amim يعيش في منتصف العام 2009 نحو 2500 يهودي في منطقة «الحوض المقدس» والبلدة القديمة (خارج حارة اليهود) منهم 400 إسرائيلي في حي سلوان، و400 آخرين في حي باب العامود (71).

مقبرة «مأمن الله»

طال الاعتداء الصهيوني في القدس مقبرة «مأمن الله»، حيث شرعت بلدية القدس، برعاية سلطة التطوير، في إقامة «متحف التسامح» Museum of Tolerance (MOT) على مقبرة مأمن الله التي تقع غربي مدينة القدس القديمة على بعد كيلومترين من باب الخليل، والمقبرة هي وقف إسلامي مسجل في الطابو، وتضم رفاة عدد من الصحابة والتابعين، وآلاف العلماء والشهداء، وهي أكبر مقبرة إسلامية في القدس، وتقدر مساحتها بـ 200 دونم. وقد قُدرت تكاليف هذا المشروع (متحف التسامح) بنحو 200 مليون دولار. وموَّل مركز سيمون ويزنتال Simon Wiesenthal Center في لوس أنجلوس المشروع. ويشير تاريخ المقبرة الحديث إلى أنه في أواخر العام 1985 أنشأت وزارة المواصلات موقفا للسيارات على قسم كبير منها. وفي أعوام 1985 و1986 و1987 جرت الحفريات لتمديد شبكات للمجاري إلى جانب توسيع موقف السيارات. وفي سبتمبر 2002، أُعلنت نية إقامة مبنى للمحاكم الإسرائيلية في منطقة مقبرة مأمن الله. وفي فبراير من العام 2004، أعلنت الصحف الإسرائيلية نية الحكومة الإسرائيلية افتتاح مقر ما يسمى «مركز الكرامة الإنساني - متحف التسامح في مدينة القدس» على ما تبقى من أرض مقبرة مأمن الله. وفي يناير 2005 بدأت عمليات الحفر في المقبرة لإقامة

ما يسمى متحف التسامح. وفي 23 فبراير 2006 أصدرت المحكمة العليا أمرا احترازيا بمنع العمل في مقبرة مأمن الله، وتُستثنَى أعمال سلطة الآثار من هذا القرار [72].

وقد أعيدت إثارة موضوع إقامة ما يسمى متحف التسامح على أنقاض مقبرة مأمن الله في العام 2007، وناقشت المحكمة العليا الإسرائيلية هذا الملف في 29 أبريل 2007، وطلبت من محامي الشركات الإسرائيلية والأمريكية، المصرة على بناء المتحف، إبراز أوراقهم الثبوتية للدفاع، حيث كانوا قد امتنعوا عن إبرازها قبل ذلك [73].

وقد كشف الدكتور رفائيل جرينبرج Raphael Greenberg من جامعة تل أبيب، في تقرير قدمه في يوليو 2007 إلى المحكمة الإسرائيلية العليا، عن أن سلطة الآثار الإسرائيلية تلقت من خبيرها المعني بالكشف عن مقبرة مأمن الله، أنه لا يزال هناك 800 قبر على الأقل، وأنه يوصي بمنع البناء هناك. غير أن سلطة الآثار قدمت تقريرا في يناير 2007 لا يشير إلى هذه التوصية، بل يقول إنه لا حاجة إلى استمرار الحفريات، وإنه يمكن البدء في بناء «متحف التسامح». وأضاف جرينبرج أن الخرائط التي قدمتها سلطة الآثار كانت معاكسة للواقع، لأنها تظهر أن الكشف عن الآثار قد اكتمل في مناطق، مع أنه لم يكن قد بدأ فيها أصلا! وعلق جرينبرج بأن للقبور أهمية أثرية متميزة، وأن تدميرها يتعارض مع أخلاق العمل المهني المتعلق بالآثار [74]. وما زالت قضية بناء المتحف معلقة، حيث يبذل المسلمون كل ما يستطيعون من جهود، بما في ذلك الاعتراضات القانونية لدى السلطات الإسرائيلية، لعرقلة هذا المشروع الذي يستهدف إزالة أحد أهم المعالم الإسلامية للقدس.

تغيير الأسماء

من جهة أخرى تواصل السلطات الإسرائيلية اعتداءاتها على الهوية الحضارية والتاريخية للقدس من خلال «اللجنة الحكومية للأسماء»، التي تعيد تسمية الأماكن والمواقع والشوارع وفق اعتبارات صهيونية أو تاريخية مزعومة أو توراتية محرفة، ومن الأسماء المهودة في البلدة القديمة بالقدس [75]:

الاسم العبري	الاسم العربي	الموقع
شاعر هأريوت (= الأسود)	باب الأسباط	وسط السور الشرقي للمدينة
شاعر هزهاف (= الذهبي)	باب الرحمة	وسط السور الشرقي للمدينة
شاعر هحداش (= الجديد)	باب الجديد	عند الزاوية الشمالية الغربية للسور
شاعر يافو	باب الخليل	وسط السور الغربي للمدينة
شاعر هيرودوت	باب الساهرة (الزهور)	وسط السور الشمالي
شاعر تسيون	باب النبي داوود	في الجزء الجنوبي الغربي للسور
شاعر شخيم (= نابلس)	باب العمود (باب دمشق)	السور الشمالي لمدينة القدس القديمة
هكوتل همعرافي	حائط البراق	الجزء الجنوبي من السور الغربي للحرم القدسي
رحوب بيتي محسي	باب المغاربة	داخل السور
مشجاف لداخ	حارة الشرف	داخل السور
هآحيم	طريق الفرير	داخل السور
دير شاعر هيرؤت	طريق المجاهدين	داخل السور
هار أوفل	جبل المكبر	خارج السور
هار هتسوفيم	جبل المشارف (سكوبس)	خارج السور
ميدان عودة صهيون	ساحة باب الخليل	خارج السور

التوسع الاستيطاني

وسَّع الكيان الإسرائيلي نطاق بلدية القدس تدريجيا، ليتمكن من ضم مناطق أخرى من الضفة الغربية نهائيا إلى كيانه، وليقوم بعملية تهويد القدس على نطاق مبرمج واسع، فعندما احتلت «إسرائيل» القدس في العام 1967 كانت مساحة شرقي القدس 6.5 كلم^2 ومساحة غربي القدس 24 كلم^2، فوسعت نطاق البلدية إلى 104 كلم^2 اقتطعتها من أراض تابعة لـ 28 قرية فلسطينية في محيط مدينة القدس، ويقع معظمها شرقي المدينة، أي في الضفة الغربية. ثم تابعت «إسرائيل» توسيع الحدود البلدية للقدس خلال سبعينيات وثمانينيات القرن العشرين حتى وصلت إلى 126 كلم^2، يقع 72 كلم^2 منها شرقي القدس، بينما يقع 54 كم^2 غربي المدينة (76).

صادرت دولة الاحتلال معظم أراضي شرقي القدس، وابتلعتها إما وزارة الإسكان، وإما وزارة المالية، وإما بلدية القدس الإسرائيلية، فبُنيت عليها المستوطنات التي أحاطت بشرقي القدس من كل جانب، وصنفت 21 ألف دونم من الأراضي المتبقية على أنها أراض غير منظمة، لا يحق للفلسطينيين البناء عليها أو استخدامها، وصنفت 17 ألف دونم أخرى على أنها مساحات خضراء وأراضي خدمات وطرق، وبذلك لم يتبق سوى 9 آلاف دونم فقط من أصل72 ألفا مخصصة لأغراض البناء، أي ما يعادل 12.5% من مساحة شرقي القدس أو 7.25% من مساحة بلدية القدس التي فرضها الاحتلال (77). ويظهر الجدول التالي المستوطنات اليهودية شرقي في القدس في العام 2007 وعدد سكانها ومساحاتها:

مستوطنات شرقي القدس العام 2007

م	المستوطنة	عدد السكان	المساحة بالدونم
1	تلبيوت	12241	1195
2	جيلو	27087	2859
3	جفعات همتوس وحار حوما	7545	2523 + 310
4	جفعات هامفتار	2860	588
5	جفعات شابيرا (التلة الفرنسية)	6897	2018
6	هار هاهوزفيم (المنطقة الصناعية)	غير متوافر	653

مستوطنات شرقي القدس العام 2007			
م	المستوطنة	عدد السكان	المساحة بالدونم
7	معالوت دفنا، وكريات أريه	3735	380
8	نيفي يعقوب	20230	1759
9	الحي اليهودي (البلدة القديمة)	2555	122
10	بيسجات زئيف	41882	5467
11	رامات إشكول	3316	397
12	رامات شلومو	14911	1126
13	راموت ألون	41448	4979
14	سنهدريا هامور هيفت	5001	378
	المجموع	189708	24754

وتخصص إسرائيل ميزانية سنوية لبلديتها بالقدس تقدر بـ 857 مليون دولار، وتقر كذلك سنويا ميزانية طارئة لبلدية القدس، يقدر معدلها بـ 162 مليون دولار، وهو ما يعني أن القيمة الحقيقية لميزانية بلدية القدس لعام 2009 تقدر بـ 1.019 مليار دولار. هذا عدا عن الموازنات التي تصرفها في المدينة عبر الوزارات المختصة كوزارة الإسكان والتطوير العمراني ووزارة الأشغال والدوائر الحكومية الأخرى. ويمول الأثرياء اليهود والمسيحيون الصهاينة من خارج إسرائيل، خصوصا من الولايات المتحدة الأمريكية، مشاريع الجمعيات الاستيطانية الناشطة في القدس كجمعية عطيرت كوهانيم أو تاج الكهنة، وجمعية العاد، وجمعية الحفاظ على تراث الحائط الغربي، وجمعية «أمناء جبل المعبد»، وغيرها من الجمعيات. وفي كل الأحوال فإن هذه الجمعيات تنفذ في القدس بحسب - وفق التقديرات - مشاريع لا تقل موازناتها عن

150 مليون دولار سنويا. وهناك أيضا جمعيات ومؤسسات أهلية كمؤسسة «يد سارة»، ومؤسسة صندوق القدس اليهودية التي تقدر ميزانيتها السنوية بـ 30 مليون دولار أمريكي، تُجمع معظمها من الولايات المتحدة وكندا وألمانيا [78].

ودعما لمشروع إقامة القدس الكبرى، قدم عضو الكنيست يسرائيل كاتس Yisrael katz من حزب الليكود اقتراح قانون بضم المستوطنات الواقعة خارج حدود بلدية القدس (معاليه أدوميم، وجفعات زئيف، ومنطقة غوش عتصيون) إلى منطقة نفوذ بلدية القدس. وهذا الاقتراح ليس جديدا حيث تقدم به قبله رئيس الوزراء الإسرائيلي السابق أرييل شارون، ووزير المواصلات الحالي شاؤول موفاز. ويفصل هذا المخطط القدس الشرقية وكثيرا من التجمعات الفلسطينية بشكل كامل عن الضفة الغربية من كل الاتجاهات، ويضم أراضي فلسطينية شاسعة إلى منطقة نفوذ القدس، ويغلق الطريق أمام التواصل الجغرافي بين القدس والضفة الغربية. وقد وصف رئيس الوزراء الإسرائيلي السابق إيهود أولمرت في مقابلة مع جريدة «جيروزاليم بوست» أن مستوطنة معاليه أدوميم جزء لا يتجزأ من «إسرائيل»، كما وصف مواصلة عمليات البناء في الكتل المحيطة بالمدينة بـ «المشروعة»، كما هي الحال داخل حدود البلدية [79].

وفي حملة الانتخابات لرئاسة البلدية (التي عقدت في 4 نوفمبر 2008)، صرح المرشح لرئاسة هذه البلدية نير بركات Nir Barkat ورئيسها الحالي، بنية إقامة حي يهودي استيطاني يربط بين القدس ومعاليه أدوميم (البوابة الشرقية) التي تبلغ مساحتها ألفي دونم لإقامة أربعة آلاف وحدة استيطانية، بالإضافة إلى بناء منطقة صناعات تكنولوجية (هايتك). وأضافت مصادر مقربة منه أنه سيتعاون مع وزارة الإسكان التي بدأت في إجراءات تخطيط حي يهودي جديد شمال القدس، يشمل إقامة أكثر من عشرة آلاف وحدة استيطانية، إضافة إلى نفقين يربطان منطقة الغور بالمستوطنات الشرقية بالقدس وبيت إيل Bet El بمنطقة عطروت دون فتح الجدار، بالإضافة إلى تطوير المنطقة الصناعية. أما المخطط اللوائي، الذي يحمل رقم 1/30، والذي يندمج مع مخططها للمدينة 2020، فيشير إلى تطوير لواء القدس من النواحي الاقتصادية والاجتماعية والتربوية من خلال تكثيف البناء وتوسيع الأحياء القائمة وبناء أحياء جديدة، وإعطاء امتيازات للقدس، وإعلانها منطقة تطوير من الدرجة الأولى، وتشجيع الهجرة إليها، وإقامة مناطق صناعية جديدة، بالإضافة إلى إقامة بنية تحتية مثل شبكة مواصلات قوية، من سكك حديدية، وشوارع عريضة، وأنفاق، وجسور. وكذلك الاهتمام بالحوض المحيط بالبلدة القديمة عن طريق إقامة ممثليات للتجمعات اليهودية العالمية، لكي يكونوا صلة الوصل بين المدينة ويهود العالم [80].

كما حصلت جمعية عطيرت كوهانيم على تراخيص بناء 300 وحدة سكنية أخرى في منطقة أبوديس، قبالة جدار الفصل، وأُطلق اسم كدمات صهيون Kidmat Zion على الموقع. تبعها إعلان

السلطات الإسرائيلية استدراج عطاءات لبناء 307 وحدات سكنية في جبل أبو غنيم. كما صُودق على بناء ألف وحدة سكنية جديدة بمبادرة من وزارة الإسكان في جبل أبو غنيم (81).

وفي 15 ديسمبر 2007 نشرت السلطات الإسرائيلية عطاء لبناء 150 وحدة سكنية قرب جبل المكبر، كما نشرت عطاء آخر في 30 ديسمبر 2007 لبناء 440 وحدة سكنية في حي «آرمون هانا تسيف»، التابع لمستوطنة تل بيوت جنوبي القدس (82).

وكشفت جريدة «هآرتس» (Haaretz) في 15 يناير 2007 عن مخطط جديد لإقامة حي استيطاني على أراضي قرية قلنديا، شمالي مدينة القدس. والمخطط يهدف إلى بناء ما بين11 و13 ألف وحدة سكنية، لإسكان ما يزيد على 60 ألف مستوطن، ويتضمن المخطط شق نفق تحت قرية كفر عقب، لربط الحي الجديد مع مستعمرة كوخاف يعقوبKochav Yaakov الواقعة شرقي القدس والمقامة على أراضي قرية برقة. وبشكل مواز صادقت اللجنة المحلية للبناء في بلدية القدس، في نوفمبر 2007، على بناء 1960 وحدة سكنية جديدة في حيين منفصلين: الأول على مساحة 70دونما، والثاني على مساحة 527 دونما في مستوطنة رامات شلومو Ramat Shlomoالمقامة على أراضي قرية شعفاط.

وضمن الرؤية الموضوعة لتطوير الاستيطان الإسرائيلي لمدينة القدس حتى 2020، أعلنت الحكومة الإسرائيلية مصادرة ألفي دونم من أراضي قرية الولجة، لإقامة مستوطنة جديدة تحت اسم جفعات ياعل Givat Yael، ووفق المخطط ستقام 13 ألف وحدة سكنية، تستوعب 55 ألف مستوطن (83).

وضمن السياسة الإسرائيلية القائمة لسلطة الاحتلال، فقد أصدر القائد العسكري الإسرائيلي للضفة الغربية الأمر العسكري ت 07/19 بتاريخ 9 أكتوبر 2007 بوضع اليد على1128 دونما، من أراضي السواحرة وأبو ديس والخان الأحمر لمصلحة الطريق رقم 80، وهذا الشارع يقع ضمن الأمر العسكري رقم 50 للطرق الصادر في العام 1983 (84). وتكمن خطورة هذا الطريق من الناحية السياسية في فصل شمال الضفة الغربية عن جنوبها، وعزل مدينة القدس عن امتدادها في الجنوب الفلسطيني وفي الشرق، وإلغائها كمركز للحركة والاتصال، إضافة إلى توسيع حدود القدس لضم الكتل الاستيطانية شرقي القدس، لإحداث تغيير ديموجرافي لمصلحة الإسرائيليين. أما من الناحية الاقتصادية فإن هذا الطريق يعمل على إضعاف مكانة القدس وإخراجها من دائرة الحركة التجارية، واستبعادها كمركز للمواصلات، ويعزل القرى المحيطة بالمدينة.

وأعلنت بلدية القدس في العام 2008 أنها ستقوم ببناء 31990 وحدة استيطانية في القدس (85). وأُعطي الضوء الأخضر للبدء في إجراءات التخطيط لبناء مستوطنات جديدة، أو توسيع مستوطنات قائمة كما يشير الجدول التالي (86):

المنطقة	عدد الوحدات
تلبيوت الشرقية وغرب أرمون هناتسيف (جبل المكبر)	440
هار حوما (جبل أبو غنيم)	2774
شرق بسجات زئيف	759
شرق تلبيوت	180
راموت	180
جيلو	1905
جفعات همتوس	813
نيفي يعقوب	393
بسجات زئيف	763

وصودق على بناء 800 وحدة استيطانية في معاليه أدوميم Ma'ale Adumim، وأعلنت بلدية القدس عن المشروع رقم 7984 على مساحة 262.5 دونم لإقامة 440 وحدة استيطانية بالإضافة إلى ملعب كرة قدم، لتوسيع مستعمرة تلبيوت الشرقية East Talpiot، المقامة على أراضي صور باهر [87].

كما أعلن عن المخطط الهيكلي رقم 5834 أ لمستعمرة جفعات هامتوس Givat HaMatos على أراضي قرية بيت صفافا جنوب غربي القدس على مساحة تبلغ 411 دونما لإقامة 2200 وحدة استيطانية، وهذا المشروع يقع ضمن مشروع كبير على مساحة تبلغ ألف دونم لإقامة 4200 وحدة استيطانية وتسعة فنادق لإسكان 25 ألف مستوطن [88].

ونُشرت مخططات إسرائيلية لبناء سبعة آلاف وحدة سكنية في مستوطنة جفعات يائيل Givat Yael على أراضي قرية الولجة، وعشرة آلاف وحدة سكنية في مستوطنة عطروت على أراضي مطار قلنديا، غير المستعمل حاليا، وثلاثة آلاف وحدة سكنية في مستوطنة جيلو، و1700 وحدة سكنية أخرى في مستوطنة بسجات زئيف [89].

كما استمر العمل في إقامة البنى التحتية لمستوطنة إي واحد، التي هي جزء من كتلة معاليه أدوميم (تضم كتلة معاليه أدوميم ثماني مستوطنات، وهي: كيدار Kedar، ومعاليه أدوميم، وألون Alon، وكفار أدوميم Kfar Adumim، وعلمون Almon، ونفي برات Neve Brat، وميشور أدوميم Mishor Adumim، وإي واحد)، وقد استُثمرت 50 مليون دولار لإقامة هذه البنية التحتية. وهذه المستوطنة تبلغ مساحتها 12442 دونما، وصُودرت أراضيها في العام1994 باعتبار أنها أملاك دولة من قرى الطور، والعيسوية، والعيزرية، وعناتا. ووفق المخطط ستقام أربعة آلاف وحدة سكنية وعشرة فنادق ومنطقة صناعية في منطقة إي واحد، إضافة إلى نقل مقر قيادة شرطة «السامرة ويهودا» إليها. وقد أثارت الخطة اعتراضا شديدا من قبل الإدارة الأمريكية ودول الاتحاد الأوروبي، التي طالبت بتجميدها لما يمثله البناء من خرق لتعهدات إسرائيل الواردة في خريطة الطريق. وكان أن علقت الحكومة الإسرائيلية هذا المخطط في العام 2004، ولكنها أقامت مقر الشرطة، بناء على ادعاء بأن بناء مركز للشرطة، شأنه شأن معسكرات الجيش، لن يُعتبر فرضا للوقائع، بل منشأة يمكن إخلاؤها [90]. وبهذا، تم افتتاح أكبر مركز شرطة في منطقة الضفة الغربية في شهر أبريل 2008.

الجدار العازل

تعكس عملية إنشاء جدار الفصل العنصري، الذي أقامته إسرائيل حول الضفة الغربية، جانبا من العقلية الانعزالية الصهيونية، النابعة من الهاجس الأمني والخوف من السكان الأصليين، أي الفلسطينيين، وهي في هذا لا تختلف عن عقلية المستوطنين البيض في كل الجيوب الاستيطانية. ولذا، يذكر الجدار بسياسات الفصل العنصري التي تبناها نظام البيض سابقا في جنوب أفريقيا. وهذا لا يبتعد كثيرا عن طبيعة الكيان الصهيوني الذي شكل لنفسه جسما غريبا محاطا بـ «جدران» دينية وسياسية وثقافية ولغوية عن المنطقة التي حوله، ووجد نفسه معزولا في أجواء معادية. وهو اعتراف ضمني منه بأنه لم ينجح في أن يكون كيانا مقبولا في المنطقة.

ولعل أهم أهداف الجدار هو المضي قدما في برنامج تهويد القدس ومصادرة أراضيها وإحاطتها بأطواق من الجدران والمستوطنات التي تخنقها وتعزلها عن محيطها العربي والإسلامي. وقد صرح رئيس الوزراء الإسرائيلي السابق إيهود أولمرت بأن كل من يسكن خارج الجدار هو خارج «دولة إسرائيل» [91]، وهو ما يؤكد أن هذا الجدار لم يكن أمنيا فقط، بل هو جدار ديموجرافي سياسي اقتصادي أيضا.

كانت الحكومة الإسرائيلية قد أقامت سياجا حول قطاع غزة إثر اندلاع الانتفاضة الأولى في العام 1987، كما أن إسحق رابين فاز في انتخابات العام 1992 على أساس شعار «نحن هنا وهم هناك». وقد صادقت الحكومة الإسرائيلية على إقامة جدار عازل في الضفة

الغربية في أبريل 2002، وقد بدأ العمل فيه في 16 يونيو 2002، وقد اعتمدت الحكومة رسميا ما طوله 652 كيلومترا للجدار في أكتوبر 2003يونيو 2004، كما أعلن رئيس الوزراء السابق أرييل شارون في مارس 2003 مشروع بناء جدار في وادي الأردن شرقي الضفة الغربية بطول 132 كيلومترا، وفي مايو 2005 قررت لجنة وزارية إسرائيلية أن يضم الجدار مستوطنة معاليه أدوميم شرقي القدس.

ويمتد مسار الجدار في القدس نحو 167 كيلومترا (92)، ومع إقامة إسرائيل للجدار العازل حول القدس، والذي تسعى إلى تثبيته كحدود نهائية في التسوية مع الفلسطينيين، تضاف 163 كلم^2 من أراضي شرقي القدس التي تقع عليها الكتل الاستيطانية اليهودية الكبرى، وتصبح مساحة الأرض التي تضمها منطقة القدس خلف الجدار 289 كلم^2، ووفق التقارير التي تبحث في تأثيرات الجدار فإن 231 ألف فلسطيني، أي نحو 56% من سكان القدس، سيتأثرون سلبا بإقامة الجدار (93). وحتى أكتوبر 2007 تم إنشاء 78.5 كلم حول القدس، ولا تزال 30.6 كلم تحت البناء، بينما هناك 58.2 في انتظار البدء بإنشائها. وفي الوقت نفسه، تم الانتهاء من بناء عشر بوابات من أصل 13 بوابة موجودة في جدار الفصل حول القدس (94)، ويظهر الجدول التالي تطور وتقدم عملية إنشاء الجدار في القدس (95):

	الطول بالكيلومتر	النسبة من طول المسار
اكملت إقامته	78.5	%47
تحت البناء	30.6	%18.3
لم تتم إقامته بعد	58.2	%34.7
المجموع	167.3	%100

وسيتخذ الجدار مسارا حول القدس من شمال بيت لحم ضاما إليه قبر راحيل، وعازلا قريتي أبو ديس والعيزرية عن القدس، ثم يسير شمالا ليضم مستعمرة معاليه أدوميم، ثم يعود غربا ليعزل عناتا ومخيم شعفاط وحزما والرام وكفر عقب ورافات عن القدس، أما قريتا بيرنبالا والجيب اللتان وجدتا نفسيهما غرب الجدار، فستُحاصران بجدار آخر يحرمهما من التواصل مع القدس، بحيث لا تجدان لنفسيهما منفذا إلا باتجاه رام الله. وستجد قرية بيت حنينا

نفسها غرب الجدار، ومحاطة بالجدار والمستعمرات من ثلاث جهات، ولا تجد لنفسها منفذا هي الأخرى إلا عن طريق بيرنبالا باتجاه رام الله. ووفقا للتقديرات، فإن الجدار سيعزل 18 قرية وبلدة فلسطينية يسكنها 220 ألف فلسطيني عن القدس، وهي قرى وبلدات تشكل امتدادا طبيعيا وتتبع محافظة القدس وترتبط اقتصاديا واجتماعيا (فضلا عن الارتباط الديني والسياسي) بالقدس، وهو ما سيحرمها أيضا من مصدر رزقها الرئيسي. ومن جهة أخرى فإن نحو 60 ألف فلسطيني من حملة الهويات المقدسية سيجدون أنفسهم خارج الجدار، وذلك من أصل 230 ألف فلسطيني يحملون هذه الهوية التي تخولهم السكن والإقامة والعمل في القدس.

وهكذا فمع اكتمال بناء الجدار ستجد محافظة القدس أنها فقدت 90% من أراضيها. وسيكتمل الطوق الاستيطاني حول المدينة من مستوطنة أبو غنيم (حارهوما) جنوبا، إلى مستوطنة معاليه أدوميم شرقا، مرورا بمستوطنات بسجات زئيف وجفعات زئيف إلى الشمال من المدينة. ثم إن استكمال هذا الطوق الخطير على القدس يعني باختصار عزل 617 موقعا مقدسا وأثرا حضاريا عن محيطها العربي والإسلامي.

ومن نماذج معاناة أبناء القدس وقراها أن الجدار يشق قرية السواحرة التي يبلغ عدد سكانها 25 ألفا، فيضع عشرة آلاف شرقي الجدار و15 ألفا آخرين غربي الجدار، ويقطع الجدار قرية أبو ديس فيعزل حي أم الزرازير وحي خلة عبد عن بقية القرية. ويشطر الجدار ضاحية السلام غربي قرية عناتا إلى شطرين، ويقسم قرية بيت حنينا الفوقا إلى قسمين، ويمنع أهلها من الدخول أو الخروج إلا من خلال بوابات أو أنفاق، ويفصلها عن سبعة آلاف دونم من أراضيها الزراعية، ويحيط الجدار بقرية الجيب ليصادر 85% من أراضيها ولا يبقي لها سوى 1770 دونما من أصل تسعة آلاف دونم [96].

وفي الشمال أيضا يعزل الجدار أربع قرى يسكنها أكثر من 15 ألف فلسطيني في جيب مغلق يعرف بجيب بيرنبالا، وهو يضم قرى بيرنبالا والجيب والجديرة وبيت حنينا البلد، حيث يحيط بها الجدار من ثلاث جهات، وفي الجهة الرابعة يوجد طريق أمني إسرائيلي مغلق أمام الفلسطينيين. والطريق الوحيد من الجيب وإليه يمر تحت الطريق الأمني ويوصل إلى رام الله [97].

وفي دراسة ميدانية أجراها الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني، بالتعاون مع مركز بديل للمواطنة وحقوق اللاجئين في الفترة بين 15 مايو 2006 و10 يونيو 2006 أظهرت أن 72.1% من الأسر المقدسية اضطر أفرادها إلى التعطيل عدة أيام عن الجامعة/ الكلية بسبب إغلاق المنطقة، مقابل 69.4% للأسر التي لديها أفراد ملتحقون بالتعليم الأساسي/ الثانوي، والتي اضطر أفرادها إلى التعطيل عن المدرسة عدة أيام. كما أشارت نتائج الدراسة إلى أن 34.5% من الأسر الفلسطينية في محافظة القدس قد عُوقت عن الحصول على الخدمات الصحية.

وأظهـرت نتـائج الـدراسـة أن 21.4% من الأسـر الفلسـطينيـة أو أحـد أفـرادها في محافظة القدس انفصلت عن الأقارب. كما بينت النتائج أن 18% من الأسر الفلسطينية في محـافظة القدس انفصل عنها الأب، و12.7% من الأسـر الفلسطينية في محـافظة القدس انفصلت عنها الأم. وتشير المعطيات إلى أن 32.9% من المقدسيين الفلسطينيين قد غيروا مكان إقامتهم السابقة، منهم 53.9% غيروا مكان إقامتهم السابقة لأول مرة بسبب بناء الجدار منذ العام 2002. ومن الجدير بالذكر أن 94.7% من الأسر أفادت بأن الوقت الذي تقضيه في المرور على الحواجز العسكرية يشكل عائقا كبيرا لها. كما أن 84.6% من الأسر أفادت بأن علاقاتها الاجتماعية وزيارتها للأقارب قد تأثرت بالجدار، إضافة إلى أن 40% من الأسـر تأثرت مقدرتها على أداء الشعائر الدينية في دور العبادة، كما أن 69.4% من الأسر أصبح لديها مانع من زواج أحد الأفراد من شريك الحياة المقيم في الجهة الأخرى من الجدار، على الرغم من أن هذه النسبة كانت نحو 31.6% قبل بناء الجدار [98].

وتحولت قرى شمال غربي القدس إلى منطقة جافة، بعد أن عزلها جدار الفصل عن مدينتي القدس ورام الله، وبعد إحكام شركة ميكروت الإسرائيلية Mekorot سيطرتها على مصادر المياه، وتزويد القرى فقط بما نسبته 25% من احتياجاتها اليومية، الأمر الذي ألحق دمارا كبيرا بالمزروعات من جهة، ودفع المزارعين إلى العزوف عن تربية الأغنام والدواجن من جهة أخرى. ويشعر أهالي قرى شمال غربي القدس بالضيق الشديد إثر إحكام الخناق عليهم بعد اكتمال بناء الجدار، حيث لم يعد لهم طريق سوى النفق، الذي سيُفتح لربط هذه القرى المعزولة مع منطقة رام الله.

كما تعد قرى جنوب شرقي القدس نموذجا آخر للعزل الذي يفرضه جدار الفصل، حيث أصبحت قريتا الشيخ سعد وجبل المكبر، أشبه بجزيرة معزولة، ويبلغ عدد سكانهما قرابة15 ألفا، وتعد هذه القرى البوابة الشرقية للمدينة، إذ لا يمكن أن تنفصل عنها، وذلك لافتقارها إلى الخدمات الكافية، وتحديدا المراكز الصحية. كما تم عزل أهالي القرى عن مقبرتهم الوحيدة، وعن مدارس أطفالهم، وعن أماكن عملهم وعائلاتهم، ما دفع أكثر من 25% من السكان إلى مغادرة قراهم [99].

تهجير المقدسيين وتهويد السكان

سيطر الهاجس الديموجرافي على الاحتلال الإسرائيلي منذ استيلائه على كامل القدس في العام 1967، ومنذ ذلك الحين يسعى إلى تحقيق أغلبية ديموجرافية يهودية حاسمة في المدينة بوصفها عاصمة إسرائيل، وقد سُنَّ في سبيل ذلك في عام 1973 قانون يحدد نسبة الفلسطينيين في المدينة بـ 22%، إلا أنه لم يتمكن من تحقيق هذه النسبة أبدا، إذ بلغ عدد

السكان الفلسطينيين في مدينة القدس في نهاية سنة 2007 نحو 254 ألف نسمة. وبلغ عدد اليهود في القدس 493 ألفا (غربي القدس 293 ألفا، وفي شرقي القدس 200 ألف). وتبلغ نسبة الفلسطينيين في المدينة 34%، ومن المتوقع أن تصل إلى 40% في العام 2020 إذا ما واصل الفلسطينيون والإسرائيليون نسب النمو نفسها.

	شرقي القدس	غربي القدس	المجموع	النسبة %
فلسطينيون (بالألف)	254	-	254	34
يهود (بالألف)	200	293	493	66
المجموع (بالألف)	454	293	747	100

واجهت دولة الاحتلال في القدس مشكلة أساسية تتمثل في أن مدينة القدس تعد مدينة طاردة للسكان اليهود، فخلال السنوات من 1980 إلى 2005 بلغ عدد اليهود المهاجرين إلى المدينة 208 آلاف مستوطن، بينما بلغ عدد اليهود المهاجرين من المدينة 313 ألفا، أي أن هناك هجرة سلبية من المدينة بلغت 105 آلاف مستوطن خلال 25 عاما. ويعود ذلك إلى سببين رئيسيين، هما: ارتفاع الأسعار في مدينة القدس، خصوصا أسعار المساكن، والسبب الثاني: الصراع الدائم بين اليهود المتدينين والعلمانيين، الذي يؤثر في بعض الأحيان في مستوى الخدمات المقدمة إلى السكان وفي طرق عيشهم وفي مستوى تعليمهم أيضا [100].

ولمواجهة هذا الأمر صادقت حكومة الاحتلال في 7 أغسطس 2007 ، بمناسبة مرور 40 عاما على احتلال كامل القدس، على خطة بقيمة 200 مليون دولار، تهدف إلى جذب السكان اليهود للانتقال والعيش في مدينة القدس، وقد شملت هذه الخطة عددا من المشاريع، منها تسهيلات وتخفيضات ضريبية، وبناء أكاديمية خاصة لتدريس تاريخ وتراث القدس، وتشييد مركز قضائي ضخم، ومنح البلدية دعما استثنائيا بقيمة 50 مليون دولار، ونقل كل المؤسسات الخدمية للشرطة وعشرات الدوائر الحكومية إلى مدينة القدس، ما يعني نقل نحو عشرة آلاف موظف إلى المدينة خلال ثماني سنوات، كما شملت أيضا مشروعا لترميم أسوار القدس الشرقية وأزقتها القديمة وبناء مكاتب ومراكز عمل [101].

بدأ الخنق الاقتصادي لمدينة القدس بعد الاحتلال مباشرة، حيث تعمدت السلطات الإسرائيلية الضغط على المقدسيين لنقل الثقل الاقتصادي إلى القدس الغربية أو خارج حدود

البلدية، وذلك عن طريق فرض الضرائب الباهظة على أصحاب المتاجر أو المؤسسات الصناعية في شرق القدس، فضلا عن التقتير في إصدار الرخص للمنشآت الجديدة، وعدم وجود مناطق صناعية خاصة لهذه المنشآت. وأدت هذه السياسة إلى هجرة اقتصادية كبيرة في اتجاه المناطق المحيطة بالقدس، التي تتوافر فيها شروط مريحة للاستثمار الاقتصادي.

وهكذا أخذ الثقل الاقتصادي ينتقل في اتجاه الشمال (الرام) أو الشرق (العيزرية وأبو ديس)، حيث عمدت السلطات العسكرية الإسرائيلية آنذاك إلى التساهل في منح الرخص وتخفيف الضرائب، مقارنة بالضرائب الباهظة المفروضة في شرقي القدس، فضلا عن وجود مساحات واسعة من الأراضي والمخططات الهيكلية المصادق عليها، في الوقت الذي كانت تعاني فيه المدينة مصادرة الأراضي، ومن تجميد المخططات الهيكلية وتقييد البناء. كل هذه العوامل مجتمعة أدت إلى هجرة رؤوس الأموال إلى المناطق المحيطة بالقدس. وبشكل متواز أدى وجود المنشآت الصناعية إلى حركة عمرانية كبيرة، حيث شجعت البلدية إقامة المشاريع العمرانية (مشروع العيزرية)، ما أدى إلى هجرة سكانية كبيرة في اتجاه الضواحي، وتفريغ جزء كبير من البلدة القديمة وما حولها. غير أنه مع اندلاع انتفاضة الأقصى، ونتيجة للإغلاقات وإقامة الحواجز، والسياسة الإسرائيلية في سحب الهويات، بذريعة أن مكان الإقامة هو خارج حدود البلدية، وإقامة جدار الفصل، فقد عاد المقدسيون، للانتقال من أماكن سكناهم خارج حدود البلدية إلى داخل حدودها، حيث بلغ مجموع المنتقلين حتى بداية العام 2007 نحو 40 ألف فلسطيني، ما أحدث اكتظاظا سكانيا وتعليميا في الوحدات السكنية والصفوف التعليمية [102].

ومن أجل تحقيق الهدف المنشود، وهو تقليص الوجود العربي في مدينة القدس إلى أقل عدد ممكن، عمدت بلدية القدس إلى التهرب من تقديم الخدمات البلدية لأهالي القدس الأصليين. وانطلاقا من قانون منح الهوية الإسرائيلية لسكان القدس، أصبح واجبا على سكان القدس من الفلسطينيين دفع كامل المستحقات للبلدية والدولة، كضريبة الدخل وضريبة الأرنونا والتأمين الوطني، وكذلك ضريبة الأملاك، وذلك على الرغم من انخفاض دخلهم وتدني مستوى الخدمات التي يتلقونها مقارنة باليهود، ما زاد وضع أهالي القدس العرب سوءا.

إن سياسة التهجير الهادئ، أي تجريد كثير من العائلات المقدسية من حق المواطنة، قد بدأت منذ العام 1967، وهي متواصلة حتى الآن. ففي الفترة ما بين يناير 1995 وحتى مارس 2000 مارست إسرائيل، من خلال وزارة الداخلية، أسلوبا جديدا لتقليص عدد المقدسيين، وذلك بسحب بطاقة المواطنة من كل مقدسي لا يتمكن من إثبات مكان سكناه في الماضي والحاضر في مدينة القدس، وإجباره على مغادرة المدينة إلى الأبد، وفي هذه الحالة يفقد حقوقه كاملة.

كما عمدت سلطة الاحتلال إلى سحب الهويات الإسرائيلية من أولئك المقدسيين الذين انتقلوا للعيش في مدن الحدود المصطنعة لبلدية القدس، أي في مدن الضفة الغربية المحيطة بمدينة القدس، وذلك على اعتبار أن تلك الضواحي هي خارج إسرائيل، مستندة إلى الفقرة 1 من المادة 11 من قانون الدخول إلى إسرائيل الصادر في العام 1974، وهذا القانون يحصر الحالات التي يجوز فيها سحب بطاقة الهوية في ثلاث حالات:

أ ـ إذا وُجد الشخص خارج إسرائيل فترة سبع سنوات على الأقل.

ب ـ إذا حصل الفرد على إقامة في دولة أخرى.

ج ـ إذا حصل على جنسية دولة أخرى بواسطة التجنس.

وبذلك يُحرم المقدسيون من حقوقهم في الإقامة خارج الوطن للدراسة أو العمل أو ازدواج الجنسية، والأمر المهم في ذلك هو جمع شمل العائلات المقدسية وتسجيل الأولاد، فمنذ العام 2000 قررت الحكومة الإسرائيلية تجميد جميع طلبات لم الشمل، وفي 31 يوليو 2003 أُصدر قانون أطلق عليه قانون المواطنة والدخول إلى إسرائيل، يحظر على المقدسيين والفلسطينيين حاملي الجنسية الإسرائيلية (فلسطينيي 48) ممن تزوجوا من سكان الضفة الغربية، لم الشمل ويفرض عليهم العيش منفصلين. وقد صادقت عليه محكمة العدل العليا في 14 مايو 2006 (103).

وقد أدت السياسة الإسرائيلية إلى سحب هويات 1363 فلسطينيا مقدسيا في العام 2006، وهو أعلى معدل لسحب الهويات منذ اكتمال احتلال القدس في العام 1967، ليبلغ بذلك مجموع الإقامات المسحوبة منذ ذلك العام وحتى نهاية العام 2006 نحو 8269 هوية (104).

إن مخططات التنظيم والبناء في القدس وجدت من أجل الحد من النمو السكاني والعمراني للمقدسيين، ما اضطر المقدسيين إلى البناء بدون تراخيص فعرَّضوا بيوتهم لخطر الهدم. إن إمكان حصول المقدسي على رخصة بناء يكاد يكون أمرا مستحيلا، فتكاليف الرخصة قد تصل إلى 30 ألف دولار، إضافة إلى طول فترة إصدار الرخصة، كما أن الأرض نفسها يجب أن تكون مسجلة (طابو) باسم صاحب الرخصة، وإن ورثها عن أبيه فالمشكلة تصبح أعقد كثيرا. هذه الإجراءات حملت آلاف المقدسيين على ترك القدس والرحيل للسكن وتكوين أسرة في الضفة الغربية، أو حتى الهجرة إلى خارج البلاد، ما أفقدهم حق المواطنة في المدينة، لكن هناك من فضل البقاء والعيش مع أسرته في أوضاع سكنية غير لائقة، بل ومأساوية، حفاظا على بقائه في المدينة. وقد أدى قانون البناء التعجيزي، إضافة إلى المخططات المسيَّسة والعنصرية، إلى لجوء المقدسيين إلى البناء من دون ترخيص وبما يتوافق مع ظروفهم المالية، وتشير البيانات المتوافرة إلى أن عدد المباني غير المرخصة الموجودة اليوم في القدس وصل إلى نحو 15 ألف مبنى. وكان من نتائج البناء غير المرخص فرض غرامات

باهظة على السكان بلغت خلال السنوات من 2001 إلى 2005 نحو 33 مليون دولار أمريكي [105].

ووفق التقارير المتوافرة، فقد هدمت إسرائيل 869 منزلا من منازل أبناء القدس في الفترة من 2000 إلى 2008 ، كما يوضح الجدول التالي [106]:

العام	عدد المنازل المهدومة
2000 - 2003	319
2004	183
2005	120
2006	78
2007	97
2008	72
المجموع	869

تجدر الإشارة إلى ضرورة أخذ هذه الإحصائيات ببعض الحذر، بسبب تضاربها مع إحصائيات أخرى، إذ تشير أرقام الحملة الشعبية الفلسطينية لمقاومة جدار الفصل العنصري، مثلا، إلى أن آليات الاحتلال هُدِمت نحو 137 منزلا في مدينة القدس وضواحيها، من بين 165 منزلا هُدِمت، على الأقل، في الضفة الغربية، خلال العام 2007 [107].

ومنذ بداية العام 2009 زاد الاحتلال من وتيرة عمليات التهجير، وكان أبرزها تسليم نحو 1900 مقدسي يسكنون 120 عقارا في حيي البستان والعباسية في ضاحية سلوان جنوب المسجد الأقصى أوامر لإخلاء منازلهم، وهي عملية التهجير الأكبر التي ينوي المحتل تنفيذها في القدس منذ هدم حي المغاربة في العام 1967. وتجري هذه الأيام محاولات حثيثة لتهجير سكان حي الشيخ جراح الذي يحتوي على 28 عقارا، يسكنها نحو 500 فلسطيني. وهناك محاولات تهجير جارية بأساليب مختلفة في الحي الإسلامي في البلدة القديمة، وحي الطور... وغيرها [108].

خاتمة

قطع المشروع الصهيوني شوطا كبيرا في تهويد القدس بأرضها وسكانها. وتمكنت إسرائيل من فرض كثير من الحقائق على الأرض، فبعد أن هودت بشكل تام غربي القدس، ضمت شرقي القدس رسميا إليها، ووسعت بلديتها، وصادرت معظم أراضيها، واستجلبت نحو 200 ألف مستوطن وبنت كثيرا من المستوطنات، وأحاطتها بجدار عازل. وحاولت أن تفرض بشكل

حثيث ومتدرج طابعا يهوديا على البلدة القديمة في القدس، ومنطقة المسجد الأقصى بشكل خاص، ونشطت في أعمال الحفريات. ووضعت أبناء القدس العرب في أوضاع صعبة قاسية لتجبرهم على الرحيل والهجرة.

وقد أخذت الاعتداءات تتكرر وتتزايد في السنوات الأخيرة على الأقصى والمقدسات، وأرض القدس وأهلها بشكل عام، في أجواء من الضعف والتشرذم الفلسطيني والعربي والإسلامي. وعلى الرغم من أن أبناء القدس ما زالوا صامدين على أرضهم، ومصرين على الدفاع عن مقدساتهم، فإن المخاطر التي تستهدف القدس ما زالت كبيرة، وتستدعي توحد الجهود العربية والإسلامية والدولية، لدعم أبناء القدس وفلسطين، ودحر العدوان الإسرائيلي عن الأرض المقدسة.

ملحق
الخرائط والصور



القدس - الحدود البلدية

2000 - 1947



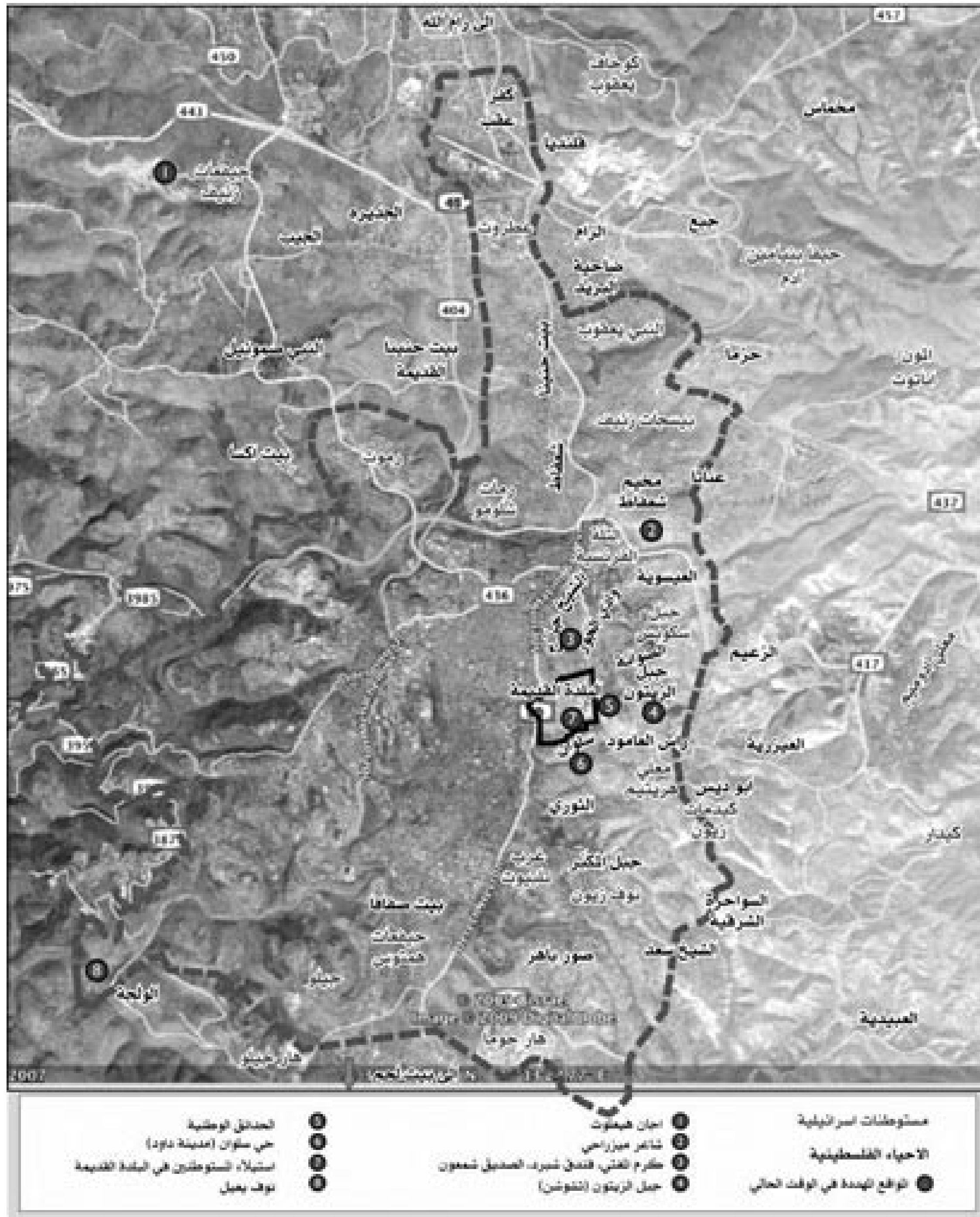
المخططات الإسرائيلية داخل البلدة القديمة



الحفريات الإسرائيلية قرب حائط البراق



عمليات بناء المستوطنات والمخططات داخل وحول القدس



المستوطنات الإسرائيلية والأحياء الفلسطينية في القدس



القسم الغربي من بلدية القدس الذي احتلته إسرائيل عام 1949

الهوامش

1 انظر: محمد رشيد عناب، الاستيطان الصهيوني في القدس 1967 - 1993. القدس: بيت المقدس للنشر والتوزيع، 2001، ص55.
- رفيق النتشة وإسماعيل ياغي، تاريخ مدينة القدس (عمان: دار الكرمل، 1984)، ص94.
- هنري كتن، فلسطين في ضوء الحق والعدل (بيروت: 1970)، ص45.

2 عناب، مرجع سابق، ص56 – 60.

3 انظر الموسوعة الفلسطينية، إشراف أحمد المرعشلي (دمشق: هيئة الموسوعة الفلسطينية، 1984)، ج3، ص522، وانظر أيضا حول القدس في الاستراتيجية الإسرائيلية: عادل محمد العضايلة، القدس: بوابة الشرق الأوسط للسلام (عمان: دار الشروق، 2007)، ص93-111.

4 النتشة، مرجع سابق، ص157.

5 حول القدس في الأمم المتحدة، انظر مثلا: الموسوعة الفلسطينية، ج3، ص548- 553، وانظر: قرارات الأمم المتحدة المتعلقة بفلسطين في:
http://www.un.org/Depts/dpa/qpal/resolutions_new_qpal.htm

6 انظر نص اتفاقية لاهاي الدولية للعام 1907، في:
http://www.icrc.org/ihl.nsf/385ec082b509e76c41256739003e636d/1d1726425f6955aec125641e0038bfd6

7 انظر نص الاتفاقية الرابعة من اتفاقيات جنيف بشأن حماية الأشخاص المدنيين وقت الحرب للعام 1949، في:
http://www.icrc.org/ihl.nsf/385ec082b509e76c41256739003e636d/6756482d86146898c125641e004aa3c5

8 حول السياسات الإسرائيلية تجاه المسجد الأقصى، انظر بالتفصيل في:
- عين على الأقصى: تقرير توثيقي استقرائي يرصد الاعتداءات على المسجد الأقصى في الفترة بين21 أغسطس 2006 و21 أغسطس 2008 .
- التقرير الثاني (بيروت: مؤسسة الأقصى الدولية، 2008)، وعين على الأقصى: تقرير توثيقي استقرائي يرصد الاعتداءات على المسجد الأقصى في الفترة بين 21 أغسطس 2008 و21 أغسطس 2009،
- التقرير الثالث (بيروت: مؤسسة الأقصى الدولية، 2009).

9 انظر: رائف يوسف نجم، الحفريات الأثرية في القدس (عمان: دار الفرقان، 2009، ص138).

10 المرجع نفسه، ص139-141.

11 المرجع نفسه، ص142و143.

12 عين على الأقصى، التقرير الثالث، 2009، ص11.

13 جريدة الدستور، عمان، 14 فبراير 2008.

14 جريدة الشرق الأوسط، لندن، 11 مارس 2008.

15 جريدة الحياة الجديدة، رام الله، 18 يوليو 2008.

16 انظر: الحق العربي في حائط المبكى في القدس: تقرير اللجنة الدولية إلى عصبة الأمم العام 1930 بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1968.

17 عناب، مرجع سابق، ص67.

18 انظر: عين على الأقصى، التقرير الثاني، 2008، ص7 - 9.

19 انظر الدراسة الوثائقية حول إحراق المسجد الأقصى:

Mohsen Saleh, “The Arson of al-Aqsa Mosque in 1969 and its Impact on the Muslim World as Reflected in the British Documents”, Dirasat Journal, Jordanian University, vol.33, no.2, 2006, pp413-431.

20 هناك كثير من المصادر التي تحدثت عن عمليات تهويد منطقة الأقصى والحفريات تحته والاعتداءات عليه، انظر حول الفقرتين السابقتين مثلا في:

– إبراهيم أبو جابر وآخرين، «قضية القدس ومستقبلها»، في المدخل إلى القضية الفلسطينية (عمان: مركز دراسات الشرق الأوسط، 1997)، ص 564 - 568.

– والموسوعة الفلسطينية، ج3، ص522 و523.

– والأخبار اليومية، مثلا في: جريدة الخليج، الإمارات، 13 فبراير 2000 و27 يوليو 2000 و9 سبتمبر 2000 و8 و17 يناير 2001

– والمركز الإعلامي الفلسطيني http:/www.palsetine-info.org بتواريخ 23 مارس 2000 و2 – 6 أبريل 2000.

21 غطت الجرائد اليومية تلك الأحداث، انظر الأخبار في الأيام التالية للأحداث، مثلا في: جريدتي الرأي والدستور، 26 - 28 سبتمبر 1996.

22 محسن صالح وبشير نافع (محرران)، التقرير الاستراتيجي الفلسطيني لسنة 2005 (بيروت: مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، 2006)، ص64.

23 عين على الأقصى، التقرير الثاني، 2008، ص75.

24 عين على الأقصى، التقرير الثالث، 2009، ص11.

25 التقرير الاستراتيجي الفلسطيني لسنة 2005، ص64.

26 جريدة الغد، عمان، 4 يناير 2006.

27 موقع الجزيرة.نت، 26 سبتمبر2007.

28 محسن صالح (محرر)، التقرير الاستراتيجي الفلسطيني للعام 2007 (بيروت: مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، 2008)، ص285.

29 مركز بيت المقدس للدراسات التوثيقية، انظر:

http://www.aqsaonline.info/palestine.aspx?id=1055&pid=9.

30 المركز الفلسطيني للإعلام، 30 يونيو 2006 (باشرت السلطات الإسرائيلية في البدء في 6 فبراير 2007).

31 جريدة الأيام، رام الله، 14 ديسمبر 2007.

32 جريدة الخليج، 10 أغسطس 2006.

33 جريدة الحياة، لندن، 7 فبراير2007.

34 انظر: جريدة الوطن، السعودية، 12 فبراير 2007، وجريدة الشرق الأوسط، لندن، 15 فبراير 2007.

35 انظر: جريدة القدس، القدس، 11 سبتمبر2007، وجريدة الشرق الأوسط، 18 ديسمبر2007.

36 جريدة القدس، 18 يناير 2008.

37 جريدة القدس، 11 أغسطس 2008.

38 إبراهيم عبدالكريم، «التوجهات والممارسات الصهيونية إزاء التراث الحضاري والثقافي الخاص بالقدس»، في دراسات في التراث الثقافي للقدس، تحرير محسن صالح (بيروت: مركزالزيتونة للدراسات

والاستشارات، 2009)، ص213 و214.

39 رائف يوسف نجم، مرجع سابق، ص265.

40 المرجع نفسه، ص268.

41 المرجع نفسه، ص111 - 138.

42 المرجع نفسه، ص143.

43 وكالة الأنباء والمعلومات الفلسطينية (وفا)، 21 يونيو 2006، وجريدة القدس، 16 فبراير 2007.

44 جريدة الغد، 16 يونيو 2006.

45 جريدة القدس، 5 فبراير 2008.

46 التقرير الاستراتيجي الفلسطيني لعام 2007، ص286.

47 جريدة القدس، 26 فبراير 2007.

48 جريدة القدس، 1 سبتمبر 2008.

49 عناب، مرجع سابق، ص93 و94.

50 المرجع نفسه، ص98 و99.

51 المرجع نفسه، ص99 و100.

52 انظر: محسن صالح (محرر)، التقرير الاستراتيجي الفلسطيني لعام 2008 (بيروت: مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، 2009)، ص234 و235.

53 نشرة القدس: النشاط الإستعماري والسياسات والممارسات الإسرائيلية، القدس، الجمعية الفلسطينية الأكاديمية للشؤون الدولية (باسيا)، يونيو 2009، ص2.

54 التقرير الاستراتيجي الفلسطيني لعام 2007، ص286.

55 جريدة القدس، 7 أبريل 2007.

56 نشرة القدس: النشاط الاستعماري والسياسات والممارسات الإسرائيلية، ص4.

57 جريدة القدس، 30 يناير 2007.

58 موقع عرب 48، 14 مايو 2008، ونشرة القدس: النشاط الاستعماري والسياسات والممارسات الإسرائيلية، ص8.

59 جريدة القدس، 17 أكتوبر 2007.

60 جريدة القدس، 28 أغسطس 2008.

61 جريدة القدس، 2 نوفمبر 2008، ونشرة القدس: النشاط الاستعماري والسياسات والممارسات الإسرائيلية، ص5.

62 نشرة القدس: النشاط الاستعماري والسياسات والممارسات الإسرائيلية، ص2.

63 جريدة القدس، 20 يناير 2007.

64 جريدة الأيام، 27 أبريل 2007.

65 جريدة القدس، 28 يناير 2008.

66 جريدة القدس، 4 نوفمبر 2007.

67 جريدة السفير، بيروت، 3 فبراير 2006.

68 جريدة القدس، 9 فبراير 2008.

69 جريدة الخليج، 14 مارس 2006.

70 انظر: نشرة وكالة معا الإخبارية، 29 أكتوبر 2007.

71 نشرة القدس: النشاط الاستعماري والسياسات والممارسات الإسرائيلية، ص5.

72 موقع مؤسسة الأقصى، انظر:
.http://www.islamic-aqsa.com/ar/modules.php?name=News&file=article&sid=917
وانظر أيضا: تقرير أعده مركز أبحاث الأراضي، تدمير إسرائيل مقبرة «مأمن الله» في القدس هو عملية تطهير عرقي للموتى، 20 فبراير2006، في: http://www.poica.org/editor/case_studies/view.php?recordID=781

73 جريدة الحياة الجديدة، 1 مايو 2007.

74 Haaretz newspaper, 11/7/2007.

75 إبراهيم عبدالكريم، «التوجهات والممارسات الصهيونية إزاء التراث الحضاري والثقافي الخاص بالقدس،» في دراسات في التراث الثقافي للقدس، تحرير محسن صالح (بيروت: مركزالزيتونة للدراسات والاستشارات)، 2009، ص208 و209.

76 حول هذه الفقرة عن تهويد القدس، انظر: الموسوعة الفلسطينية، ج3، ص521 - 527، وإبراهيم أبو جابر، مرجع سابق، ص544 - 568، وجريدة الدستور، 18 يونيو 1997، وانظر: نحو استراتيجية شاملة للقدس، مسودة تفصيلية، تحرير زياد الحسن، 18 يونيو 2009، ص34.

77 انظر: نحو استراتيجية شاملة للقدس، ص39.

78 انظر: المرجع نفسه، ص11و12، نقلا عن صحيفة يديعوت أحرنوت، في عددها الصادر في 16 ديسمبر 2009، وكانت ميزانية الاحتلال في القدس قد بلغت 814 مليون دولار عام 2007 وبلغت 744 مليون دولار عام 2006.

79 موقع عرب 48، 16 يناير 2008.

80 انظر: التقرير الإستراتيجي الفلسطيني لسنة 2008، ص243 و244.

81 انظر: التقرير الإستراتيجي الفلسطيني لسنة 2007، ص291 و292.

82 معهد الأبحاث التطبيقية - القدس (أريج)، بلدية القدس الإسرائيلية تطرح عطاءات لإضافات وحدات استيطانية جديدة في المستوطنات الإسرائيلية داخل المدينة، 23 يناير 2008، انظر:
http://www.poica.org/editor/case_studies/view.php?recordID=1263

83 التقرير الاستراتيجي الفلسطيني لسنة 2007، ص292.

84 المرجع نفسه، ص293.

85 جريدة القدس، 13 فبراير 2008.

86 انظر: التقرير الاستراتيجي الفلسطيني لسنة 2008، ص234، وانظر أيضا:

87 Ir Amim, Negotiations toward an Accord on Jerusalem: Declarations vs. Actions, April 2008, see:
www.ir-amim.org.il/eng/_Uploads/dbsAttachedFiles/MonitoringReportEng.doc

88 جريدة القدس، 2 فبراير 2008.

89 التقرير الاسترتيجي الفلسطيني لسنة 2008، ص24.

90 Ir Amim, Negotiations toward an Accord on Jerusalem.

91 Ibid.

92 جريدة القدس، 24 يوليو 2008.

93 حول تطور بناء الجدار، انظر دراسة مركز المعلومات الإسرائيلي لحقوق الإنسان في الأراضي المحتلة (بتسيلم)، في:

http://www.btselem.org/Arabic/Separation_Barrier/Statistics.asp

Applied Research Institute - Jerusalem (ARIJ), Geopolitical Status in Jerusalem Governorate, see:

http://www.arij.org/images/pub/Publications_2006/Geopolitical_Jerusalem/Jeruslem_Fact_Sheet.pdf

94 جريدة الدستور، 29 مارس 2009.

95 حول تطور بناء الجدار، انظر دراسة بتسيلم في:

http://www.btselem.org/Arabic/Separation_Barrier/Statistics.asp

96 حول معاناة القدس من الجدار، انظر مثلا: عمر الكرمي، «جدران الفصل في القدس العربية: منفى ثالث للشعب الفلسطيني»، بيروت، مجلة الدراسات الفلسطينية، ع62، ربيع 2005، ص137و146.

97 مكتب تنسيق الشؤون الإنسانية التابع للأمم المتحدة - أوتشا، الجدار الفاصل في الضفة الغربية وآثاره الإنسانية على التجمعات السكانية الفلسطينية: القدس الشرقية، يونيو 2007، ص14، انظر:

http://www.ochaopt.org/documents/Jerusalem_report_arabic_web_Sept07.pdf

98 الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني والمركز الفلسطيني لمصادر حقوق المواطنة واللاجئين (بديل)، مسح أثر جدار الضم والتوسع وتبعاته على النزوح القسري للفلسطينيين في القدس، رام الله، فلسطين، يونيو 2006، انظر:

http://www.pcbs.gov.ps/Portals/_pcbs/PressRelease/wallimpact_a.pdf

99 جريدة القدس، 25 أغسطس 2007.

100 انظر: نحو استراتيجية شاملة للقدس، ص24.

101 انظر: إبراهيم أبو جابر، استراتيجية تهويد شرقي مدينة القدس، ص6، في:

www.forsqsa.com/library/studies/Strategy_tahweed_quds.doc

102 التقرير الاستراتيجي الفلسطيني لسنة 2007، ص299.

103 جريدة السفير، 30 مايو 2006.

104 بتسيلم، معطيات حول تجريد حق المواطنة في شرقي القدس، انظر:

http://www.btselem.org/arabic/Jerusalem/Revocation_Statistics.asp

105 انظر: نحو استراتيجية شاملة للقدس، ص42 - 43.

106 انظر: جريدة الحياة الجديدة، 31 يناير 2007، وانظر: جمعية الدراسات العربية، مركز أبحاث الأراضي: http://www.lrcj.org/Arabic/APage.htm.

107 الحملة الشعبية الفلسطينية لمقاومة جدار الفصل العنصري، جدار الفصل العنصري والاستيطان في العام 2007، 1 يناير2008، في: http://www.stopthewall.org/arabic/cgi-bin/arabic/publish/article_387.shtml

108 انظر: نشرة القدس: النشاط الاستعماري والسياسات والممارسات الإسرائيلية، ص6-8، وانظر: تقرير حال القدس في الفترة من يناير وحتى مارس 2009، مؤسسة القدس الدولية، بيروت، في:

http://www.alquds-online.com/index.php?s=34&id=844

عالم الفكر
العدد 4 المجلد 38 أبريل - يونيو 2010

الدور الوطني للمرأة المقدسية (1920 - 1967)

د. محمد ماجد صلاح الدين الحزماوي (*)

انطلقت الحركة الفلسطينية منذ مطلع القرن العشرين، وقد اتخذت طابعا اجتماعيا خيريا إذ تم إنشاء العديد من الجمعيات الإنسانية التي أسهمت في تكوين الوعي العام بين النساء على مختلف الأصعدة العلمية منها والاجتماعية والاقتصادية والسياسية[1]. وتشكلت هذه الجمعيات في مختلف المدن الفلسطينية، وظهرت أول جمعية في مدينة عكا عندما تأسست في العام 1903 جمعية عرفت باسم «جمعية إغاثة المسكين الأرثوذكسية»، التي اهتمت بمختلف النواحي الخيرية ومساعدة الأسر المحتاجة[2].

أما في مدينة القدس فقد تشكلت أولى الجمعيات الخيرية في العام 1918 وعرفت باسم «جمعية تهذيب الفتاة الأرثوذكسية»، وهي جمعية خيرية مسيحية تولت رئاستها كاترين شكري ديب، وكانت تهدف إلى تعليم الفتيات المتفوقات أو ممن لم يستطعن الالتحاق بالمدارس بسبب الظروف الاقتصادية، ومساعدتهن للالتحاق بالمعاهد العليا، وقد تمكنت هذه الجمعية من تعليم كثير من الفتيات في الكلية الإنجليزية وكلية شميدت في مدينة القدس[3]. وفي العام 1919 ظهرت أولى الجمعيات الإسلامية في المدينة عُرفت باسم «جمعية السيدات المسلمات» وكانت أيضا ذات طابع اجتماعي خيري[4].

(*) قسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة القدس - فلسطين.

ومع انتهاء الحرب العالمية الأولى، أدركت المرأة المقدسية أهمية دورها الوطني تجاه الأحداث السياسية المتلاحقة التي أخذت تعصف بالقضية الفلسطينية نتيجة للمعاهدات والاتفاقيات التآمرية على فلسطين، كمعاهدة سايكس بيكو العام 1916 وتصريح بلفور العام 1917، فقد أخذت المرأة الفلسطينية عامة والمرأة المقدسية خاصة تشارك في موجات النضال الوطني بهدف مقاومة سياسة الاحتلال البريطاني الرامية لوضع تصريح بلفور موضع التنفيذ وتهويد فلسطين. واتضحت هذه المشاركة في المظاهرة التي انطلقت في مدينة القدس في 27 فبراير 1920 التي ضمت نحو 40 ألف مواطن طافوا مختلف شوارع المدينة معبرين عن رفضهم للأطماع الصهيونية ومنددين بالدور البريطاني المؤيد لتحقيق هذه الأطماع[5].

وبرزت بعض النساء في مجال الصحافة إذ نشطن في كتابة المقالات السياسية على صفحات بعض الصحف الفلسطينية، ففي 24 مارس 1920 كتبت إحدى السيدات المسيحيات مقالا بصحيفة مرآة الشرق تحت عنوان «يا أبناء الوطن» حذرت فيه من الأطماع الصهيونية في فلسطين، وطالبت بضرورة الدفاع عن الوطن، وناشدت المرأة الفلسطينية الوقوف إلى جانب الرجل للدفاع عن القضية الفلسطينية، وقالت فيه «فينبغي والحالة هذه أن نكون وإياكم أيها الرجال يدا واحدة في المدافعة عن كياننا، حتى إذا فني أبطالنا في ميدان المدافعة نكمل نحن النساء والبنات ما ابتدأتم به، ونضحي حتى النقطة الأخيرة من دمنا في سبيل الواجب الوطني... يا رجالنا البواسل، إذا دفعكم الشوق لرؤية الأصفر الوهاج الذي يحمله دعاة الصهيونية ورسلهم وسماسرة السوء فجدير بكم إذن أن تلزموا الخدور وتتركوا لنا الميدان.. نحن بنات العرب نقدر وحدنا على دفع هذا العدو المختلس»[6].

ونشرت صحيفة فلسطين سلسلة من المقالات خلال فترة العشرينيات من القرن الماضي تحت عناوين مختلفة منها: «حقوق النساء وواجباتهن» و«الحجاب وواجب خلعه» و«ضرورة تحرير المرأة» و«احترام المرأة واجب» و«التحجب وعدم التحجب»[7]، وفي ذلك دلالة على مدى وعي المرأة الفلسطينية خلال هذه الفترة وأهمية دورها النضالي إلى جانب الرجل.

وقامت لجنة من السيدات المسيحيات في مدينتي القدس ويافا بدعم ومساندة الجمعيات الإسلامية المسيحية واللجنة التنفيذية العربية في جمع التبرعات لإنفاقها على الأعمال الوطنية، وقد بلغ مجموع ما جمعته خلال أربعة أيام من شهر ديسمبر 1921م ثلاثمائة وعشرة جنيهات، قمن بإرسالها إلى الوفد الفلسطيني الذي ذهب إلى لندن لمفاوضة الحكومة البريطانية[8].

وتطوع عدد من النساء من أمثال: عفت عبدالهادي، وزليخة الشهابي، ووفية الحسيني، وشهيمة الدجاني، ورقية نسيبة لجمع التبرعات بهدف إرسالها إلى منكوبي سورية، ممن تضرروا على أثر ثورة العام 1925 [9].

المؤتمر النسائي الفلسطيني الأول 1929

جاء انعقاد هذا المؤتمر في ضوء اندلاع ثورة البراق أواخر شهر أغسطس العام 1929 التي جاءت نتيجة لاستمرار محاولات اليهود لتغيير سياسة الوضع الراهن بشأن منطقة البراق. وقد امتدت الثورة لتشمل مختلف أنحاء فلسطين وبخاصة مدينتي الخليل وصفد، وشهدت البلاد أسبوعا دمويا بين العرب واليهود مما أدى إلى وقوع عشرات القتلى والجرحى من الجانبين(10)، ووقفت الشرطة البريطانية بجانب اليهود واستخدمت الأسلحة المختلفة والطائرات الحربية لإرهاب العرب(11)، وانحاز المندوب السامي البريطاني جون تشانسلور Jhon chanclller لليهود فوصف العرب بأنهم «جماعات من الأشرار سفاكي الدماء، عديمي الرأفة»(12).

وعلى أثر هذه الأحداث تشكلت لجنة من سيدات القدس، لا سيما زوجات العاملين في المجال السياسي، سارعن لعقد مؤتمر نسائي بمدينة القدس يُعد أول مؤتمر نسائي فلسطيني، وقد انعقد يوم السبت الموافق 26 أكتوبر 1929 بمنزل السيدة طرب زوجة عوني عبدالهادي، وحضره أكثر من مائتي سيدة فلسطينية مسلمة ومسيحية من مختلف المدن والقرى الفلسطينية، معظمهن زوجات أو قريبات للزعماء والوجهاء السياسيين أو من بنات العائلات الثرية(13). وترأس المؤتمر السيدة زكية الحسيني زوجة موسى كاظم الحسيني رئيس اللجنة التنفيذية العربية(14).

وبعد اختتام جلسات المؤتمر، صدرت عنه مجموعة من القرارات منها الاحتجاج على وعد بلفور باعتباره ضارا بحقوق عرب فلسطين ووضعهم، ويشكل انتهاكا متعمدا لكل العهود التي أعطيت للعرب قبل الهدنة ويعني في نصه وروحه تدمير القومية العربية في فلسطين بهدف إعادة احياء القومية اليهودية، وطالب المؤتمر بتأسيس حكومة وطنية تكون مسؤولة أمام مجلس نيابي ليمثل فيه السكان حسب نسبتهم العددية، وطالب أيضا بتطوير الصناعة والاقتصاد الوطني باعتبار تطوير الصناعات الوطنية والتجارة وسيلة من الوسائل التي تهزم سياسة وعد بلفور، واعتبر المؤتمر أن الاستقلال الاقتصادي والتجاري يشكل خطوطا حيوية وأمامية لتحقيق الاستقلال السياسي. وقرر المؤتمر إرسال هذه القرارات إلى رئيس الوزراء البريطاني ووزير المستعمرات والمندوب السامي وجميع أعضاء السلك السياسي، إضافة إلى الصحافة المحلية والأجنبية ولجنة المرأة في عصبة الأمم(15).

واتفقت المؤتمرات على تشكيل وفد من خمس سيدات لزيارة المندوب السامي اللورد جون تشانسلور وزوجته في دار الحكومة، وخلال المقابلة تكلمت متيل مغنم باللغة الإنجليزية بينما تكلمت طرب عبدالهادي باللغة العربية(16)، وسلم الوفد للمندوب السامي مذكرة لرفعها إلى الحكومة البريطانية جاء فيها «نحن نساء فلسطين العربيات، حيث واجهنا صعوبات اقتصادية

وسياسية، ورأينا أن قضيتنا لم تنل العطف والمساعدة التي تستحقها، قررنا أخيرا أن نؤيد رجالنا في هذه القضية، تاركين جانبا كل الواجبات والأعمال الأخرى التي ألزمنا أنفسنا بها. هذا الوفد الذي يمثل كل النساء العربيات في فلسطين يعرض أمام سعادتكم اعتراضاتهن وقراراتهن التي أقرها مؤتمرهن الأول، ونطلب كحق لنا أن تُجاب مطالبنا»[17].

وسلم الوفد المندوب السامي قرارات المؤتمر، إضافة إلى بعض المطالب الأخرى منها الاحتجاج على إبقاء نورمان بنتويش Norman Bentwich وهو صهيوني نائبا عاما، وعلى إساءة الشرطة البريطانية معاملة السجناء العرب، وسلوك كل من بيلي Bailey وفاريل Farrel وهما مسؤولان حكوميان لاعتدائهما بالضرب على بعض الطلبة بالمدرسة الصلاحية في نابلس لقيام الطلبة بالإضراب احتجاجا على سياسة حكومة الانتداب[18].

واحتج الوفد على تبرع حكومة الانتداب بعشرة آلاف جنيه للاجئين اليهود دون تخصيص أي مبالغ لمنكوبي العرب. وقد علق المندوب السامي على هذه المقابلة بالقول «ان حقيقة كون النساء غير محجبات لتشير إلى خطورة المناسبة وأنه كانت تحركهن عاطفة عميقة»[19].

وأبدى المندوب السامي لأعضاء الوفد استعداده لرفع طلباتهن إلى الحكومة مؤكدا أنه لا يستطيع إلغاء وعد بلفور أو وقف الهجرة، وخلال جلسة تناول القهوة رفضت اثنتان منهن شرب القهوة معه لأن عادة العرب شرب القهوة في بيوت الأصدقاء فقط. وقد علق المندوب السامي على ذلك بالقول «ان خرق التقاليد العربية القاضية بمجاملة المضيف في بيته يشير إلى شدة العداء الذي «يلمس الآن تجاه الحكومة في أنحاء معينة»[20].

وأبلغ أعضاء الوفد المندوب السامي برغبتهن في تنظيم مظاهرة نسائية، ويذكر المندوب السامي في رسالة بعث بها للورد باسفيد Lord Passifieid وزير المستعمرات في 31 أكتوبر 1929م «جعلتهن يعلمن بأنه لن يسمح بمثل هذه المظاهرة، ولكنني أوافق على استقبال وفد مفوض عن النساء، وأن أستمع إلى شكاواهن، كما أجريت محاولات لاستمالة بعض القادة المسلمين لإثناء النساء عن القيام بالمظاهرة. رفضوا التدخل في البداية، ولكن عندما شرحنا لهم أن المظاهرة ستوقف بالقوة إذا دعت الضرورة وأنهم لن يلوموا إلا أنفسهم إذا ما اصطدمت النساء بالشرطة، تغيرت الترتيبات، لقد تم الترتيب بحيث ينتقل الجسم الأساسي للمؤتمر من مقر الاجتماع إلى المسجد الأقصى، حيث ينتظر الأعضاء هناك عضوات الوفد اللواتي سيلحق بهن إلى المسجد الأقصى بعد إجراء المقابلة معي ولقد نفذ هذا الترتيب كما ينبغي»[21].

وقد جرت المظاهرة بمشاركة مائة وعشرين سيدة سارت في شوارع مدينة القدس، وتوقفت أمام القنصليات الأجنبية المختلفة حيث قدمت إليها مذكرة بقرارات المؤتمر[22]. وقد أثارت هذه المظاهرة حماسا شعبيا كبيرا حيث شكلت نقطة انطلاق القطاع النسائي الكبير ليبدأ العمل السياسي[23].

وتضامنت المرأة المقدسية مع المجلس الإسلامي الأعلى في رفض تقرير لجنة البراق الدولية. فقد كان من بين توصيات لجنة شو Shaw التي أرسلت للتحقيق في أحداث ثورة البراق أن تقوم الحكومة بتشكيل لجنة للفصل في الحقوق والمطالب المتعلقة بحائط البراق[24]. وبناء على هذه التوصية أقر مجلس عصبة الأمم تشكيل لجنة تسوية حقوق ومطالب المسلمين واليهود في حائط البراق، تشكلت من ثلاثة أعضاء وهم: أميل لوفغرن Emil Lofgairn وزير الشؤون الخارجية في حكومة السويد سابقا وعضو مجلس الأعيان فيها رئيسا، وشارلس بارد Charles Bard نائب محكمة العدل في جنيف، وفان كمبن Van Cimbin حاكم الساحل الشرقي لجزيرة سومطرة سابقا وعضو البرلمان الهولندي[25]. وقد وصلت اللجنة إلى مدينة القدس في 19 يونيو 1930 وأقامت فيها لمدة شهر عقدت خلاله 23 جلسة استمعت فيها إلى 52 شاهدا من العرب واليهود، وقدم الطرفان للجنة إحدى وستين وثيقة[26].

وكان من بين توصيات اللجنة أن «للمسلمين وحدهم تعود ملكية الحائط الغربي، ولهم وحدهم الحق العيني فيه لكونه يؤلف جزءا لا يتجزأ من ساحة الحرم الشريف التي هي من أملاك الوقف. وللمسلمين أيضا تعود ملكية الرصيف الكائن أمام الحائط وأمام المحلة المعروفة بحارة المغاربة[27] المقابلة للحائط لكونه موقوفا حسب أحكام الشرع الإسلامي لجهات البر والخير»[28]. كما تضمنت التوصيات إعطاء اليهود حرية السلوك إلى الحائط لإقامة التضرعات في جميع الأوقات، وان لا يعترض على جلبهم لكتب الصلاة أو أية أدوات أخرى اعتادوا استعمالها في صلواتهم. كما أوصت أيضا بأن يُناط تعمير الحائط بإدارة فلسطين بعد التشاور مع المجلس الإسلاميّ الأعلى والمجلس الرباني اليهودي[29]، ويظهر هنا مدى التناقض في توصيات اللجنة، فمع أنها أقرت الملكية الإسلامية للحائط إلا أنها تعطي المجلس الرباني اليهودي حق الإشراف على تعمير الحائط وفي ذلك مساواة بين المجلس الإسلامي الأعلى والمجلس الرباني اليهودي في أمور الحائط.

وبناء على تقرير اللجنة، صدر عن البلاط الملكي البريطاني في 19 مايو 1936مرسوم تضمن جميع توصيات اللجنة، وأضاف بندا جديدا نص على أنه «لجلالة الملك ولورثته وخلفائه من بعده الحق بإلغاء هذا المرسوم أو تعديله أو تبديله في أي وقت من الأوقات»[30]. مما يؤكد مدى التحيز البريطاني لليهود وعدم جدية الحكومة البريطانية في تنفيذ توصيات اللجنة الدولية.

رفض الجانب الإسلامي تقرير اللجنة، فقد نظرت اللجنة إلى النزاع القائم من الزاويتين السياسية والإداريّة فقط بدلا من أن يُبنى التقرير على المبادئ الحقوقية العامة، علاوة على ذلك فقد اعتبر الجانب الإسلامي أنه ليس للجنة صلاحية البت في قضية حائط البراق، لأنه لا حق لغير المسلم في الفصل في المسائل الشرعية[31].

وقد ساند المجلس الإسلامي الأعلى في موقفه الرافض تقرير اللجنة كافة الجمعيات الوطنية والدينية ومختلف الفئات الشعبية، فقد بعثت اللجنة التنفيذية لمؤتمر السيدات العربيات برقية موقعة من كل من وحيدة الخالدي ومتيل مغنم إلى وزير المستعمرات وعصبة الأمم احتجت فيها على تقرير لجنة البراق وطالبت بوضع حل عادل تؤمن فيه حقوق المسلمين والعرب[32].

تشكيل اللجنة التنفيذية

انتخب المؤتمر النسائي السابق من بين عضواته لجنة تنفيذية تتكون من اربعة عشر سيدة عُرفت باسم «اللجنة التنفيذية للسيدات العربيات». وكانت برئاسة السيدة وحيدة زوجة الدكتور حسين الخالدي[33]، وعهد إلى اللجنة بأن تتماشى جهودها مع جهود اللجنة التنفيذية العربية في البلاد، والعمل على تنفيذ قرارات المؤتمر، وإدارة الحركة النسائية في البلاد. وقد ابتدأت أعمالها بإرسال برقية لكل من ملكة بريطانيا ووزير المستعمرات وعصبة الأمم جاء فيها «اجتمعت مائتا سيدة من ممثلات النساء العربيات مسلمات ومسيحيات في السادس والعشرين من الشهر الحالي في مؤتمر بالقدس. وقررن بالإجماع بذل كل جهد للعمل على إبطال وعد بلفور وتأسيس حكومة ديموقراطية وطنية تستمد قوتها من البرلمان الممثل لكل الجماعات الفلسطينية حسب عددها ونحن نطلب المساعدة في تحقيق مطالبنا العادلة»[34].

واهتمت اللجنة بمتابعة وضع المعتقلين السياسيين ممن حكم عليهم بالإعدام أو بالأشغال الشاقة، بسبب مشاركتهم في أحداث ثورة البراق، فبعثت مذكرة للمندوب السامي بينت فيها أن الأعمال التي قام بها هؤلاء كانت ذات طبيعة سياسية وليست إجرامية، كما أرسلت مذكرة أخرى لرئيس أساقفة كانتر بري طلبت منه التدخل لدى الحكومة البريطانية للعفو عمن حكم عليهم بالإعدام[35].

وحذرت اللجنة الحكومة البريطانية من المشروع اليهودي المعروف بإسم «مشروع دفاعي»، والمتمثل في قيام اليهود بتهريب الأسلحة لتسليح الشبان اليهود وتكوين منظمات عسكرية[36]. وطلبت من المندوب السامي اتخاذ الاحتياطات اللازمة لوضع حد لتهريب اليهود السلاح، والقيام بتفتيش جميع الأماكن اليهودية المشبوهة[37].

وكانت الأوضاع الاقتصادية المتردية للفلاحين الفلسطينيين من بين القضايا التي اهتمت بها اللجنة فقد رفعت إلى المندوب السامي مذكرة في 4 فبراير 1930 طلبت فيها إصدار قانون لحماية الفلاح الفلسطيني من دفع الفوائد، وتأسيس جمعيات تعاونية لإقراض الفلاح، وإلغاء ضريبة العشر، والعمل على إعادة فتح البنك الزراعي حتى يتمكن الفلاح من الحفاظ على أرضه[38].

وحرصت اللجنة على تذكير المندوب السامي بتقارير اللجان الحكومية والخبراء، ففي 7 فبراير سنة 1930 بعثت مذكرة جاء فيها «لقد تأكد من التقارير أن الفلاح خلال السنوات القليلة الماضية وما زال في الوقت الحاضر غير قادر على دفع قروضه أو فوائدها. إن إنتاج الفلاح

في معظم الحالات لا يكفي حاجته فضلا عن تسوية ديونه. وفي هذه الظروف يكون مضطرا لبيع أرضه. إن واجب الحكومة كما هو الحال في جميع البلدان المتحضرة أن تبحث عن الظروف والوسائل للتخفيف عن هذا القطاع في المجتمع الذي يشارك بدور كبير في دخل الدولة»[39].

وعلى أثر ثورة البراق، شكلت اللجنة التنفيذية العربية وفدا برئاسة موسى كاظم الحسيني للتفاوض مع الحكومة البريطانية في لندن، وضم أقوى الشخصيات السياسية من مختلف التيارات، وقد اجتمع الوفد خلال وجوده في لندن بكل من رئيس الوزراء البريطاني ووزير المستعمرات، وقدم للحكومة البريطانية مذكرة سياسية رسمية تضمنت مجموعة من المطالب منها: إصدار تشريع لمنع انتقال الأراضي من العرب إلى اليهود، ووقف الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وإرجاع الأراضي التي أخذتها الحكومة من الأهالي بحجة كون المتصرفين فيها لا يملكونها بموجب سند طابو، وتأسيس حكومة وطنية نيابية[40].

وقد أيدت اللجنة هذا الوفد، فقد بعثت برقية إلى وزير المستعمرات مؤرخة في 15يونيو 1930، عبرت فيها عن أسفها لسياسة الحكومة البريطانية تجاه الوفد وأبدت تأييدها لموقف الوفد والمطالب التي قدمها للحكومة البريطانية[41].

واستمرت اللجنة في مواصلة الاحتجاجات على سياسة الحكومة البريطانية في فلسطين، ففي 8 أغسطس 1930 بعثت بمذكرة إلى المندوب السامي احتجت فيها على العفو عن اليهودي يوسف مزراحي الاورفلي الذي أدانته المحاكم مرتين وحكمت عليه بالإعدام[42].

كما اعترضت على فصل بعض الموظفين والضباط العرب من وظائفهم بحجة تخفيف نفقات الحكومة، وكان كثير منهم قد خدم الحكومة أكثر من 12 سنة، بل إن بعضهم خدم قبل تأسيس الإدارة المدنية العام 1920. وقد تمّ بحث هذه الاحتجاجات من قبل لجنة الانتدابات بعصبة الأمم، التي أقرت بأن عدد الموظفين غير الفلسطينيين في حكومة الانتداب كان كبيرا، مما اضطر الحكومة إلى توظيف عدد من الفلسطينيين، علما بأن ذلك كان في وظائف صغيرة وكان معظم الموظفين من العائلات الوجيهة[43] وذلك بهدف استقطاب هذه العائلات وضمان صمتها، واهتمت اللجنة بتأسيس جمعيات نسائية في مختلف المدن الفلسطينية وفقا لقرارات المؤتمر بإشراف اللجنة التنفيذية العربية، فكانت الجمعية النسائية بالقدس من أوائل هذه الجمعيات، وكان من أهدافها العمل على تطوير الشؤون الاجتماعية والاقتصادية للمرأة الفلسطينية والاهتمام بتعليم الفتاة وتعزيز مكانتها، ومساعدة المؤسسات الوطنية، ودعم الصناعات الوطنية وتأييد المطالب السياسية للجنة التنفيذية العربية[44].

ولقي النشاط السياسي للمرأة الفلسطينية خلال هذه الفترة صدى في عصبة الأمم، جاء ذلك من خلال الدعوة التي وجهها رئيس العصبة للجنة التنفيذية للسيدات العربيات لإرسال وفد نسائي إلى لندن وجاء في الرسالة التي بعثها إلى متيل مغنم سكرتيرة اللجنة في

3 سبتمبر 1930 «كلما كان التحرك أكثر بين العرب وأصدقائهم الكثيرين ومؤيديهم في إنجلترا كان التأييد أكثر بالنسبة إلى القضية ككل. وإنني أكتب لكي أطلب منك - إذا كان ذلك ممكنا - أن تحضري مع ممثلة منتخبة أخرى في زيارة لإنجلترا لأسابيع قليلة. وكنساء عربيات رائدات فإن اتصالكن بالمرأة هنا، وتقديم مطالبكن سيكون مفيدا كما فعلتن بتأثير كبير في العام الماضي»[45].

يبدو واضحا من خلال هذه الرسالة اتساع تأثير النشاط السياسي للمرأة الفلسطينية في الأوساط الدولية، وقناعة رئيس العصبة بقوة حجتها وحقوقها الوطنية. غير أن العصبة آنذاك لم تكن تمتلك القوة للتأثير على موقف الحكومة البريطانية نظرا لضعفها. كما يستدل أيضا على مدى نشاط سكرتيرة اللجنة مما جعل رئيس العصبة يخاطبها ولا يخاطب رئيسة اللجنة، ويبدو أن ذلك جاء نتيجة لكون متيل مغنم مسيحية الديانة إضافة إلى قدرتها على مخاطبة الرأي العام الأجنبي خاصة أنها كانت تتقن التحدث باللغة الإنجليزية.

وشهدت البلاد أواخر العام 1933 تظاهرات عامة في مختلف المدن الفلسطينية احتجاجا على سياسة حكومة الانتداب البريطانية حيث ازدادت أعداد المهاجرين اليهود إلى البلاد، وتساهلت الحكومة في انتقال الأراضي من العرب إلى اليهود مما أدى إلى طرد الفلاحين العرب وتحويلهم إلى أجراء أو عاطلين عن العمل[46]. وانطلقت هذه التظاهرات في 13 أكتوبر من مدينة القدس، وقررت اللجنة التنفيذية العربية القيام بمظاهرة أخرى في الأسبوع التالي في مدينة يافا يوم الجمعة في 27 أكتوبر والاستمرار في التظاهر والإضراب حتى تستجيب الحكومة للمطالب الوطنية[47].

استجابت اللجنة التنفيذية لهذه التظاهرات، فقامت بتنظيم تظاهرة نسائية طافت شوارع مدينة القدس، واتجهت إلى مسجد عمر بن الخطاب، حيث ألقت متيل مغنم كلمة قارنت فيها بين العهد الذي قطعه عمر بن الخطاب للبطريرك صفرونيوس عندما دخل المدينة العام 15هـ، والعهد الذي أعلنه الجنرال إدموند اللنبي E.Allenby عندما دخل القدس أواخر العام 1917 إذ قالت «إن أهداف بريطانيا وحلفائها من خوض الحرب هو التحرير الكامل والنهائي للشعوب التي قاست طويلا من الحكم التركي، والعمل على تأسيس حكومات وإدارات تستمد سلطاتها من الإدارة الحرة للسكان الأصليين». وقالت أيضا إن الأمة العربية التي تعيش بجوار حرمين، مسجد عمر والقبر المقدس اللذين يجلهما ويقدسهما كل من في العالمين الشرقي والغربي لن تتسامح مع ظلم كهذا أو ترضخ لذل... سنواصل العمل يدا بيد حتى نحصل على حقوقنا الوطنية. لقد تحالف الحلفاء معنا حينما كانوا في حاجة إلى مساعدتنا، وحاربنا معهم جنبا إلى جنب، وواجه كثير من رجالنا الموت واستشهدوا على أرض المعركة... ولكن حينما حقق الحلفاء أهدافهم تغاضوا عنا ونكثوا بالعهود. إن من المناسب أن نقف بوقار في مسجد عمر بن

الخطاب، الفاتح العربي الكبير، لنسترجع لبرهة ماضينا ولنستمد من تاريخنا المجيد درسا لمستقبلنا وحافزا لكفاحنا الوطني[48].

ثم واصل الموكب مسيرته إلى القبر المقدس حيث كان آلاف المسيحيين في الحج للأراضي المقدسة، وهناك ألقت سيدة مسلمة وهي طرب عبدالهادي كلمة أشارت فيها إلى وعد اللنبي للعرب من أجل الحصول على الاستقلال، غير أن الإنجليز نكثوا بعهودهم فأخذوا يعملون على مساعدة اليهود ليحلوا محل العرب في فلسطين، وقالت في كلمتها «اليوم نقف عند القبر المقدس أمام مقبرة المسيح لنعلن أمام الله والناس بمناسبة زيارة اللورد اللنبي إلى فلسطين، الفواجع والنكبات التي وقعت للعرب في هذه البلاد... ونود أن نذكر هذا الجندي العظيم بتعهدات بريطانيا وبالدم الذي بذله العرب استجابة لندائه. إن المرأة العربية في فلسطين تثق بأن اللورد اللنبي لن ينسى هذه الحقائق أثناء إقامته في فلسطين وسيوصل إلى الأمة البريطانية الرسالة التي سُلمت له اليوم من الحاضرات معا في هذا المكان واللواتي يمثلن الأمهات والأخوات وبنات أولئك الذين سقطوا ضحايا السياسة البريطانية ومعاملتها الظالمة للعرب... وفشلها في المحافظة على عهودها لهم»[49].

المرأة المقدسية وثورة العام 1936

كان لسياسة المماطلة والتسويف التي اتبعتها حكومة الانتداب البريطانية في فلسطين تجاه القضية الفلسطينية وبخاصة في مسألتي الهجرة والأراضي، أن أخذ الفلسطينيون يعملون على تنظيم أنفسهم، فتشكلت لجان وطنية في مختلف المدن والقرى الفلسطينية، وأعلنت هذه اللجان الإضراب العام والامتناع عن دفع الضرائب ما لم تغير الحكومة من سياستها، وتستجيب للمطالب الوطنية المتمثلة في وقف الهجرة اليهودية ومنع انتقال الأراضي العربية إلى اليهود وإنشاء حكومة وطنية نيابية، ثم تشكلت اللجنة العربية العليا العام 1936م من مختلف الأحزاب السياسية برئاسة الحاج أمين الحسيني وحلت محل اللجنة التنفيذية العربية، واستمر الإضراب نحو ستة أشهر دون أن تستجيب حكومة الانتداب لأي من المطالب العربية، ثم تحويل الإضراب إلى مواجهة عسكرية مع سلطات الانتداب اشتركت فيها طبقات الشعب الفلسطيني كافة.

كان للمرأة المقدسية دور واضح في أحداث ثورة العام 1936، تمثل عبر مشاركتها في مختلف الأنشطة الوطنية، فقد أخذت لجنة السيدات العربيات التي حلت محل اللجنة التنفيذية النسائية العام 1929 تعمل ضمن إطار اللجنة العربية العليا والالتزام بقراراتها والعمل على تنفيذها، لا سيما حث الجماهير على ضرورة الالتزام بالإضراب العام والعصيان المدني، وذلك عبر توزيع البيانات وإلصاقها على جدران المحلات والمنازل، ودعوة أصحاب المحلات التجارية إلى إغلاق محالهم، ومقاطعة البضائع غير الوطنية استجابة للإضراب[50].

وعقدت لجنة السيدات العربيات مؤتمرا في يافا في 11 مايو 1936، بالمدرسة الوطنية الأرثوذكسية برئاسة أديل عازر، وعرضت فيه قرارات اللجنة العربية العليا، وأيدت المجتمعات اللجنة العربية في جميع قراراتها، وإبقاء البلاد في حالة إضراب حتى ينال الشعب الفلسطيني حقوقه الوطنية، وأقسمت المجتمعات على مقاطعة البضائع الصهيونية مقاطعة تامة[51].

ومع ازدياد قوة الثورة، أخذت المرأة المقدسية تعمل على تطوير أساليب نضالها، فقامت بجمع التبرعات المالية والعينية وتوزيعها على المحتاجين من أهالي الثوار والشهداء، وتبرعت بعض النساء بمصاغهن الخاص لتمكين الثوار من شراء الأسلحة والذخيرة[52]، وأخذت الجمعيات النسائية تعمل على إقامة دورات الإسعاف الأولي لتدريب النساء على الإسعافات الأولية بهدف علاج الجرحى والعناية بهم[53].

وقامت المرأة أيضا بإمداد الثوار بالطعام والشراب ونقل الأسلحة والذخيرة عبر نقاط التفتيش البريطانية التي كانت تحكم الرقابة على تنقلات الثوار وتحركاتهم، كما قامت أيضا بإعداد مشاعل للثوار والعمل بالبريد للحفاظ على سرية المكالمات[54]. وكانت طالبات المدارس تقوم بنشر المسامير في الشوارع لتعطيل عجلات السيارات العسكرية[55].

وتابعت لجنة السيدات العربيات أوضاع المعتقلين الفلسطينيين، فطالبت بتخفيف مدة الأحكام الصادرة بحقهم والعفو عنهم، وقدمت الدعم لعائلاتهم من خلال جمع التبرعات النقدية والملابس والأغذية وزيارة عائلات الشهداء[56].

وعبرت اللجنة عن دعمها واعتزازها بهؤلاء المعتقلين، جاء ذلك في رسالة بعثتها اللجنة إلى المعتقلين في سجن عوجة الحفير مؤرخة في 11 يونيو العام 1936، ذكرت فيها: «إن لجنة السيدات العربيات بالقدس تبعث لحضرات رجالها الأباسل الذين شرفتهم السلطة بإبعادهم إلى الحفير عاطر تحياتها وتقديرها العظيم وسوف يكون للحفير في المستقبل أجمل الذكرى لما كان لهذا المحل من شرف لنفي أعاظم رجال فلسطين وشبابها الغر الميامين»[57].

وعلى الصعيد الخارجي، ناشدت اللجنة السيدة هدى شعراوي رئيسة الحركة النسائية المصرية العمل على حث المصريين على تقديم المساعدة لإخوانهم الفلسطينيين، وقد استجابت هدى شعراوي من خلال دعوة الاتحاد النسائي المصري لعقد اجتماع في 9 يونيو 1936، لمناقشة مناشدة لجنة السيدات العربيات، وقرر الاتحاد فتح اكتتاب عام، وتشكيل لجنة من أعضاء الجمعية لجمع التبرعات، والاحتجاج على تنفيذ وعد بلفور، ووقف الهجرة اليهودية، وإرسال برقيتين لكل من وزير الخارجية البريطاني ورئيس مجلس العموم يطالبهما بالحد من سياستهما المخالفة لمبدأ احترام حقوق الشعوب. وبلغ حجم التبرعات التي جمعها الاتحاد المصري حتى أواخر العام 1938 نحو 1712.75 جنيه مصري[58].

وفوضت اللجنة هدى شعراوي بطرح القضية الفلسطينية على بساط البحث في مؤتمر السلم العالمي، الذي كان من المقرر عقده في بروكسل ببلجيكا في سبتمبر العام 1936،

وأرسلت اللجنة للمؤتمر خلال انعقاده كتابا طالبت فيه بحماية الحقوق العربية الفلسطينية المتمثلة في إقامة حكومة وطنية ووقف الهجرة اليهودية وانتقال الأراضي[59].

وشاركت اللجنة في الاجتماع النسائي العربي الذي عقد في لبنان في 7 يوليو 1937، وحضرته وفود نسائية من العراق وسورية ولبنان، وقد بعثت هذه الوفود كتابا لهدى شعراوي فوضتها فيه بالدفاع عن القضية الفلسطينية أمام لجنة الانتدابات ومؤتمر النساء الدولي، وأمام أي هيئة أخرى يمكنها مناصرة القضية، وذلك على قاعدة «الاعتراف بحق العرب في الاستقلال التام، وإنهاء الانتداب، ووقف الهجرة اليهودية وبيع الأراضي، والعدول عن تجربة الوطن القومي»[60].

المؤتمر النسائي الشرقي 1938

جاءت فكرة انعقاد هذا المؤتمر من قبل لجنة الدفاع عن فلسطين في سورية، حيث اتجهت إلى فكرة عقد مؤتمر نسائي عربي من أجل القضية الفلسطينية في بلودان بدمشق، غير أنه ولأسباب تتمثل بسوء علاقات الحكومة الوطنية مع السلطة الفرنسية اتجهت النيه لعقده في القاهرة بعد اجراء الاتصالات مع السيدة هدى شعراوي وبعض السيدات في بعض الأقطار العربية[61].

وفي 7 يوليو العام 1938 أرسلت الجمعيات النسائية في الأقطار العربية تفويضا رسميا لهدى شعراوي للدفاع عن القضية الفلسطينية وطرحها في المحافل الدولية[62]. ثم بدأت سلسة من الاتصالات بين لجان السيدات للدفاع عن فلسطين في دمشق وبيروت والقدس وبغداد من جهة، والاتحاد النسائي بمصر من جهة ثانية انتهت بتوجيه هدى شعراوي نداء لنساء الشرق دعتهن فيه لمد يد العون والمساعدة لعرب فلسطين وإيفاد مندوبات عنهن لحضور المؤتمر النسائي[63].

عقد المؤتمر في مقر الاتحاد النسائي بالقاهرة خلال الفترة ما بين 15و18 أكتوبر 1938، ويعد أول مؤتمر نسائي عربي يعقد خارج فلسطين لنصرة قضيتها، وقد حضرته وفود نسائية تمثلت في الاتحادات والجمعيات النسائية في مصر وسورية والعراق ولبنان فضلا عن إيران، وكان الوفد النسائي الفلسطيني من أكبر الوفود إذ ضم سبعا وعشرين امرأة تمثل الحركة النسائية الفلسطينية[64]. ويتضح من خلال أسماء هؤلاء النساء أن قيادة الحركة النسائية الفلسطينية كانت مقتصرة على زوجات الزعماء والقيادات السياسية وعلى السيدات ذوات المكانة الاجتماعية أو الثقافية[65]. وحظي الوفد الفلسطيني بالنصيب الأكبر من إلقاء الخطب والكلمات، فقد أُلقي أو قرئ خطاب لاثنتي عشرة امرأة فلسطينية كان من بينهن خمس نساء في القدس[66]. وقد ألقت ميمنة عز الدين القسام كلمة الوفد الفلسطيني التي كتبها لها أكرم زعيتر الذي كان موجودا آنذاك بالقاهرة، وكان مما قالته «**أيها الحفل**

الكريم .. أتدرون من أنا... أنا ابنة من طرق باب الحرية بيده المخضبة بالدماء، وهناك في أرض فلسطين الحبيبة ثواء»[67].

وخلال جلسات المؤتمر، قرئت الرسائل والاقتراحات المقدمة من الوفود العربية، والمندوبات عن الهيئات التي تعذر حضورهن، ثم اجتمعت لجنة اقتراحات المؤتمر، ودرست ما لديها من اقتراحات ورفعتها إلى المؤتمر، وفي الجلسة الختامية للمؤتمر ألقت هدى شعراوي كلمة الختام بينت فيها أهمية المؤتمر في شرح مأساة فلسطين وطالبت بتنفيذ المقترحات، وذكرت أن **«الإرهاب الصهيوني في فلسطين يعد عدوانا على مصر وأن واجب بريطانيا أن تفي بعهدها لحماية مصر فتلغي وعد بلفور»**[68].

وانتهى المؤتمر باتخاذ مجموعة من القرارات، تمثلت في تأييد المطالب الوطنية للشعب الفلسطيني والمتمثلة في إلغاء الانتداب واستبداله بمعاهدة تحالف وصداقة بين فلسطين وبريطانيا، وإلغاء وعد بلفور، ووقف الهجرة، ومنع انتقال الأراضي، ورفض قرار لجنة بيل الملكية القاضي بتقسيم فلسطين[69]، واستنكار سياسة بريطانيا في فلسطين، والإفراج عن المعتقلين السياسيين وعودة المبعدين. وناشد المؤتمر ملوك العرب وأمراءهم التدخل من أجل حل القضية الفلسطينية بالحق والعدل، كما اتفق على إرسال برقيات لرؤساء الحكومات الأوروبية للتدخل لحل القضية الفلسطينية حلا عادلا. واحتج المؤتمر لدى عصبة الأمم والحكومة البريطانية والحكومات الأوروبية والبابا وأسقف كنتر بري ورؤساء الأديان في أوروبا وأمريكا على سياسة البطش والتنكيل التي تمارسها بريطانيا ضد الفلسطينيين. وأعرب المؤتمر للرئيس الأمريكي روزفلت عن الألم لتصاعد الأصوات المؤيدة لليهود في أمريكا. وأخيرا طالب المؤتمر الملك فاروق برعاية أرامل وأيتام فلسطين والطلب من وزارتي الداخلية والمعارف المصريتين تسهيل دخول أبناء فلسطين إلى المعاهد العلمية المصرية، وإيواء الأيتام، والتمني على جمعية الهلال الأحمر المصري إقامة فروع لها في فلسطين[70].

وبعد انفضاض المؤتمر أرسلت الحركة النسائية الفلسطينية مذكرة إلى جمعية التجمع العالمي للسلام في جنيف ضمنتها القرارات السابقة وطالبت بتنفيذها بعد دراستها[71].

انشقاق الحركة النسائية

شهدت الحركة الوطنية الفلسطينية خلال فترة الانتداب البريطاني انقساما انعكس على قوة أدائها واستجابة سلطات الانتداب لطلباتها، ويعود هذا الانقسام إلى التنافس بين عائلتي الحسيني والنشاشيبي الذي تعود بداياته إلى العام 1918، عندما أسس كل من حسن صدقي الدجاني ويوسف الخطيب جمعية باسم «جمعية مقتطف الدروس»، وما لبث أن تغير اسمها إلى «جمعية المنتدى الأدبي»، وانتقلت إدارتها إلى إسعاف النشاشيبي وفخري النشاشيبي، الأمر الذي دفع بعض المثقفين والمتنورين من عائلة الحسيني إلى إنشاء النادي العربي أواخر

العام 1918 برئاسة الحاج محمد أمين الحسيني، وكان معه عدد من الشخصيات المقدسية من عائلة الحسيني وبعض العائلات الأخرى. ورغم التنافر بين هاتين الجمعيتين فقد كانت لهما أهداف ثقافية ووطنية مشتركة كرفض وعد بلفور ومقاومة الصهيونية والإيمان بالقومية العربية والمطالبة بوحدة فلسطين مع سورية[72].

وفي العام 1920 ازداد التنافس بين العائلتين عندما عينت السلطات البريطانية راغب النشاشيبي رئيسا لبلدية القدس بدلا من موسى كاظم الحسيني، وازداد الخلاف في العام التالي حول منصب المفتي، فقد رشحت المعارضة التي تتزعمها عائلة النشاشيبي الشيخ حسام جار الله الذي حصل على أعلى الأصوات، غير أن المندوب السامي هربرت صموئيل Herber Samuel اختار الحاج محمد أمين الحسيني لمنصب الإفتاء رغم أنه حصل على المرتبة الرابعة، وكان الهدف من ذلك إذكاء روح الصراع والخلاف بين العائلتين لإضعاف الحركة الوطنية الفلسطينية[73].

استمر الانقسام العائلي طوال فترة الانتداب البريطاني، وانعكس على الأسر المتنفذة في مختلف أنحاء فلسطين حيث انقسمت بدورها ما بين مؤيد لعائلة الحسيني وعرفوا باسم «المجلسيون»، وذلك نسبة لرئاسة الحاج أمين الحسيني للمجلس الإسلامي الأعلى، ومؤيد للنشاشيبي وعرفوا باسم «المعارضة». وكان من الطبيعي أن ينعكس هذا التنافس على الحركة النسائية في مدينة القدس، فقد انساقت النساء وراء مواقف أزواجهن أو أقربائهن، لا سيما أن مدينة القدس كانت مركزا لسلطات الانتداب البريطاني والحركة الوطنية الفلسطينية، وكانت غالبية قيادة الحركة النسائية تنتمي إلى العائلات المتنفذة والوجيهة، علاوة على أن نسبة عالية منهن كن من مدينة القدس، وكان بعضهن متزوجات من أعضاء اللجنة التنفيذية العربية، مثل متيل مغنم زوجة مغنم مغنم، وطرب عبدالهادي زوجة عوني عبدالهادي، ونعمتي الحسيني زوجة جمال الحسيني[74].

تعرضت الحركة النسائية للانشقاق العام 1938، فتشكل الاتحاد النسائي برئاسة زليخة الشهابي الموالية لعائلة الحسيني، بينما تشكلت رابطة النساء العربيات برئاسة زاهيه النشاشيبي الموالية لعائلة النشاشيبي، وكان التنافس بين الاثنتين على رئاسة لجنة السيدات العربيات من العوامل التي ساهمت في انشقاق الحركة النسائية[75].

ورغم هذا الانشقاق فإن المجموعتين كانتا تحترمان بعضهما بعضا، واشتركتا في نشاطات موحدة[76]. وبالتالي فإن انشقاق الحركة النسائية لم يكن على غرار الصراع والتنافس بين الرجال في الهيئات الوطنية، كاللجنة التنفيذية واللجنة العربية العليا والهيئة العربية العليا.

وانعكست زعامة الحسيني للحركة الوطنية الفلسطينية طوال فترة الانتداب على الاتحاد النسائي الموالي لها ويظهر ذلك من خلال الإنجازات التي قام بها الاتحاد على الصعيدين

السياسي والاجتماعي، فكان الاتحاد يرسل برقيات الاحتجاج إلى لندن وحكومة الانتداب في جميع المناسبات الوطنية، واحتج أيضا على سياسة إبعاد المناضلين السياسيين وكان يرسل البرقيات إلى الملوك والأمراء[77].

لقد عملت المرأة المقدسية من خلال الاتحاد النسائي على إقامة الندوات المختلفة لتوعية طلبة المدارس وإلقاء الكلمات والخطب الثورية، حيث تقول وداد الأيوبي إحدى عضوات الاتحاد «كان الاتحاد النسائي يقوم طبعا بعقد ندوات مختلفة ويدعو لها رجالات القدس أو رجالات من الخارج فيتحدثون عن الواقع»[78]. وقامت المرأة المقدسية من خلال الاتحاد بعمل دورات في الإسعاف، وتشكلت لجنة لإسعاف وتضميد الجرحى في العديد من المناسبات الوطنية. وقد رافق العمل في الميدان بعض التغيرات الاجتماعية، فقد تدربت كل من ماري بامية وفاطمة الحسيني على قيادة السيارة، فكانتا أول سيدتين تقودان سيارة في مدينة القدس مما ساهم في تقديم بعض الخدمات، وقد سمح لهما الأطباء بوضع علم الإسعاف على السيارة[79].

كما أسس الاتحاد النسائي ناديا رياضيا ومستوصفا للتطعيم ومعالجة المعوزين، ومركزا لرعاية الطفولة وإقامة المسابقات الأدبية والعلمية للأطفال[80].

أما خارج إطار الاتحاد النسائي ورابطة النساء العربيات فقد أسهمت المعلمة المقدسية من خلال عملها في المدرسة في توعية الطالبات بالقضايا الوطنية، فاهتمت بالعمل الثقافي التربوي الذي ارتبط بالعمل الاجتماعي والسياسي بشكل غير مباشر، وتمثل ذلك في القيام بمختلف النشاطات الثقافية المدرسية، فانتهزت المعلمة المقدسية الحفلات والندوات والملتقيات الاجتماعية والأدبية لإدخال ما تريد من أفكار سياسية، خاصة أن قوانين سلطات الانتداب البريطاني كانت تحظر على المعلمين والمعلمات العمل في الميدان العام أو أي نشاطات أخرى خارج المدرسة[81].

وقامت بعض المعلمات بتوزيع البيانات والمناشير السياسية من خلال الطالبات، نذكر منهن المعلمة فاطمة أبو السعود التي كانت تدرس مادة الرياضيات بمدرسة بنات سلوان الإعدادية، فقد كانت تضع البيانات السياسية في سلال التين والعنب، وتكلف بعض الطالبات بتوزيعها على أصحاب المحلات التجارية وبيوت المدينة[82]. كما لعبت بعض الطالبات أمثال فاطمة الخياط ونزهة درويش وبدرية الحسيني وسلمى الحسيني، دورا مهما في تنظيم المسيرات الوطنية والمظاهرات والتي شكلت تعبيرا سياسيا مباشرا عن مشاركة المرأة في الأحداث السياسية[83].

المرأة المقدسية وحرب العام 1948

بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية العام 1945، أخذ الرئيس الأمريكي هاري ترومان Harry Trumman الذي خلف الرئيس السابق فرانكلين روزفلت F.Roosevelt يضغط على الحكومة البريطانية لتسهيل الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وإدخال مائة ألف مهاجر يهودي إلى البلاد

انطلاقا من موقفه المؤيد للمطالب الصهيونية بإقامة الدولة اليهودية في فلسطين[84]. ونتيجة لهذا الموقف رفضت الحركة النسائية الفلسطينية الدعوة التي وجهت إليها لحضور المؤتمر النسائي العالمي في نيويورك[85].

وبناء على طلب الحكومة البريطانية من الأمين العام لهيئة الأمم المتحدة إدراج القضية الفلسطينية ضمن جدول أعمال الجمعية العامة، تشكلت لجنة الأمم المتحدة الخاصة بفلسطين «الأنسكوب UNSCOP» وقد ترتب على تقرير هذه اللجنة اقتراح تقسيم فلسطين إلى دولتين إحداهما عربية والأخرى يهودية، وأن تبقى القدس قطاعا تحت الوصاية الدولية تتولى إدارته الأمم المتحدة. وتمّ التصويت على هذا القرار في 29 نوفمبر 1947 حيث تبنت الجمعية العمومية قرار التقسيم رقم 181 بالأغلبية[86].

رفض العرب قرار التقسيم وأصروا على إفشاله والحيلولة دون قيام دولة يهودية في فلسطين، وخاضت الجيوش العربية حربا مع الصهاينة بعد انسحاب القوات البريطانية من فلسطين، وهي أول حرب عربية إسرائيلية انتهت بهزيمة الجيوش العربية واحتلال إسرائيل لنحو 77 في المائة من أراضي فلسطين.

كان دور المرأة الفلسطينية بشكل عام والمرأة المقدسية بشكل خاص في حرب العام 1948 هامشيا اقتصر على النشاطات الاجتماعية، فشكلت الفرق والجمعيات ذات الأنشطة المختلفة كمعالجة الجرحى وتزويد الثوار بالماء والطعام وفتحت المراكز الاجتماعية لاستقبال الجرحى، وتطوع عدد من النساء المقدسيات للعمل في المستشفيات، كان منهن هند الحسيني وأمينة الحسيني حيث تطوعتا للعمل في مستشفى الهوسبيس الذي تحول إلى مركز إسعاف أثناء القتال[87]. كما آزرت المرأة المقدسية الجيش العربي، فقد زارت سميرة أبو غزالة وبرفقتها عدد من الطالبات مقر قائد المنطقة الشيخ حسن سلامة وقدمت له الهدايا والملابس والغذاء، ووفقا لروايتها فبعد هذه الزيارة بخمسة أيام نسف اليهود مقر القيادة واستشهد الشيخ سلامة، فطالبت بتدريب النساء على السلاح، وأنشدت قصيدة في ذلك جاء فيها:

وكتبت عصام عبدالهادي قصيدة مدحت فيها جيش الإنقاذ العربي قالت فيها:

يا مرحبا بمحرري شعب وهُمْ
زعماؤه قلبوا له ظَهْر المجن
زعماؤه تركوه مسلوب القوى
يبكي دما بدل الدموع من المحن
وتباينوا ما بينهم وتخاذلوا
يا للمعرة منهمُ هزئ الزمن

إبـلـيـس زيـن بـالـعـــــروش صـــــدورهـم
مـن عـــرشـــهـم وصـــدورهـم بـرئ الـوطـن
إيــه بـلادي لا تـراعـي واصـــبـــري
ولـئـن رأيـت مـن الـقــــيـــادة مـن وهـن
تـرك الـبـــلاد وهـام يـبـــغـي غـــيـــرهـا
وهـو الـذي أرضــعـــتــه حـلـو الـلـبـن
لا تـقـــبـلـيـــه وإن أتـى مـــســتـــغـــفـرا
لا تـقـــبـلـيـــه بـل اطـلـبـي دمـــه الـثـــمـن
هـو مـــرتـدٍ ثـوب الـخـــيـــانـة فـــاحـــذري
أن تـلـبـــســيـــه ســوى المذلـة والـكـفـن[89]

وكانت العصابات الصهيونية قد اعتدت على أعراض النساء الفلسطينيات لإجبار أهلهن على النزوح[90]، واتضحت هذه الممارسة في قرية دير ياسين[91]، فقد وصف المحقق البريطاني ريتشارد كارلنغ R.Karling مدى الصعوبة التي واجهها في إقناع النساء المرعوبات والمذلولات بأن يصفن ما حلّ بهن وبغيرهن من النساء قائلا «قابلت العديد من النساء بهدف جمع بعض المعلومات المتعلقة بأية فظائع يمكن أن تكون ارتكبت في دير ياسين، غالبية هؤلاء النساء خجولات جدا، ويترددن في رواية ما حدث معهن وخصوصا الأمور المتعلقة بالاغتصاب، وهن بحاجة إلى قدر كبير من المواساة قبل أن يكشفن عن أية معلومات، كما أن تسجيل الإفادات تعترضه الحالة الهستيرية التي تعيشها النساء حيث إنهن ينهرن أثناء تسجيل الإفادة، على أنه مما لا شك فيه أن اليهود المهاجرين اقترفوا العديد من الفظائع الجنسية. فقد جرى اغتصاب العديد من بنات المدارس ثم جرى ذبحهن، كما جرى التحرش بالنساء المسنات. تنتشر في أوساط الناس قصة تتعلق بصبية شُقت نصفين. كما ذبح أو قتل العديد من الصبيان»[92].

ولم يقتصر الأمر على الاغتصاب فقط، بل لجأ الجنود الصهاينة إلى بقر بطون النساء الحوامل لبثّ الرعب والهلع في صفوف العرب، لقد أرادوا بذلك أن يبينوا للعرب أن التقليد والقانون الخلقي الذي يقضي بالحفاظ على أرواح النساء والأطفال والعجائز خلال الحرب لم يعد صالحا في فلسطين[93]. كما سلبوا حلي النساء وجردوهن من الحجاب وسيروهن حافيات عاريات الأقدام والرؤوس والوجوه[94].

وبلغ عدد النساء اللواتي استشهدن في مجزرة دير ياسين 38 شهيدة من بين 109 شهداء أي بنسبة 35 في المائة، وكانت أعمارهن تتراوح ما بين سن 4 – 80 سنة[95]. وكان من بينهن المعلمة المقدسية حياة البلبيسي التي كان عمرها آنذاك 19 سنة، وقد استشهدت خلال قيامها بتضميد جراح أحد المصابين وهي تحمل شارة الصليب الأحمر[96]. ومن بين الشهيدات أيضا

صالحة محمد عيسى وطفلها الصغير، وزوجة الكفيف البصر محمد علي خليل التي كانت تقوده لإنقاذه[97].

وعلى أثر هذه المجزرة وما نتج عنها من قتل وتشريد، أبدت بعض النساء المقدسيات اهتمامهن بإيواء الأطفال المشردين والأيتام، ومن أبرزهن هند الحسيني وفاطمة النشاشيبي وزهية النشاشيبي ووداد الأيوبي اللواتي كن يذهبن بشكل دائم لزيارة أطفال دير ياسين، الذين نجوا من المذبحة وفقدوا أسرهم ولجأوا إلى دير راهبات صهيون، وكن يحضرن لهم الطعام واللباس ويشرفن على نظافتهم[98].

وبعد ذلك قامت هند الحسيني بنقل هؤلاء الأطفال البالغ عددهم 55 طفلا وطفلة وأسكنتهم في غرفتين بحي سوق الحصر في البلدة القديمة، ثم أسست جمعية دار الطفل لإيواء الأطفال ووزعتهم حسب أعمارهم على المدارس قبل أن تفتح لهم صفوفا في منزل عائلتها، واستعملت بداية الكراج ومأوى الخيول والغرفة المخصصة لسكن ساسة الخيول كصفوف مؤقتة، وأخذت ترعى هؤلاء الأيتام وغيرهم من مختلف أنحاء فلسطين، وتمكنت العام 1961م من إنهاء بناء المدرسة التي أصبحت في العام 1966 تضم نحو 570 طالبا وطالبة من صغار الأطفال إلى الثانوية، ثم تطورت حتى أصبحت في الوقت الحاضر جزءا من جامعة القدس تمنح درجة البكالوريوس للإناث فقط[99].

النشاط الاجتماعي والسياسي للمرأة المقدسية بعد العام 1948

شكلت نكبة العام 1948 تحولا مهما في مسار الحركة النسائية ومسار المجتمع الفلسطيني بشكل عام، فبعد إعلان قيام إسرائيل وطرد مئات الآلاف من الفلسطينيين إلى مختلف الدول العربية المجاورة، كان لا بد من أن يتخذ نضال المرأة المقدسية أشكالا متعددة، فاستمرت في ممارسة الدور الوطني من خلال إنشاء الجمعيات الخيرية للحفاظ على الموروث الثقافي ومساعدة ما تبقى من المجتمع لمنعه من الانهيار الاقتصادي والاجتماعي الشامل، واهتمت هذه الجمعيات برعاية الأيتام والمشردين، إضافة إلى رعاية اللاجئين وتقديم الخدمات للمعاقين والمرضى وكبار السن والعجزة والفقراء. كما ركزت على تقديم الخدمات الصحية والتعليمية للمرأة والأسرة في المجتمع والاهتمام برفع مستوى التعليم بين الإناث[100].

وتعد مؤسسة دار الأولاد من أوائل الجمعيات التي أنشئت بعد النكبة، فقد تأسست العام 1948 بالقدس للذين فقدوا المنازل وحرموا من الأبوين، وكان من بين أعضاء الهيئة الإدارية لها خمس نساء من بين أحد عشر عضوا كان من بينهن متيل مغنم ومديحة نسيبة[101].

وتأسست في العام 1949 دار الفتاة اللاجئة لإيواء اللاجئات المحتاجات، وافتتحت لهن دورات مهنية كالخياطة والتطريز بالإضافة إلى محو الأمية[102]. وفي العام 1950 تأسست جمعية الهلال الأحمر التي كانت تقدم خدمات الاتصال عبر الرسائل المكتوبة بين اللاجئين

وذويهم في المناطق المحتلة، وكانت تقوم بعقد دورات الإسعاف الأولي، وأشرفت على مستشفى للتوليد علاوة على زيارة العائلات الفقيرة وتقديم الملابس لها، والعمل على محو الأمية، وإقامة الأسواق الخيرية والمعارض السنوية(103). وكان من بين أعضاء الهيئة الإدارية لها أربع نساء مقدسيات من بينهن سلمى الحسيني ونفوذ أبو السعود ونزهه درويش(104).

وبلغت نسبة جمعيات محافظة القدس إلى الجمعيات المنضوية تحت لواء الاتحاد العام للجمعيات الخيرية في العام 1958م نحو 62.5% (105)، الأمر الذي يعكس مركزية مدينة القدس في الحركة الوطنية الفلسطينية والدور المتقدم للمرأة فيها، علاوة على وعي المرأة المقدسية بأهمية العمل الاجتماعي في الحفاظ على الموروث الثقافي والوطني.

النشاط السياسي

شهدت فترة الخمسينيات من القرن الماضي غياب الشخصية الوطنية الفلسطينية كشخصية مميزة لها إدارتها السياسية والتنظيمية المعبرة عنها، وحالت الظروف السياسية للفلسطينيين في أعقاب حرب العام 1948 دون قيام أي تنظيمات فلسطينية تعبر عن المهمات النضالية للحركة الوطنية. لذا فقد التحقت المرأة الفلسطينية بالأحزاب السياسية العربية السرية القومية والشيوعية للدفاع عن قضيتها الوطنية كالحزب الشيوعي الأردني وحزب البعث العربي الاشتراكي وحركة القوميين العرب. ومع ذلك فإن نسبة من انخرطن في هذه الأحزاب كانت قليلة، وكن في أغلبيتهن إما طالبات أو نساء مثقفات أو نساء مرتبطات بعلاقة قرابة أو زواج بأعضاء من الحزب، كما كانت غالبيتهن ينتمين لأوساط برجوازية(106).

وعبرت سميرة أبو غزالة التي التحقت بحركة القوميين العرب عن العامل الذي دفعها للالتحاق بالحركة فتقول «**إيماني بأنه لا يمكن حياة بالمنطقة إلا بالوحدة، لأني أنا من النوع اللي درسنا الأدب العربي كأدب متكامل، ودرسنا التاريخ كتاريخ عربي، يعني نوع دراستنا هو اللي بيعطي النخوة والإحساس بالعروبة .. نقمتي على التدخلات الأجنبية والاستعمار هي اللي خلتني أؤمن أن الوحدة هي الطريق الصحيح**»(107).

ويلاحظ أن هذه الأحزاب كانت تفتقر لرؤية متكاملة خاصة موجهة للنساء، ولم تعط أهمية ملحوظة لمسألة تحرير المرأة، كما لم تطرح في برامجها العامة مطالب نسوية محددة باستثناء بعض الإشارات العامة وغير المحدودة التي كانت ترد أحيانا في بعض البرامج، ومع ذلك فإن هذه الإشارات لم تكن تنفذ على الصعيد العملي(108). فالحزب الشيوعي الأردني مثلا كان يتخوف من طرح مسألة تحرير المرأة على نطاق واسع مراعاة للتقاليد الاجتماعية السائدة، وخوفا من أن يفقد قاعدته الشعبية، وبالتالي فقد اقتصرت مهمات المرأة الحزبية على القيام بالدور التحريضي من خلال المشاركة في المظاهرات والمسيرات، وتوزيع المنشورات، وتقديم العرائض الاحتجاجية، ونقل الرسائل من مكان لآخر. وقام بعض أعضاء حركة القوميين العرب

بوضع المتفجرات في بعض الأماكن في الأردن ونقل السلاح وإخفائه[109]، مما عرض بعض النساء اللواتي كن في الحركة للاعتقال أمثال نهيل عويضة ووداد القيمري ونادية السلطي[110].

وبالرغم من تجربة المرأة في العمل السياسي داخل هذه الأحزاب، فإنها لم تسهم في البداية في تغيير الواقع الاجتماعي للمرأة فبقيت المرأة تعاني من التمييز، مما دفعها للعمل على إثبات وجودها وأهمية دورها في إطار الحزب أو الحركة، فبادرت العام 1962 بعقد مؤتمر نسائي في إطار حركة القوميين العرب، اشتركت فيه نساء من سورية والأردن والعراق ولبنان وفلسطين وذلك لبحث وضع المرأة في المجتمع العربي بشكل عام، وكان من أهم توصياته العمل على مساواة المرأة بالرجل داخل التنظيم في الوصول إلى مواقع قيادية والمشاركة في اتخاذ القرارات والمهمات النضالية، كما طالبت المؤتمرات بتشكيل لجنة مشتركة تهتم بدراسة المشاكل النسائية[111].

ومن جهة أخرى حاولت المرأة المقدسية الحصول على حقها في التصويت والترشيح للبرلمان الأردني، ففي اجتماع نسائي عقد بدار الآثار الفلسطينية بالقدس العام 1956، طالبت سميرة أبو غزالة بإعطاء المرأة الحق في الترشح للبرلمان، كما طالبت بتدريب ثلاثمائة فتاة مقدسية على استخدام السلاح، وقد سخرت بعض الصحف الأردنية آنذاك من هذا الاقتراح، وعبرت عن سخريتها بصورة كاريكاتيرية علقت عليها بعبارة «واحدة هاربة من البرلمان والبرلمان مفتوح وواحد يقول لها اخرجي يا سميرة من هنا كفاية بقى» وقد علقت سميرة على ذلك بقصيدة جاء فيها:

لا شيء غير مكائد حتى لكرسي البرلمان
لن يستقيم ليعرُب خير بلا روح الحسان
هُنَّ العزيمة أينعت تبغي مقارعة الزمان
ومن كل مهند متعطش يحيى الحنان[112]

كما شاركت المرأة المقدسية في المظاهرات القومية والوطنية استنكارا للأحلاف الاستعمارية التي حاولت الإمبريالية فرضها على المنطقة، وبخاصة حلف بغداد الذي كان يعد من أخطر المشاريع الاستعمارية في المنطقة، والذي هدفت بريطانيا منه إلى ربط دول الشرق الأوسط برباط عسكري تحت ذريعة مقاومة النفوذ الشيوعي في المنطقة[113]. وقامت المرأة المقدسية بالتحريض ضد العدوان الثلاثي على مصر العام 1956، فقد بعثت المرأة المقدسية للاتحاد النسائي المصري والحكومة المصرية مذكرات تضامن استنكرت فيها العدوان الثلاثي[114]، وقد استشهدت رجاء حسن أبو عماشه خلال قيامها بإنزال العلم البريطاني من على القنصلية البريطانية بحي الشيخ جراح بالقدس.

وبرزت المرأة المقدسية خلال فترة الخمسينيات في مجالي الإعلام والصحافة من خلال كتابة المقالات السياسية في بعض الصحف المحلية، والمشاركة في البرامج الإذاعية، وكان من

أبرز النساء اللواتي أسهمن في هذا المجال وداد الأيوبي وسميرة أبو غزالة، وقد نشرت وداد أول مقال لها بصحيفة الصريح وذلك بعد زيارتها لجرحى قرية نحالين[115] بمستشفى بيت جالا، ثم أخذت تكتب في صحيفة الجهاد مقالا أسبوعيا بعنوان «حديث الاثنين» وتوقعه باسم «بنت الحرم»[116].

كما أسهمت وداد الأيوبي أيضا في تطوير المسرح المدرسي وعرض المسرحيات الوطنية، لا سيما أنها كانت تعمل مديرة مدرسة بنات سلوان الإعدادية، ففي العام 1957 كتبت مسرحية بعنوان «القدس تنادي» وقد تمّ عرضها مرتين في مدينة عمان، إحداهما كانت بحضور الملك حسين بن طلال وزوجته الملكة دينا، وحضرها أيضا عدد من الشخصيات الرسمية الأردنية، وحازت المدرسة الكأس الأولى في المسرح المدرسي على مستوى الأردن[117].

ومن المسرحيات الأخرى التي كتبتها مسرحية بعنوان «يا ظلام السجن خيم» تناولت فيها مسألة اللاجئين الفلسطينيين، وقد عرضت على مسرح المدرسة العمرية بالقدس[118]. وعرضت طالبات مدرسة بنات سلوان أيضا مسرحية بعنوان «الأرض» وقد عرضت في عدد من مدارس القدس ورام الله، كما عرضت أيضا مسرحية أخرى بعنوان «الناصر» وهي من تأليف عزيز أباظة تناولت فيها كيف كان العرب في أوج مجدهم وعزتهم ثم أخذوا في التدهور، وتمّ عرض هذه المسرحية العام 1960 ثلاث مرات كانت إحداها في متنزه بلدية البيرة، وقد حضرتها المدارس الثانوية في رام الله وعدد من كبار الشخصيات الوطنية[119].

وكان للمرأة المقدسية حضور دولي عبر مشاركتها في العديد من وفود الجمعيات والأحزاب السياسية العربية التي شاركت في المؤتمرات الدولية لمناقشة القضايا الاجتماعية والنسائية والإنسانية، كالمؤتمر العالمي للمرأة الذي عقد في اليونان العام 1959 لبحث القضايا الاجتماعية، وقد شاركت فيه عصام عبدالهادي ونساء أخريات ضمن الوفد الأردني. كما شاركت كل من وديعة خرطبيل وصبا الفاهوم ضمن الوفد اللبناني في اجتماعات الجامعة الدولية للمرأة من أجل الحرية والسلام[120].

تأسيس الاتحاد العام للمرأة الفلسطينية

تشكيل الاتحاد

كان لتأسيس منظمة التحرير الفلسطينية العام 1964 أثر واضح على مسيرة الحركة النسائية الفلسطينية، ففي مطلع الستينيات من القرن الماضي اختمرت فكرة إيجاد تجمع نسائي فلسطيني موحد في أذهان عدد من النساء الفلسطينيات، وجاءت هذه المبادرة من قبل السيدة وديعة الخرطبيل رئيسة الاتحاد النسائي العربي الفلسطيني، حيث دعت لعقد اجتماع العام 1963 في بيروت حيث كانت تقيم، وحضرته ممثلات عن الاتحادات النسائية الفلسطينية في بعض الدول العربية من أجل توحيد الجهود لخدمة الهدف الواحد المتمثل في التحرير[121].

وخلال انعقاد المجلس الوطني الفلسطيني الأول بمدينة القدس العام 1964، شاركت المرأة الفلسطينية بشكل واضح، فقد حضرته مجموعة من النساء كان من بينهن زليخه الشهابي من القدس ويسرى اللبريري من غزة وسميرة عزام ووديعة الخرطبيل وسلوى شكري ناجيا وصبا الفاهوم من المقيمين في لبنان، وعايدة بامية من المقيمين في مصر، وفدوى طوقان من المقيمين في قطر، وسلمى الدجاني من المقيمين في ليبيا، والفنانه تمام الأكحل شموط عضو شرف[122]. وقد اسهمت هذه المشاركة في زيادة اهتمام هؤلاء النساء بضرورة إحياء فكرة إيجاد تجمع نسائي فلسطيني موحد، وكان للدكتور وليد القمحاوي المسؤول عن دائرة التنظيم الشعبي في منظمة التحرير الفلسطينية دور في تبني إحياء هذه الفكرة، بعد أن اتصل مع زليخة الشهابي رئيسة الاتحاد النسائي العربي في القدس وحثها على عقد مؤتمر نسائي عام في القدس، وقد رحبت الشهابي بذلك بتوجيه دعوة لممثلات الاتحادات النسائية في كل من نابلس وجنين وطولكرم وبيت جالا لعقد اجتماع في 20 فبراير 1965 بهدف وضع الترتيبات اللازمة لعقد مؤتمر عام يضم النساء الفلسطينيات في أماكن وجودهن المختلفة[123].

عقد الاجتماع في الموعد المحدد بمكتب الاتحاد النسائي العربي في القدس، وكان من أهم قراراته تشكيل لجنة تحضيرية كلفت بالعمل على عقد اجتماع في 18مارس 1965 بمقر الاتحاد النسائي العربي في القدس، للنظر في الترتيبات اللازمة لعقد مؤتمر عام للمرأة ينبثق عنه اتحاد عام للمرأة الفلسطينية. وقد تشكلت اللجنة التحضيرية من زليخة الشهابي والحاجة عندليب العمد، وفريدة أرشيد وحلوة جقمان ووديعة الخرطبيل ويسرى البريري وسميرة أبو غزالة، وسلمى الخضرا الجيوسي وليلى قليبو وسعادة الكيلاني[124]. وقد عقدت اللجنة التحضيرية أول اجتماع لها في الوعد المقرر وانتخبت زليخة الشهابي رئيسة للجنة التحضيرية العامة وسميرة أبو غزالة أمينة للسر، وتقرر أن تكون أهداف المؤتمر «توحيد التنظيمات النسائية الفلسطينية في اتحاد واحد يسمى الاتحاد العام للمرأة الفلسطينية، وحشد جميع طاقاتها وتعبئة إمكانياتها النضالية في مختلف المجالات والميادين، وتحديد دورها في معركة التحرير وذلك تمشيا مع القرار الذي اتخذه المجلس الوطني والذي ينص على اشتراك المرأة الفلسطينية في جميع مجالات العمل التنظيمي والنضالي على مختلف المستويات، ومساواتها بالرجل في جميع الحقوق والوجبات»[125].

كما تقرر في هذا الاجتماع أن يكون مكان انعقاد المؤتمر العام للمرأة في مدينة القدس خلال الفترة ما بين 15 - 21 يوليو 1965 بقاعة الغرفة التجارية، وبالفعل انعقد المؤتمر في المكان والزمان المحددين وحضره 139 مندوبة من الداخل والخارج يمثلن الاتحادات والجمعيات والروابط النسائية الفلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة والدول العربية، إضافة إلى شخصيات نسائية وطنية ذات فعالية فكرية وجهود اجتماعية، وقد حضر افتتاح

المؤتمر وصفي التل رئيس الوزراء الأردني وتوفيق حسن مندوبا عن الملك حسين وروحي الخطيب أمين القدس وأحمد الشقيري رئيس منظمة التحرير الفلسطينية.

وانتهى الاجتماع بانتخاب مجلس إداري من 21 عضوا[126]، وعقد أول اجتماع له في 21 يوليو بمقر منظمة التحرير الفلسطينية بحضور ممثلين عن دائرة التنظيم الشعبي[127]، وتمّ خلاله انتخاب أعضاء الهيئة التنفيذية للمؤتمر، وفازت بذلك كل من عصام عبدالهادي رئيسة وفريدة أرشيد نائبة للرئيسة وسميحة خليل أمينة للسر، وأمينة الحسيني سكرتيرة العلاقات الخارجية ونبيلة عويضة سكرتيرة العلاقات الداخلية وليديا الأعرج أمينة للصندوق. وبذلك تكون مدينة القدس قد حصلت على نصيب الأسد في الهيئة التنفيذية، أي النصف حيث تمثلت بالنساء المقدسيات الثلاث اللواتي كن أعضاء المجلس الإداري، وفي ذلك دلالة واضحة على أهمية القدس ومركزيتها في الحركة الوطنية الفلسطينية، علاوة على الدور الريادي للمرأة المقدسية.

وأعلن المجلس الإداري في هذا الاجتماع عن قيام الاتحاد العام للمرأة الفلسطينية كقاعدة من قواعد التنظيم الشعبي في منظمة التحرير الفلسطينية، وأن هذا الاتحاد هو الهيئة الوحيدة الشرعية التي تمثل النساء الفلسطينيات، وتنطق باسم المرأة الفلسطينية في جميع المجالات على الصعيدين العربي والدولي، وناشد المرأة الفلسطينية المسارعة إلى الانضمام للاتحاد لأخذ مكانها الطبيعي، ولتباشر القيام بواجبها من أجل تحرير فلسطين[128].

وهكذا تمكنت المرأة الفلسطينية من خلال هذا المؤتمر من الانطلاق إلى الساحة الدولية عبر مشاركتها في المؤتمرات والندوات، والعمل على تقوية العلاقة بين الاتحاد من جهة والاتحادات النسائية في العديد من دول العالم من جهة أخرى، فلفتت أنظار نساء العالم تجاه القضية الفلسطينية. وكان الاتحاد بمنزلة مظلة عامة لجميع النساء الفلسطينيات في الداخل والخارج، فعمل على صهر المرأة الفلسطينية في حركة المقاومة الوطنية الفلسطينية.

نشاطات الاتحاد العام

اهتم الاتحاد العام منذ تأسيسه بمتابعة المهام التي كانت تقوم بها الجمعيات الخيرية، كفتح دورات لمحو الأمية ودور الحضانة ورياض الأطفال، غير أن أهم الإنجازات كانت المشاركة في المؤتمرات العربية والعالمية كالمؤتمر السادس للاتحاد النسائي العربي الذي عقد في القاهرة في مطلع مايو العام 1966م، ومؤتمر الطفولة العالمي الذي عقد في مطلع أكتوبر من العام نفسه[129].

وبرز دور الاتحاد خلال أحداث قرية السموع[130]، عندما تعرضت للعدوان الإسرائيلي أواخر العام 1966، فقد قام الاتحاد بزيارة تضامنية للقرية في 15 نوفمبر 1966 وقدم مبلغ 200 دينار أردني كمساهمة رمزية لأسر ضحايا الاعتداء، وتحولت تلك الزيارة إلى مظاهرة تطالب الدول العربية بالرد على تلك الاعتداءات[131].

ووجهت مائة وأربع سيدات مقدسيات نداء للأمة العربية وحكامها، استصرخن فيه الشهامة العربية في الملوك والأمراء والرؤساء العرب للعمل على حقن الدماء وادخارها ليوم المعركة لاسترداد فلسطين، ودعون فيه الحكام العرب إلى نبذ الخلافات لأنها «منافذ الأعداء المتربصين، إنها المسارب للسم الزعاف إلى شراييننا، إنها الطعنات إلى صدورنا».

ومن المطالب التي تضمنها النداء:

1 - رفع منع التجول عن مدينة نابلس وإطلاق حرية مواطنيها.

2 - تسليح الخطوط الأمامية وتحصينها بشكل يضمن مجابهة العدوان.

3 - تعبئة جميع طاقات الشعب وحشدها لمواجهة الاحتمالات كافة.

4 - تطبيق التجنيد الإجباري.

5 - التعاون الكامل مع منظمة التحرير الفلسطينية وتمكينها من الاضطلاع بمسؤوليتها وفق مقررات مؤتمر القمة.

6 - عدم التعرض للفدائيين الفلسطينيين.

7 - الإفراج عن المعتقلين السياسيين والموقوفين بسبب حوادث السموع.

8 - التعاون مع الدول العربية طبقا لمقررات القيادة العربية الموحدة، بما في ذلك السماح لوحدات الجيوش العربية وجيش التحرير الفلسطيني بدخول الأردن للمرابطة فيه تعزيزا للقوات الأردنية المسلحة[132].

غير أن عمل الاتحاد في مدينة القدس لم يستمر لفترة طويلة، إذ سرعان ما قامت الحكومة الأردنية بإغلاقه، ففي 3 يناير العام 1967 تلقى الاتحاد أمرا من أنور الخطيب محافظ القدس يقضي بإغلاق مكتب الاتحاد، وحظر عليه القيام بأي نشاطات[133]. وبعد ذلك أوكلت اللجنة التنفيذية للاتحاد رئاسة الاتحاد لسميرة أبو غزالة، وافتتحت منظمة التحرير الفلسطينية مقرا للاتحاد في القاهرة، ثم أعيد تشكيله العام 1969 في الأردن بعد تنامي قوة الثورة الفلسطينية، واتخذ من عمان مقرا رئيسيا له بشكل مؤقت وأوكلت رئاسته إلى عصام عبدالهادي[134].

الخاتمة

يبدو واضحا من خلال ما سبق أن المرأة المقدسية لعبت دورا وطنيا مميزا في إنشاء الحركة النسائية الفلسطينية وتطورها، وقد شكلت الدور المركزي في الحركة النسائية لمختلف أنحاء فلسطين.

ويلاحظ أن السمة الأساسية لدور المرأة المقدسية خلال فترة الانتداب البريطاني اختلافه عن الفترة التي تلت حرب العام 1948 والفترة التي تلت تأسيس منظمة التحرير الفلسطينية العام 1964، فقد كان الهم الأساسي للمرأة خلال فترة الانتداب وطنيا خالصا، ولم تلتفت

لتحقيق أي مطالب خاصة تتعلق بتحرير المرأة، فكانت المسألة الوطنية هي الأهم في نضال المرأة.

واتضح أيضا أن الصفة الغالبة للنساء اللواتي ساهمن في العمل السياسي والاجتماعي خلال فترة الانتداب البريطاني كانت سياسية بالدرجة الرئيسية فقد كان معظمهن من قريبات قادة الحركة الوطنية الفلسطينية وبخاصة زوجاتهم. وبالتالي فقد انعكس الصراع الداخلي في الحركة الوطنية على الاتحادات والجمعيات النسائية.

كان لتأسيس منظمة التحرير الفلسطينية العام 1964، أثر واضح في إعادة إحياء الدور السياسي للمرأة المقدسية، فقد شكل للاتحاد العام للمرأة الفلسطينية مظلة عامة للمرأة الفلسطينية في جميع أماكن وجودها وعزز من دورها النضالي عبر وجودها في مختلف مؤسسات منظمة التحرير الفلسطينية.

الهوامش

1 ألفت محمود فؤاد، «الدور الوطني والاجتماعي للمرأة الفلسطينية»، مجلة صامد الاقتصادي، العدد 62، 1968م، ص 111.

2 بيان نويهض الحوت، «المرأة الفلسطينية في العشرينيات»، ضمن كتاب: جين سعيد المقدسي وأخريات، النساء العربيات في العشرينيات حضورا وهوية، بيروت، د.ن، 2001م، ص 317.

3 فؤاد، الدور الوطني، ص 112. ماتيل مغنم، «الجذور التاريخية لنضال المرأة الفلسطينية في الحركة الوطنية منذ الانتداب وحتى 1936، مجلة صامد الاقتصادي، العدد 62، 1986، ص 8.

4 مغنم، الجذور التاريخية، ص 8. نبيل علقم، تاريخ نضال المرأة الفلسطينية، البيرة، جمعية إنعاش الأسرة، ص 81.

5 فؤاد، الدور الوطني، ص 111.

6 معتصم الناصر، الحياة السياسية العربية في القدس 1918 - 1934، القدس، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، 2009، ص 100.

7 إلين فليشمان، التنظيمات النسائية في القدس في فترة الانتداب البريطاني، القدس، الجمعية الفلسطينية الأكاديمية للشؤون الدولية، 1995، ص 18.

8 الناصر، الحياة السياسية، ص 101.

9 المرجع نفسه، الصفحة ذاتها.

10 كانت حصيلة ثورة البراق مقتل 133 يهوديا وجرح نحو 339، أما من الجانب العربي فقد بلغ عدد الضحايا 116، بينما بلغ عدد الجرحى 232 جريحا. كامل محمود خلة، فلسطين والانتداب البريطاني 1922 - 1932، طرابلس، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، 1982، ص 457.

11 أرسلت الحكومة البريطانية إلى فلسطين عند بداية الثورة سفينة حربية وحاملة طائرات وطرادا ومدمرتين. كما أرسلت أيضا قوات من البوليس البريطاني، واشتركت قوات حدود شرق الأردن، وذكر وكيل وزارة الطيران البريطانية أن طائرات سلاح الجو الملكي نقلت الجنود من مصر إلى فلسطين، وأنها وقفت في وجه الهجمات العربية ضد المستوطنات اليهودية المنعزلة قبل وصول القوات العسكرية. انظر: خلة، فلسطين والانتداب البريطاني، ص 456.

12 بيان نويهض الحوت، القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين 1917 - 1948، بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1986، ص 222.

13 إصلاح جاد، «تطور الدور السياسي للمرأة الفلسطينية حتى الانتفاضة»، ضمن عدد خاص بعنوان شؤون المرأة، إعداد سحر خليفة وريتا جقمان واصلاح جاد، نابلس، جمعية شؤون المرأة، 1991، ص 99.

14 أكرم زعيتر، بواكير النضال - من مذكرات أكرم زعيتر 1909 - 1935، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1994، ج1، ص 56.

15 زعيتر، بواكير النضال، ص 56. خلة، فلسطين والانتداب، ص 369. مغنم، الجذور التاريخية، ص 13.

16 الحوت، القيادات والمؤسسات السياسية، 224.

17 مغنم، الجذور التاريخية، ص 14.

18 زعيتر، بواكير النضال، ص 54.

19 فليشمان، التنظيمات النسائية، ص 24. سميح شبيب، الأصول الاقتصادية والاجتماعية للحركات السياسية في فلسطين 1920 - 1948، عكا، مؤسسة الأسوار، 1983، ص 77.

20 فليشمان، التنظيمات النسائية، ص 25.
21 المرجع نفسه، ص 26.
22 خلة، فلسطين والانتداب البريطاني، ص 385. الحوت، القيادات والمؤسسات السياسية، ص 224. مغنم، الجذور التاريخية، ص 15.
23 الحوت، القيادات والمؤسسات السياسية، ص 224.
24 تقرير اللجنة للتحقيق عن اضطرابات فلسطين التي وقعت في شهر أغسطس سنة 1929 (لجنة شو)، القدس: مطبعة دير الروم، 1930، ص 219.
25 تقرير اللجنة الدولية المقدم إلى عصبة الأمم العام 1930، بيروت، منشورات مؤسسة الدراسات الفلسطينية 1968، ص 11.
26 المصدر نفسه، ص 114 - 117.
27 **حارة المغاربة**: وتقع في الجزء الجنوبي الغربي للحرم القدسي وتبلغ مساحتها نحو 16 دونما، وهي على شكل مربع يتخلله طريق ضيق مبلط ويربط الحارة بالقدس القديمة حي باب السلسلة، وجميع منازلها ملاصق بعضها للبعض وهي أبنية قديمة تشتهر بغرفها الصغيرة وجدرانها السميكة. انظر: عبدالهادي التازي، حي المغاربة، ص 16 - 17. محمد بحيص وناصر الرفاعي، المغاربة وحائط البراق الشريف، رام الله، منشورات الأرشيف الوطني الفلسطيني، 2008، ص 13.
28 تقرير اللجنة الدولية، ص 106.
29 المصدر نفسه، ص 109.
30 زعيتر، بواكير النضال، ص 276.
31 الحوت، القيادات والمؤسسات السياسية، ص 232.
32 بيان نويهض الحوت، وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية 1918 - 1939 من أوراق أكرم زعيتر، بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1979، ص 356. زعيتر، بواكير النضال ص 288.
33 أما بقية الأعضاء فكان منهن شاهندة دزدار أمينة للصندوق ومتيل مغنم سكرتيرة عامة للجنة وزليخه الشهابي وخديجة الحسيني وفاطمة الحسيني وطرب عبد الهادي وزاهية النشاشيبي وكاترين ديب وميليا السكاكيني ومحفوظة النابلسي. متيل مغنم، الجذور التاريخية، ص 15.
34 المصدر نفسه، الصفحة ذاتها.
35 مغنم، الجذور التاريخية، ص 16. غازي الخليلي، المرأة الفلسطينية والثورة - دراسة اجتماعية ميدانية تحليلية، بيروت، د.ن، 1977، ص 79.
36 مغنم، الجذور التاريخية، ص 17.
37 الخليلي، المرأة الفلسطينية، ص 79.
38 مغنم، الجذور التاريخية، ص 21. الناصر، الحياة السياسية، ص 105.
39 مغنم، الجذور التاريخية، ص 18.
40 الحوت، القيادات والمؤسسات السياسية، ص 235 - 236.
41 مغنم، الجذور التاريخية، ص 17.
42 الناصر، الحياة السياسية، ص 105.
43 مغنم، الجذور التاريخية، ص 21.

44 مغنم، الجذور التاريخية، ص 15. فليشمان، التنظيمات النسائية، ص 27.

45 مغنم، الجذور التاريخية، ص 18.

46 خلة، فلسطين والانتداب البريطاني، ص 54.

47 المرجع نفسه، ص 534.

48 مغنم، الجذور التاريخية، ص 23 – 24. فيحاء عبد الهادي، أدوار المرأة الفلسطينية في الثلاثينيات، رام الله، مركز المرأة الفلسطينية للأبحاث والتوثيق، ص 21.

49 مغنم، الجذور التاريخية، ص 24. فيحاء، أدوار المرأة في الثلاثينيات، ص 21.

50 الخليلي، المرأة الفلسطينية، ص 79. فليشمان، التنظيمات النسائية، ص 32. عبد الهادي، أدوار المرأة في الثلاثينيات، ص 53.

51 الحوت، القيادات والمؤسسات السياسية، ص 342.

52 علقم، تاريخ، ص 88. عبد الهادي، أدوار المرأة في الثلاثينيات، ص 36.

53 عبد الهادي، أدوار المرأة في الثلاثينيات، ص 62.

54 فؤاد، الدور الوطني، ص 113. عبد الهادي، أدوار المرأة في الثلاثينيات، ص 32.

55 فليشمان، التنظيمات النسائية، ص 32.

56 المرجع نفسه، ص 30.

57 الحوت، وثائق الحركة الوطنية، ص.439

58 آمال الخزامي، «الحركة النسائية المصرية وقضية فلسطين 1919 – 1948»، مجلة صامد الاقتصادي، العدد 128، ص 72.

59 مغنم، الجذور التاريخية، ص 17. فؤاد، الدور الوطني، ص 113.

60 الحوت، وثائق الحركة الوطنية، ص 483.

61 خيرية قاسمية، «سورية والقضية الفلسطينية في فترة ما بين الحربين 1918 – 1939»، ضمن كتاب: هشام نشابه (محررا)، دراسات فلسطينية مجموعة من الأبحاث وضعت تكريما للدكتور قسطنطين زريق، بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1988، ص 88.

62 الخزامي، الحركة النسائية، ص 71.

63 المرجع نفسه، ص 71.

64 **وهؤلاء النساء هن**: طرب عبد الهادي، وحيدة الخالدي، كاترين ديب، ماتيل مغنم، ساذج نصار، سعاد الحسيني، ملك الشوا، كيتي أنطونيوس، لميا صلاح، مسرة البديري، قرينة النشاشيبي، فاطمة المهتدي، عائشة الدجاني، صبيحة التميمي النابلسي، رفقة الشهابي التاجي، ماري لويز أبو الشعر، ريا القاسك، سلمى رجائي الحسيني، سميحة الخالدي، زليخة الشهابي، شاهندة دزدار، ميمنة القسام، فاطمة النشاشيبي، زهية النشاشيبي، مريم هاشم، بدرة كنعان، نبيهة ناصر. الحوت، القيادات والمؤسسات السياسية، ص 898.

65 المرجع نفسه، ص 386.

66 فليشمان، التنظيمات النسائية، ص 32.

67 عبد الهادي، أدوار المرأة في الثلاثينيات، ص 76.

68 الخزامي، الحركة النسائية، ص 72.

69 تضمن تقرير اللجنة الملكية تقسيم فلسطين إلى ثلاث مناطق: دولة عربية، ودولة يهودية، ومنطقة انتدابية تشرف عليها الحكومة البريطانية وتضم الأماكن المقدسة في فلسطين وتشتمل على مدن القدس وبيت لحم والناصرة. واشتملت الدولة اليهودية على المناطق التي تمتد من حدود لبنان حتى المجدل عبر مرج ابن عامر وبيسان والجليل. أما الدولة العربية فقد اشتملت على يافا وغزة وبئر السبع والنقب والخليل ونابلس وأجزاء من مناطق طولكرم وجنين وبيسان. لمزيد من التفاصيل انظر: تقرير اللجنة الملكية لفلسطين 1937، القدس، 1937، ص 492 و500.

70 الموسوعة الفلسطينية، القسم العام، أربع مجلدات، دمشق، هيئة الموسوعة الفلسطينية، 1996، م 4، ص 479.

71 فؤاد، الدور الوطني، ص 115.

72 علي محافظة، الفكر السياسي في فلسطين 1918 - 1948، عمان، مركز الكتب الأردني، ص 544. مناويل حاساسيان، الصراع السياسي داخل الحركة الوطنية الفلسطينية ما بين 1919 - 1939، القدس، منشورات البيادر، 1987، ص 57 و58. علي سعود عطية، الحزب العربي الفلسطيني وحزب الدفاع الوطني 1934 - 1937، القدس، جمعية الدراسات العربية، 1985، ص 40 و41.

73 محافظة، الفكر السياسي، ص 544. عطية، الحزب العربي، ص 44. الحوت القيادات والمؤسسات السياسية، ص 204. حاساسيان، الصراع الداخلي، ص 68 و70.

74 جميل هلال، تكوين النخبة الفلسطينية منذ نشوء الحركة الوطنية الفلسطينية إلى ما بعد قيام السلطة الوطنية، رام الله المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديموقراطية، 2002، ص 20. فليشمان، التنظيمات النسائية، ص 36.

75 هلال، تكوين النخبة، ص 20. فليشمان، التنظيمات النسائية، ص 33.

76 فليشمان، التنظيمات النسائية، ص 33.

77 محمود زايد، «الاتحادات والجمعيات والروابط والمطابع والأندية ومؤسسات البحوث الفلسطينية ومراكزها»، الموسوعة الفلسطينية، الدراسات الخاصة، 6 مجلدات، بيروت، هيئة الموسوعة الفلسطينية، 1990، م 3، ص 193.

78 عبد الهادي، أدوار المرأة في الثلاثينيات، ص 39.

79 فيحاء عبد الهادي، أدوار المرأة الفلسطينية في الأربعينيات، رام الله، مركز المرأة الفلسطينية للأبحاث والتوثيق، ص 17.

80 زايد، الاتحادات والجمعيات، ص 193.

81 عبد الهادي، أدوار المرأة في الأربعينيات، ص 17.

82 المرجع نفسه، ص 153.

83 المرجع نفسه، ص 152.

84 واصف عبوشي، فلسطين قبل الضياع: ترجمة جديدة في المصادر البريطانية، ترجمة علي الجرباوي، لندن، دار رياض الريس للكتب والنشر، د.ت، ص 328.

85 الموسوعة الفلسطينية، م2، ص213.

86 عبوشي، فلسطين، ص 372.

87 فؤاد، الدور الوطني، ص 115. علقم، تاريخ المرأة، ص 93.

88 عبد الهادي، أدوار المرأة في الأربعينيات، ص 294.

89 المرجع نفسه، ص 84.

90 ماريا هولت، النساء في فلسطين صراعات قديمة وحقائق جديدة، القدس، الجمعية الفلسطينية الأكاديمية للشؤون الدولية، 1996، ص 18.

91 **قرية دير ياسين**: وتقع غربي القدس على بقعة جبلية ترتفع نحو 770م عن سطح البحر، وتعد من القرى الغنية بالآثار فهي تحتوي على أنقاض أبنية معقودة وجدران وصهاريج ومدافن وغيرها. وقد دمرها اليهود العام 1948. الموسوعة الفلسطينية، م 2، ص 432.

92 روز ماري صايغ، الفلاحون الفلسطينيون من الاقتلاع إلى الثورة، ترجمة خالد عايد، بيروت، مؤسسة الأبحاث العربية، 1980، ص 94.

93 المرجع نفسه، الصفحة ذاتها.

94 صالح مسعود بو يصير، شعب فلسطين خلال نصف قرن، بيروت، دار الفتح للطباعة والنشر، 1970، ص 451.

95 علقم، تاريخ المرأة، ص 99.

96 خديجة أبو علي، مقدمات حول واقع المرأة وتجربتها في الثورة الفلسطينية، بيروت، د.ن، 1974، ص 36. فؤاد، الدور الوطني، ص 116.

97 بو يصير، جهاد شعب فلسطين، ص 451.

98 عبد الهادي، أدوار المرأة في الأربعينيات، ص 153.

99 المرجع نفسه، ص 149.

100 زهيرة كمال، المرأة واتخاذ القرارات في فلسطين، البيرة، د.ن، د.ت، ص18. إصلاح جاد، المرأة والسياسة، جامعة بيرزيت، معهد دراسات المرأة، 2000، ص13.

101 علقم، تاريخ المرأة، ص 133.

102 المرجع نفسه، ص133. اتحاد الجمعيات الخيرية، تقرير موجز عن أعمال بعض الجمعيات الخيرية في محافظة القدس العام 1966، القدس، د.ن، ص 48.

103 اتحاد الجمعيات الخيرية، ص 7 و8.

104 علقم، تاريخ المرأة، ص 133.

105 المرجع نفسه، ص 131.

106 الخليلي، المرأة الفلسطينية، ص 105.

107 عبد الهادي، أدوار المرأة في الأربعينيات، ص 32.

108 الخليلي، المرأة الفلسطينية، ص 102. جاد، المرأة والسياسة، ص 21.

109 الخليلي، المرأة الفلسطينية، ص 103.

110 عبد الهادي، أدوار المرأة في الأربعينيات، ص 363.

111 جاد، المرأة والسياسة، ص 21.

112 عبد الهادي، أدوار المرأة في الأربعينيات، ص 298.

113 فؤاد، الدور الوطني، ص 116. إبراهيم إبراش، البعد القومي للقضية الفلسطينية، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 1987، ص 99.

114 عبد الهادي، أدوار المرأة في الأربعينيات، ص 361.

115 **قرية نحالين**: تقع على بعد نحو 20 كم عن طريق بيت لحم و40 كم عن الخلي. الموسوعة الفلسطينية،

القسم العام، م 3، ص 382. قسطندي نقولا أبو حمود، معجم المواقع الجغرافية في فلسطين، القدس، جمعية الدراسات العربية، 1984، ص 200.

116 عبد الهادي، أدوار المرأة في الأربعينيات، ص 31.

117 المرجع نفسه، ص 277.

118 المرجع نفسه، الصفحة ذاتها.

119 المرجع نفسه، ص 278 - 279.

120 خديجة الحباشنة أبو علي، «الدور السياسي للمرأة الفلسطينية على الصعيد الدولي»، مجلة صامد الاقتصادي، العدد 62، 1986، ص 96.

121 من وثائق المؤتمر الأول للاتحاد العام للمرأة الفلسطينية القدس 20 - 1965/7/15، مجلة صامد الاقتصادي، العدد 62، 1986، ص 162.

122 الخليلي، المرأة الفلسطينية، ص 114. الحوت، المرأة الفلسطينية ص 341.

123 من وثائق المؤتمر الأول، 162.

124 عبد الهادي، أدوار المرأة في الأربعينيات، ص 367.

125 من وثائق المؤتمر الأول، ص 163.

126 **وهؤلاء الأعضاء هن**: أمينة الحسيني ونهيل عويضة وليديا الأعرج من القدس، عصام عبد الهادي من نابلس، يسرى شاور من الخليل، مديحة أبو ستة ونبيلة عبد الهادي ورمزية الخطيب وملك الترزي من غزة، سميحة خليل من رام الله، فريدة أرشيد من جنين. أما من الخارج فكانت صبا الفاهوم ووديعة خرطبيل (بيروت)، فتية قدورة وسعادة الكيلاني (دمشق)، تحف الغصين (طرابلس)، نعمت العلمي (قطر)، سميرة السقا (الجزائر)، سميرة أبو غزالة (القاهرة)، زينب سقا الله (الكويت)، سائدة الأسمر (بغداد). انظر: من وثائق المؤتمر الأول، ص 172.

127 وهم: أحمد صدقي الدجاني وفيصل الحسيني وأمينة العيسوي وأحمد سروري نائب رئيس منظمة التحرير الفلسطينية.

128 من وثائق المؤتمر الأول، ص 173. فؤاد، الدور الوطني، ص 117.

129 علقم، تاريخ المرأة، ص 140.

130 قرية السموع: وتقع على بعد 14كم جنوب غربي مدينة الخليل وترتفع نحو 730م عن سطح البحر. الموسوعة الفلسطينية، القسم العام، م2، ص 590. أبو حمود، معجم المواقع، ص 112.

131 شريف كناعنة وعبد اللطيف البرغوثي، مناضلة من فلسطين - دراسة في حياة ونضال سميحة سلامة خليل، البيرة، جمعية إنعاش الأسرة، 1992، ص 176.

132 علقم، تاريخ المرأة، ص 142.

133 كناعنة، مناضلة من فلسطين، ص 176.

134 زايد، الاتحادات والجمعيات، ص 203.

عالم الفكر
العدد 4 المجلد 38 أبريل - يونيو 2010

القدس في قرارات الشرعية الدولية

د. فاروق صيتان الشناق (*)

مقدمة:

ابتداء لا بد من التأكيد على أن موضوع هذا البحث، «القدس في قرارات الشرعية الدولية»، ذو طبيعة قانونية وسياسية معا، وحرصا على ألا يأتي البحث في بعض أجزائه مكررا لموضوعات البحوث الأخرى وخاصة ما يتعلق منها بمكانة وأبعاد القدس التاريخية والدينية لدى أتباع الرسالات السماوية: الإسلام والمسيحية واليهودية فإن الباحث سيكتفي بالتطرق إلى تلك المكانة والأبعاد بالقدر الذي تستوجبه طبيعة البحث.

بمجرد أن يقع النظر أو يطرق المسامع لفظ القدس حتى يمر أمام ناظريك شريط وثائقي لتاريخ مدينة ليست كسائر المدن، شريط يؤرخ لنشأتها الكنعانية اليبوسية العربية، والأقوام التي تعاقبت عليها، والاحتلالات التي رزحت تحت نيرها وأخطرها الاستعمار الاستيطاني الإحلالي اليهودي الصهيوني حيث زالت جميعا باستثناء الأخير الذي أنشب مخالبه بها ولا يزال جاثما على صدرها، لكنه حتما إلى زوال حينما تسترجع الأمة إرادتها وتستجمع عناصر قوتها الكامنة كما زال غيرها من الاحتلالات. وظلت المدينة المقدسة عصية على أعدائها متمسكة بعروبتها وقدسيتها الإسلامية تماما كطائر الفينيق في الأسطورة الإغريقية الذي لا يكاد يظن المرء أنه قد فارق الحياة حتى ينبري له من بين رماد الموت، ستبقى القدس معلنة تمردها على الفناء والاحتلال والاحتواء منشدة بضاد عروبتها انتصار الحق على الباطل، والحياة على الموت، والعروبة والإسلام على كل ضروب الاحتلالات وجيوش الغزاة، صادحة بأعلى صوتها: الحياة لي ولأمتي، والموت والفناء لأعدائنا.

(*) مدير الدراسات في اللجنة الملكية لشؤون القدس وأستاذ العلوم السياسية غير المتفرغ في جامعة اليرموك والجامعة العربية المفتوحة.

أجل تتراءى للمرء صور متقابلة متضادة متحاربة طاردة وناسخة بعضها لبعض، تتراءى للمرء صور الحق وصور الباطل، صور الاحتلال وصور التحرير، صور الدمار والتخريب، وصور البناء والإعمار، صور الإبادة، وصور الإصرار على انتزاع الحياة من خراطيم الغزاة والمستعمرين، صور الظلم والقهر والاستبعاد وصور العدل، صور اندثار الغزاة والمستعمرين، وديمومة أصحاب الحق والأرض، صور العنف والقوة المتبادلة.

شريط وثائقي يذكّر بحقائق ومعطيات تاريخية لا مراء فيها، وأبرزها:

- أن القدس مدينة كنعانية يبوسية عربية عريقة النشأة، قد بناها اليبوسيون العرب وهم فخذ من كنعان وعمروها من (3000ق.م - 997ق.م) أي ما يزيد على ألفي عام، وهو ما يقر به محتلوها اليوم الذين يزعمون نزولهم بها في الألفية الأولى قبل الميلاد.

- يذكّر بأنبياء الله الصالحين وأولهم سيدنا إبراهيم عليه السلام نبي الله وخليله وأبو الأنبياء جميعا، وبسيدينا النبيين الملكين داوود وسليمان عليهما السلام وبعدهم رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم، إذ يرى بعض المؤرخين المختصين بشؤون القدس أن سيدنا داوود قد اتخذ من القدس عاصمة لملكه في الفترة من (997ق.م - 963ق.م) وخلفه في حكمها بعده ابنه الملك سليمان في الفترة من (963 ق.م - 923ق.م)، في حين يرى فريق آخر من المؤرخين أنهما لم يدخلا فلسطين أبدا[1]. وسواء كان أصحاب الرأي الأول أو الرأي الثاني هم المحقين، فإن ذلك لا يغير في الحقيقة الربانية أن سيدنا محمدا صلوات الله وسلامه عليه هو وارث الأنبياء جميعا، فهم جميعا مسلمون بمعنى الانقياد إلى الله بدليل قوله سبحانه وتعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلاَ نَصْرَانِيّاً وَلَكِن كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ. إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [2]. وقوله جل جلاله: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [3]، وقوله جلت قدرته: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاَكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [4].

- يذكّر بالحكم البابلي من (586ق.م - 538ق.م).
- بالاحتلال الفارسي الذي امتد من (538 ق.م - 332ق.م).
- بالاحتلال اليوناني في الفترة من (332 ق.م - 63ق.م).
- بالاحتلال الروماني البيزنطي الممتد من (63 ق.م - 636م).
- بالحروب الصليبية والاحتلال الفرنجي الممتد من (1099م - 1187م)[5].
- بخيانة يهودا الاسخريوطي المعروف لدى العامة بـ «يوضاس».

- بتوصيات لجنة كامبل بنرمان رئيس وزراء بريطانيا العام 1907م وأخطرها إقامة كيان غريب في قلب الوطن العربي في فلسطين يكون صديقا دائما لبريطانيا العظمى وعدوا لدودا أبديا للعرب، حائلا دون وحدتهم التي تتوافر لها جميع مقوماتها اللغوية والجغرافية والتاريخية والدينية والمصلحية وقابلية اهلها للتعلم، بما يجنب بريطانيا طلقة الرحمة التي لن تأتيها وفقا لتقرير تلك اللجنة التي ضمت كبار المؤرخين والسياسيين والاقتصاديين من دولة التاج البريطاني في المركز وفيما وراء البحار وظلت مواظبة على عملها طوال سبعة شهور، إلا من تلك المنطقة الممتدة بين البحر الابيض المتوسط والمحيط الأطلسي في قارتي آسيا وأفريقيا[6].

- باتفاقية سايكس - بيكو في العام 1916م، فوعد بلفور في 2 نوفمبر 1917م فاحتلال بريطانيا لفلسطين في العام 1917م، فصك الانتداب العام 1922 الذي وضعت فلسطين بموجبه تحت الانتداب البريطاني تمهيدا لخلق الظروف الكفيلة باستتبات الكيان الصهيوني في المنطقة التي تتوقع أن تأتيها «طلقة الرحمة» منها، فقرار الجمعية العامة بتقسيم فلسطين رقم 2/181 في 29 نوفمبر 1947 إلى دولتين عربية وأخرى يهودية وأن يكون للقدس كيان خاص، أي تدويلها.

- باحتلال اليهود الصهاينة 78% من مجموع مساحة فلسطين في الحرب اليهودية الصهيونية الاستعمارية في العام 1948م، أي ما يزيد على المساحة المقررة للدولة اليهودية وفقا لتوصية الجمعية العامة بـ 22% من مساحة فلسطين يشكل نصف المساحة المقررة للدولة الفلسطينية، مضافا إلى ذلك احتلالها للشطر الغربي من القدس خلافا لقرار الجمعية العامة الذي قضى بأن يكون للقدس بشطريها كيان خاص.

- باستكمال احتلال الكيان الصهيوني لكامل فلسطين ويدخل في ذلك الشطر الشرقي للقدس بحربه العدوانية التوسعية في 5 يونيو 1967 وما تبعه من إجراءات تهويدية تشريعية عنصرية أخطرها «قانون أملاك الغائبين»، و«قانون حق العودة» وبأخرى عملية وأخطرها الاستيطان الذي قطّع أوصال الضفة الغربية، وجدار الفصل العنصري الذي يتعرج كالأفعى السامة في أراضيها ويحيط بالقدس إحاطة السوار بالمعصم ليحولا (الاستيطان والجدار) دون إقامة دولة فلسطينية قابلة للحياة وعاصمتها القدس، بمعنى آخر ليحولا دون تمكين الشعب العربي الفلسطيني من حقه في تقرير مصيره وفقا للمادة الأولى من ميثاق الأمم المتحدة وهي «حجة على الكافة» ذات طبيعة آمرة. ويدخل في إطار سياسة التهويد عمليات التهجير القسري للسكان، وتغيير الطبيعة الديموغرافية للقدس خاصة وفلسطين عامة وهدم البيوت وتجريف الأراضي الزراعية، واقتلاع الشجر مخالفة بذلك صراحة نص وروح اتفاقية جنيف الرابعة في العام 1949م التي تحظر كل ذلك ولا تجيز للدولة المحتلة إجراء أي تغيير لا يستلزمه أمن قواتها، وهو ما لا تواجهه قوات الاحتلال الإسرائيلية.

وفي المقابل يذكّرنا هذا الشريط الوثائقي بصور البطولة والقوة وملاحم التحرير العربية الإسلامية للمدينة المقدسة التي كرمها الله سبحانه وتعالى بالاسراء بنبينا ورسولنا محمد صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام في مكة المكرمة إلى المسجد الأقصى في القدس، وصلاته بالأنبياء إماما، والعروج به من هناك إلى السماوات العلى، أجل يذكرنا بذلك الرباط المقدس بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى الذي بارك الله حوله بدليل قوله سبحانه وتعالى في مطلع سورة الإسراء بعد بسم الله الرحمن الرحيم ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [7].

ـ بالقدس قبلة المسلمين الأولى حاضنة الأقصى المبارك وقبة الصخرة المشرفة، وهو أحد المساجد الثلاثة التي لا تُشدّ الرحال إلا إليها وفقا للحديث الشريف: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى» الذي بنته الملائكة وفقا لأرجح الروايات بعد أربعين عاما من بنائهم للمسجد الحرام، فقد روى أبو ذر الغفاري رضي الله عنه أنه سأل الرسول صلى الله عليه وسلم: «أي مسجد وضع في الأرض أولا؟ قال: المسجد الحرام. قلت ثم أي؟ قال: المسجد الأقصى. قلت: كم بينهما؟ قال أربعون سنة».

ـ بأسمائها اليبوسية العربية الإسلامية والرومانية: يبوس، أورسالم، مدينة الإله سالم، أورشليم، بيت المقدس، كما جاء في العهدة العمرية، والقدس وهو مشتق من اسم الله عز وجل «القدوس» بمعنى البركة والتنزيه، فالأرض المشتق اسمها على هذا النحو، الموصوفة بالبركة والطهارة لها خصوصية وقدسية وحظوة عند الله وأنبيائه ورسله والمسلمين.

ـ بالفتح العربي الإسلامي للقدس، وبالعهدة العمرية التي أعطاها الخليفة الراشدي الثاني عمر بن الخطاب إلى أهل (إيلياء) بيت المقدس في الجابية نزولا عند رغبة قادته ومكاتبتهم له، أبو عبيدة عامر بن الجراح القائد العام لجيوش الفتح الإسلامي، وعمرو بن العاص القائد الميداني لفلسطين، مع اختلاف الروايات بشأن الذي كاتبه للقدوم إلى القدس: أهو أبو عبيدة بن الجراح أم عمرو بن العاص رضي الله عنهما، أو كلاهما[8]. الوثيقة التاريخية التي أعطاها إلى أهل إيلياء والتي تعتبر من أهم الوثائق التاريخية ذات الصلة بالقدس، إن لم تكن الأهم لدرجة أن هناك من يعتبرها وثيقة دولية وفقا لآثارها القانونية، إذ لا يزال العالم المسيحي يستند إليها في إثبات حقوق رعاياه؛ فقد حفظت لهم حقوقهم في حرية العقيدة والعبادة والاحتفاظ بدور عبادتهم، وأمنتهم على أموالهم من ناحية، ومنحتهم حق البقاء أو المغادرة من ناحية ثانية، وكفلت لهم عدم السماح لليهود بسكنى القدس لما عرف عنهم من خديعة ومكر وعداوة للغير من ناحية أخرى. ونظرا إلى الأهمية التاريخية لهذه الوثيقة نورد تاليا نصها:

«بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى عبدالله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان، أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها وبريئتها وسائر ملتها، أنه

لا تُسكن كنائسهم ولا تُهدم، ولا ينتقص منها ولا من حيزها، ولا من صليبهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود، وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن، وعليهم أن يخرجوا منها الروم اللصوت[9]، فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ومن أقام منهم فهو آمن، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلي بيعهم وصلبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حق يبلغوا مأمنهم، ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان[10]، فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن شاء سار مع الروم، ومن شاء رجع إلى أهله فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم. وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء، وذمة المؤمنين، إذا أعطوا ما عليهم من الجزية. شهد على ذلك خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعبدالرحمن بن عوف، ومعاوية بن أبي سفيان وكتب وحضر سنة خمس عشرة...»[11].

ـ يذكّرنا بقادة الفتح الإسلامي العظام الصحابة الأجلاء: أبو عبيدة عامر بن الجراح، وخالد بن الوليد سيف الله المسلول، وعمرو بن العاص، وشرحبيل بن حسنة، وعبدالرحمن بن عوف، ومعاوية بن أبي سفيان.

ـ بالخليفة عبدالملك بن مروان باني المسجد الأقصى (المسجد المسقوف ـ المسجد القبلي)، وبابنه الوليد بن عبدالملك الذي استكمل بناء قبة الصخرة المشرفة الذي كان قد بدأه أبوه عبدالملك بن مروان، وبالخلافتين العباسية والفاطمية وبجيش علماء الدين الأفاضل والولاة الصالحين الذين رحلوا إليها وأقاموا ودفنوا فيها.

ـ بتحرير القدس على يد القائد صلاح الدين الأيوبي بعد توحيده مصر وبلاد الشام والعراق، في العام 1187م، وبهزيمته للجيوش الصليبية في معركة حطين التي كانت مقدمة لفتح بيت المقدس.

ـ بالخلافة العثمانية وبالسلطان سليمان القانوني وسور القدس الذي عرف باسمه.

ـ ويذكرنا بسيدنا عيسى عليه السلام وتآمر اليهود عليه وبكنيستي المهد والقيامة، وغيرهما كثير من المقدسات المسيحية.

وبين هذه الصورة وتلك والملمح الأساسي لكلتيهما وهو القوة، يطل علينا سيل قرارات الشرعية الدولية ذات الصلة بالقضية الفلسطينية والقدس، قرارات الأمم المتحدة، وتحديدا تلك الصادرة عن الجمعية العامة ومجلس الأمن، التي جاءت أيضا لتعكس موازين القوى لأطراف الصراع الإسرائيلي ـ العربي التي ظلت عبر مراحل الصراع المختلفة مختلة كليا لصالح الكيان الصهيوني بسبب اعتماده نشأة وسيرورة وديمومة على حليف دولي مقرر لإرادة المجتمع الدولي. فمن بريطانيا العظمى وفرنسا في مرحلة النشوء إلى الولايات المتحدة الأمريكية في مرحلة التمدد والحروب العدوانية

التوسعية وتكريس الاحتلال للأرض العربية، في حين جاء تعامل هيئة الأمم المتحدة مع القضية الفلسطينية بأبعادها المختلفة - حيث ظلت الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وفرنسا حتى اندلاع حرب الخامس من يونيو تلقي بثقلها في الميزان لصالح الكيان - مستحضرا على ما يبدو لعوامل القوة الكامنة في الأمة العربية ومحيطها الإسلامي، فالتوازن الذي شهدته قرارات الأمم المتحدة بعد استتبات الكيان الصهيوني، وخاصة تلك الصادرة عن الجمعية العامة لم يكن بسبب قوة عربية مقررة، بل استنادا إلى استشراف عناصر القوة الكامنة لدى العرب والمسلمين التي لا بد يوما أن تجد طريقها إلى الفعل السياسي التحرري من جهة، ولتزايد عدد الدول الأعضاء في الجمعية العامة الذي وصل حاليا إلى 192 دولة عضوا بسبب موجات الاستقلال التي شهدتها القارات الآسيوية والأفريقية والأمريكية اللاتينية، وتأثير حركة عدم الانحياز بقيادتها الثلاثية جوزيف برونز تيتو، وجواهر لال نهرو، وجمال عبدالناصر من جهة أخرى.

وهنا تكمن أهمية هذا البحث الذي سيقتصر على دراسة قرارات الشرعية الدولية (قرارات الأمم المتحدة) الصادرة عن الجمعية العامة ولجنة حقوق الإنسان التابعة لها ومجلس الأمن، وفتوى محكمة العدل الدولية بشأن جدار الفصل، التي أصدرتها في 9 يوليو 2004 بناء على طلب من الجمعية العامة طبقا لقرارها في جلستها الثالثة والعشرين من الدورة الاستثنائية الطارئة العاشرة المنعقدة في 8 ديسمبر 1993 رقم (ES-10/14) وفقا للفقرة (1) من المادة (96) من ميثاق الأمم المتحدة الذي تبنته الجمعية العامة في دورة انعقادها الاستثنائية 10/15 في 20 يوليو 2004م.

وبناء على ما تقدم يمكن تحديد إشكالية هذا البحث بالأسئلة الآتية حيث تشكل محاولة الإجابة عنها هدف هذا البحث:

- ما مضامين قرارات الشرعية الدولية ذات الصلة بالقدس المباشرة وغير المباشرة؟
- ما المركز القانوني لقرارات الشرعية الدولية الخاصة بالقدس المباشرة وغير المباشرة؟
- ما الفاعلية السياسية لقرارات الشرعية الدولية الخاصة بالقدس بشقيها المباشر وغير المباشر؟
- ما مستقبل القدس في ضوء قرارات الشرعية الدولية الخاصة بالقدس المباشرة وغير المباشرة؟

أما فيما يخص منهج البحث فإنه يرتبط بثلاثة عناصر أساسية:

1 - إشكالية البحث

2 - هدف البحث

3 - مصادر البحث الأولية والثانوية

ووفقا لذلك فإن إنجاز البحث سيعتمد منهج المزاوجة بين المنهج القانوني بحكم طبيعته القانونية والمنهج التحليلي التركيبي في معالجة أبعاده السياسية.

يقع هذا البحث في مقدمة ومبحثين وخاتمة فقد خصصت المقدمة لاستخلاص إشكالية البحث وهدفه ومنهجه وهيكلته. أما المبحث الأول وموضوعه الشرعية الدولية ومؤسساتها فيقع في مطلبين الأول مخصص لعصبة الأمم والثاني لهيئة الأمم المتحدة حيث دُرست القرارات الصادرة عن أربعة من أجهزتها الرئيسية الستة وهي: الجمعية العامة، ومجلس الأمن، ومجلس الوصاية، ومحكمة العدل الدولية. والمبحث الثاني وعنوانه: مضامين قرارات الأمم المتحدة ذات الصلة بالقدس ويقع في ثلاثة مطالب، خصص الأول لدراسة المركز القانوني لقرارات الشرعية الدولية، والثاني للمركز القانوني للقدس في ضوء قرارات الأمم المتحدة، والثالث لدراسة فاعلية قرارات الأمم المتحدة الخاصة بالقدس المباشرة وغير المباشرة.

أما الخاتمة فقد تناول فيها الباحث مستقبل قرارات الأمم المتحدة ونتائج البحث.

المبحث الأول

الشرعية الدولية ومؤسساتها

البحث في قرارات الشرعية الدولية يقتضي بالضرورة تحديد المقصود بمفهومي «الشرعية» و«الشرعية الدولية» ومصادر أو مؤسسات هذه «الشرعية الدولية» قبل الخوض في غمار قراراتها: «رصدا، ودراسة، وتحليلا، واستنتاجا».

الشرعية: مصدر صناعي من الشرع ، والشرع لغة: مشرعة الماء، وهو مورد الشاربة[12]، وتعني كذلك «البيان والإظهار، يقال شرع الله كذا: جعله طريقا ومذهبا، والشرع مرادف للشريعة، وهي في اللغة مورد الإبل إلى الماء الجاري، ثم استعير لكل طريقة موضوعة بوضع إلهي ثابت من نبي من الأنبياء[13]. وهي ما شرع الله لعباده من الأحكام. والشرعي هو المنسوب إلى الشرع. وفي هذا السياق استخدمت الشرعية صفة للقانون أو مقيدة له. ويقصد بالقانون الأحكام المستندة للشريعة الإسلامية»[14].

هذا هو المقصود بالشرعية في التراث العربي .أما الشرعية وفقا للمفهوم الغربي الحديث فهي - رغم وجود فارق جوهري بينها وبين المفهوم الإسلامي للشرعية - تسير في ذات الاتجاه قانونيا. فالشرعية بالمفهوم الغربي تعني «اختيار وتقبل المحكومين للحكام والنظام السياسي، بمعنى قيام الشرعية على الاختيار والرضا كعنصرين أساسيين، وقبول المحكومين للنظام السياسي على أساس انصياع النظام الحاكم للقانون وفق ما يعرف بمبدأ (المشروعية) وسيادة القانون»[15].

ولكن ما الشرعية الدولية؟

الشرعية الدولية وفقا لقواعد القانون الدولي العام المعاصر هي القرارات الصادرة عن منتظمات أو منظمات دولية حكومية يعرفها فقهاء القانون الدولي بأنها: «التنظيمات التي تقوم

في أكثر من دولة واحدة والمتمتعة بشخصية قانونية تؤهلها للقيام بمهامها باستقلالية عن الأعضاء»[16]، وذلك تمييزا لها عن المنظمات الدولية غير الحكومية التي تعرف بأنها: «المنظمات التي تنشأ بين أفراد وجمعيات تنتمي إلى دول مختلفة»[17]. وعليه فإن الفرق الجوهري بين «المنظمات الدولية الحكومية» و«المنظمات الدولية غير الحكومية» هو أن العضوية في الأولى للدول، وهي محور البحث، في حين أن العضوية في الثانية للأفراد ومنظمات المجتمعات المدنية، وهي خارجة عن نطاق هذا البحث.

واستنادا إلى ما تقدم من تعريف للمنظمات الدولية الحكومية صاحبة الولاية في اتخاذ القرارات يتضح للمرء أن المقصود بمنظمات أو مؤسسات الشرعية الدولية المعنية بعملية اتخاذ القرارات ذات الصفة الدولية منظمتان هما: عصبة الأمم[18] وهيئة الأمم المتحدة التي كانت ولادتها في 25 أكتوبر 1945م، وعقدت أولى جلساتها في مدينة لندن في 10 يناير 1946م لتقرر في 24 فبراير 1946م اتخاذ مدينة نيويورك مقرا دائما لها[19].

المطلب الأول

عصبة الأمم وقضية القدس

والسؤال الذي يطرح نفسه بإلحاح الآن: ما طبيعة الدور الذي قامت به عصبة الأمم في إبراز قضية القدس كمشكلة دولية وسبل تسويتها؟

وقبل البدء بدراسة طبيعة الدور الذي نهضت به عصبة الأمم ووريثتها الشرعية هيئة الأمم المتحدة في استتبات قضية القدس باعتبارها مشكلة دولية لا بد من الإشارة إلى أن القدس هي في الوقت ذاته مدينة وقضية، ولا يمكن فصلها عن القضية الفلسطينية الأم، كونها جوهر القضية الفلسطينية، والاثنتان معا هما محور الصراع اليهودي الصهيوني الإسرائيلي - العربي[20].

ولما كانت عصبة الأمم وهيئة الأمم المتحدة من صنع الدول المنتصرة في الحرب العالمية الأولى بالنسبة إلى عصبة الأمم والثانية بالنسبة إلى هيئة الأمم المتحدة، فإن من الطبيعي أن تسعى هذه الدول إلى إعادة تشكيل العالم على النحو الذي يخدم مصالحها الحيوية الكونية والإقليمية على حد سواء وبخاصة تلك الأقاليم التي تعد لأسباب استراتيجية وحضارية وإثنية ودينية واقتصادية وذهنية ذات أهمية قصوى للمصالح الحيوية لدول الحلفاء: الولايات المتحدة الأمريكية، وبريطانيا العظمى، وفرنسا، والاتحاد السوفييتي السابق، وذلك من خلال إنشاء نظام دولي جديد تحل فيه الأمم المتحدة محل عصبة الأمم.

ومن بين المناطق أو الأقاليم التي تعد ذات أهمية استراتيجية واقتصادية بالغة لأقطاب النظام الدولي الجديد، وبخاصة الولايات المتحدة الأمريكية، التي أخذت تعمل حثيثا على أن ترث الإمبراطورية البريطانية التي بدت عليها بوادر الانحلال منذ مطلع القرن العشرين والتي ما كان لها أن تخرج منتصرة من الحرب العالمية الأولى دون دخول الولايات المتحدة الأمريكية

الحرب إلى جانبها بدافع من شهيتها الاستعمارية وبتأثير من اللوبي اليهودي الصهيوني، منطقة الشرق الأوسط وتحديدا المنطقة العربية.

وإذا كانت الولايات المتحدة الأمريكية قد أحجمت عن الانضمام إلى عضوية عصبة الأمم، مع أن رئيسها آنذاك ودرو ولسون كان المحرك الأبرز لولادة عصبة الأمم، إذ كان السعي لقيام مثل هذا التنظيم الدولي أحد مبادئه الأربعة عشر، مجبرا لأسباب داخلية وتكتيكية على التراجع والانكفاء داخل الحدود الداخلية للولايات المتحدة الأمريكية بانتظار الفرصة الفضلى لوراثة الإمبراطورية البريطانية دونما إثارة الفزع لدى دول القارة الأوروبية وتحديدا بريطانيا. لا بل ظلت الإدارات الأمريكية المتعاقبة ومنذ مطلع القرن الماضي حريصة على أن تعمل جنبا إلى جنب مع الحليف البريطاني على إعادة هيكلة العالم انطلاقا من المنطقة العربية[21].

ولم يقتصر التعاون والتنسيق والعمل الأمريكي - البريطاني المشترك على إقامة عصبة الأمم وفقا للمشروع الأمريكي - البريطاني الذي رأى أن «إنشاء منظمة ذات طابع مرن محدودة الاختصاص لا تستند في أدائها إلاّ إلى مجرد حسن نية الدول الأعضاء»، [22] على حساب المشروع الفرنسي الذي «ذهب ... إلى ضرورة إنشاء منظمة قوية، ذات طابع شبيه بالاتحادي، تتمتع باختصاصات واسعة ومحددة، وبالوسائل العملية التي تمكنها من مباشرة اختصاصاتها، وردع كل دولة تحاول المساس بالأمن، أو الإخلال بالتوازن الدولي في صورته التي تم على أساسها الصلح ...»[23]، بل تعداه إلى مجال السياسة الإقليمية للدولتين وبخاصة المنطقة العربية الذي ظهرت بوادره في «وعد بلفور» الذي تعهدت بموجبه بريطانيا بـ «إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين» والذي عده فقهاء القانون الدولي والأوساط السياسية الدولية «خدعة» للعرب «ترقى إلى مرتبة الخيانة»[24]. ولكنه لقي على الفور مباركة ودعما من الولايات المتحدة الأمريكية بتحويله إلى مشروع عملي من خلال وضع فلسطين تحت الانتداب البريطاني «بقرار صادر عن مجلس الحلفاء التابع لمؤتمر الصلح (مؤتمر سان ريمو) في 23 أبريل 1920م، وباركته عصبة الأمم ووافقت عليه في 24 يوليو 1922»[25].

وبموافقة عصبة الأمم على وضع فلسطين تحت الانتداب البريطاني تكون قد مهدت الطريق أمام ولادة الكيان الغريب الذي أوصت اللجنة المكلفة من كامبل بنرمان[26] باستنباته في المنطقة العربية تحسبا لـ «طلقة الرحمة»[27] التي لن تأتيها إلا من المنطقة العربية، والذي وجد بداية كمشروع استعماري استيطاني إحلالي في وعد بلفور. بكلمات أخرى تكون عصبة الأمم بوضعها فلسطين تحت الانتداب قد حملت سفاحا، بعد أقل من ثلاث سنوات على تأسيسها، بالكيان الغريب، الكيان الصهيوني، لتتأجل ولادته من رحم تنظيم دولي آخر، من رحم الأمم المتحدة بعد أقل من عام على إعلان «وفاة» عصبة الأمم.

ولكن ما مضمون صك الانتداب المعلن عنه في 6 يوليو 1921م والمصادق عليه من عصبة الأمم في 24 يوليو 1922م والذي دخل حيز التنفيذ في 29 سبتمبر 1923م؟

اشتمل صك الانتداب على [28] مادة وديباجة جاءت محددة لشروط ونصوص الانتداب يمكن تلخيص مضامينها بالآتي:

1 ـ موافقة دول الحلفاء على أن يعهد بإدارة فلسطين إلى الدولة التي تختارها دول الحلفاء تنفيذا للمادة 12 من ميثاق عصبة الامم،

2 ـ موافقة دول الحلفاء على تحمل الدولة المنتدبة مسؤولية تنفيذ تصريح حكومة صاحب الجلالة البريطانية في 2 نوفمبر 1917م المعروف في الاوساط السياسية والإعلامية وتاريخيا بـ «وعد بلفور» والمقر من دول الحلفاء الكبرى ويقضي «بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين» من دون الإضرار بالحقوق المدنية والدينية للطوائف غير اليهودية في فلسطين أو الإخلال بالحقوق والوضع السياسي الذي يتمتع به اليهود في أي بلاد أخرى، بمعنى احتفاظهم بجنسيات البلاد التي قدموا منها، وموافقة صاحب الجلالة البريطانية على ذلك.

3 ـ الاعتراف بالروابط التاريخية لليهود في فلسطين والأسباب الموجبة «لإعادة» إنشاء وطن قومي لهم في فلسطين،

4 ـ النص على أن «درجة السلطة أو السيطرة أو الإدارة التي تمارسها الدولة المنتدبة سيحددها بصراحة مجلس عصبة الأمم إذا لم يكن هناك اتفاق بشأنها بين أعضاء عصبة الأمم»[28].

ومن دون الحاجة إلى الدخول في تفاصيل صك الانتداب البريطاني على فلسطين، والاجتهادات الفقهية بشأنه، أو الخوض في سياسة الانتداب البريطاني ودهاليزها يمكن استنتاج الآتي:

● تماثل النصوص التي تضمنها صك الانتداب بشأن إنشاء «وطن قومي لليهود» في فلسطين مع منطوق وعد بلفور البريطاني. فقد تكرر تعبير «الوطن القومي اليهودي» مرتين في ديباجة صك الانتداب، وثلاث مرات في مواد صك الانتداب. المواد (2 و4 و7).

● عدم الاكتفاء بصياغة شروط ونصوص صك الانتداب، بل اعتماد آلية إنشاء الوطن القومي اليهودي في فلسطين سواء في مجال التشريع أو الإدارة أو السياسة والاقتصاد والمجتمع، بما يضع البلاد في ظروف ملائمة لإقامة «الوطن القومي اليهودي» وأهمها تسهيل الهجرة، وحصول اليهود المقيمين في فلسطين على الجنسية الفلسطينية، واستملاك الأراضي الزراعية، وإدارة المشاريع الاقتصادية (المواد: 6 و7 و11).

● تثبيت المزاعم اليهودية الصهيونية بخصوص وجود «صلات تاريخية» بين «الشعب اليهودي» وفلسطين، والأخذ بالأسباب التي تبعث على إعادة إنشاء وطنهم القومي في تلك البلاد.

● الاعتراف بالوكالة اليهودية كهيئة استشارية لإدارة فلسطين، والتعاون معها في الشؤون الاقتصادية والاجتماعية وغير ذلك من الأمور التي قد تؤثر في إنشاء الوطن القومي اليهودي ومصالح السكان اليهود في فلسطين لتساعد وتشترك في النهوض بالبلاد على أن يكون ذلك خاضعا دوما لمراقبة الإدارة (م ـ 4).

● أما المسائل الدينية والأماكن المقدسة فقد تناولها صك الانتداب جزئيا في مادتيه الثانية والتاسعة في حين خصصت المواد من (13 ـ 19) كليا لتلك الموضوعات. فقد نصت الفقرة الثانية من المادة الثانية على أن الدولة المنتدبة «... تكون مسؤولة أيضا عن صيانة الحقوق المدنية والدينية لجميع سكان فلسطين بقطع النظر عن الجنس والدين» (م2 ـ) ونصت (م ـ 9) على أن: «يكون احترام الأحوال الشخصية والمصالح الدينية لمختلف الشعوب والطوائف مضمونا أيضا، وبصورة خاصة تكون إدارة الأوقاف خاضعة للشرائع الدينية وشروط الواقفين».

أما المواد المخصصة بالكامل للمقدسات والقضايا الدينية فهي المواد (13 ـ 16). إذ نصت المادة (13) على أن «تضطلع الدولة المنتدبة بجميع المسؤوليات المتعلقة بالأماكن المقدسة والمباني أو المواقع الدينية في فلسطين بما في ذلك مسؤولية المحافظة على الحقوق الموجودة وضمان الوصول إلى الأماكن المقدسة والمباني والمواقع الدينية وحرية العبادة مع المحافظة على مقتضيات النظام العام والآداب العامة، وتكون الدولة المنتدبة مسؤولة أمام عصبة الأمم دون سواها عن كل ما يتعلق بذلك بشرط ألا تحول نصوص هذه المادة دون اتفاق الدولة المنتدبة مع إدارة البلاد على ما تراه الدولة المنتدبة ملائما لتنفيذ نصوص هذه المادة وبشرط ألا يفسر شيء من هذا الصك تفسيرا يخول الدولة المنتدبة سلطة التعرض أو التدخل في نظام أو إدارة المقامات الإسلامية المقدسة الصرفة، المصونة حصانتها».

ونصت المادة (14) على أن «تؤلف الدولة المنتدبة لجنة خاصة لدرس وتحديد وتقرير الحقوق والادعاءات المتعلقة بالأماكن المقدسة والحقوق والادعاءات المتعلقة بالطوائف الدينية المختلفة في فلسطين وتُعرض طريقة اختيار هذه اللجنة وقوامها ووظائفها على مجلس عصبة الأمم لإقرارها، ولا تعين اللجنة ولا تقوم بوظائفها من دون موافقة المجلس المذكور».

ونصت المادة (15) على أنه «يترتب على الدولة المنتدبة أن تضمن جعل الحرية الدينية التامة وحرية أداء شعائر العبادة مكفولتين للجميع بشرط المحافظة على النظام العام والآداب العامة فقط، ويجب ألا يكون ثمة تمييز مهما كان نوعه بين سكان فلسطين على أساس الجنس أو الدين أو اللغة وألا يُحرم شخص من دخول فلسطين بسبب معتقده الديني فقط. ويجب ألا تحرم أي طائفة كانت من حق صيانة مدارسها الخاصة لتعليم أبنائها بلُغتها الخاصة وألا ينتقص من هذا الحق ما دام ذلك مطابقا لشروط التعليم العمومية التي قد تفرضها الإدارة».

أما المادة (16) فنصت على أن «تكون الدولة المنتدبة مسؤولة عن ممارسة ما يقتضيه أمر المحافظة على النظام العام والحكم المنظم، من الإشراف على الهيئات الدينية والجزئية التابعة لجميع الطوائف المذهبية في فلسطين، ومع مراعاة هذا الشرط لا يجوز أن تتخذ في فلسطين تدابير من شأنها تعويق أعمال هذه الهيئات أو التعرض لها أو إظهار التحيز ضد أي ممثل من ممثليها أو عضو من أعضائها بسبب دينه أو جنسيته»[29].

وبمجرد أن باشرت دولة الانتداب بريطانيا ممارسة صلاحياتها الانتدابية بدأت بالعمل حثيثا على تنفيذ بنود صك الانتداب وخاصة تلك المتعلقة بخلق الظروف الملائمة لإنشاء الوطن القومي اليهودي في فلسطين من خلال الآتي:

1 ـ تسهيل هجرة اليهود إلى فلسطين وإحداث تغيير جوهري في البنية الديموغرافية للبلاد.

2 ـ تسهيل استملاك المهاجرين اليهود للأراضي الزراعية والمباشرة باستيطانهم الاستعماري الإحلالي فيها.

3 ـ تمكين المهاجرين اليهود من السيطرة على المرافق الاقتصادية والخدماتية في فلسطين من خلال الاعتراف بالوكالات اليهودية وإضفاء الشرعية على نشاطاتها.

4 ـ تمكين المهاجرين اليهود من ممارسة دور سياسي وعسكري كنواة لكيانهم السياسي والعسكري المستقبلي.

5 ـ تمكين المهاجرين اليهود من الوصول إلى الأماكن المقدسة والتسلل التدريجي إليها توطئة لاتخاذ موطئ قدم لهم فيها ابتداء واقتسامها في المراحل اللاحقة والاستحواذ عليها بالقوة في الوقت المناسب.

6 ـ تشكيل لجان التحقيق القانونية في ظاهرها وغطائها، وسياسية في مراميها لتمهد الساحة الفلسطينية لقرار دولي يقضي بإقامة الكيان اليهودي. ومن تلك اللجان ما كان ذا طبيعة انفرادية، أي أنها جاءت بقرار من الدولة المنتدبة بحكم الصلاحيات المخولة إليها بموجب صك الانتداب، ومنها ما كان ذا طبيعة دولية، أي أنها شكلت بقرار من عصبة الأمم، إما بناء على اقتراح من دولة الانتداب وإما بتوصية من إحدى اللجان المشكّلة، سواء بقرار منها أو من الإدارة الفلسطينية التي تخضع لإشرافها وسيطرتها[30].

ومن بين اللجان التي شُكِّلت بقرار من الدولة المنتدبة لجنة شو الملكية البريطانية للتحقيق في أحداث ثورة البراق العام 1929. وقد أوصت لجنة شو بأن يتم إرسال لجنة دولية للتحقيق في المزاعم اليهودية وملكية المسلمين لحائط البراق. وقد أخذت عصبة الأمم بهذه التوصية وقرر مجلسها تشكيل لجنة دولية ثلاثية تألفت من إيليل ليفغرين وزير خارجية السويد آنذاك، وعضوية شارل بارد، رئيس محكمة العدل الدولية في جنيف، وس. فان كمبن عضو البرلمان

الهولندي. وفي ضوء إجراء التحقيقات اللازمة واطلاعها على بيانات ووثائق طرفي النزاع العرب واليهود، واستماعها إلى شهادات أطراف النزاع خلال 25 جلسة عمل على مدى شهر من العمل مستندة في ذلك إلى الأصول القضائية المعمول بها في دولة الانتداب خلصت اللجنة إلى توصيتين مهمتين شكّلا وثيقة دولية حاسمة لصالح الحقوق العربية وهما:

«أ - للمسلمين وحدهم تعود ملكية الحائط الغربي (الحرم الشريف)، ولهم وحدهم الحق العيني فيه لكونه يؤلف جزءا لا يتجزأ من ساحة الحرم الشريف التي هي من أملاك الوقف. للمسلمين أيضا تعود ملكية الرصيف الكائن أمام الحائط وأمام المحلة المعروفة بحارة المغاربة المقابلة للحائط لكونه موقوفا حسب أحكام الشرع الإسلامي لجهات البر والخير. أن أدوات العبادة و(أو) غيرها من الأدوات التي يحق لليهود وضعها بالقرب من الحائط، إما بالاستناد إلى أحكام هذا القرار أو بالاتفاق بين الفريقين، لا يجوز في حال من الأحوال أن تعتبر أو أن يكون من شأنها إنشاء حق عيني لليهود في الحائط أو في الرصيف المجاور له.

ب - لليهود حرية السلوك إلى الحائط الغربي لإقامة التضرعات في جميع الأوقات مع مراعاة الشروط الصريحة المشار إليها. وتتضمن الشروط أدوات العبادة التي يسمح باستخدامها في مناسبتين فقط، وفي الأحوال العادية لا يجوز جلب أي أدوات إلى جوار الحائط. واكتسبت هذه الوثيقة أهمية بمصادقة الحكومة البريطانية، وموافقة مجلس عصبة الأمم عليها كذلك، وإصدارها قانونا نشرته الجريدة الرسمية البريطانية في يونيو 1937 أهمية مضافة. وبذا تكون اللجنة الدولية الثلاثية قد أكدت أحقية العرب المسلمين وحدهم في حائط البراق، وإن هي منحت المهاجرين اليهود حرية ممارسة شعائرهم الدينية عند الحائط شريطة المحافظة على الآداب العامة»[31].

أما لجنة بيل الملكية التي شكلت للتحقيق في أسباب اندلاع ثورة 1936 في فلسطين فقد أوصت في تقريرها العام 1937 «بتقسيم فلسطين إلى دولتين عربية ويهودية» على أن يكون تقسيم فلسطين خاضعا للشرط الأساسي التالي وهو المحافظة على قداسة مدينتي القدس وبيت لحم وتأمين الوصول إليهما بحرية واطمئنان لمن شاء من أنحاء العالم كافة. ومما جاء فيها:

«تلك أمانة مقدسة في عنق المدينة بأوسع ما في هذه العبارة الواردة في صك الانتداب من معنى. وهذه الأمانة هي ليست بالنيابة عن (شعوب) فلسطين فقط بل عن جماهير الناس القاطنة في البلاد الأخرى والتي تعتبر إحدى هاتين المدينتين أو كلتيهما مكانين مقدسين»[32].

ولكن توصيات لجنة بيل لم تأخذ طريقها إلى حيز التنفيذ حيث رفضتها لجنة جون وود هيد التي غادرت إلى فلسطين في 21 أبريل 1938 لتقصّي الحقائق لأسباب تتعلق بظروف بريطانيا مع اندلاع الحرب العالمية الثانية في أوروبا مما يحول دون مشاركة قواتها المرابطة

في فلسطين في جبهات القتال الأوروبية بسبب الثورة العربية القومية في فلسطين. وهو ما عبر عنه المستر ريد عضو اللجنة بقوله: «إن تركنا الأمور جانبا، جابهتنا الحقيقة الواقعية التالية وهي أن إعلان سياسة التقسيم قد حول الاضطرابات في فلسطين إلى ثورة عربية قومية ساهم فيها العرب من بعض الأقطار العربية. لقد وفى الانتداب بوعد أُعطي تحت ضغط ظروف الحرب، أما مقترح تقسيم البلد فهو أمر مرفوض بالمرة، أي أنه انقلاب لا يجوز أن يجريه الأوصياء من دون موافقة شعب فلسطين الذي ليس بالساذج المفتقر الواهي، ولا بالعاجز عن اتخاذ قرار بهذا الشأن»[33].

وقد أعلنت الحكومة البريطانية في بيان رسمي لها أصدرته بهذا الشأن إلغاءها لمشروع التقسيم باعتباره مشروعا غير عملي وعليه قررت التخلي عن التقسيم والاستمرار في الحكومة في محاولة للتوصل إلى حل للمشكلة عن طريق عقد مؤتمر للزعماء العرب واليهود في لندن الأمر الذي انعقد فعلا بحضور ممثلين عن الحكومات العربية المستقلة آنذاك: المملكة العربية السعودية، مصر، العراق، سورية، لبنان، وإمارة شرق الأردن وممثلين عن الطرف اليهودي. ولكن المؤتمر فشل في التوصل إلى اتفاق مما دعا الحكومة البريطانية إلى إصدار الكتاب الأبيض في 17 مايو 1939 جددت فيه تأكيدها التخلي عن مشروع التقسيم، وأن كل ما تريده هو «إقامة دولة فلسطينية يقتسم فيها شعبا فلسطين العرب واليهود السلطة الحكومية على نحو يصون المصالح الحيوية لكل منهما»[34]، الأمر الذي رفضه الطرف اليهودي لأنه يحول دون إقامة دولته المنشودة كما رفضه العرب لأنه يسلب شعب فلسطين أرضه ويحول دون تمكينه من حقه في تقرير مصيره.

ولكن ذلك لا يعني موت مشروع لجنة بيل، مشروع التقسيم، بل ظل هذا المشروع يشكل أساسا لتقارير ومشاريع اللجان الدولية اللاحقة وأهمها اللحنة الأنجلو ـ أمريكية التي رأسها اللورد موريسون وأصدرت تقريرها في 30 يوليو 1946 وتضمن تقسيم فلسطين إلى 4 مناطق: منطقة عربية، ومنطقة يهودية، ومنطقة القدس، ومنطقة النقب. وتشمل منطقة القدس مدينة القدس وبيت لحم والأراضي القريبة منها. أما حماية الأماكن المقدسة في المدينة فهي من صلاحيات الإدارة البريطانية. كما رأت هذه اللجنة تشكيل مجلس بلدي في مدينة القدس منتخب أغلبية أعضائه وتعيين البقية من السلطة العليا، في حين أن صلاحياته مشابهة لصلاحيات المجالس البلدية العادية[35].

وهناك لجنة الأمم المتحدة (اللجنة الدولية) المشكّلة في العام 1947 والتي تقدمت في ختام زيارتها التحقيقية لفلسطين بتقرير للجمعية العامة يتضمن مشروعين: مشروع الأكثرية والذي يرى تقسيم فلسطين إلى دولة عربية وأخرى يهودية وتدويل القدس، ومشروع الأقلية الذي يرى إقامة دولة اتحادية من الحكومتين المستقلتين العربية واليهودية وتدويل القدس حيث تبنت

الجمعية العامة للأمم المتحدة في قرارها رقم 2/181 في 29 نوفمبر 1947 مشروع الأكثرية الذي أنشئت بموجبه دولة إسرائيل مع أنه لا يعدو كونه توصية غير ملزمة ولكن القوة هي الحاسمة على مدى التاريخ في تقرير الأمور وليس المركز القانوني لهذا القرار أو ذاك.

وباندلاع الحرب العالمية الثانية في أوروبا في 1 سبتمبر 1939 تكون عصبة الأمم قد فشلت في تحقيق المهام والغايات التي أنشئت من أجلها وهي الحفاظ على الأمن والسلم الدوليين ومنع الحروب والحيلولة دون استخدام القوة لتحقيق أهداف إقليمية أو سياسية.

المطلب الثاني

هيئة الأمم المتحدة والقدس

بالعودة إلى موقع هيئة الأمم المتحدة على الشبكة العنكبوتية يتبين للمرء ذلك الكم الهائل من التوصيات والقرارات ذات الصلة المباشرة أو غير المباشرة بالقدس المتخذة من الأمم المتحدة وبخاصة تلك الصادرة عن أجهزتها الرئيسية: مجلس الوصاية، والجمعية العامة، ومجلس الأمن، والمجلس الاقتصادي والاجتماعي[36] ومحكمة العدل الدولية، التي بلغ مجموعها خلال الفترة الممتدة من (1947 ـ 2008) حوالي 300 قرار، كما يتبين من الجداول الواردة لاحقا[37]. وتجدر الإشارة في هذا السياق إلى أن لجنة حقوق الإنسان التي كانت تتبع منذ تأسيسها في العام 1947 للمجلس الاقتصادي الاجتماعي والتي أُلغيت في العام 2006 بالاستعاضة عنها بـ «مجلس حقوق الإنسان» الذي يضم 47 عضوا قد اتخذا بصفتهما أجهزة ثانوية هما الآخران قرارات ذات أهمية بالنسبة إلى القضية الفلسطينية والقدس وبخاصة في مجال حقوق الإنسان. وهناك جهاز رئيسي سادس هو الأمانة العامة لهيئة الأمم المتحدة ووظائفها ذات طبيعة إدارية.

أما المؤلفات والدراسات والبحوث التي تناولت بالتوثيق والتحليل والاستنتاج قضية القدس مباشرة وتلك التي تناولتها في إطار القضية الفلسطينية الأم، فتكاد تماثل في عددها مجموع القرارات الصادرة عن الأمم المتحدة في هذا الشأن، الأمر الذي يظهر ما لهاتين القضيتين من أهمية ليس لأطراف النزاع المباشرين: العربي الفلسطيني والإسرائيلي فقط، بل لامتداداتهما الإقليمية والدولية أيضا بحكم ارتباط هاتين القضيتين بالمعتقدات الدينية والمصالح الإقليمية والدولية الحيوية لأطراف الصراع غير المباشرين وبخاصة العالم الإسلامي والعالم الغربي[38].

وتتفق هذه المؤلفات والدراسات والبحوث في معظمها على الآتي:

1 ـ **تجاوز الأمم المتحدة لميثاقها الذي يكمن جوهره في الحفاظ على السلم والأمن الدوليين لإنتاج مشكلات من شأنها التسبب في صراعات طويلة الأمد يمكن لها أن تهدد الأمن والسلم الدوليين.**

2 ـ **إسرائيل هي الكيان الوحيد في العالم الذي نشأ بموجب قرار دولي غير ملزم صادر عن الجمعية العامة.**

3 - صدور قرار التقسيم كان بترتيب أمريكي - بريطاني ابتداء من قرار بريطانيا إنهاء انتدابها على فلسطين ونقل القضية الفلسطينية إلى هيئة الأمم المتحدة ليتقرر مستقبل فلسطين استنادا إلى قرار اللجنة الدولية التي أنشئت في العام 1947 وارتأت تقسيم فلسطين إلى دولتين عربية وأخرى يهودية وتدويل القدس لصعوبة، إن لم يكن لاستحالة تعايش اليهود والعرب في إطار دولة واحدة وعلى خلفية الحقوق والمطالب التاريخية التي يدعيها الطرفان ولكل منهما أسبابه من جهة، ولأن القدس تحوي أماكن مقدسة لدى اتباع الديانات السماوية الثلاث: اليهودية والمسيحية والإسلام، على امتداد العالم من جهة أخرى، ومرورا بطرح القضية للتصويت والضغوط الممارسة على الدول الأعضاء من جانب الولايات المتحدة الأمريكية لحملها على التصويت لصالح التقسيم والتدويل ودبلوماسية الحركة الصهيونية الخبيثة والنشطة من خلال الوكالة اليهودية [39]، وهو عمل يرقى إلى مرتبة «خيانة دولة الانتداب» للطرف العربي حيث كانت بذلك قد تعدت حدود التفويض الذي وضعت فلسطين من أجله تحت الانتداب (أ) والذي يعني تهيئتها للاستقلال وليس لتقسيمها وتدويل القدس[40].

4 - موافقة الحركة الصهيونية على قرار التقسيم كانت ذات طبيعة تكتيكية مكنتها من «الإعلان عن ولادة دولة إسرائيل» في 14 مايو 1948م، أي في اليوم التالي لانسحاب بريطانيا من فلسطين ومن انتزاع اعتراف دولي بشرعيتها بقبولها عضوا في هيئة الأمم المتحدة بعد أن اعترفت بقرار التقسيم وتدويل القدس وبالقرار الرقم (194) الصادر عن الجمعية العامة في 11 ديسمبر 1948م والذي بات يعرف في الأوساط السياسية والإعلامية العربية بقرار «حق العودة» وبقرار الجمعية العامة الرقم 303 للعام 1949م ومن ثم التنكر لها جميعا بعد أن استنفدت أغراضها منها[41]، وذلك بموجب قرار الجمعية العامة الرقم 273 (الدورة 3) بتاريخ 11 مايو 1947 الذي نص على الآتي:

«إن الجمعية العامة، وقد تسلمت تقرير مجلس الأمن بشأن طلب إسرائيل الدخول في عضوية الأمم المتحدة، (وثيقة A/818).

إذ تلاحظ أن إسرائيل، وفق تقدير مجلس الأمن، دولة محبة للسلام، وقادرة على تحمل الالتزامات الواردة في الميثاق وراغبة في ذلك.

اذ تلاحظ أن مجلس الأمن قد أوصى الجمعية العامة بقبول إسرائيل عضوا في الأمم المتحدة، إذ تلاحظ أيضا تصريح دولة إسرائيل بأنها «تقبل، دون تحفظ، الالتزامات الواردة في ميثاق الأمم المتحدة، وتتعهد بأن تحترمها منذ اليوم الذي تصبح فيه عضوا في الأمم المتحدة»، (وثيقة S/1093).

إذ تذكر قراريها الصادرين في 29 نوفمبر 1947، وفي 11 ديسمبر 1948، واذ تأخذ علما بالتصريحات وبالإيضاحات التي صدرت عن ممثل حكومة إسرائيل أمام اللجنة

السياسية الخاصة، فيما يتعلق بتطبيق القرارات المذكورة (A/AC.24/SR.45-48.50.51).

فإن الجمعية العامة، عملا بتأدية وظائفها المنصوص عليها في المادة (4) من الميثاق والقاعدة (125) من قواعد الإجراءات.

أ - تقرر أن إسرائيل دولة محبة للسلام، راضية بالالتزامات الواردة في الميثاق، قادرة على تنفيذ هذه الالتزامات، وراغبة في ذلك.

ب - تقرر أن تقبل إسرائيل عضوا في الأمم المتحدة.

وقد تبنت الجمعية العامة في جلستها العامة رقم (207) ذلك القرار بـ (37) صوتا مقابل (12) ضد وامتناع (9)[42].

5 - عجز الأمم المتحدة عن تطبيق قراراتها لتبقى مجرد حبر على ورق بذريعة أنها قرارات لا تعدو كونها توصيات أو أنها قرارات غير ملزمة كونها لم تصدر استنادا إلى الفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة من جهة، ولأن إسرائيل من خلال أخطبوطها الحركة الصهيونية بأذرعها المختلفة الممتدة عبر العالم وبخاصة الولايات المتحدة الأمريكية قد عملت جل جهدها على «كف يد» الأمم المتحدة عن القضية الفلسطينية بعد أن استنفدت أغراضها منها معتمدة في ذلك على حليفها الدولي الجديد الولايات المتحدة الأمريكية من خلال استخدامها للفيتو (حق النقض) 60 مرة حتى نهاية الحرب الباردة[43].

6 - تجميد قرار تدويل القدس بحدودها التي نص عليها القرار (1947/181) والتحول عنه للحديث عن «القدس المحتلة»، أي الشطر الشرقي من المدينة، بمعنى التسليم عمليا بضم الشطر الغربي من القدس لإسرائيل والمطالبة بانسحابها من الشطر الشرقي باعتباره جزءا من الأراضي العربية المحتلة في حرب الخامس من يونيو 1967م، ومشمولا بقراري مجلس الأمن (1967/242) التالي نصه:

«ان مجلس الأمن، إذ يعرب عن قلقه المستمر بشأن الوضع الخطر في الشرق الأوسط.

وإذ يؤكد عدم جواز الاستيلاء على الأراضي بالحرب والحاجة إلى العمل من أجل سلام دائم وعادل تستطيع كل دولة في المنطقة أن تعيش فيه بأمان، وإذ يؤكد أيضا أن جميع الدول الأعضاء بقبولها ميثاق الأمم المتحدة قد التزمت بالعمل وفقا للمادة (2) من الميثاق.

1 - يؤكد أن تطبيق مبادئ الميثاق يتطلب إقامة سلام عادل ودائم في الشرق الأوسط ويستوجب تطبيق كلا المبدأين التاليين:

أ - انسحاب القوات المسلحة الإسرائيلية من الأراضي التي احتلتها في النزاع الأخير.

ب - إنهاء جميع ادعاءات أو حالات الحرب، واحترام واعتراف بسيادة ووحدة أراضي كل دولة في المنطقة، واستقلالها السياسي وحقها في العيش بسلام ضمن حدود آمنة ومعترف بها، حرة من التهديد بالقوة أو استعمالها.

2 ـ يؤكد أيضا الحاجة إلى:

أ ـ ضمان حرية الملاحة في الممرات الدولية في المنطقة.

ب ـ تحقيق تسوية عادلة لمشكلة اللاجئين.

ج ـ ضمان حرمة الأراضي والاستقلال السياسي لكل دولة في المنطقة عن طريق إجراءات من بينها إقامة مناطق مجردة من السلاح.

3 ـ يطلب من الأمين العام تعيين ممثل خاص ليتوجه إلى الشرق الأوسط كي يجري اتصالات بالدول المعنية ويستمر فيه بغية إيجاد اتفاق، ومساعدة الجهود لتحقيق تسوية سلمية ومقبولة وفقا لأحكام هذا القرار ومبادئه.

4 ـ يطلب من الأمين العام أن يرفع تقريرا إلى مجلس الأمن بشأن تقدم جهود الممثل الخاص في أقرب وقت ممكن». وقد تم تبني هذا القرار بإجماع الأصوات».

والقرار رقم (1973/338) التالي نصه:

«إن مجلس الأمن

أ ـ يدعو جميع الأطراف المشتركة في القتال الدائر حاليا إلى وقف إطلاق النار بصورة كاملة، وإنهاء جميع الأعمال العسكرية فورا في مدة لا تتجاوز 12 ساعة من لحظة اتخاذ هذا القرار وفي المواقع التي تحتلها الآن.

ب ـ يدعو جميع الأطراف المعنية إلى البدء فورا بعد وقف إطلاق النار بتنفيذ قرار مجلس الأمن الرقم 242 (1967) بجميع أجزائه.

ج ـ يقرر أن تبدأ فورا وقف إطلاق النار وخلاله، مفاوضات بين الأطراف المعنية تحت الإشراف الملائم بهدف إقامة سلام عادل ودائم في الشرق الأوسط». وقد تم تبني هذا القرار بالاجماع.

7 ـ تحول الأمم المتحدة من الفعل إلى رد الفعل، إذ إن نشاطها بخصوص القدس ظل يتركز على تدويل القدس حتى العام 1950 لتدخل في سبات عميق لم تستفق منه إلاّ في أعقاب حرب يونيو 1967، فكان القرار (242) هو أول نشاط لها لتعود ثانية إلى غيبوبتها السياسية بشأن القضية الفلسطينية بعامة والقدس بخاصة أو ما سمي «الوضع في الشرق الأوسط» لم تستفق منها إلاّ في أكتوبر 1973 من خلال قرارها (338)[44].

8 ـ تباين الآراء والاجتهادات والتأويلات بشأن القرار 1967/242 بين قائل بأنه ينص على «انسحاب من أراض محتلة» كما ترى إسرائيل وحلفاؤها معتمدين في ذلك على النص الإنجليزي وبين قائل «بالانسحاب من الأراضي العربية المحتلة» استنادا إلى النص الفرنسي، وهو ما يراه الطرف العربي وحلفاؤه وفي مقدمتهم الاتحاد السوفييتي السابق ومعسكره آنذاك. وهذا التفسير للقرار هو السائد لأن جميع القرارات الصادرة عن مجلس الأمن

والجمعية العامة جاءت مؤكدة للنص الفرنسي والفهم العربي لنص القرار (242). كما تباينت التأويلات والآراء والاجتهادات بشأن مدى إلزامية هذا القرار. إذ ترى إسرائيل وحلفاؤها أن هذا القرار غير ملزم لأنه لم يستند إلى الفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة ولا يتضمن سوى مبادئ عامة وغير مرتبط بآليات تنفيذية، في حين أن الطرف العربي ومؤيديه يرون خلافا لذلك أنه قرار ملزم بما أنه لم يتطرق في ديباجته إلى الفصل المتخذ بموجبه، بمعنى أنه بحكم ما تضمنه من إشارات إلى ميثاق الأمم المتحدة وبنود ذات طبيعة تنفيذية يوحي بأنه يستند إلى الفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة[45].

9 ـ تأرجح موقف الولايات المتحدة الأمريكية من مبادر ومؤيد لتقسيم فلسطين وتدويل القدس إلى تراجع عن قرار التقسيم تحسبا للأذى الذي قد يلحق بمصالحها الحيوية في المنطقة العربية والعالم الإسلامي إلى العودة إلى تأييده مجددا، ومن رافض إلى ضم إسرائيل للقدس واعتبارها عاصمة لها بكل ما تبع ذلك من إجراءات ذات مغزى سياسي، كنقل مقر وزارتي الخارجية والدفاع الإسرائيليتين ومقر الكنيست إلى القدس، ورفض مطالبة إسرائيل للدول الممثلة لديها بنقل مقر بعثاتها الديبلوماسية من تل أبيب إلى القدس إلى الاعتراف بالقدس عاصمة موحدة لإسرائيل وفقا لقانون صادر عن الكونجرس الأمريكي وهو (القانون العام 104 ـ 45) الذي وافق عليه مجلس الشيوخ الأمريكي في 23 أكتوبر 1995، ومجلس النواب الأمريكي في 24 أكتوبر 1995 في دورة انعقاد الكونجرس 104، وقد قرن هذا الاعتراف بضرورة أن تنقل واشنطن مقر بعثتها الديبلوماسية إلى القدس حتى العام 1995، وإلا فإن الكونجرس سيمتنع عن الموافقة على تخصيص الأموال اللازمة لتغطية نفقات وزارة الخارجية[46].

وفي أواخر السبعينيات أخذت بعض الدول تنقل سفاراتها لدى إسرائيل إلى غربي القدس دون اعتراف رسمي بالقدس أو بجزء منها كعاصمة لإسرائيل. وفي العام 1980 كانت في القدس 13 سفارة تمثل الدول الآتية: هولندا، بوليفيا، تشيلي، كولومبيا، كوستاريكا، جمهورية الدومنيكان، السلفادور، إيكوادور، غواتيمالا، هاييتي، بنما، اورغواي وفنزويلا. ولكن هذه الدول عادت والتزمت جميعها بإعادة سفاراتها إلى تل أبيب منها التزاما بقرارات الأمم المتحدة التي ظلت تدعو الدول الاعضاء إلى عدم نقل سفاراتها إلى القدس، وأن هناك من يرى أنها جاءت كذلك استجابة للضغوط العربية.

والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن في هذا السياق هو: إلى أي مدى تلتقي هذه الاستنتاجات التي كانت موضع اتفاق معظم الدراسات والبحوث مع المعطيات التي أفرزتها قرارات الأمم المتحدة ذات الصلة المباشرة وغير المباشرة بالقدس وبخاصة تلك الصادرة عن جهازيها الرئيسيين: مجلس الأمن والجمعية العامة؟

وللحكم على تلك الاستنتاجات وغيرها التي ذهبت إليها الدراسات والبحوث ذات الصلة المباشرة أو غير المباشرة بالقدس لا بد من استعراض قرارات الأمم المتحدة مقدما تمهيدا للحكم للأمم المتحدة أو عليها فيما يتعلق بدورها في قضية القدس كقضية منفصلة أو متصلة مع القضية الأم، القضية الفلسطينية.

ولما كان مجموع هذه القرارات المراد استعراضها ذات الصلة المباشرة وغير المباشرة الصادرة عن الأمم المتحدة منذ صدور قرار التقسيم وتدويل القدس (الجزء الثالث) في 29 نوفمبر1947م وحتى نهاية 2008م قد بلغ نحو 300 قرار، فإنه لكثرتها من الضروري تناولها بصيغة مكثفة من خلال جداول مصنفة وفق مصدرها ثم التوقف عند بعض القرارات المفصلية لتناولها بالدراسة والتحليل والتقييم والاستنتاج على النحو الآتي:

أولا : الجمعية العامة

الجدول (1): يبين أرقام وتواريخ وموضوعات قرارات الجمعية العامة ذات الصلة بالقدس للفترة من 1947/11/29م ـ 2008/11/26م.

الرقم	التاريخ	مضامين القرارات
181/د2	1947/11/29	التوصية بتقسيم القدس إلى دولتين عربية ويهودية وكيان خاص بالقدس Corpus Separatum أي تدويلها.
185/دأ-2	1948/4/26	مطالبة مجلس الوصاية بدراسة إجراءات حماية القدس وسكانها.
187/دأ-2	1948/5/6	التوصية بتعيين المبعوث البلدي للقدس.
303/د-4	1949/12/9	التأكيد على وضع القدس تحت نظام دولي دائم.
356/د-4	1949/12/10	اعتماد ميزانية لإنجاز وضع نظام دولي دائم لمنطقة القدس والحفاظ على الأماكن المقدسة.
468/د-5	1950/12/14	إلغاء الاعتمادات المالية الخاصة بوضع نظام دولي دائم لمنطقة القدس والحفاظ على الأماكن المقدسة وقدرها 8 ملايين دولار أمريكي.

2253/دأط-5	1967/7/4	دعوة إسرائيل إلى إلغاء تدابيرها لتغيير وضع القدس والامتناع عنها مستقبلا.
2254/دأط-5	1967/7/14	إبداء الأسف للتدابير التي اتخذتها إسرائيل لتغيير وضع القدس ومطالبتها بالامتناع فورا عن الاتيان بأي عمل من شأنه تغيير مركز القدس.
2851/د-26 3005/د-27	1971/12/20 1972/12/15	مطالبة إسرائيل بإلغاء إجراءات ضم الأراضي المحتلة بما فيها القدس وتلك المتعارضة مع اتفاقية جنيف الخاصة بحماية المدنيين زمن الحرب في الأراضي المحتلة بما فيها القدس.
دأط-27	1980/7/29	مطالبة إسرائيل المباشرة بالانسحاب من الأراضي الفلسطينية المحتلة منذ يوليو 1967 بما فيها القدس ومن الأراضي العربية المحتلة الأخرى قبل 15 نوفمبر 1980.
دأط-3/7	1980/7/29	مطالبة لجنة ممارسة الشعب الفلسطيني لحقوقه غير القابلة للتصرف بدراسة أسباب رفض إسرائيل الامتثال لقرارات الأمم المتحدة الداعية إلى انسحابها من الأراضي الفلسطينية والعربية الأخرى بما فيها القدس.
196/35	1980/12/15	مطالبة إسرائيل بالامتثال التام لجميع قرارات الأمم المتحدة ذات الصلة بالطابع التاريخي لمدينة القدس.
207/35	1980/12/16	التأكيد من جديد على رفض قرار مجلس الأمن 47 الرافض لقرار إسرائيل ضم القدس.

15/36	1981/10/28	مطالبة إسرائيل بالكف فورا عن جميع أعمال الحفر، وتغيير المعالم التي تجريها في المواقع التاريخية والثقافية والدينية للقدس وبخاصة أسفل وحول الحرم الشريف (المسجد الأقصى وقبة الصخرة).
120/36هـ	1981/12/10	موضوعات هذه القرارات تدور جميعها حول النقاط الآتية:
123/37ج	1982/12/16	1 - عدم قانونية قرار إسرائيل فرض قوانينها وولايتها
180/38ج	1983/12/19	وإدارتها على مدينة القدس الشريف واعتبارها ملغاة
146/39ج	1984/12/14	وباطلة ولا أساس شرعيا لها إطلاقا.
168/40ج	1985/12/16	2 - شجب نقل بعض الدول بعثاتها الديبلوماسية إلى
162/41ج	1986/12/4	القدس باعتباره انتهاكا لقرار مجلس الأمن 1980/678
209/42د	1987/12/11	ورفض الامتثال لأحكامه.
54/43ج	1988/12/6	3 - دعوة الدول المعنية إلى الالتزام بأحكام قرارات الأمم
40/44ج	1989/12/4	المتحدة ذات الصلة وفقا لميثاق الأمم المتحدة.
83/45ج	1990/12/13	
82/46ب	1991/12/16	
63/47ب	1992/12/11	
59/48أ	1993/12/14	
87/49أ	1994/12/16	
22/50 ألف، باء	4 /12/ 1995	إدانة سياسة إسرائيل في فرض قوانينها على القدس والجولان السوري وشجب نقل بعض الدول لسفاراتها إلى القدس.

28/50 ألف، باء، جيم، دال، هاء، زاي	6 /12/ 1995	إغاثة وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين في الشرق الأدنى وتقديم المساعدة لهم وتمويل وكالة الأمم المتحدة لإغاثة وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين. وإغاثة السكان النازحين نتيجة للأعمال القتالية التي نشبت في يونيو 1967 وما بعدها، والهبات والمنح الدراسية وعمليات وكالة الأمم المتحدة لإغاثة وتشغيل اللاجئين وإنشاء جامعة القدس للاجئين الفلسطينيين.
29/50 ألف، باء، جيم، دال	15 /12/ 1995	تقرير اللجنة الخاصة المعنية بالتحقيق في الممارسات الإسرائيلية التي تمس حقوق الإنسان للشعب الفلسطيني وغيره من السكان العرب في الأراضي المحتلة وتسوية قضية فلسطين بالوسائل السلمية.
129/50	20 /12/ 1995	الآثار الاقتصادية والاجتماعية للمستوطنات الإسرائيلية على الشعب في الأراضي الفلسطينية المحتلة منذ عام 1967، بما فيها القدس، وعلى السكان العرب في الجولان السوري المحتل.
26/51	4 /12/ 1996	تسوية قضية فلسطين بالوسائل السلمية.
127/51	13 /12/ 1996	الهبات والمنح الدراسية المعروضة من الدول الأعضاء للتعليم العالي، بما في ذلك التدريب المهني للاجئين الفلسطينيين.
128/51	13 /12/ 1996	عمليات وكالة الأمم المتحدة لإغاثة وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين في الشرق الأدنى.
130/51	13 /12/ 1996	جامعة القدس للاجئين الفلسطينيين.
131/51	13 /12/ 1996	أعمال اللجنة الخاصة المتعلقة بالتحقيق في الممارسات

		الإسرائيلية التي تمس حقوق الإنسان للشعب الفلسطيني وغيره من السكان العرب في الأراضي المحتلة.
132/51	13 /12/ 1996	انطباق اتفاقية جنيف المتعلقة بحماية المدنيين وقت الحرب، المعقودة في 12 أغسطس 1949، على الأرض الفلسطينية المحتلة، بما فيها القدس، وعلى الأراضي العربية الأخرى.
133/51	13 /12/ 1996	المستوطنات الإسرائيلية في الأرض الفلسطينية المحتلة، بما فيها القدس والجولان السوري المحتل.
134/51	13 /12/ 1996	الممارسات الإسرائيلية التي تمس حقوق الإنسان للشعب الفلسطيني في الأرض الفلسطينية المحتلة، بما فيها القدس.
190/51	16 /12/ 1996	السيادة الدائمة للشعب الفلسطيني في الأرض المحتلة، بما فيها القدس، والسكان العرب في الجولان السوري المحتل على مواردهم الطبيعية.
223/51	13 /3/ 1997	الأنشطة الاستيطانية الإسرائيلية في الأرض الفلسطينية المحتلة، وخاصة في القدس الشرقية المحتلة.
52/52	9 /12/ 1997	تسوية قضية فلسطين بالوسائل السلمية.
53/52	9 /12/ 1997	القدس.
60/52	10 /12/ 1997	الهبات والمنح الدراسية المعروضة من الدول الأعضاء للتعليم العالي، بما في ذلك التدريب المهني للاجئين الفلسطينيين.
61/52	10 /12/ 1997	عمليات وكالة الأمم المتحدة لإغاثة وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين في الشرق الأدنى.

63/52	1997/12/10	جامعة القدس للاجئين الفلسطينيين.
64/52	1997 /12/ 10	أعمال اللجنة الخاصة المعنية بالتحقيق في الممارسات الإسرائيلية التي تمس حقوق الإنسان للشعب الفلسطيني وغيره من السكان العرب في الأراضي المحتلة.
65/52	1997 /12/ 10	انطباق اتفاقية جنيف المتعلقة بحماية المدنيين وقت الحرب، المعقودة في 12 أغسطس 1949، على الأرض الفلسطينية المحتلة، بما فيها القدس وعلى الأراضي العربية المحتلة.
66/52	1997 /12/ 10	المستوطنات الإسرائيلية في الأرض الفلسطينية المحتلة، بما فيها القدس، والجولان السوري المحتل.
67/52	1997 /12/ 10	الممارسات الإسرائيلية التي تمس حقوق الإنسان للشعب الفلسطيني في الأرض الفلسطينية المحتلة، بما فيها القدس.
207/52	1997 /12/ 18	السيادة الدائمة للشعب الفلسطيني في الأرض الفلسطينية المحتلة، بما فيها القدس، والسكان في الجولان السوري المحتل على مواردهم الطبيعية.
دأط – 2/10	1997 /4/ 25	الأعمال الإسرائيلية غير القانونية في القدس الشرقية المحتلة وبقية الأرض الفلسطينية المحتلة.
دأط – 3/10	1997 /7/ 25	الإجراءات الإسرائيلية غير القانونية في القدس الشرقية المحتلة وبقية الأرض الفلسطينية المحتلة.
دأط – 4/10	1997 /11/ 13	الأعمال الإسرائيلية غير القانونية في القدس الشرقية المحتلة وبقية الأرض الفلسطينية المحتلة.

250/52	7 /7/ 1998	مشاركة فلسطين في أعمال الأمم المتحدة.
37/53	2 /12/ 1998	القدس.
42/53	2 /12/ 1998	تسوية قضية فلسطين بالوسائل السلمية.
49/53	3 /12/ 1998	الهبات والمنح الدراسية المعروضة من الدول الأعضاء للتعليم العالي، بما في ذلك التدريب المهني للاجئين الفلسطينيين.
50/53	3 /12/ 1998	عمليات وكالة الأمم المتحدة لإغاثة وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين في الشرق الأدنى.
52/53	3 /12/ 1998	جامعة القدس للاجئين الفلسطينيين.
53/53	3 /12/ 1998	أعمال اللجنة الخاصة المعنية بالتحقيق في الممارسات الإسرائيلية التي تمس حقوق الإنسان للشعب الفلسطيني وغيره من السكان العرب في الأراضي المحتلة.
54/53	3 /12/ 1998	انطباق اتفاقية جنيف لحماية المدنيين وقت الحرب، المعقودة في 12 أغسطس 1949، على الأرض الفلسطينية المحتلة، بما فيها القدس، وعلى الأراضي العربية المحتلة الأخرى.
55/53	3 /12/ 1998	المستوطنات الإسرائيلية في الأرض الفلسطينية المحتلة، بما فيها القدس، والجولان السوري المحتل.
56/53	3 /12/ 1998	الممارسات الإسرائيلية التي تمس حقوق الإنسان للشعب الفلسطيني في الأرض الفلسطينية المحتلة بما فيها القدس.
196/53	15 12/ 1998	السيادة الدائمة للشعب الفلسطيني في الأرض الفلسطينية المحتلة بما فيها القدس، وللسكان العرب في الجولان السوري

		المحتل على مواردهم الطبيعية.
دأط – 5/10	1998 /3/ 17	الأعمال الإسرائيلية غير القانونية في القدس الشرقية المحتلة وبقية الأرض الفلسطينية المحتلة.
42/54	1999 /12/ 1	تسوية قضية فلسطين بالوسائل السلمية.
37/54	1999 /12/ 1	القدس.
72/54	1999 /12/ 6	الهبات والمنح الدراسية المعروضة من الدول الأعضاء للتعليم العالي، بما في ذلك التدريب المهني للاجئين الفلسطينيين.
73/54	1999 /12/ 6	عمليات وكالة الأمم المتحدة لإغاثة وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين في الشرق الأدنى.
75/54	1999 /12/ 6	جامعة القدس للاجئين الفلسطينيين.
76/54	1999 /12/ 6	أعمال اللجنة الخاصة المعنية بالتحقيق في الممارسات الإسرائيلية التي تمس حقوق الإنسان للشعب الفلسطيني وغيره من السكان العرب في الأراضي المحتلة.
77/54	1999 /12/ 6	انطباق اتفاقية جنيف المتعلقة بحماية المدنيين وقت الحرب، المعقودة في 12 أغسطس 1949، على الأرض الفلسطينية المحتلة بما فيها القدس، وعلى الأراضي العربية المحتلة الأخرى.
78/54	1999 /12/ 6	المستوطنات الإسرائيلية في الأرض الفلسطينية المحتلة، بما فيها القدس والجولان السوري المحتل.
79/54	1999 /12/ 6	الممارسات الإسرائيلية التي تمس حقوق الإنسان للشعب الفلسطيني في الأرض الفلسطينية المحتلة، بما فيها القدس.

230/54	22 /12/ 1999	السيادة الدائمة للشعب الفلسطيني في الأرض الفلسطينية المحتلة بما فيها القدس، والسكان العرب في الجولان السوري المحتل على مواردهم الطبيعية.
دأط - 6/10	9 /4/ 1999	الأعمال الإسرائيلية غير القانونية في القدس الشرقية المحتلة وبقية الأرض الفلسطينية المحتلة.
50/55	1 /12/ 2000	القدس.
55/55	1 /12/ 2000	تسوية قضية فلسطين بالوسائل السلمية.
127/55	8 /12/ 2000	عمليات وكالة الأمم المتحدة لإغاثة وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين في الشرق الأدنى.
129/55	8 /12/ 2000	جامعة القدس للاجئين الفلسطينيين.
130/55	8 /12/ 2000	أعمال اللجنة الخاصة المعنية بالتحقيق في الممارسات الإسرائيلية التي تمس حقوق الإنسان للشعب الفلسطيني وغيره من السكان العرب في الأراضي المحتلة.
131/55	8 /12/ 2000	انطباق اتفاقية جنيف المتعلقة بحماية المدنيين وقت الحرب، المعقودة في 12 أغسطس 1949، على الأرض الفلسطينية المحتلة، بما فيها القدس، وعلى الأراضي العربية المحتلة.
132/55	8 /12/ 2000	المستوطنات الإسرائيلية في الأرض الفلسطينية المحتلة، بما فيها القدس، والجولان السوري المحتل.
133/55	8 /12/ 2000	الممارسات الإسرائيلية التي تمس حقوق الإنسان للشعب الفلسطيني في الأرض الفلسطينية المحتلة، بما فيها القدس.

209/55	20 /12/ 2000	السيادة الدائمة للشعب الفلسطيني في الأرض الفلسطينية المحتلة، بما فيها القدس، وللسكان العرب في الجولان السوري المحتل على مواردهم الطبيعية.
دأط - 7/10	20 /12/ 2000	الأعمال الإسرائيلية غير القانونية في القدس الشرقية المحتلة وبقية الأرض الفلسطينية المحتلة.
31/56	3 /12/ 2001	القدس.
36/56	3 /12/ 2001	تسوية قضية فلسطين بالوسائل السلمية.
55/56	10 /12/ 2001	الهبات والمنح الدراسية المعروضة من الدول الأعضاء للتعليم العالي، بما في ذلك التدريب المهني للاجئين الفلسطينيين.
56/56	10 /12/ 2001	عمليات وكالة الأمم المتحدة لإغاثة وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين في الشرق الأدنى.
58/56	10 /12/ 2001	جامعة القدس للاجئين الفلسطينيين.
59/56	10 /12/ 2001	أعمال اللجنة الخاصة المعنية بالتحقيق في الممارسات الإسرائيلية التي تمس حقوق الإنسان للشعب الفلسطيني وغيره من السكان العرب في الأراضي المحتلة.
60/56	10 /12/ 2001	انطباق اتفاقية جنيف المتعلقة بحماية المدنيين وقت الحرب، المنعقدة في 12 أغسطس 1949، على الأرض الفلسطينية المحتلة، بما فيها القدس، وعلى الأراضي العربية المحتلة الأخرى.
61/56	10 /12/ 2001	المستوطنات الإسرائيلية في الأرض الفلسطينية المحتلة، بما فيها القدس، والجولان السوري المحتل.

62/56	2001 /12/ 10	الممارسات الإسرائيلية التي تمس حقوق الإنسان للشعب الفلسطيني في الأرض الفلسطينية المحتلة، بما فيها القدس.
204/56	2001 /12/ 21	السيادة الدائمة للشعب الفلسطيني في الأرض الفلسطينية المحتلة، بما فيها القدس، وللسكان العرب في الجولان السوري المحتل، على مواردهم الطبيعية.
دأط – 8/10	2001 /12/ 20	الأعمال الإسرائيلية غير القانونية في القدس الشرقية المحتلة وبقية الأرض الفلسطينية المحتلة.
دأط – 9/10	2001 /12/ 20	الأعمال الإسرائيلية غير القانونية في القدس الشرقية المحتلة وبقية الأرض الفلسطينية المحتلة.
110/57	2002 /12/ 3	تسوية قضية فلسطين بالوسائل السلمية.
111/57	2002 /12/ 3	القدس.
120/57	2002 /12/ 11	الهبات والمنح الدراسية المعروضة من الدول الأعضاء للتعليم العالي بما في ذلك التدريب المهني للاجئين الفلسطينيين.
121/57	2002 /12/ 11	عمليات وكالة الأمم المتحدة لإغاثة وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين في الشرق الأدنى.
123/57	2002 /12/ 11	جامعة القدس للاجئين الفلسطينيين.
124/57	2002 /12/ 11	أعمال اللجنة الخاصة المعنية بالتحقيق في الممارسات الإسرائيلية التي تمس حقوق الإنسان للشعب الفلسطيني وغيره من السكان العرب في الأراضي المحتلة.

125/57	11 /12/ 2002	انطباق اتفاقية جنيف المتعلقة بحماية المدنيين وقت الحرب، المعقودة في 12 أغسطس 1949، بما فيها القدس، وعلى الأراضي العربية المحتلة الأخرى.
126/57	11 /12/ 2002	المستوطنات الإسرائيلية في الأرض الفلسطينية المحتلة، بما فيها القدس الشرقية، والجولان السوري المحتل.
127/57	11 /12/ 2002	الممارسات الإسرائيلية التي تمس حقوق الإنسان للشعب الفلسطيني في الأرض الفلسطينية المحتلة بما فيها القدس الشرقية.
188/57	18 /12/ 2002	حالة الأطفال الفلسطينيين ومساعدتهم.
269/57	20 /12/ 2002	السيادة الدائمة للشعب الفلسطيني في الأرض الفلسطينية المحتلة، بما فيها القدس الشرقية، وللسكان العرب في الجولان السوري المحتل على مواردهم الطبيعية.
دأط - 10/10	7 /5/ 2002	الأعمال الإسرائيلية غير القانونية في القدس الشرقية المحتلة وبقية الأرض الفلسطينية المحتلة.
دأط - 11/10	5 /8/ 2002	الأعمال الإسرائيلية غير القانونية في القدس الشرقية المحتلة وبقية الأرض الفلسطينية المحتلة.
21/58	3 /12/ 2003	تسوية قضية فلسطين بالوسائل السلمية.
22/58	3 /12/ 2003	القدس.
93/58	9 /12/ 2003	عمليات وكالة الأمم المتحدة لإغاثة وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين في الشرق الأدنى.
96/58	9 /12/ 2003	أعمال اللجنة الخاصة المعنية بالتحقيق في الممارسات

		الإسرائيلية التي تمس حقوق الإنسان للشعب الفلسطيني وغيره من السكان العرب في الأراضي المحتلة.
97/58	9 /12/ 2003	انطباق اتفاقية جنيف المتعلقة بحماية المدنيين وقت الحرب، المؤرخة بـ 12 أغسطس 1949، على الأرض الفلسطينية المحتلة، بما فيها القدس الشرقية، وعلى الأراضي العربية المحتلة الأخرى.
98/58	9 /12/ 2003	المستوطنات الإسرائيلية في الأرض الفلسطينية المحتلة، بما فيها القدس الشرقية، والجولان السوري المحتل.
99/58	9 /12/ 2003	الممارسات الإسرائيلية التي تمس حقوق الإنسان للشعب الفلسطيني في الأرض الفلسطينية المحتلة، بما فيها القدس الشرقية.
155/58	22 /12/ 2003	حالة الأطفال الفلسطينيين ومساعدتهم.
229/58	23 /12/ 2003	السيادة الدائمة للشعب الفلسطيني في الأرض الفلسطينية المحتلة، بما فيها القدس الشرقية، وللسكان العرب في الجولان السوري المحتل على مواردهم الطبيعية.
دأط – 12/10	19 /12/ 2003	الأعمال الإسرائيلية غير القانونية في القدس الشرقية المحتلة، وبقية الأرض الفلسطينية المحتلة.
دأط – 13/10	21 /10/ 2003	الأعمال الإسرائيلية غير القانونية في القدس الشرقية المحتلة، وبقية الأرض الفلسطينية المحتلة
دأط – 14/10	8 /12/ 2003	الأعمال الإسرائيلية غير القانونية في القدس الشرقية المحتلة وبقية الأرض الفلسطينية المحتلة.

292/58	2004 /5/ 6	وضع الأرض الفلسطينية المحتلة، بما فيها القدس الشرقية.
31/59	2004 /12/ 1	تسوية قضية فلسطين بالوسائل السلمية.
32/59	2004 /12/ 1	القدس.
119/59	2004 /12/ 10	عمليات وكالة الأمم المتحدة لإغاثة وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين في الشرق الأدنى.
121/59	2004 /12/ 10	أعمال اللجنة الخاصة المعنية بالتحقيق في الممارسات الإسرائيلية التي تمس حقوق الإنسان للشعب الفلسطيني وغيره من السكان العرب في الأرض المحتلة.
122/59	2004 /12/ 10	انطباق اتفاقية جنيف المتعلقة بحماية المدنيين وقت الحرب، المؤرخة بـ 12 أغسطس 1949، على الأرض الفلسطينية المحتلة، بما فيها القدس الشرقية، وعلى الأراضي العربية المحتلة الأخرى.
123/59	2004 /12/ 10	المستوطنات الإسرائيلية في الأرض الفلسطينية المحتلة، بما فيها القدس الشرقية، والجولان السوري المحتل.
124/59	2004 /12/ 10	الممارسات الإسرائيلية التي تمس حقوق الإنسان للشعب الفلسطيني في الأرض الفلسطينية المحتلة، بما فيها القدس الشرقية.
173/59	2004 /12/ 20	حالة الأطفال الفلسطينيين ومساعدتهم.
179/59	2004 /12/ 20	حق الشعب الفلسطيني في تقرير المصير.
251/59	2004 /12/ 22	السيادة الدائمة للشعب الفلسطيني في الأرض الفلسطينية

		المحتلة، بما فيها القدس الشرقية، وللسكان العرب في الجولان السوري المحتل، على مواردهم الطبيعية.
دأط - 15/10	2004 /7/ 20	فتوى محكمة العدل الدولية بشأن الآثار القانونية الناشئة عن تشييد جدار في الأرض الفلسطينية المحتلة، بما فيها القدس الشرقية.
38/60	2005 /12/ 1	البرنامج الإعلامي الخاص الذي تضطلع به إدارة شؤون الإعلام بالأمانة العامة بشأن قضية فلسطين.
39/60	2005 /12/ 1	تسوية قضية فلسطين بالوسائل السلمية.
41/60	2005 /12/ 1	القدس.
102/60	2005 /12/ 8	عمليات وكالة الأمم المتحدة لإغاثة وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين في الشرق الأدنى.
104/60	2005 /12/ 8	أعمال اللجنة الخاصة المعنية بالتحقيق في الممارسات الإسرائيلية التي تمس حقوق الإنسان للشعب الفلسطيني وغيره من السكان العرب في الأراضي المحتلة.
105/60	2005 /12/ 8	انطباق اتفاقية جنيف المتعلقة بحماية المدنيين وقت الحرب، المؤرخة بـ 12 أغسطس 1949، على الأرض الفلسطينية المحتلة، بما فيها القدس الشرقية وعلى الأراضي العربية المحتلة الأخرى.
106/60	2005 /12/ 8	المستوطنات الإسرائيلية في الأرض الفلسطينية، بما فيها القدس الشرقية، والجولان السوري المحتل.

107/60	2005 /12/ 8	الممارسات الإسرائيلية التي تمس حقوق الإنسان للشعب الفلسطيني في الأرض الفلسطينية المحتلة، بما فيها القدس الشرقية.
146/60	2005 /12/ 16	حق الشعب الفلسطيني في تقرير المصير.
183/60	2005 /12/ 22	السيادة الدائمة للشعب الفلسطيني في الأرض الفلسطينية المحتلة، بما فيها القدس الشرقية، وللسكان العرب في الجولان السوري المحتل على مواردهم الطبيعية.
22/61	2006 /12/ 1	اللجنة المعنية بممارسة الشعب الفلسطيني لحقوقه غير القابلة للتصرف.
24/61	2006 /12/ 1	البرنامج الإعلامي الخاص الذي تضطلع به إدارة شؤون الإعلام بالأمانة العامة بشأن قضية فلسطين.
25/61	2006 /12/ 1	تسوية قضية فلسطين بالوسائل السلمية.
26/61	2006 /12/ 1	القدس.
114/61	2006 /12/ 14	عمليات وكالة الأمم المتحدة لإغاثة وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين في الشرق الأدنى.
116/61	2006 /12/ 14	أعمال اللجنة الخاصة المعنية بالتحقيق في الممارسات الإسرائيلية التي تمس حقوق الإنسان للشعب الفلسطيني وغيره من السكان العرب في الأراضي المحتلة.
117/61	2006 /12/ 14	انطباق اتفاقية جنيف المتعلقة بحماية المدنيين وقت الحرب، المؤرخة بـ 12 أغسطس 1949 على الأرض الفلسطينية

		المحتلة، بما فيها القدس الشرقية، وعلى الأراضي العربية المحتلة الأخرى.
118/61	14 /12/ 2006	المستوطنات الإسرائيلية في الأرض الفلسطينية المحتلة، بما فيها القدس الشرقية، وفي الجولان السوري المحتل.
119/61	14 /12/ 2006	الممارسات الإسرائيلية التي تمس حقوق الإنسان للشعب الفلسطينية في الأرض الفلسطينية المحتلة بما فيها القدس الشرقية.
152/61	19 /12/ 2006	حق الشعب الفلسطيني في تقرير المصير.
184/61	20 /12/ 2006	السيادة الدائمة للشعب الفلسطيني في الأرض الفلسطينية المحتلة، بما فيها القدس الشرقية، وللسكان العرب في الجولان السوري المحتل على مواردهم الطبيعية.
دأط – 16/10	17 /11/ 2006	الأعمال الإسرائيلية غير القانونية في القدس الشرقية المحتلة وبقية الأرض الفلسطينية المحتلة.
دأط – 17/10	15 /12/ 2006	إنشاء سجل الأمم المتحدة للأضرار الناشئة عن تشييد الجدار في الأرض الفلسطينية المحتلة.
82/62	10 /12/ 2007	البرنامج الإعلامي الخاص الذي تضطلع به إدارة شؤون الإعلام في الأمانة العامة بشأن قضية فلسطين.
83/62	10 /12/ 2007	تسوية قضية فلسطين بالوسائل السلمية.
84/62	10 /12/ 2007	القدس.
104/62	17 /12/ 2007	عمليات وكالة الأمم المتحدة لإغاثة وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين في الشرق الأدنى.

106/62	2007 /12/ 17	أعمال اللجنة الخاصة المعنية بالتحقيق في الممارسات الإسرائيلية التي تمس حقوق الإنسان للشعب الفلسطيني وغيره من السكان العرب في الأراضي المحتلة.
107/62	2007 /12/ 17	انطباق اتفاقية جنيف المتعلقة بحماية المدنيين وقت الحرب، المؤرخة بـ 12 أغسطس 1949 على الأرض الفلسطينية المحتلة، بما فيها القدس الشرقية، وعلى الأراضي العربية المحتلة الأخرى.
108/62	2007 /12/ 17	المستوطنات الإسرائيلية في الأرض الفلسطينية المحتلة، بما فيها القدس الشرقية، وفي الجولان السوري المحتل.
109/62 2007	2007 /12/ 17	الممارسات الإسرائيلية التي تمس حقوق الإنسان للشعب الفلسطيني في الأرض الفلسطينية المحتلة، بما فيها القدس الشرقية.
146/62	2007 /12/ 18	حق الشعب الفلسطيني في تقرير المصير.
181/62	2007 /12/ 19	السيادة الدائمة للشعب الفلسطيني في الأرض الفلسطينية المحتلة، بما فيها القدس الشرقية، وللسكان العرب في الجولان السوري المحتل على موارده الطبيعية.

المصدر: موقع الأمم المتحدة على الشبكة العنكبوتية

قرارات مجلس حقوق الإنسان

لما كان مجلس حقوق الإنسان يتبع منذ تشكيله في العام 2006 الجمعية العامة والذي يضم 47 عضوا فقد ارتأى الباحث إدراج بعض من قراراته ذات الصلة بالقدس في الجدول رقم 2 الذي يبين أرقام وتواريخ وموضوعات قرارات هذا المجلس.

رقم القرار	تاريخ القرار	موضوعه
4/2	27 /11/ 2006	المستوطنات الإسرائيلية في الأرض الفلسطينية المحتلة بما فيها القدس الشرقية والجولان السوري المحتل والذي اعتمد بأغلبية 45 صوتا مقابل صوت واحد وامتناع عضو واحد عن التصويت.
19/6	28 /9/ 2007	الحقوق الدينية والثقافية في الأرض الفلسطينية المحتلة بما فيها القدس الشرقية، اعتمد بأغلبية 31 صوتا مقابل صوت واحد وامتناع 15 عضوا عن التصويت.
20/6	28 /9/ 2007	الترتيبات الإقليمية بتعزيز وحماية حقوق الإنسان الدينية والثقافية التي يتضمنها الإعلان العالمي لحقوق الانسان في الأرض الفلسطينية المحتلة بما فيها القدس الشرقية والسماح للمصلين بالوصول من دون أي قيود إلى مواقعهم الدينية.
دأ-1/12 (أ)	16 /10/ 2009	حالة حقوق الإنسان في الأراضي الفلسطينية المحتلة بما فيها القدس الشرقية، اعتمد بأغلبية 25 صوتا مقابل 6 أصوات وامتناع 11 عضوا عن التصويت.

المصدر: موقع الأمم المتحدة على الشبكة العنكبوتية

ثانيا : مجلس الأمن

الجدول (3): يبين أرقام وتواريخ وموضوعات قرارات مجلس الأمن الخاصة بالقدس.

الرقم	التاريخ	مضامين القرارات
49	1948/5/22	وقف إطلاق النار في فلسطين - إعلان الهدنة في القدس
50	1948/5/29	الدعوة إلى وقف العمليات العسكرية مدة أربعة أسابيع - حماية الأماكن المقدسة.
54	1948/7/15	تكليف وسيط الأمم المتحدة بمواصلة جهوده لتجريد القدس من السلاح.
60	1948/10/29	تشكيل لجنة فرعية لتعديل مشروع القرار بشأن القدس
127	1958/1/22	تنظيم النشاطات بين الخطوط الفاصلة في القدس ومطالبة إسرائيل بالكف عن أعمالها في المنطقة
162	1961/4/11	حث إسرائيل على الامتثال لقرار لجنة الهدنة المشتركة بشأن القدس.
242	1967/11/22	إقرار مبادئ سلام عادل ودائم في «الشرق الأوسط».
250	1968/4/27	دعوة إسرائيل إلى الامتناع عن إقامة العرض العسكري في القدس.
251	1968/5/2	إبداء الأسف العميق لإقامة إسرائيل العرض العسكري في القدس.
252	1968/5/21	دعوة إسرائيل لإلغاء جميع إجراءاتها لتغيير وضع القدس.
267	1969/7/3	دعوة إسرائيل مجددا للالتزام بقرارات الأمم المتحدة الخاصة بالقدس وإلغاء جميع الإجراءات لتغيير وضعها.
298	1971/9/25	إبداء الأسف لعدم احترام إسرائيل لقرارات الأمم المتحدة الخاصة بإجراءاتها لتغيير وضع القدس.
338	1973/10/22	طلب وقف إطلاق النار والدعوة إلى تنفيذ القرار 1967/242 بكل بنوده.

465	1980/3/1	مطالبة إسرائيل بتفكيك المستوطنات القائمة والتوقف عن التخطيط للمستوطنات وبنائها في الأراضي المحتلة بما فيها القدس.
476	1980/6/30	إعلان بطلان الإجراءات التي اتخذتها إسرائيل لتغيير وضع القدس.
478	1980/8/20	عدم الاعتراف بـ «القانون الأساسي» بشأن القدس ودعوة الدول إلى سحب بعثاتها الديبلوماسية منها.
672	1990/10/13	الإعراب عن الجزع وإدانة أعمال العنف التي ارتكبتها قوات الأمن الإسرائيلية في الحرم القدسي الشريف وغيره من الأماكن المقدسة في القدس وراح ضحيتها أكثر من 170 شخصا بين شهيد وجريح.
673	1990/10/24	دعوة إسرائيل لاحترام قرارات الأمم المتحدة الخاصة بالقدس والقبول بقيام بعثة الأمم المتحدة بإجراء تحقيق بشأن أحداث الحرم الشريف في القدس.
996	30 /5/ 1995	النظر في تقرير الأمين العام عن قوة الأمم المتحدة لمراقبة فض الاشتباك، يطلب إلى الأطراف المعنية أن تنفذ فورا قراره 338 (1973) المؤرخ بـ 22 أكتوبر 1973.
1024	28 /11/ 1995	النظر في تقرير الأمين العام عن قوة الأمم المتحدة لمراقبة فض الاشتباك، يطلب إلى الأطراف المعنية أن تنفذ فورا قراره 338 (1973) المؤرخ بـ 22 أكتوبر 1973.
1057	30 /5/ 1996	النظر في تقرير الأمين العام بشأن قوة الأمم المتحدة لمراقبة فض الاشتباك.
1073	28 /11/ 1993	دراسة الوضع في مدينة القدس.

1081	27 /11/ 1996	النظر في تقرير الأمين العام عن قوة الأمم المتحدة لمراقبة فض الاشتباك، يطلب إلى الأطراف المعنية أن تنفذ فورا قراره 338 (1973) المؤرخ بـ 22 أكتوبر 1973.
1109	28 /5/ 1997	النظر في تقرير الأمين العام عن قوة الأمم المتحدة لمراقبة فض الاشتباك، يطلب إلى الأطراف المعنية أن تنفذ فورا قراره 338 (1973) المؤرخ بـ 22 أكتوبر 1973.
1139	21 /11/ 1997	النظر في تقرير الأمين العام عن قوة الأمم المتحدة لمراقبة فض الاشتباك، يطلب إلى الأطراف المعنية أن تنفذ فورا قراره 338 (1973) المؤرخ بـ 22 أكتوبر 1973.
1169	27 /5/ 1998	النظر في تقرير الأمين العام عن قوة الأمم المتحدة لمراقبة فض الاشتباك، يطلب إلى الأطراف المعنية أن تنفذ فورا قراره 338 (1973) المؤرخ بـ 22 أكتوبر 1973.
3947	25 /11/ 1998	النظر في تقرير الأمين العام عن قوة الأمم المتحدة لمراقبة فض الاشتباك، يطلب إلى الأطراف المعنية أن تنفذ فورا قراره 338 (1973) المؤرخ بـ 22 أكتوبر 1973.
1243	27 /5/ 1999	النظر في تقرير الأمين العام عن قوة الأمم المتحدة لمراقبة فض الاشتباك، يطلب إلى الأطراف المعنية أن تنفذ فورا قراره 338 (1973) المؤرخ بـ 22 أكتوبر 1973.
1276	24 /11/ 1999	النظر في تقرير الأمين العام عن قوة الأمم المتحدة لمراقبة فض الاشتباك، يطلب إلى الأطراف المعنية أن تنفذ فورا قراره 338 (1973)

		المؤرخ بـ 22 أكتوبر 1973.
1300	2000 /5/ 31	النظر في تقرير الأمين العام عن قوة الأمم المتحدة لمراقبة فض الاشتباك، يطلب إلى الأطراف المعنية أن تنفذ فورا قراره 338 المؤرخ بـ 22 أكتوبر 1973.
1322	2000 /10/ 7	تأكيد ضرورة الاحترام التام للأماكن المقدسة في مدينة القدس من جانب الجميع ويدين أي تصرف مخالف لذلك.
1328	2000 /11/ 27	النظر في تقرير الأمين العام عن قوة الأمم المتحدة لمراقبة فض الاشتباك، يطلب إلى الأطراف المعنية أن تنفذ فورا قراره 338 (1973) المؤرخ بـ 22 أكتوبر 1973.
1351	2001 /5/ 30	النظر في تقرير الأمين العام عن قوة الأمم المتحدة لمراقبة فض الاشتباك، يطلب إلى الأطراف المعنية أن تنفذ فورا قراره 338 (1973) المؤرخ بـ 22 أكتوبر 1973.
1381	2001 /11/ 27	التأكيد على قراري مجلس الأمن 242 و338، ويدعو إلى انسحاب القوات الإسرائيلية من المدن الفلسطينية.
1402	2002 /5/ 30	يعرب عن قلقه للحالة الإنسانية الأليمة للسكان المدنيين الفلسطينيين، ويؤكد ضرورة أن تضمن كل الأطراف المعنية سلامة المدنيين، وأن تحترم قواعد القانون الإنساني الدولي المقبولة عالميا.
1405	2002 /4/ 19	يطالب بانسحاب قوات الاحتلال الإسرائيلية على وجه السرعة من المدن الفلسطينية بهدف العودة إلى المواقع التي كانت ترابط فيها قبل سبتمبر 2000.

1435	24 /11/ 2002	يرى رؤية للمنطقة تقوم فيها دولتان، إسرائيل وفلسطين، تعيشان جنبا إلى جنب ضمن حدود آمنة ومعترف بها.
1397	12 /5/ 2002	يؤيد خريطة الطريق التي وضعتها اللجنة الرباعية، القائمة على الأداء والمفضية إلى حل دائم للنزاع الإسرائيلي - الفلسطيني، يقوم على أساس وجود دولتين تعيشان جنبا إلى جنب في أمن و سلام.
1515	19 /11/ 2003	يعيد تأكيد أنه من واجب إسرائيل، السلطة القائمة بالاحتلال، التقيد تقيدا صارما بالالتزامات والمسؤوليات القانونية بموجب اتفاقية جنيف الرابعة المتعلقة بحماية الأشخاص المدنيين في وقت الحرب والمؤرخة بـ 12 أغسطس 1949.
1544	19 /5/ 2004	1 - يطلب من الأطراف المعنية أن تنفذ فورا قراره 338 (1973) المؤرخ بـ 22 أكتوبر 1973. 2 - يطلب إلى الأمين العام أن يقدم في نهاية هذه المدة، تقريرا عن تطورات الحالة وعن التدابير المتخذة لتنفيذ القرار 338 (1973). 3 - يشدد على أهمية وضرورة تحقيق سلام شامل وعادل ودائم استنادا إلى جميع قراراته ذات الصلة بالموضوع، بما فيها قراراته 242 (1967) المؤرخ بـ 22 أكتوبر 1967 و1515 (2003) المؤرخ بـ 19 نوفمبر 2003. 4 - يشير إلى جميع قراراته السابقة ذات الصلة وإلى مبادئ مدريد. 5 -يرحب بالبيان الصادر عن المجموعة الرباعية في 9 نوفمبر
1605	2005/6/17	
1685	2006/6/13	
1729	2006/12/15	
1759	2007/6/20	
1773	2007/8/24	
1788	2007/12/14	
1821	2008/7/27	
1832	2008/8/27	
1848	2008/12/12	
1850	2008/12/16	

1860	2009/1/8	2008، وبالتفاهم الإسرائيلي الفلسطيني المشترك المعلن عنه في مؤتمر أنابوليس المعقود في نوفمبر 2007، بما في ذلك ما يتعلق بتنفيذ خريطة الطريق المستندة إلى الأداء، من أجل التواصل إلى حل دائم للصراع الإسرائيلي - الفلسطيني على أساس وجود دولتين، بالإفادة في ذلك من جميع الاتفاقيات والالتزامات السابقة. 6 - يدعو الطرفين والمجتمع الدولي إلى بذل جهود مجددة وعاجلة لإحلال سلام شامل يستند إلى الرؤية المتمثلة في وجود منطقة تعيش فيها دولتان ديمغرافيتان، إسرائيل وفلسطين، جنبا إلى جنب في سلام ضمن حدود آمنة ومعترف بها، حسب المتوقع في قرار مجلس الأمن 1850 (2008)، ويشير أيضا إلى أهمية مبادرة السلام العربية.

المصدر: موقع الأمم المتحدة على الشبكة العنكبوتية

ثالثا: مجلس الوصاية

الجدول (4): يبين أرقام وتواريخ وموضوعات قرارات مجلس الوصاية الخاصة بالقدس.

رقم القرار	تاريخه	مضامين القرارات
29 د-2	1947/12/11	الإقرار بأن اللجنة العاملة بشأن القدس بإمكانها الاستماع إلى الأطراف المعنية.
32 د-2	1948/3/10	الإعراب عن الرضا بشأن مشروع نظام القدس.
33 د-2	1948/3/10	الطلب إلى الأمين العام للجمعية العامة توفير اعتمادات متعلقة بمشروع نظام القدس.
34 د-2	1948/4/21	إحالة مسألة الموافقة على مشروع نظام القدس إلى الجمعية العامة.
113 دأ-2	1949/12/19	دعوة رئيس مجلس الوصاية لإعداد ورقة عمل حول نظام القدس.
114 دأ-2	1949/12/20	دعوة إسرائيل إلى إبطال نقل بعض الدوائر والوزارات إلى القدس.
117 د-6	1950/2/10	تقرير إنهاء إعداد مشروع نظام القدس.
118 د-6	1950/2/11	دعوة إسرائيل والأردن لإبداء رأيهما في تعديل مشروع نظام القدس.
232 د-6	1950/4/4	دعوة إسرائيل والأردن إلى التعاون في تنفيذ نظام القدس.
234 د-7	1950/6/14	ملاحظة عدم استعداد الأردن وإسرائيل للتعاون من أجل تنفيذ نظام القدس.

المصدر: محمود عواد (القدس في قرارات الأمم المتحدة منذ عام 1947) منشورات اللجنة الملكية لشؤون القدس (1) ص (612 و613).

رابعا: محكمة العدل الدولية والقدس

قبل الخوض في دراسة فتوى محكمة العدل الدولية الخاصة بجدار الفصل بناء على طلب الجمعية العامة في دورة انعقادها الاستثنائية دأط 10/14 بتاريخ 8 يناير 2004م الصادرة في 9 يوليو 2004م لا بد من التطرق إلى طبيعة محكمة العدل الدولية واختصاصاتها، وذلك لتفهم أهمية قرارها (فتواها) بشأن الجدار، التي تبنتها الجمعية العامة في دورة انعقادها الاستثنائية دأط 10/15 في 20 يوليو 2004 ومدى إلزامية هذا القرار الصادر عن الجمعية العامة والمستند إلى هذه الفتوى نصا وروحا.

محكمة العدل الدولية وفقا للفقرة الأولى من المادة السابعة من ميثاق الأمم المتحدة هي أحد الأجهزة الرئيسية التابعة للأمم المتحدة. وتنص المادة (92) الفقرة الأولى من الفصل (14) المخصص لمحكمة العدل الدولية على أن: «محكمة العدل الدولية هي الاداة القضائية الرئيسية للأمم المتحدة، وتقوم بعملها وفق نظامها الأساسي الملحق بهذا الميثاق وهو مبني على النظام الأساسي للمحكمة الدائمة للعدل الدولي وجزء لا يتجزأ من هذا الميثاق». هذا يعني أن المحكمة هي أحد أجهزة الأمم المتحدة الرئيسية باختصاص قضائي وليست منفصلة عنها وقائمة بذاتها كما هو حال المحكمة الدائمة للعدل الدولي التي كانت منظمة دولية مستقلة عن عصبة الأمم. وهي محكمة جديدة وفقا لمنطوق ذات المادة (92) وليست استمرارا للمحكمة الدائمة للعدل الدولي مع أن نظامها الأساس مبني على النظام الأساسي للمحكمة الدائمة للعدل الدولي[47].

وتتكون محكمة العدل الدولية من 15 قاضيا وفقاً للمادة (1/3) «ينتخبون من الأشخاص ذوي الصفات الخلقية الحائزين في بلادهم للمؤهلات المطلوبة للتعيين في أرفع المناصب القضائية، أو من المشرّعين المشهود لهم بالكفاية في القانون الدولي. وكل هذا بغض النظر عن جنسيتهم (م/2) شريطة ألا يكون فيها «أكثر من عضو واحد من رعايا دولة بعينها» (م/1/3). ويُنتخب قضاة المحكمة الدولية لمدة 9 سنوات «ويجوز إعادة انتخابهم، على أن ولاية خمسة من القضاة الذين وقع عليهم الاختيار في أول انتخاب للمحكمة يجب أن تنتهي بعد مضي ثلاث سنوات، وولاية خمسة آخرين بعد ست سنوات» (م/1/13). ويتم انتخابهم من الجمعية العامة ومجلس الأمن بالأكثرية المطلقة ومقر محكمة العدل الدولية ...» (م/1/22).

ولكن ماذا عن اختصاص محكمة العدل الدولية؟

لمحكمة العدل الدولية اختصاصان:

الأول: الاختصاص القضائي:

باستعراض المواد من (34 ـ 38) يتضح أن ولاية المحكمة بمباشرتها هذا الاختصاص تشمل «جميع القضايا التي يعرضها عليها المتقاضون، كما تشمل جميع المسائل المنصوص عليها

بصفة خاصة في ميثاق الأمم المتحدة، أو المعاهدات والاتفاقات المعمول بها» (م/1/36). وتجدر الإشارة إلى أن للمحكمة أن تفصل في الدعاوى ذات الطبيعة القانونية والسياسية إذا ما رفعت إليها بالتطبيق لأحكام نظامها. بيد أنه ومع ذلك «فمن الأمور الجديرة بالملاحظة أن المنازعات السياسية يصعب حلها عادة على أساس القانون، ولذلك فإن المتنازعين ـ إذا صح عزمهم على عرض النزاع ذي الطابع السياسي على المحكمة ـ يقرنون هذا العزم بالاتفاق على أن تفصل المحكمة فيه وفقا لمبادئ العدل والانصاف»[48]. وللمحكمة ممارسة اختصاصها وفق شروط أساسية وهي:

1 ـ أن يكون أطراف الدعوة دولا، إذ ليس من اختصاص المحكمة النظر في الدعاوى المرفوعة إليها من أو على أشخاص القانون الدولي من غير الدول مثل الأمم المتحدة وأجهزتها الرئيسية والمنظمات الإقليمية والدولية التقاضي أمام محكمة العدل الدولية وفقا للمادة (1/34).

2 ـ أن تكون الدول المتقاضية أطرافا في النظام الأساسي لمحكمة العدل الدولية وفقا للمادة (1/35) وهي الدول الاعضاء في هيئة الأمم المتحدة وفقا للمادة (93) من ميثاق الأمم المتحدة ولكنها أجازت في فقرتها الثانية للدول غير الأعضاء الانضمام إلى النظام الأساسي لمحكمة العدل الدولية بشروط تحددها الجمعية العامة لكل حالة بناء على توصية مجلس الأمن التي حددها في 15 أكتوبر1947 بـ «ضرورة إخطار المحكمة بقبول هذه الدول لاختصاص المحكمة وفقا لميثاق الأمم المتحدة والنظام الأساسي للمحكمة والتعهد بتنفيذ حكم المحكمة بحسن نية، وقبول الالتزامات الواردة في المادة (94) من ميثاق الأمم المتحدة فيما يتعلق باختصاص مجلس الأمن بتنفيذ أحكام المحكمة، ومن الجائز أن يكون الإخطار بقبول اختصاص المحكمة متعلقا بنزاع معين أو بطائفة أو اكثر من المنازعات»[49].

3 ـ قبول الدول المتقاضية كلها، صراحة أو ضمنا المثول أمام المحكمة والذي قد يتم بواسطة عقد أطراف النزاع لاتفاقية تنص على عرض ما قد ينشأ بينها من نزاعات مستقبلا على محكمة العدل الدولية، أو بالاتفاق فيما بينها على عرضه على محكمة العدل الدولية، أو بالإعلان المسبق لدول أطراف التقاضي بقبولها للاختصاص الإلزامي لمحكمة العدل الدولية وفقا لأحكام الفقرات 2، 3، 4، 6/ المادة (36) من النظام الأساسي لهذه المحكمة.

إن الإجراءات الواجب على المحكمة اتباعها عند نظرها لما يعرض عليها من دعاوى نظمتها المواد من (39 ـ 64) الواردة في الفصل الثالث من النظام الأساسي للمحكمة المعنون «في الإجراءات» وفيما يخص قرارات المحكمة فتصدر بالأغلبية المطلقة للقضاة الحاضرين. وبتساوي الأصوات فصوت الرئيس أو القاضي الذي ينوب عنه هو المرجع وفقا للمادة (55) مع سرد «الأسباب التي بني عليها» وأن «يضمن أسماء القضاة الذين اشتركوا فيه وفقا

للمادة (56). ولكل من القضاة «إذا لم يكن الحكم صادرا كله أو بعضه بإجماع القضاة ... أن يصدر بيانا مستقلا برأيه الخاص (م/57) باعتباره رأيا فرديا عند اتفاق القاضي مع منطوق الحكم ومعارضته لأسبابه ورأيا فرديا مخالفا إذا خالف الحكم في منطوقه وأسبابه على حد سواء.

الثاني: الاختصاص الإفتائي لمحكمة العدل الدولية

الاختصاص الإفتائي لمحكمة العدل الدولية حددته المادة (96) من ميثاق الأمم المتحدة التي نصت على أنه:

«1 ـ لأي من الجمعية العامة أو مجلس الأمن أن يطلب إلى محكمة العدل الدولية إفتاءه في أي مسألة قانونية.

2 ـ ولسائر فروع الهيئة والوكالات المتخصصة المرتبطة بها، ممن يجوز أن تأذن لها الجمعية العامة بذلك في أي وقت، أن تطلب أيضا من المحكمة إفتاءها فيما يعرض لها من المسائل القانونية الداخلة في نطاق أعمالها».

أما الأحكام الأساسية الواجبة على المحكمة مراعاتها لدى مباشرتها لاختصاصها الإفتائي فقد تناولتها المواد من (60 ـ 65) من النظام الأساسي لمحكمة العدل الدولية الواردة في الفصل الرابع من النظام الأساسي المعنون «في الفتاوى» في حين أضافت المادة (68) إلى ذلك أنه «عندما تباشر المحكمة مهمة الإفتاء تتبع ـ فوق ما تقدم ـ ما تراه هي ممكن التطبيق من أحكام هذا النظام الأساسي الخاصة بالمنازعات القضائية»[50].

بيد أنه تجدر الإشارة في هذا السياق إلى أن المحكمة لا تباشر اختصاصها الإفتائي (الاستشاري) إلا ما يتعلق بالمسائل ذات الطبيعة القانونية وليست السياسية في حين أنها في مجال اختصاصها القضائي لها الحق في نظر الدعاوى ذات الطبيعة القانونية والسياسية[51]. كما أن اختصاص محكمة العدل الدولية الإفتائي مقصور على الجمعية العامة ومجلس الأمن ومن تأذن له الجمعية بذلك من الأجهزة الرئيسية التابعة لها أو الوكالات المتخصصة المرتبطة بها، باستثناء اتحاد البريد العالمي، بطلب الآراء الاستشارية من محكمة العدل الدولية عندما ترى ذلك مناسبا ومن بين الأجهزة المسموح لها بطلب آراء استشارية: مجلس الوصاية، والمجلس الاقتصادي والاجتماعي، والجمعية الصغيرة، ولجنة إعادة النظر في أحكام المحكمة الإدارية للأمم المتحدة[52].

ومع أنه متروك لطالبي الآراء الاستشارية الأخذ بها أو الالتفات عنها، فإنه في العادة استقر العمل في الأمم المتحدة، وفي سائر الوكالات المتخصصة على احترام الفتاوى الصادرة عن محكمة العدل الدولية والالتزام بها كما لو كانت ملزمة «بحيث اكتسبت ـ في الواقع ـ قوة أكبر بكثير مما قد يتبادر إلى الذهن، لا تقل ـ عملا ـ عن قوة الأحكام الملزمة»[53].

في ضوء ما تقدم من عرض للإطار القانوني بشأن طبيعة محكمة العدل الدولية وولايتها واختصاصها القضائي والإفتائي يمكن للمرء البدء باستعراض فتوى المحكمة بشأن جدار الفصل ومناقشة الآثار القانونية المترتبة على هذه الفتوى قبل وبعد تبني الجمعية العامة لها.

ابتداء لا بد من العودة إلى طلب الجمعية من محكمة العدل الدولية فتوى على وجه السرعة بموجب قرارها الرقم (Es-10/14) المتخذ في جلستها الثالثة والعشرين من الدورة الاستثنائية الطارئة العاشرة (داط 14/10) وفقا للفقرة الأولى من المادة السادسة والتسعين من ميثاق الأمم المتحدة عملا بالقرار الرقم 377 ألف (د ـ 5) المعروف بقرار «الاتحاد من أجل السلام» والمخصصة للنظر في «الأفعال الإسرائيلية غير القانونية في القدس الشرقية المحتلة وسائر الأراضي الفلسطينية المحتلة الأخرى» بشأن المسألة الآتية:

«ما هي الآثار القانونية الناشئة عن تشييد الجدار الذي تبنيه إسرائيل، السلطة القائمة بالاحتلال، بإقامته في الأرض الفلسطينية المحتلة، بما في ذلك (القدس الشرقية) وحولها، على النحو المبين في تقرير الأمين العام، وذلك من حيث قواعد ومبادئ القانون الدولي بما في ذلك اتفاقية جنيف الرابعة للعام 1949، وقرارات مجلس الأمن والجمعية العامة ذات الصلة؟» وبعد أن قررت المحكمة صوابية الإجراءات المتبعة من جانب الجمعية العامة بطلب هذه الفتوى وقررت كذلك أنها صاحبة الاختصاص[54] في نظر موضوع الفتوى خلصت إلى القرار الآتي:

وبالفعل نشطت محكمة العدل الدولية فور تلقيها طلب الجمعية العامة ولم تنجح جميع محاولات إسرائيل في ثنيها عن نظر هذه القضية بدعوى عدم الاختصاص ومضت في إجراءاتها حيث اتخذت في جلستها الأخيرة القرار الآتي:

1 ـ بأنها «ذات اختصاص بالنسبة إلى إصدار الفتوى المطلوبة» .

2 ـ الاستجابه «لطلب إصدار الفتوى».

3 ـ والإجابة عن السؤال المطروح عليها من الجمعية العامة بالآتي:

«أ ـ إن تشييد الجدار الذي تقوم إسرائيل، الدولة القائمة بالاحتلال، ببنائه في الأرض الفلسطينية المحتلة، بما في ذلك «القدس الشرقية» وحولها والنظام المرتبط به، يتعارض مع القانون الدولي.

ب ـ إسرائيل ملزمة بوضع حد لانتهاكاتها للقانون الدولي، وهي ملزمة بأن توقف على الفور أعمال تشييد الجدار الذي تبنيه في الأرض الفلسطينية المحتلة، بما فيها «القدس الشرقية» وما حولها، وأن تفكك على الفور الهيكل الإنشائي القائم هناك، وأن تلغي على الفور أو تبطل مفعول جميع القوانين التشريعية واللوائح التنظيمية المتصلة به، وفقا للفقرة (101) من هذه الفتوى.

ج ـ إسرائيل ملزمة بجبر جميع الأضرار الناتجة عن تشييد الجدار في الأرض الفلسطينية المحتلة بما فيها «القدس الشرقية» وما حولها.

د ـ جميع الدول ملزمة بعدم الاعتراف بالوضع غير القانوني المترتب على تشييد الجدار وعدم تقديم العون أو المساعدة في الإبقاء على الوضع الناشئ عن هذا التشييد، وتتحمل جميع الدول الأطراف في اتفاقية جنيف الرابعة المتعلقة بحماية المدنيين وقت الحرب المؤرخة بـ 12 أغسطس 1949، مع احترامها لميثاق الأمم المتحدة والقانون الدولي، التزاما إضافيا، بكفالة امتثال إسرائيل للقانون الإنساني الدولي على النحو الوارد في تلك الاتفاقية.

هـ ـ ينبغي للأمم المتحدة، ولا سيما الجمعية العامة ومجلس الأمن، النظر فيما يلزم من إجراءات أخرى لإنهاء الوضع غير القانوني الناتج عن تشييد الجدار والنظام المرتبط به، مع المراعاة الواجبة لهذه الفتوى»[55].

إن مناقشة فتوى محكمة العدل الدولية تبدأ من حيث إن المحكمة لم تقف عند حدود السؤال بشأن تحديد الآثار القانونية الناشئة عن تشييد الجدار الذي تقوم به إسرائيل، السلطة القائمة بالاحتلال في الأرض الفلسطينية المحتلة بما في ذلك القدس الشرقية وحولها على النحو الذي تضمنه تقرير الأمين العام وفقا لقواعد ومبادئ القانون الدولي بما في ذلك اتفاقية جنيف الرابعة، وقرارات مجلس الأمن والجمعية العامة ذات الصلة بل «تناولت المحكمة بغية تحديد الوضع القانوني للجدار والتبعات القانونية المترتبة عليه، جوانب متعددة ومتنوعة من القضية الفلسطينية من أهمها: الوضع القانوني للأراضي المحتلة، حدود الإقليم الفلسطيني المحتل، انطباق اتفاقيات جنيف، ولا سيما اتفاقية جنيف الرابعة على هذه الأراضي، حق الشعب الفلسطيني في تقرير المصير، مسؤولية الكيان الصهيوني والأمم المتحدة والدول الأعضاء في المجتمع المدني»[56] بمعنى أن الرأي الاستشاري لم يبحث في مسألة الجدار بل تناول القضية الفلسطينية بجميع أبعادها متسلسلا في تطوراتها منذ عهد الانتداب وحتى خارطة الطريق وهي المرة الأولى في تاريخ القضية الفلسطينية التي يتم فيها تناولها من ناحية قانونية سوف تكون لها آثارها الإيجابية في أي مفاوضات قادمة بشأن الحل النهائي للقضية الفلسطينية وبخاصة فيما يتعلق بحق تقرير المصير للشعب العربي الفلسطيني، وإقامة دولته المستقلة وعاصمتها القدس الشرقية على كامل التراب الوطني الفلسطيني المحتل منذ 5 يونيو 1967، والمسؤولية الدولية التي تتحملها إسرائيل والأمم المتحدة والدول الأعضاء تجاه الشعب العربي الفلسطيني إذا ما أحسن الطرف الفلسطيني إدارة المفاوضات بالتشبث بقرار الجمعية العامة الذي تبنى فتوى محكمة العدل الدولية الآنفة الذكر ووجد الدعم العربي المعزز بالقوة المادية والسياسية.

والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن: **ما أهمية هذه الفتوى الصادرة عن محكمة العدل الدولية بشأن عدم شرعية الجدار؟**

فتوى محكمة العدل الدولية حسمت إلى جانب عدم شرعية الجدار خمس قضايا بالغة الأهمية ظلت في معظمها موضع جدل قانوني في إسرائيل والأوساط القانونية الداعمة لسياسات إسرائيل وهي:

أولا: تحديد الأراضي الفلسطينية المحتلة حيث جاءت فتوى المحكمة مؤكدة أن «الأراضي الفلسطينية المحتلة هي تلك الأراضي الواقعة ما بين الخط الأخضر الذي رسمته اتفاقية الهدنة الموقعة بين إسرائيل والأردن في العام 1949، وحدود فلسطين الشرقية كما حددها الانتداب البريطاني».

و هذا «الوصف القانوني الحاسم» يفضي إلى استخلاص ثلاث نتائج غاية في الأهمية:

الأولى: «إعادة الاعتبار» لقرار مجلس الأمن الرقم (242) للعام 1967 والذي ظلت إسرائيل تصر على تأويله بما يمكنها من تكريس احتلالها لأجزاء من الأراضي الفلسطينية المحتلة بذريعة أنه لا يتحدث عن الأراضي المحتلة، بل عن «أراض محتلة»، علما أن النص الفرنسي تحدث عن «الأراضي المحتلة»، كما جاءت جميع قرارات الجمعية العامة ومجلس الأمن وأهمها (338) للعام 1973 داحضة للرؤيا الإسرائيلية التي ظلت ماكينتها الإعلامية تعمل على تشتيت الأذهان بحديثها تارة عن «أراض محتلة» وثانية عن «أراض متنازع عليها» وثالثة عن «مناطق» وأخرى عن «يهودا والسامرة» إلى غير ذلك من تسميات تضليلية هدفها تكريس الاحتلال.

الثانية: عدم رسم الحدود بين فلسطين وإسرائيل، بل تضمنت الفتوى تحديد الأراضي المحتلة، وذلك أن موضوع الفتوى لم يكن «أين تقع الحدود الدولية لإسرائيل» بل مدى قانونية بناء الجدار في الأراضي الفلسطينية المحتلة.

الثالثة: انطباق اتفاقيات جنيف للعام 1949 على الأراضي الفلسطينية المحتلة مناقضة بذلك وجهة النظر الإسرائيلية التي ظلت ولا تزال تتذرع بتبريرها لجرائمها المرتكبة بحق الشعب العربي الفلسطيني منحرفة هي ومؤسساتها القضائية (محكمة العدل العليا الإسرائيلية) بكل القوانين الدولية عن سياستها الطبيعية وسامية بقوانينها الداخلية على القانون الدولي.

ثانيا: قضية القدس الشرقية، عندما قررت المحكمة في فتواها أن القدس الشرقية جزء لا يتجزأ من الأراضي الفلسطينية المحتلة ينطبق عليها كل القوانين الدولية الخاصة بالاحتلال شأنها شأن بقية الأراضي الفلسطينية المحتلة الأخرى. وهذا من وجهة نظر القانون الدولي يعني بطلان جميع التشريعات الإسرائيلية الخاصة بالقدس وفي مقدمتها «قانون أساسي القدس» الذي تضمن ضم القدس وإعلانها عاصمة موحدة لإسرائيل، وكذلك بطلان

التشريعات الأمريكية التي تناغمت مع السياسة الإسرائيلية مثل قانون نقل السفارة الأمريكية الصادر عن الكونجرس الأمريكي العام 1995.

ثالثا: قضية المستوطنات اليهودية في الأراضي الفلسطينية المحتلة بما في ذلك القدس. فقد استندت المحكمة في عدم شرعية الاستيطان الإسرائيلي إلى الفقرة السادسة من المادة 49 من اتفاقية جنيف الرابعة التي «تحرم على دولة الاحتلال نقل جزء من مواطنيها إلى أراض تحتلها».

رابعا: إنكار فتوى محكمة العدل الدولية على إسرائيل ادعاءها بحق الدفاع عن النفس وذلك أن حق ممارسة الدفاع عن النفس يشترط وجود جيوش وتحركات عسكرية من خارج الدولة وهذا غير متوافر. أما ما يجري من داخل الأراضي المحتلة التي تمارس إسرائيل عليها سلطة فعلية كونها السلطة القائمة بالاحتلال فإن «حق الدفاع عن النفس المزعوم من إسرائيل باطل ولا يستند إلى مسوغ قانوني، الأمر الذي يرى فيه بعض المختصين في القانون الدولي «لطمة كبرى لكل للادعاءات الإسرائيلية، ودحضا لكل الحجج التي تسوقها لتبرير ما تسميه باطلا حقها في الدفاع عن النفس»[57].

خامسا: حق الفلسطينيين أشخاصا طبيعيين كانوا أو أشخاصا اعتباريين في المطالبة بتعويض عما لحق بهم من أضرار أو قد يلحق بهم بسبب هذا الجدار. وذلك «يؤسس لما يسمى في القانون الدولي بـ «المسؤولية الدولية لإسرائيل باعتبار أن افعالها في بناء الجدار العازل هي تجاوزات أو أفعال يؤثمها القانون الدولي ويوجب على مرتكبيها إعادة الحال إلى ما كان عليه، وفي حالة الاستحالة، يوجب التعويض»[58].

وهناك من يرى أن الطبيعة الإلزامية لهذه الفتوى بعد تبني الجمعية العامة لها في قرارها المشار إليه آنفا والذي جاء على خلفية قرار الاتحاد من أجل السلام (337) ألف (د - 5) يرقى إلى مستوى القرارات الصادرة وفقا للفصل السابع بدليل أن الولايات المتحدة الأمريكية قد لجأت إلى استصدار قرار من الجمعية العامة لمساعدة كوريا الجنوبية في مواجهة غزو كوريا الشمالية لها وقادت استنادا إلى تلك الآلية بنفسها الحرب في كوريا تحت علم الأمم المتحدة، نظرا إلى فشل مجلس الأمن في معالجة وضع مهدد للسلم والأمن الدوليين المتمثل بالغزو الكوري الشمالي لكوريا الجنوبية بسبب نقض الاتحاد السوفييتي السابق لمشروع القرار الذي تقدمت به إلى مجلس الأمن بالاستناد إلى الفصل السابع.

وكذلك فعلت الولايات المتحدة في مواجهة العدوان الثلاثي البريطاني - الفرنسي - الإسرائيلي على مصر فيما عرف بأزمة السويس العام 1956 بسبب الفيتو البريطاني والفرنسي في مجلس الأمن[59].

في ضوء ما تقدم من عرض للإطار القانوني بشأن طبيعة محكمة العدل الدولية وولايتها واختصاصها القضائي والافتائي يمكن للمرء البدء باستعراض فتوى المحكمة

بشأن جدار الفصل ومناقشة الآثار القانونية المترتبة على هذه الفتوى قبل وبعد تبني الجمعية العامة لها.

ابتداء لا بد من العودة إلى طلب الجمعية من محكمة العدل الدولية فتوى على وجه السرعة بموجب قرارها ذي الرقم (Es-10/14) المتخذ في جلستها الثالثة والعشرين من الدورة الاستثنائية الطارئة العاشرة (داط 14/10) وفقا للفقرة الأولى من المادة السادسة والتسعين من ميثاق الأمم المتحدة عملا بالقرار الرقم (377) ألف (د ـ 5) المعروف بقرار «الاتحاد من أجل السلام» والمخصصة للنظر في «الأفعال الإسرائيلية غير القانونية في القدس الشرقية المحتلة وسائر الأراضي الفلسطينية المحتلة الأخرى» بشأن المسألة الآتية: (النص موجود في الأصل).

والسؤال الذي تطرحه فتوى محكمة العدل الدولية: ما أهمية هذه الفتوى ما دامت لا تعدو كونها رأيا استشاريا غير ملزم؟

مما لا شك فيه أن مثل هذا السؤال مشروع، فالآراء الاستشارية لمحكمة العدل الدولية غير ملزمة «إذا لم تسع أطراف النزاع لإعطاء الرأي الاستشاري قيمة قانونية بمحض إرادتها في علاقاتها المتبادلة يظل هذا الرأي الاستشاري خارج دائرة ترتيب الآثار القانونية الملزمة»[60]، وإن جرت العادة على احترام الجهة الطالبة للرأي الاستشاري بشأن المسألة المعروضة على محكمة العدل الدولية في الأمم المتحدة وحتى بالنسبة إلى الآراء الاستشارية الصادرة عن المحكمة الدائمة للعدل الدولي في عهد عصبة الامم.

ولكن هناك أسئلة أخرى ذات أهمية بالغة تطرح نفسها في هذا السياق وأهمها:

إذا كانت الفتوى (الرأي الاستشاري) غير ملزمة باعتبارها أو صفتها تطبيقا أو مفسرة لقاعدة قانونية، أو ليس القانون الذي استندت عليه الفتوى (الرأي الاستشاري) ملزما؟ ألا تتمتع الفتوى بدور كاشف عن القاعدة القانونية، «فيصح القول بوجوب النزول على مقتضى القانون الذي يستند الرأي الاستشاري إليه أو يعلنه، فما هي القيمة القانونية التي يمكن إضفاؤها على آثار إعلان عدم شرعية الجدار وتبعاته في الرأي الاستشاري؟»[61].

المتفحص لفتوى محكمة العدل الدولية بشأن عدم شرعية الجدار لا بد أن يتبين أنها كانت واعية لكل هذه الأسئلة المثارة آنفا وهو ما حدا بها إلى التأكيد على أن التزام الدول الأعضاء بعدم الاعتراف بالوضع غير القانوني الناجم عن بناء الجدار يندرج تحت إطار من الالتزامات «الحجة على الكافة بما يشير إلى أن هذا الأثر القانوني غير مستمد من فتواها نفسها، بل «من طبيعة الالتزام الواقع قانونا على عاتق الدول»[62]، بمعنى أن الالتزام المذكور يكون مستمدا من طبيعته وليس من الفتوى (الرأي الاستشاري)[63]. وهنا يثور سؤال آخر من الأهمية والمنطقية بمكان يتعلق بآثار وطبيعة إعلان الفتوى (الرأي الاستشاري) وهو: «هل في الإمكان القول إن الموضوع الذي أعلنت المحكمة رأيها الاستشاري بصدده يلقي بآثاره وطبيعته على إعلان الرأي الاستشاري ذاته؟».

والجواب على ذلك كما يراه المختصون في القانون الدولي يتلخص في أنه «سواء أكان الأساس القانوني للتبعات التي أوردتها المحكمة في رأيها الاستشاري، فكرة الالتزامات «الحجة على الكافة»، أم فكرة القواعد الآمرة، فإن أيا منها قد يكون أساسا صالحا للقول بحجية ما جاء في «الرأي الاستشاري ذاته»[64]. وهو ما ذهب إليه القاضي كوروما في رأيه الفردي معتبرا أن «قواعد القانون الدولي التي استندت المحكمة إليها في نتائجها التي توصلت إليها تتمتع بالحجية وبالقوة القانونية، وأن التبعات القانونية المذكورة في رأي المحكمة تلزم الدول كافة»[65].

لذا يتوقع بعض المختصين في القانون الدولي والذين تناولوا الأبعاد القانونية لفتوى محكمة العدل الدولية بشأن الجدار بالدراسة والتحليل أنه من الصعب على الجمعية العامة ومجلس الأمن تجاوز هذه الفتوى، سواء بالنسبة إلى الوضع غير الشرعي المترتب على الجدار أو بالنسبة إلى القضية الفلسطينية عموما، كما أنه من غير المتصور أن ينهجا سلوكا مخالفا للمبادئ القانونية التي تضمنتها فتوى المحكمة. فهي قد رسمت بفتواها الركائز القانونية لا العملية التي لا بد لأي حل للقضية الفلسطينية أن ينطلق منها؛ فأي حل نهائي للقضية الفلسطينية محكوم «باعتبارات النظام الدولي العام وبما تمليه القواعد الآمرة الدولية والقانون الدولي العام التطبيق، سواء أكان يتعلق ذلك بالأراضي الفلسطينية، أم بحدودها، أم بالقدس الشرقية، أم بحق تقرير المصير وعودة اللاجئين التي يتعذر من دونها وضع حق تقرير المصير موضع التنفيذ بشكل فعّال وكامل»[66].

وتجدر الإشارة في هذا السياق إلى أن القرار قد حُرر باللغتين الإنجليزية والفرنسية، مع اعتبار النص الفرنسي ذا الحجية. حُرر في قصر السلام، بلاهاي، وتتأكد أهمية هذا القرار القضائي الدولي التاريخي بأن الجمعية العامة للأمم المتحدة كانت الأولى التي بادرت إلى تبني هذا الرأي الاستشاري في قرارها المتخذ بتاريخ 20 يوليو 2004 بأغلبية 150 صوتا ضد 6 أصوات وامتناع 10 والذي يطلب من إسرائيل احترام رأي محكمة العدل الدولية والتوقف عن الاستمرار في بناء الجدار العازل، وتدمير الاجزاء التي بُنيت منه قبل يوليو 2004 والمقدرة آنذاك بنحو 200 كم من أصل 680كم، كما هو مخطط له في الأصل.

ويرى فقهاء القانون الدولي أن أهمية هذا القرار تكمن في أنه ذو «طبيعة كاشفة وآمرة[67] في آن معا، وذلك لاستناده إلى مبادئ القانون الدولي والقانون الدولي الإنساني والاتفاقيات الدولية وأهمها اتفاقية لاهاي للعام 1907 واتفاقيات جنيف الأربع للعام 1949 وجميع قرارات الأمم المتحدة وكشفه عن طبيعتها الإلزامية؛ فهو أخطر القرارات في تاريخ الأمم المتحدة، وهنا مبعث الخوف الذي يتملك إسرائيل من هذا القرار وإصرارها على رفضه بحجة عدم الاختصاص، تماما كما ظلت تقاوم قرار الجمعية العامة رقم 1975/3379 وتعتبره غير ملزم، وعملت هي والولايات المتحدة جل جهدهما على إلغائه ونجحتا في ذلك في دورة الجمعية العامة للعام 1991م.

أما بخصوص ردود الفعل على فتوى محكمة العدل الدولية بشأن تشييد الجدار في الأرض الفلسطينية المحتلة، بما في ذلك «القدس الشرقية» وما حولها، فقد تفاوتت بين رافض له بالمطلق كما فعلت إسرائيل، ومعترض عليه باعتباره يلحق الضرر بعملية السلام، كما هو موقف الولايات المتحدة الأمريكية، ومؤيد له بالمطلق، معتبرا إياه نصرا لقضية فلسطين والقدس وصفعة موجعة لدولة الاحتلال ولسياساتها التهويدية، كما يرى الفلسطينيون والعرب، لا بل إن صاحب السمو الملكي الأمير الحسن بن طلال عده القرار الأهم في تاريخ الصراع الإسرائيلي - العربي والذي جاء متجاوزا لكل قرارات الأمم المتحدة ذات الصلة، بما في ذلك القرار 1967/242 و1973/338، ليس لجهة توقيته فقط، بل لطبيعته الإلزامية بالنسبة إلى الجمعية العامة للأمم، ومجلس الأمن، ولجميع الدول الاعضاء، بما في ذلك إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية بقطع النظر عن احتجاج البعض بطبيعته الاستشارية أو غير الملزمة كما يرى هذا البعض [68].

المبحث الثاني

مضامين قرارات الأمم المتحدة ذات الصلة بالقدس

في ضوء الاستعراض المكثف للقرارات الشرعية الدولية (قرارات الأمم المتحدة) وبخاصة تلك الصادرة عن مجلس الأمن والجمعية الخاصة بقضية القدس المباشرة وغير المباشرة كونها ذات طبيعة سياسية يمكن القول إن الترجمة العملية للقرارات الشرعية الدولية تعني الآتي:

- تقسيم فلسطين إلى دولتين: يهودية على ما مساحته 56.74% من مجموع مساحة فلسطين، وأخرى عربية على ما مساحته 42.88% من مساحة فلسطين.

- تدويل القدس، وفقا للقرار 1947/181 الذي نص على وجوب أن يكون للقدس كيان منفصل Corpus Separatum يرتبط مع الدولتين الآنفتي الذكر من خلال الاتحاد الاقتصادي الفلسطيني وفقا لنظام يضعه مجلس الوصاية ويدخل حيز التنفيذ في موعد أقصاه 1 أكتوبر 1948، ويسري مفعوله ابتداء لعشرة أعوام على أن يعاد النظر في مجموع النظام من مجلس الوصاية في ضوء التجربة العملية المكتسبة[69]. وتبلغ مساحة القدس والقرى والبلدات المشمولة بالتدويل، كما عرفها القرار 1947/181 « ... القرى والبلدات وأبعدها شرقا أبو ديس، وأبعدها جنوبا بيت لحم، وأبعدها غربا عين كارم، ... والمنطقة المبنية من قرية قالونيا»[70].

- عدم شرعية احتلال إسرائيل للشطر الغربي من القدس في حرب العام 1948.

- عدم شرعية احتلال إسرائيل للأراضي الفلسطينية المخصصة للدولة الفلسطينية والبالغة نحو 20% من مجموع أراضي الدولة الفلسطينية كما هي معرفة في قرار التقسيم.

- عدم شرعية احتلال إسرائيل للأراضي العربية في الضفة الغربية والشطر الشرقي من القدس والجولان السوري وشبه جزيرة سيناء في حرب الخامس من يونيو العام 1967.

ـ عدم جواز اكتساب أراضي الغير بالقوة ولا بالتقادم أيضا.

ـ بطلان جميع إجراءات تهويد الأراضي العربية المحتلة في فلسطين، بما في ذلك القدس أو في أي أراض عربية محتلة أخرى، تشريعية كانت أو سياسية أو استيطانية أو ديموغرافية أو حضارية أو دينية، ومطالبة إسرائيل بالامتناع فورا عن الإتيان بأي عمل من شأنه أن يغير في الطبيعة الدينية أو الحضارية أو الديموغرافية للأراضي العربية المحتلة في فلسطين والقدس في مقدمتها، وفي غيرها من الأراضي العربية المحتلة الأخرى.

ـ عدم شرعية الاستيطان ومطالبة إسرائيل، السلطة القائمة بالاحتلال بتفكيك ما أُنشئ من الجدار العازل وتعويض المتضررين منه وفقا لفتوى محكمة العدل الدولية رقم 131 الصادرة في 9 يوليو 2004 والذي تبنته الجمعية العامة في قرارها بتاريخ 20 يوليو 2004 بأغلبية ساحقة.

ـ وجوب انسحاب إسرائيل من كامل الأراضي العربية المحتلة العام 1967 بما في ذلك الشطر الشرقي من القدس.

ـ الاعتراف بحق الشعب العربي الفلسطيني في تقرير مصيره وإقامة دولته المستقلة ذات السيادة التامة على ترابه الوطني.

ـ إدانة وشجب سياسة التهجير للسكان الفلسطينيين وسياسة الاستيطان وانتهاكاتها المتكررة لحقوق الإنسان ومطالبتها بتفكيك المستوطنات باعتبارها عملا غير شرعي[71].

المطلب الأول: المركز القانوني لقرارات الشرعية الدولية

(قرارات الأمم المتحدة)

المركز القانوني لقرارات الأمم المتحدة يستند إلى المكانة القانونية لأجهزة الأمم المتحدة نفسها التي تختلف في مسؤولياتها وصلاحياتها ومقاصدها والصلاحيات المخولة إليها بموجب ميثاق الأمم المتحدة لوضع قراراتها موضع التنفيذ. وتبعا لذلك يميز علماء وفقهاء القانون الدولي بين ثلاث فئات من القرارات:

أولا: قرارات غير ملزمة باعتبارها توصيات لا أكثر متروكا للمؤسسة وللأطراف المعنية بها وللدول الأعضاء حرية الالتزام بها من عدمه. فهي طوعية وليست قسرية. ويدخل في هذا الإطار جميع القرارات الصادرة عن الجمعية العامة لأنها لا تمتلك سلطة التشريع. فمثل هذه القرارات (التوصيات) تتمتع بقوة أدبية لا أكثر. لذا فإن هذه الرؤية غير الموضوعية لقرارات الجمعية العامة شجعت إسرائيل على تجاهل الجمعية العامة وقراراتها باعتبارها محفلا دوليا منحازا للطرف العربي باستثناء بعض القرارات التي قبلت بها انتقائيا لأنها تصب في مصلحتها كليا أو جزئيا مثل:

1 ـ القبول التكتيكي بالقرار (1947/181) الذي ضمن لها دولة يهودية في فلسطين.

2 ـ القبول التكتيكي بالقرار (1948/194) الذي منحها شرعية دولية بقبولها عضوا في هيئة الأمم المتحدة بناء على توصية مجلس الأمن ولكن بعد موافقتها على حق اللاجئين الفلسطينيين في العودة إلى ديارهم في أقرب وقت ممكن، وتعويض من لا يرغب منهم في العودة. وجاءت موافقة إسرائيل على القرار (194) الذي أكد مجددا تدويل القدس بعد طول مماطلة على لسان مندوبها الدائم في هيئة الأمم المتحدة آنذاك ولكنها سرعان ما تنكرت له بعد أن كان لها ما أرادت.

ثانيا: قرارات إلزامية غير مرتبطة بآليات تنفيذها أو بعقوبات تفرض على الطرف الذي يخالفها ويمتنع عن الإذعان لها. ويدخل في هذا الإطار جميع قرارات مجلس الأمن الخاصة بالصراع الإسرائيلي ـ العربي والقضية الفلسطينية والقدس. ومثل هذه القرارات يرى فريق من فقهاء القانون الدولي أنها ملزمة لإسرائيل، وأنها لا تحدد إطارا زمنيا معينا لتنفيذها أو تفرض عليها عقوبات في حالة عدم التزامها. وهو ما جعل بعض فقهاء القانون الدولي والمتخصصين في نشاطات وسياسات الأمم المتحدة وبعضهم عرب يعتقدون أن مثل هذه القرارات غير ملزمة ومتروك لإسرائيل تنفيذها أو عدمه. ومثل هذه الآراء الفقهية تصب في خانة المواقف الإسرائيلية السلبية من قرارات مجلس الأمن التي لا ترى فيها أكثر من توصيات كونها لم تصدر استنادا إلى الفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة. لذا فهي غير معنية بتطبيقها.

ثالثا : قرارات ذات طبيعة إلزامية وتشمل جميع القرارات الصادرة عن مجلس الأمن وفقا للفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة الذي يقرن قراراته بآليات تنفيذها وبعقوبات ضد الطرف الذي لا يذعن لها، تصل إلى حد استخدام القوة العسكرية ضده لإجباره على احترام إرادة المجتمع الدولي وقرارات الشرعية الدولية حفظا للامن والسلام الدوليين. ويكاد يجمع فقهاء القانون الدولي والمختصون في شؤون الأمم المتحدة على أن مجلس الأمن لم يتخذ قرارا صريحا أو ضمنا ذا صلة بالقدس مباشرة أو غير مباشرة أو بالقضية الفلسطينية الام أو بـ «الوضع في الشرق الأوسط» أو بالصراع الإسرائيلي العربي وفقا للفصل السابع من الميثاق[72].

ولكن هناك من يرى أن القرار 1967/242 الذي لم ينص في ديباجته على أن مجلس الأمن قد تحرك باتخاذه لهذا القرار استنادا إلى الفصل السابع ولكنه في الوقت ذاته لم يذكر العكس، بمعنى أن تجاهله لتحديد الفصل المتخذ بموجبه هذا القرار قد ترك الباب على ما يبدو، مفتوحا للاجتهادات الفقهية والقانونية الدولية. فالقائلون إنه قرار ملزم متخذ وفقا للفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة يستندون في تأويلهم إلى بنود القرار وديباجته التي تحدثت عن أن «جميع الدول الأعضاء بقبولها ميثاق الأمم المتحدة قد التزمت بالعمل وفقا

للمادة 2 من الميثاق»[73] وعن قلق «مجلس الأمن» المستمر بشأن الوضع الخطر في الشرق الأوسط ... وعدم جواز الاستيلاء على الأرض بالحرب»[74]. كما استندوا في فهمهم للقرار على آليات تنفيذية تضمنها القرار تقضي بـ «انسحاب القوات المسلحة الإسرائيلية من الأراضي التي احتلتها في النزاع الأخير ... وإنهاء جميع ادعاءات أو حالات الحرب، واحترام واعتراف بسيادة ووحدة أراضي كل دولة في المنطقة واستقلالها السياسي وحقها في العيش بسلام ضمن حدود آمنة ومعترف بها، حرة من التهديد بالقوة ... يؤكد أيضا الحاجة الى:

أ - ضمان حرية الملاحة في الممرات المائية الدولية في المنطقة.

ب - تحقيق تسوية عادلة لمشلكة اللاجئين الفلسطينيين.

ج - ضمان حرمة الأراضي والاستقلال السياسي لكل دولة في المنطقة عن طريق إجراءات من بينها إقامة مناطق مجردة من السلاح»[75].

ويميل الباحث إلى رأي فقهاء القانون الدولي العرب ومؤيديهم على الصعيد الدولي الذين يعتبرون القرار (242) كلا «لا يتجزأ ولا يعقل أن تكون أجزاء القرار ذات طبيعة مختلفة. فالطبيعة القانونية للقرار لا يجوز تجزئتها»[76]. وهناك من يرى «أنه لم يعد هناك وجه للتشكيك في إلزامية القرار بعد أن أمر مجلس الأمن الدولي من جديد في قراره الرقم 338 لسنة 1973 جميع الأطراف المعنية بأن تبدأ فورا بتنفيذ القرار الرقم 242 بكل أجزائه»[77].

أما الطرف الإسرائيلي وفقهاء القانون الدولي المشايعون له فيرون العكس تماما، فتأويلهم للقرار (242) بأنه قرار غير ملزم لأنه لا يشتمل إلا على مبادئ عامة ولم يربط القرار بآليات تنفيذه فضلا عن أنه لا ينص صراحة على أنه متخذ استنادا للفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة، لذا فإن إسرائيل غير معنية بتنفيذه مطلقا.

وتجدر الإشارة في هذا السياق إلى أن القرار الوحيد الذي اتخذ صراحة سندا للفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة هو القرار 1990/688 ضد العراق والذي نص على وجوب إخلاء منطقة الشرق الأوسط من أسلحة الدمار الشامل. ولما كانت إسرائيل دولة شرق أوسطية فهي معنية به مباشرة وواجب عليها تنفيذه، وإلا توجب على مجلس الأمن أن يشرع في اتخاذ التدابير الكفيلة بإلزام إسرائيل للإذعان إليه، كما فعل مع العراق وغيره من الدول. لا بل إن هناك من يرى على الأقل نظريا أنه يمكن لدولة أو مجموعة من الدول أن تأخذ على عاتقها إجبار إسرائيل على الإذعان للقرار.

ولكن مثل هذه الرؤيا تصطدم بحقيقة أن أي عمل عسكري لا بد أن يكون بقيادة الأمم المتحدة من خلال رئاسة هيئة أركان الحرب وفقا لمنطوق المواد 43 - 47 من ميثاق الأمم المتحدة وخاصة المادة 47 من الميثاق.

معينة منها وتحت إشرافها وعلمها، وهذا لن يحصل أبدا ما دامت إرادة المجتمع الدولي رهنا بإرادة الدولة العظمى، الولايات المتحدة الأمريكية، والدول السائرة في ركابها والتي تخضع بشكل أو بآخر لتاثير نفوذ اللوبي اليهودي الصهيوني وأذرع أخطبوط الحركة الصهيونية المتمددة في هذه الدول.

ولكن ماذا عن قرارات الأمم المتحدة الخاصة بالقدس من حيث الشكل؟

يمكن التمييز بين ثلاثة أشكال من القرارات:

1 ـ قرارات صريحة ومباشرة مثل القرار 1947/181 الذي تحدث عن إقامة دولتين عربية وأخرى يهودية، وكيان منفصل لمدينة القدس (تدويل القدس) والذي جرى تأكيده في القرارين 1948/194 و1949/303 الصادرين عن الجمعية العامة وغيرها من قرارات مجلس الأمن، واليونسكو، والمجلس الاقتصادي والاجتماعي، ومجلس الوصاية.

2 ـ قرارات مزدوجة تجمع بين النص الصريح والضمني. ويدخل في هذا الإطار جميع القرارات التي تتحدث عن «الأراضي العربية المحتلة بما فيها القدس».

3 ـ قرارات ضمنية غير مباشرة وتشمل جميع القرارات التي تتحدث عن انسحاب إسرائيل من الأراضي العربية المحتلة في حرب العام 1967م. ولما كان الشطر الشرقي من القدس قد احتل في تلك الحرب، فإنها بالضرورة والمنطق مشمولة بذلك النوع من القرارات[78].

المطلب الثاني: المركز القانوني للقدس في ضوء قرارات الأمم المتحدة

(القدس بين التدويل والاحتلال)

البحث في قضية القدس يعني ابتداء البحث في تدويلها وفقا للقرار 1947/181 واحتلال شطرها الغربي في حرب 1948 وشطرها الشرقي في حرب إسرائيل العدوانية ضد مصر والأردن وسورية في 7 يونيو 1967م.

وفيما يتعلق بتدويل القدس هناك من يرى عدم مشروعية هذا القرار استنادا إلى الأسباب الآتية:

1 ـ مخالفة بريطانيا، الدولة المنتدبة، لنظام الانتداب في دعوتها الجمعية العامة للنظر في مستقبل نظام الحكم في فلسطين، تحديدا مخالفتها لمنطوق المادة الخامسة من صك الانتداب التي تنص على: «أن تكون الدولة المنتدبة مسؤولة عن عدم التنازل عن شيء من أراضي فلسطين أو تأجيره أو وضعه تحت تصرف دولة أجنبية»، بمعنى أنها ملزمة بالحفاظ على وحدة الأراضي الفلسطينية وسلامتها، ومن ثم فإن تدويل القدس يعد تنازلا عن جزء من الإقليم الفلسطيني.

2 ـ تحريم ميثاق الأمم المتحدة التفريط في أي حق من حقوق الشعوب والأقاليم الخاضعة للوصاية، لا بل إنه منع تأويل نص أي حكم من أحكام الوصاية أو تخريجه على نحو تهدر معه

أي حقوق لتلك الشعوب أو الأقاليم، كما حظر أي تغيير في شروط الاتفاقيات الدولية القائمة حفاظا على تلك الحقوق باعتبارها وديعة مشتركة بين الأمم المتحدة والدولة الوصية، الأمر الذي يعني مخالفة الجمعية العامة لهذا المبدأ بانتزاعها القدس من السيادة الفلسطينية واخضاعها للتدويل فضلا عن أن صك الانتداب ليس فيه ما يشير صراحة أو ضمنا إلى فكرة التدويل.

3 ـ عدم اختصاص الجمعية العامة بمباشرة وظائف الأمم المتحدة في المناطق ذات الطبيعة الاستراتيجية، فمثل هذه المناطق تخضع للولاية القانونية لمجلس الأمن حصرا. ولما كان تدويل القدس قد جاء بمنزلة تسوية سياسية ذات أهمية خاصة تمثل مصالح دول متعارضة بما يحول دون تفاقم الصراع الدولي حولها فإن الجمعية العامة بقرارها (1947/181/الجزء الثالث) القاضي بتدويل القدس إما أن تكون غير ذات اختصاص لمباشرتها عملا يتعلق بمنطقة استراتيجية هو من اختصاص مجلس الأمن، وإما أن ذلك يدخل في اختصاصها، وعليه فإنه بحكم ميثاق الأمم المتحدة محظور عليها التفريط في مناطق استراتيجية.

4 ـ في حالة أن الوضع الذي كان قائما في فلسطين آنذاك كان خارجا عن نطاق سيطرة دولة الانتداب، بريطانيا، بما يسمح للجمعية العامة بمناقشته كونه يهدد الأمن والسلم الدوليين، فإن سلطة الجمعية العامة لا تتعدى تقديم توصيات وليس إصدار قرارات مثل قرار التدويل استنادا إلى المادتين (10و14) من الميثاق. وعليه فإن الجمعية العامة باتخاذها للقرار 1947/181 تكون قد تعدت اختصاصاتها لتهب بذلك (ما لا تملك لمن لا يستحق).

5 ـ أن الجمعية العامة بقرارها (181) الذي نص فعلا على إقامة دولة يهودية وتدويل القدس لم تنظر لتلك التوصية على أساس أنها «حق» بل محض «تسوية سياسية مفروضة»، فهذه التوصية ليست حكما قضائيا أو قرارا ذا طابع قانوني، وهو ما ظلت إسرائيل تتخذه ذريعة لعدم التزامها بقررات الجمعية العامة ومجلس الأمن الخاصة بالقدس أو بالقضية الفلسطينية[79].

وباحتلال إسرائيل للشطر الشرقي من القدس في 7 يونيو 1967 نشأ وضع فعلي جديد قائم على الاحتلال الحربي، وهو وضع مؤقت لا يمكن أن ينتج أثرا في المركز القانوني للمدينة. وعليه فإن العلاقة بين سلطة الاحتلال والإقليم المحتل تتحدد في ضوء المشكلة الناجمة عن الاحتلال الحربي والمتمثلة بازدواج السلطتين: «القانونية للإقليم المحتل، والفعلية لدولة الاحتلال وإمكان التوفيق بينهما»[80]. بمعنى أن ممارسة سلطة الاحتلال الحربي، أي إسرائيل، للإدارة الفعلية للإقليم المحتل يجب أن تتم وفق الحدود والقيود العامة المطبقة في العرف الدولي والمواثيق الدولية واتفاقيات لاهاي لسنة 1899 و1907، واتفاقيات جنيف الأربع للعام 1949 [81].

ولكن ماذا عن قرارات الأمم المتحدة وتوصياتها بشأن احتلال القدس؟

إن قراءة فاحصة لتلك القرارات والتوصيات ذات الصلة بالقضية الفلسطينية والقدس في المرحلة التي تلت احتلال القدس العام 1948 واستكمال احتلالها في حرب الخامس من يونيو العام 1967 التي تدور حول مسألتين جوهريتين تشير إلى أنها جاءت متناغمة مع قواعد قانون الاحتلال الحربي ومع مواثيق الأعراف الدولية من خلال الآتي:

1 ـ ثبات المركز القانوني للقدس وهو التدويل، بمعنى أن جميع ما تقوم به إسرائيل، السلطة القائمة بالاحتلال، باطل ولا ينتج أي آثار قانونية يعتد بها.

2 ـ إسرائيل، السلطة القائمة بالاحتلال عليها ممارسة اختصاصاتها الإدارية الفعلية في أضيق الحدود وبالقدر الذي يتطلبه أمن قواتها وليس باعتبارها صاحبة السيادة على القدس المحتلة. وعليه فإن جميع إجراءاتها التهويدية على اختلاف أشكالها باطلة وتضعها في مواجهة المسؤولية الدولية[82] وذلك وفقا لاتفاقية لاهاي للعام 1907 واتفاقية جنيف الرابعة للعام 1949.

المطلب الثالث: فاعلية قرارات الأمم المتحدة الخاصة بالقدس المباشرة وغير المباشرة

فاعلية سياسة الأمم المتحدة من خلال قراراتها الخاصة بالقدس محكومة بعدة عوامل أهمها:

ـ مدى انسجام قرارات الأمم المتحدة الخاصة بالقدس (القرارات الشرعية الدولية)، وتوصياتها مع ميثاقها ومبادئها.

ـ مدى استقلالية الأمم المتحدة وبخاصة أجهزتها الرئيسية: مجلس الأمن والجمعية العامة في عملية صنعها واتخاذها لقراراتها وتوصياتها.

ـ مدى قدرة الأمم المتحدة على ترجمة قراراتها إلى واقع عملي بعيد عن الضغوط الدولية أيا كان مصدرها.

إن دراسة متأنية وفاحصة لقرارات الأمم المتحدة الخاصة بالقدس المباشرة وغير المباشرة استنادا إلى العوامل الثلاثة الآنفة الذكر تقود إلى الاستنتاجات الآتية:

ـ إن القرار الرقم 1947/181 القاضي بتقسيم فلسطين إلى دولتين: عربية وأخرى يهودية قرار مشوب بعيب عدم الاختصاص كونه صادرا عن الجمعية العامة وليس عن مجلس الأمن صاحب الولاية القانونية في الفصل، فالجمعية العامة تباشر وظائف الأمم المتحدة المتعلقة باتفاقيات الوصاية على الأقاليم أو المناطق غير الاستراتيجية فقط. ولما كانت فلسطين منطقة استراتيجية فإنها بذلك تكون خاضعة لولاية مجلس الأمن وليس للجمعية العامة وفقا للمادة (1/85) من ميثاق الأمم المتحدة.

ـ إن القرار 1947/181 مشوب كذلك بعيب سوء استخدام السلطة، فالجمعية العامة معنية بتقديم التوصيات وليس باستصدار القرارات، بمعنى أنها غير مخولة أصلا باتخاذ قرار تدويل القدس وذلك وفقا للمادة (10 و14) من ميثاق الأمم المتحدة.

- فشل الأمم المتحدة في تطبيق قراراتها، سواء تلك الصادرة عن مجلس الأمن أو عن الجمعية العامة وذلك بفعل الضغوط الدولية وبخاصة الأمريكية عليها وبتأثير من أخطبوط الحركة الصهيونية والوكالة اليهودية بأذرعه المتعددة المنتشرة في العالم وبخاصة الولايات المتحدة الأمريكية لتبقى هذه القرارات حبرا على ورق، في حين أن قرارها 1947/181 (التوصية) قد عرف طريقه إلى الوجود فيما يخص استتباب الكيان الصهيوني في فلسطين، ولتبقى إقامة الدولة الفلسطينية مرهونة بإرادة إسرائيل وحليفها الاستراتيجي الولايات المتحدة الأمريكية والتي جاءت المفاوضات والاتفاقيات العلنية والسرية بين منظمة التحرير الفلسطينية والسلطة الوطنية من جهة، وبين الكيان الصهيوني من جهة أخرى، وكذلك خارطة الطريق، وأنابوليس لتجعل منها سرابا وحلما قد يطول لأجيال.

- إن عدم فاعلية قرارات الأمم المتحدة الخاصة بالقدس المباشرة وغير المباشرة مكنت إسرائيل من الآتي:

- إلغاء بعض قرارات الشرعية الدولية التي تشكل عبئا أخلاقيا وسياسيا على إسرائيل مثل قرار الجمعية العامة 1975/3379 الذي يعتبر الصهيونية شكلا من أشكال العنصرية، واتخذ بأغلبية ساحقة وغياب بعض الدول العربية.

- إعادة التفاوض على بعض القرارات وتحديدا المفصلية منها وأهمها القرار 1967/242م.

- التركيز على البعد الأمني للمفاوضات التي أخذت شكل تقرير ميتشل وخطة جورج تينت رئيس وكالة المخابرات المركزية الأمريكية.

- استخدام مجلس الأمن لصالح سياسة تكريس الاحتلال الإسرائيلي للقدس.

خاتمة

1 : مستقبل قرارات الأمم المتحدة

إن إسرائيل مدينة بوجودها إلى المنهج الانتقائي في تطبيق قرارات الأمم المتحدة، بينما ظل الكيان الفلسطيني على قارعة الطريق. ومما زاد الأمر تعقيدا سياسة المعايير المزدوجة التي تنتهجها الولايات المتحدة الأمريكية في تعاملها مع قرارات الأمم المتحدة، وذلك لا يهدد الأمم المتحدة بالفناء فقط، بل ويهدد الأمن والسلم الدوليين؛ إذ كيف يعقل أن تفكر إسرائيل في الامتثال لقرارات الأمم المتحدة في الوقت الذي يصادق فيه الرئيس الأمريكي السابق جورج بوش على قانون تفويض العلاقات الخارجية للعام 2003م والذي يعني الاعتراف بالقدس عاصمة لإسرائيل متجاهلا أن ذلك يتناقض كليا مع قرارات الأمم المتحدة التي ما كانت لترى النور لولا موافقة واشنطن عليها. كذلك مع سياسة أمريكا المعلنة تجاه القدس؟

إن سياسة المعايير المزدوجة التي تنتهجها أمريكا تجاه قضايا المنطقة العربية وأهمها القدس أدت إلى تجاهل إسرائيل لقرارات الأمم المتحدة بعد أن استنفدت أغراضها منها ووفرت لها الأجواء الكفيلة بتحقيق الآتي:

1 ـ تشبث إسرائيل باحتلالها للأراضي العربية المحتلة في فلسطين والجولان.

2 ـ تشبث إسرائيل بالقدس عاصمة موحدة وأبدية لها.

3 ـ إدارة إسرائيل الظهر لقرارات الأمم المتحدة حتى لتلك القرارات التي جاءت لصالحها بعد أن استنفدت أغراضها منها.

4 ـ تفكيك القضية الفلسطينية في بعدها الوطني إلى قضايا مثل قضية القدس واللاجئين والدولة والأمن والسيادة والحدود والمياه ليسهل بذلك ابتزاز الطرف الفلسطيني وحمله على تقديم تنازلات تلو أخرى.

5 ـ تجريد القضية الفلسطينية من بعدها القومي إذ لم يعد الصراع إسرائيليا ـ عربيا، بل أصبح إسرائيليا ـ فلسطينيا.

6 ـ تجريد القضية الفلسطينية من بعدها الإسلامي لتصبح قضية سياسية طرفاها الفلسطينيون والإسرائيليون، وليست قضية صراع بين مشروعين العربي الإسلامي من جهة واليهودي الصهيوني والمسيحي الصهيوني من جهة أخرى.

7 ـ تجريد القضية الفلسطينية من بعدها الدولي وذلك بسعي أمريكا وإسرائيل المتواصل لإلغاء بعض قرارات الأمم المتحدة، وتأويل بعضها لصالح إسرائيل، وإعادة التفاوض على بعضها الآخر باعتبارها قرارات إطار لا أكثر، وكف يد الأمم المتحدة بالانتقال بملف الصراع من الأمم المتحدة إلى البيت الأبيض[83].

ويمكن القول إن الآراء بشأن دور الأمم المتحدة بخصوص قضية القدس والاجتهادات الفقهية استنادا لقراراتها ذات الصلة بالقدس المباشرة وغير المباشرة تتباين إلى حد التناقض. فمن قائل إن دورها كان هداما كونها المسؤولة عن نشوء صراع القرن، الصراع الإسرائيلي – العربي، وعن الحروب المدمرة التي شهدتها المنطقة العربية والشرق الأوسط باستزراع الكيان الصهيوني من خلال القرار 1947/181 والتي لا يُرى لها نهاية في الأفق، ويمثل هذا الرأي الطرف العربي وبخاصة الفلسطيني، وبين من يرى أنه دور متوازن كونه يستند إلى خلق دولتين، ومطالبة الأمم المتحدة إسرائيل بالإذعان إلى الشرعية الدولية، ويمثل هذا الرأي المتعاطفون مع إسرائيل وأن ظلت الأمم المتحدة في الحقيقة عاجزة عن إلزام إسرائيل بالإذعان لقراراتها.

2 : استنتاجات

استنادا إلى ما تقدم من عرض وتحليل ومناقشة لموضوع «القدس في قرارات الشرعية الدولية» أي القدس في قرارات عصبة الأمم وهيئة الأمم المتحدة، والقدس لب القضية

الفلسطينية والأخيرة محور الصراع الإسرائيلي العربي في سياق إطارها التاريخي، يمكن التوصل إلى الاستنتاجات الآتية:

- القضية الفلسطينية وجوهرها قضية القدس قضية سياسية واحدة بالدرجة الأولى يستحيل الفصل بينهما تاريخيا وسياسيا وقانونيا إذ لا يمكن فصل الجزء عن الكل.

- البعد القانوني أو الاشكالات القانونية للقضية الفلسطينية ومحورها القدس بدأت منذ فرض الانتداب البريطاني على فلسطين بموجب صك الانتداب المصادق عليه من عصبة الأمم في 24 يوليو 1922، فقرار التقسيم ذي الرقم 1947/2/181 القاضي بتقسيم فلسطين ممن لا يملك هذا الحق، وهي الجمعية العامة للأمم المتحدة إلى دولتين: عربية وأخرى يهودية، وأن يكون للقدس كيان خاص بها وفق الحدود المعرفة في ذلك القرار.

- القدس من الناحية القانونية (De jure) لا تزال بشطريها الغربي والشرقي تحتفظ بمركزها القانوني وإن كانت عمليا (De facto) محتلة في شطرها الغربي منذ حرب 15 مايو في العام 1948، واستُكمل احتلالها باحتلال شطرها الشرقي في حرب الخامس من يونيو العدوانية التوسعية في العام 1967م.

- منذ احتلال القدس جزئيا وكليا صدر عن الأمم المتحدة وتحديدا عن الجمعية العامة ومجلس حقوق الإنسان المرتبط بها منذ العام 2006م، ومجلس الأمن والمجلس الاقتصادي والاجتماعي ولجنة حقوق الإنسان المرتبطة به منذ تشكيلها في العام 1946 حتى استبدالها بـ: «مجلس حقوق الإنسان» في العام 2006م وعن الوكالات المتخصصة ما ينيف على 300 قرار وكلها تعتبر إسرائيل دولة محتلة وتطالبها بالانسحاب من كامل الأراضي العربية المحتلة بما في ذلك القدس وبضرورة التزامها بميثاق الأمم المتحدة وبالقانون الدولي والقانون الدولي الإنساني والاتفاقيات ذات الصلة وأهمها اتفاقية لاهاي للعام 1907 واتفاقيات جنيف الأربع للعام 1949 وخاصة الرابعة منها، وعدم الاعتراف بشرعية إجراءاتها التشريعية، ورفض سياستها الاستيطانية ومطالبتها بالامتناع عن الإتيان بأي عمل من شأنه أن يغير في وضع الأراضي المحتلة بما في ذلك القدس، والتأكيد مرارا وتكرارا على عدم اعترافها بما سمي بـ: «قانون أساس القدس» أي عدم الاعتراف بضم القدس وإعلانها عاصمة موحدة لإسرائيل، واعتبار جميع إجراءاتها التهويدية على اختلاف أشكالها باطلة وملغاة.

- يؤخذ على قرارات الجمعية العامة وبحق أنها ذات طبيعة غير إلزامية واعتبارها مجرد توصيات وكذلك قرارات مجلس الأمن كونها صادرة وفقا للفصل السادس.

- هناك بعض فقهاء القانون الدولي العرب ومن يؤيدونهم من زملائهم الأجانب يجادلون في أن قرار مجلس الأمن 1967/242 ذو طبيعة إلزامية انطلاقا من ديباجته وكونه يتضمن آليات تطبيقه يستند ضمنيا إلى الفصل السابع وبالتالي فإنه ملزم لإسرائيل.

- هناك من يرى من فقهاء واساتذة القانون الدولي العرب أن فتوى محكمة العدل الدولية بشأن الجدار الذي تبنته الجمعية العامة في قرارها دأط 15/10 في 20 يوليو 2004 أنه أهم وأخطر قرار في تاريخ القضية الفلسطينية والقدس. فهو قد بعث الروح في جميع قرارات الأمم المتحدة ذات الصلة وذلك باستناده إلى مبادئ قانونية دولية هي «حجة على الكافة». فهذا القرار من منظور هؤلاء يرقى في طبيعته الإلزامية إلى مستوى القرارات الصادرة عن مجلس الأمن وفقا للفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة، فهو قرار ذو طبيعة آمرة وكاشفة في آن معا انطلاقا من المبادئ القانونية الآمرة التي استندت إليها فتوى محكمة العدل الدولية والتي جاءت بطلب من الجمعية العامة على خلفية القرار 377 (د - 5) التحالف من أجل السلام والذي يلجأ إليه عندما يفشل مجلس الأمن في معالجة مسألة أو عدوان أو غزو أو احتلال يهدد الأمن والسلم الدوليين. وهذا هو الحال بالنسبة إلى إصرار إسرائيل على عدم الالتزام بقرارات الشرعية الدولية.

- إن القضية الفلسطينية وجوهرها القدس بأبعادها المختلفة وعبر مراحلها التاريخية كانت ولا تزال مسألة قوة، فهي صاحبة القول الفصل، الأمر الذي يستشعره المرء حتى من خلال سلسلة قرارات الأمم المتحدة التي جاءت لتوازن بين ضعف الطرف العربي الظاهر وقوته الكامنة.

- لذا فإن الباحث يوصي بالبناء السياسي القانوني على قرار الجمعية العامة (دأط 15/10) واعتباره نقطة الانطلاق والأساس لأي تسوية للقضية الفلسطينية التي من غير المعقول والمتصور للجمعية العامة ومجلس الأمن أو أية جهة أخرى التغاضي عنه واعتباره كأن لم يكن. لكن تفعيل هذا القرار الذي لم يُوظف كما يجب حتى الآن في النشاط السياسي الفلسطيني والعربي يعتمد على وعي صناع القرار السياسي العربي لمصادر قوتهم الكامنة وامتلاك الإرادة لتوظيفها حتى يجد هذا القرار طريقه إلى التطبيق باعتباره الأول في تاريخ القضية الفلسطينية والقدس والذي يعالجهما من ناحية قانونية.

وأخيرا يمكن القول إن الأمم المتحدة بقرار جمعيتها العامة 1947/181، قرار تقسيم فلسطين إلى دولتين عربية وأخرى يهودية وتدويل القدس قد فجرت صراعا تاريخيا مضى على اندلاعه بأشكاله المختلفة حتى الآن واحد وستون عاما. وإن فشلها في تسوية هذا «الصراع المخضرم» لا يتمثل في عدم قدرتها على إقامة الدولة الفلسطينية وتدويل القدس وفقا لقرار التقسيم فحسب، بل في عجزها عن معالجة نتائج هذا الصراع، الذي يرى كثيرون أنها تتحمل المسؤولية الأدبية والقانونية والسياسية إزاءه، رغم فيض القرارات التي اتخذتها في هذا المجال.

الهوامش

1 لمزيد من التفاصيل راجع: الحاج زكي علي الغول، «بنو إسرائيل لم يدخلوا فلسطين .. قراءة جديدة في القرآن الكريم والتوراة»، الطبعة الثانية، دار الكرمل للنشر، عمان 2001م.

2 سورة آل عمران، الآيتان (67 و68).

3 سورة آل عمران، الآية (84).

4 سورة الحج، الآية (78).

5 د. فاروق الشناق، القدس في الصراع الإسرائيلي ـ العربي، في: القدس في الخطاب المعاصر، (تحرير شفيق جاسر محمود)، جامعة الزرقاء الأهلية، عمان، 1999، ص 189.

6 لمزيد من التفاصيل راجع: د. احمد شلبي، «مقارنة الأديان ـ اليهودية» طبعة 4، القاهرة، 1974، ص 103 والتي تليها، وكذلك لمزيد من التفاصيل راجع: د. احمد كمال شعث، «القدس الجريح محور الصراع الأبدي» القاهرة، 1996م.

7 سورة الإسراء، الآية (1).

8 أ. م. د. خضير عباس الجميلي، جامعة بغداد، ورقة عمل مقدمة إلى المؤتمر المنعقد في الفترة من 2 ـ 2000/10/3 تحت عنوان: «وحدة الأمة طريقنا لتحرير القدس»، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي – جامعة تكريت، اتحاد المؤرخين العرب، ص 19.

9 اللصت مثل اللص وتعني السارق وجمع لصوت، المحقق محمد أبو الفضل – الطبري، 609/3.

10 فلان كناية عن اسم يطلق على المحدث عنه خاص غالب، ويقال في غير الناس (الفلان)، الرازي مختار الصحاح مادة (فلن) ص 337 ولعله يقصد قبل مقتل من قتل منهم خلال الحروب والمواجهات.

11 الطبري، تاريخ 609/3، وكذلك ابن كثير، البداية والنهاية، جزء 7، ص 56 ـ 57.

12 كشاف اصطلاحات الفنون 500/2.

13 الكليات لأبي البقاء الكفوي، ص 524.

14 وائل كريم، «قراءة في قرار مجلس الأمن رقم (1850)» على الموقع الإلكتروني (www.palstine-info).

15 المصدر السابق نفسه.

16 د. الصادق شعبان، «قانون المنظمات الدولية» ـ تونس، 1985م، ص 19.

17 المصدر السابق نفسه، ص 20.

18 تشير المراجع إلى أن تأسيس عصبة الأمم قد كان في 1919/1/25م في حين أنها عقدت أول اجتماعاتها في 1920/1/10م وكانت آخر جلساتها الجلسة الحادية والعشرون في 1946/4/8م. لمزيد من التفاصيل راجع: د. محمد سامي عبدالحميد، «العلاقات الدولية.. مقدمة لدراسة القانون الدولي العام»، مكتبة مكاوي ـ بيروت، 1975، ص 239 والتي تليها.

19 قارن: Cf.L.M. Goodrich, The United Nations, Sterens, London, 1960, P. 54.

20 اعتادت الأدبيات السياسية العربية لأسباب أدبية أن تطلق على الصراع بين اليهودية الصهيونية وكيانها إسرائيل من جهة وبين العرب بـ: «الصراع العربي ـ الإسرائيلي»، أو «الفلسطيني ـ الإسرائيلي» ظنا منها أن في ذلك تقديرا للطرف العربي ويقتضيه الانتماء الوطني والقومي. ولكنها في الحقيقة تقترف دونما وعي خطأ فاحشا، إذ إن للتقديم والتأخير في «علم الصراعات» دلالة مغايرة تماما؛ فالطرف المقدم يعني الطرف المعتدي والمؤخر الطرف المعتدى عليه. ويحرص الطرفان اليهودي الصهيوني بخاصة والغربي بعامة دوما على عدم الوقوع في هذه المصيدة ليظهرا العرب طرفا معتديا وإسرائيل الطرف المعتدى عليه. لذا

لا بد من الانتباه إلى هذا الأمر مستقبلا وتقديم إسرائيل عند الحديث عن الصراع بصفتها الطرف المعتدي وليست الضحية كما يحلو لها أن تسوق نفسها دوما.

21 لمزيد من التفاصيل: راجع السفير د. حسين شريف، «السياسة الخارجية الأمريكية .. اتجاهاتها وتطبيقاتها وتحدياتها»، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 2005 ود. محمد سامي عبدالحميد، المصدر السابق نفسه، ص 240 والتي تليها.

22 د. محمد سامي عبدالحميد، المصدر السابق نفسه، ص 240 والتي تليها.

23 المصدر السابق نفسه، ص، 24.

24 هالة صالح، «الإطار القانوني لقضية القدس» في مجلة صامد الاقتصادي، العدد 1997/107، دار الكرمل، ص 12.

25 خليل إسماعيل الحديثي، «قضية القدس في الأمم المتحدة» في «القدس في: القدس في الخطاب المعاصر»، ورقة مقدمة إلى المؤتمر الأول لكلية الآداب بجامعة الزرقاء الاهلية للفترة من (12 ـ 13 مايو 1998)، الزرقاء، ص (92 ـ 158).

26 لمزيد من التفاصيل انظر، د. أحمد شلبي، «مقارنة الأديان .. اليهودية»، الإسكندرية 19، ولكن هناك من يقلل من شأن هذا المصدر لأنه لم يذكر المصدر الذي اقتبس منه، علما أن تسلسل الأحداث الخاصة بفلسطين والوطن العربي يؤكد صحة ما أورده د. شلبي من دون ذكر مصدره، ولعل ذلك يعود إلى أن مصدره وثيقة لم يكن مسموحا بالاطلاع عليها حين إعداده لمؤلفه.

27 ومبعث التخوف من أن تأتي «طلقة الرحمة» من المنطقة العربية يستند إلى أن هذه المنطقة تتمتع بخصائص حضارية، وتجانس عرقي وديني ولغوي وتكامل ديموغرافي، وتماثل في الموروث الشعبي والتقاليد والعادات ووحدة جغرافية طبيعية تمتد من البحر الأبيض المتوسط إلى المحيط الأطلسي ومن جبال أوراس وحتى المحيط الهندي ويحتوي جوفها على ثروات طبيعية هائلة يأتي في مقدمتها النفط، عصب الحياة والحضارة الغربية حاضرا ومستقبلا. للمزيد من التفاصيل راجع د. أحمد شلبي، مصدر سابق.

28 لمزيد من التفاصيل انظر: د. عبدالوهاب الكيالي، «تاريخ فلسطين الحديث»، بيروت 1973 ص 338 والصفحات التي تليها.

29 قارن: نفس المصدر، ص ، 39 والتي تليها.

30 قارن: أحمد طربين، «القدس في عصبة الأمم وهيئة الأمم المتحدة»، ورقة عمل مقدمة للندوة العلمية حول القدس وتراثها الثقافي في إطار الحوار الإسلامي - المسيحي «المنعقدة في الرباط من 3 ـ 5 جمادى الأولى هـ، 9 ـ 12 أكتوبر 1993، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، ص 66 والتي تليها.

31 المصدر السابق نفسه.

32 المصدر السابق نفسه.

33 صالح مسعود أبو نصير، «جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن»، بيروت 1974، ص 251.

34 د. عبدالوهاب الكيالي، «الموجز في تاريخ فلسطين الحديث»، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1973، ص 174.

35 محمود عواد ود. زهير غنايم، القدس في طروحات التسوية السياسية (جمع وتحرير)، منشورات اللجنة الملكية لشؤون القدس، طبعة (1)، عمان 2001، ص 239 ـ 240

36 لمزيد من التفاصيل راجع: محمود عواد ود. زهير غنايم، مصدر سابق، وكذلك
http://domeno.un.org/UNISPAL (2009/2/10).

37 قارن: خليل إسماعيل الحديثي، «قضية القدس في الأمم المتحدة»، المصدر السابق نفسه، ص 93.

38 وللتدليل على غزارة المؤلفات والدراسات والبحوث التوثيقية منها والتحليلية تجدر الإشارة إلى بعض منها على سبيل المثال لا الحصر:

- الأمم المتحدة: تحليل لقرارات الأمم المتحدة المتعلقة بالقضية الفلسطينية المرفوعة إلى الدورة الثانية للجمعية العامة رقم (11) A/364 في 3 سبتمبر 1947م.
- الأمم المتحدة: تحليل لقرارات الأمم المتحدة الرئيسية الخاصة بالقضية الفلسطينية من وجهة نظر القانون الدولي ST/SG/SR/4 نيويورك 1979.
- قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين و«الصراع العربي الإسرائيلي 1947 ـ 1974»، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، سلسلة الوثائق الأساسية، بيروت 1975.
- قرارات الأمم المتحدة للأعوام 1977 ـ 1981، أبو ظبي.
- قرارات الأمم المتحدة منذ العام 1947 وحتى الآن، محمود عواد، تدقيق فاروق الشناق، منشورات اللجنة الملكية لشؤون القدس، عمان 1995م.
- د. جورج ديب، «العدوان الإسرائيلي في الأمم المتحدة»، منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، بيروت 1968م.
- جورج طعمة، «تدويل القدس في الأمم المتحدة»، مجلة الأبحاث، الجزء الرابع، السنة السابعة، الجامعة الأمريكية، بيروت 1954م.
- د. سالم الكسواني، المركز القانوني لمدينة القدس، عمان، ط1، 1977م.
- سامي الحكيم، «القدس»، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط1، 1970م.
- د. عز الدين فودة، «القدس في محيط العلاقات الدولية»، م.ت.ف، مركز الأبحاث، بيروت 1969م.
- د. محمد الفرا، «قضية القدس على الساحتين العربية والدولية»، في: مجلة شؤون عربية، العدد 40، جامعة الدول العربية، تونس 1984م.
- د. محمد الفرا، «القدس والوثائق المنسية»، ورقة عمل مقدمة في ندوة حول القدس، جامعة فيلادلفيا في 2001/11/11م.
- مصطفى عبدالعزيز، «التصويت والقوى السياسية في الجمعية العامة للأمم المتحدة»، م.ت.ف، مركز الأبحاث، بيروت 1968م.
- د. نقولا زيادة، «فلسطين»، في مجلة شؤون عربية، العدد 14، جامعة الدول العربية، تونس 1982م.
- وزارة الدفاع الوطني ـ الجيش اللبناني، «القضية الفلسطينية والخطر الصهيوني»، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ط1، 1974.
- باسمة الجزايري، «القدس .. وقرارات الأمم المتحدة»، في مجلة صامد الاقتصادي، العدد 85 يوليو ـ أغسطس ـ سبتمبر 1991 بيروت، ص (115 ـ 127).
- الموسوعة الفلسطينية ـ القسم الثاني، الدراسات الخاصة، المجلد السادس، بيروت 1990م.
- يحيى الفرحان، «قضية القدس»، سلسلة المدن الفلسطينية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، دائرة الثقافة في م.ت.ف، بيروت.
- د. سامي مسلم، «قرارات الأمم المتحدة حول فلسطين 1947 ـ 1972»، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ومركز الوثائق والدراسات، أبو ظبي، بيروت 1972م.

- تريز حداد، «القرارات والمبادرات الخاصة بالقضية الفلسطينية 1947 ـ 1988»، عمان 1988.
- ماجد الكيالي، «القدس في القرارات والمشاريع الدولية»، في مجلة صامد الاقتصادي، السنة 13، العدد 85، المصدر السابق نفسه ص (127 ـ 139).
- إبراهيم عبدالكريم، «قضية القدس .. الأمم المتحدة والقانون الدولي»، في مجلة التعاون، مجلس التعاون لدول الخليج ـ العربية السعودية، العدد 48 سبتمبر 1988.
- إميل توما، «جذور القضية الفلسطينية»، دار الجليل، دمشق 1984.
- الموسوعة الفلسطينية، الجزء الأول، تقسيم فلسطين.
- نبيل محمود السهلي، «القدس مدينة الصراع المفتوح»، القسمان الأول والثاني في: مجلة صامد الاقتصادي، العدد (2000/122م) ص، (145 ـ 164) والعدد (123 ـ 2001/124م)، ص (335 ـ 352).
- انتصار الشنطي، «الولايات المتحدة الأمريكية وقضية القدس»، صامد الاقتصادي، العدد/107، 1997م.
- رائد فوزي داوود، «فكرة التدويل في القانون الدولي وتطبيقاتها في ضوء قرارات الأمم المتحدة بمدينة القدس العربية»، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، القيادة العامة للقوات المسلحة بدولة الإمارات العربية المتحدة، على الموقع الإلكتروني: (10/2/2009) http://www.siironline.org.
- منى أسعد، «القدس في الأمم المتحدة»، في صامد الاقتصادي، السنة 19، العدد 107، يناير ـ فبراير ـ مارس1997، ص (29 ـ 43).
- د. فاروق الشناق، «القدس في قرارات الشرعية الدولية»، في: «القدس في قلب الصراع العربي ـ الإسرائيلي» في: مجلة الرابطة، عدد ممتاز، المجلد السادس ـ العدد الأول، ذو الحجة 1426هـ ـ يناير 2006م، ص (128 ـ 161).
- د. فاروق الشناق، «القدس في المنابر الدولية»، المؤتمر العام لبيت المقدس، بيروت 2005.
- U.N, The Orgins and evolution of the palastine problem. Part 2, 1947, "ST\SG\SER-F1".
- U.N, General Assembly, Ad hoc Committee, The Palastine Question, A\AC, "A4\32, 2, 1947".
- U.N, Official Records of General Assembly, Third Session, Supplement, no 2 document "A\468, Progress Report of the U.N Mediater on Palastine" Part 1, Session 111.

39 قارن: خليل الحديثي، المصدر السابق نفسه، ص 99 والصفحات التي تليها.

40 هالة صالح، «الإطار القانوني لقضية القدس»، في صامد الاقتصادي، السنة 19، العدد107، المصدر السابق نفسه، ص 12).

41 قارن: د. فايز صايغ، «الديبلوماسية الصهيونية» منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، بيروت، 1967، ص 145 والتي تليها، وكذلك أ.د جعفر عبدالسلام، «تأثير المقدسات الدينية على المركز القانوني لمدينة القدس» ـ موقع الإنترنت: (15.1.2009) http://www.alqudsonline.com. p9

42 الدول التي صوتت لصالح القرار كانت: الأرجنتين، أستراليا، بوليفيا، بيلوروسيا، كندا، تشيلي، الصين، كولومبيا، كوستاريكا، كوبا، تشيكوسلوفاكيا، جمهورية الدومنيكان، إيكوادور، فرنسا، غواتيمالا، هاييتي، هندوراس، أيسلندا، ليبيريا، لوكمسبورغ، المكسيك، هولندا، نيوزيلندا، نيكاراغوا، النرويج، بنما، باراغواي، بيرو، الفلبين، بولندا، أوكرانيا، جنوب أفريقيا، الاتحاد السوفييتي السابق، الولايات المتحدة الأمريكية، أوروغواي، فنزويلا، يوغوسلافيا، وقد صوتت ضد القرار: أفغانستان، بورما، مصر، الحبشة، الهند، إيران، العراق، لبنان، باكستان، المملكة العربية السعودية، سورية، اليمن، في حين امتنعت الدول الآتية عن

التصويت: بلجيكا، البرازيل، الدنمارك، سلفادور، اليونان، سيام، السويد، تركيا، المملكة المتحدة (المصدر السابق نفسه).

43 قارن: المصدر السابق نفسه.

44 قارن: د. فاروق الشناق، «القدس في قرارات الشرعية الدولية، المصدر السابق نفسه، ص 138 والتي تليها.

45 لمزيد من التفاصيل راجع: د. سالم الكسواني، مصدر سابق، ص 297 والتي تليها ود. فاروق الشناق، «القدس في الشرعية الإسلامية»، منشورات اللجنة الملكية لشؤون القدس، عمان 2001، ص 28 والتي تليها.

46 وليد الخالدي، «أرض السفارة الأمريكية في القدس .. الملكية العربية والمأزق الأمريكي» (ترجمة سمير نعيم خوري) طبعة 1، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت 2000، ص 54.

47 لمزيد من التفاصيل انظر: د. محمد سامي عبدالحميد، «العلاقات الدولية .. مقدمة لدراسة القانون الدولي العام» بيروت 1975، ص 438 والصفحات التي تليها.

48 قارن: المصدر السابق نفسه، ص 442 والتي تليها.

49 المصدر السابق نفسه، ص 445.

50 قارن: المصدر السابق نفسه، ص 451.

51 قارن: المصدر السابق نفسه، ص 452.

52 قارن: المصدر السابق نفسه.

53 المصدر السابق نفسه.

54 لمزيد من التفاصيل راجع: الأمير الحسن بن طلال ود. طاهر حمدي كنعان «مفهوم ونطاق الحقوق الفلسطينية أرضا وإنسانا» في «فتوى محكمة العدل الدولية بشأن الآثار القانونية الناشئة عن تشييد جدار في الأرض الفلسطينية المحتلة، رقم (131) بتاريخ 9 يوليو - يوليو 2004م، عمان، 2004، ص 5 والتي تليها.

55 فتوى محكمة العدل الدولية بشأن الآثار القانونية الناشئة عن تشييد جدار في الأرض الفلسطينية المحتلة رقم (131) بتاريخ 9 يوليو - يوليو 2004م، موقع محكمة العدل الدولية على الشبكة العنكبوتية.

56 محمد خليل الموسى، «رأي محكمة العدل الدولية في الجدار الفاصل: الأبعاد القانونية»، في مجلة «الدراسات الفلسطينية»، العدد 59 شتاء 2007، ص 5.

57 قارن: أنيس فوزي قاسم: «أهمية الرأي الاستشاري لمحكمة العدل الدولية في قضية الجدار العازل»، في «فتوى محكمة العدل الدولية» .. مصدر سابق، ص 4 والصفحات التي تليها.

58 المصدر السابق نفسه.

59 لمزيد من التفاصيل راجع: الأمير الحسن بن طلال ود. طاهر كنعان مصدر سابق.

60 لمزيد من التفاصيل راجع: الأمير الحسن بن طلال ود. طاهر حمدي كنعان «مفهوم ونطاق الحقوق الفلسطينية أرضا وإنسانا» في «فتوى محكمة العدل الدولية بشأن الآثار القانونية الناشئة عن تشييد جدار في الأرض الفلسطينية المحتلة رقم (131) بتاريخ 9 يوليو - يوليو 2004م، عمان، 2004، ص 5 والتي تليها.

61 محمد خليل الموسى، مصدر سابق، ص25.

62 المصدر السابق نفسه.

63 المصدر السابق نفسه.

64 المصدر السابق نفسه.

65 انظر الرأي الخاص بالجدار، الفقرة (8).

66 المصدر السابق نفسه.

67 لمزيد من التفاصيل راجع: محمد خليل الموسى، «رأي محكمة العدل الدولية في الجدار الفاصل: الأبعاد القانونية» في: مجلة الدراسات الفلسطينية، العدد 69 شتاء 2007 ص، (5 ـ 29).

68 الأمير الحسن بن طلال ود. طاهر حمدي كنعان، «مفهوم ونطاق الحقوق الفلسطينية أرضا وإنسانا» في: فتوى محكمة العدل الدولية، أنيس فوزي قاسم، المصدر السابق نفسه.

69 قارن: خليل الحديثي، المصدر السابق نفسه، ص 149.

70 قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم 1947/181 الفقرة (ب).

71 قارن: د. فاروق الشناق، «القدس في قرارات الشرعية الدولية»، مصدر سابق، ص146 والتي تليها، وكذلك قرارات الأمم المتحدة من (1947 ـ 2008).

72 قارن: د. فاروق الشناق، مصدر سابق، ص149.

73 قرار مجلس الأمن رقم 1967/242.

74 المصدر السابق نفسه.

75 المصدر السابق نفسه.

76 د. محمد إسماعيل علي السيد، «مدى مشروعية أسانيد السيادة الإسرائيلية في فلسطين.. دراسة في إطار القانون الدولي العام»، عالم الكتب، القاهرة، ص373 والتي تليها.

77 د. إبراهيم شحاتة، «الحدود الآمنة والمعترف بها» سلسلة دراسات فلسطينية رقم 37، بيروت، 1974.

78 قارن: د. فاروق الشناق، القدس في قرارات الشرعية الدولية، نفس مصدر سابق، ص151 والتي تليها.

79 قارن: خليل الحديثي، المصدر السابق نفسه، ص 148.

80 د. عز الدين فودة، «حق المدنيين بالأراضي المحتلة في الثورة على سلطات الاحتلال الحربي» في مجلة مصر المعاصرة، القاهرة العدد 338 ـ 1969 ص 205.

81 قارن: خليل الحديثي، المصدر السابق نفسه، ص 120.

82 قارن: المصدر السابق نفسه، ص 148.

83 قارن: عبدالله كنعان ود. فاروق الشناق، القدس وسياسة أضعف الإيمان، منشورات اللجنة الملكية لشؤون القدس، عمان، 2004، ص 43.

عالم الفكر
العدد 4 المجلد 38 أبريل - يونيو 2010

تناقضات وصف الهيكل المزعوم في النصوص التوراتية . . . رؤية هندسية معمارية

د.م. يحيى وزيري (*)

أولا : مقدمة

يعتمد اليهود في زعمهم أن الملك سليمان [1] قد بنى هيكلا للعبادة في موقع المسجد الأقصى الحالي، على بعض النصوص التي وردت في التوراة، وهم بذلك يريدون إضفاء البعد الديني والقداسة على مقولتهم المزعومة، التي كذّبتها جميع الحفريات التي جرت في القدس أو تحت وحول المسجد الأقصى منذ أكثر من مائة عام [2].

من جانب آخر فإننا، نحن المسلمين، نعتقد اعتقادا جازما أن هذا الهيكل المزعوم، ما هو إلا أكذوبة ولم يكن له وجود أصلا؛ لأن كل النصوص الدينية التي وردت في القرآن الكريم أو في الأحاديث النبوية الصحيحة، لم تذكر أن سليمان عليه السلام قد بنى هيكلا، بل جدد بناء المسجد الأقصى [3].

إن هذا البحث يهدف إلى دراسة النصوص التوراتية التي تحدثت عن أوصاف هندسية معمارية تفصيلية للهيكل المزعوم، من أجل إثبات التناقضات الواضحة في هذه النصوص التوراتية، سواء أكان هذا التناقض بين النصوص التوراتية نفسها أم مع الحقائق الهندسية والمعمارية المتعارف عليها عند المتخصصين في هذا العلم، وهو ما يؤكد أن هذه النصوص ليست وحيا من الله بل حُرِّفت عن طريق بعض الكتبة والأحبار، كما تثبت أن فكرة وجود

(*) أستاذ العمارة المساعد ومحاضر بكلية الآثار جامعة القاهرة - مصر.

هيكل، كما يزعم اليهود، هي فكرة مختلقة وليس لها أي أصل، وهو ما أيدته الحفريات الأثرية في مدينة القدس أو حول وتحت المسجد الأقصى المبارك، على مدى أكثر من مائة عام.

المنهج المتبع في الدراسة، كما يلي:

1 ـ اعتمد البحث على دراسة النصوص التوراتية التي تتحدث عن الهيكل المزعوم، في الكتاب المقدس النسخة العربية المترجمة، وكذلك النسخة «الإنجليزية» للتوراة، حتى يتم التأكد تماما من مطابقة النص العربى المترجم للتوراة مع النص الإنجليزي من حيث الوصف المعماري والمقاسات الهندسية.

وقد استُعين بأكثر من نسخة إنجليزية للتوراة لتعددها، وهو ما يتضح بالرجوع إلى هوامش الدراسة؛ لأننا لاحظنا أنه يوجد تعديل لبعض مقاسات الهيكل (وتحديدا ارتفاع رواق الهيكل) في بعض النسخ الحديثة، ويتبين ذلك بسهولة عند مقارنتها بالنسخ الإنجليزية القديمة نسبيا التي تتفق مع النسخة العربية للتوراة.

2 ـ البحث لا يتعرض للعقيدة اليهودية أو التناقضات الموجودة في التوراة بصفة عامة، فهذا ليس داخلا في مجال هذا البحث [4]، لكن يركز فقط على النصوص التي تصف الهيكل المزعوم من الناحية الهندسية والمعمارية، لإثبات التناقضات الواردة فيها.

3 ـ استشهدنا برسومات ونماذج الهيكل المزعوم وصوره من خلال عدد من المواقع الإسرائيلية الإلكترونية المخصصة لدراسة ووصف الهيكل طبقا لما ورد في التوراة، لإثبات التناقض الواضح في النصوص التوراتية الذي انعكس بدوره على هذه الرسومات والنماذج المجسمة.

ثانيا: وصف الهيكل المزعوم كما ورد في التوراة

«الهيكل» كلمة يقابلها في العبرية «بيت همقداش»، أي «بيت المقدس»، أو «هيخال»، وهي كلمة تعني «البيت الكبير» في كثير من اللغات السامية (الأكادية والكنعانية وغيرهما)، والبيت الكبير أو العظيم هو الطريقة التي كان يشار بها إلى مسكن الإله، فكلمة «فرعون» تعني «البيت الكبير» وهي تشبه إلى حد ما عبارة «الباب العالي»، وقد تبدت الطبقة الحلولية اليهودية التي تراكمت داخل التركيب الجيولوجي اليهودي في شكل تقديس الأرض الذي تمثل في عبادة يسرائيل والعبادة القربانية المركزية المرتبطة بالدول العبرانية المتحدة (1020ق.م) التي أشرف الكهنة على إقامة شعائرها، ومركز هذه العبادة القربانية هو الهيكل.

ومن أهم أسماء الهيكل «بيت يهوه»، لأنه أساسا مسكن للإله وليس مكانا للعبادة (على عكس الكعبة مثلا)، ومن هنا وعلى الرغم من أنه كان مصرحا للكهنة بل لعبيد الهيكل بالدخول فيه، فلم يكن يسمح لهم بالتحرك فيه بحرية كاملة، ولم يكن يسمح لأحد على الإطلاق بدخول قدس الأقداس إلا الكاهن الأعظم في يوم الغفران [5].

ولقد ورد وصف تفصيلي لهيكل سليمان المزعوم من حيث زمن بنائه ومقاساته ومواد البناء المستخدمة والمساحة الكلية، في بعض أسفار التوراة نفصلها فيما يلي:

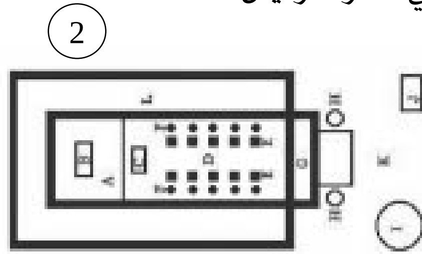
- سفر الملوك الأول، من الإصحاح الخامس إلى الإصحاح الثامن.
- سفر الملوك الثاني - الإصحاح الخامس والعشرون.
- سفر أخبار الأيام الثاني - من الإصحاح الثاني إلى الإصحاح الرابع.
- سفر حزقيال - من الإصحاح الأربعين إلى الإصحاح الثاني والأربعين.

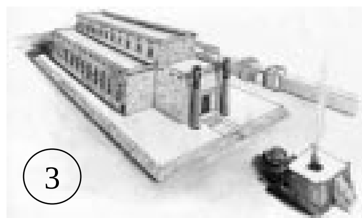
كما ورد في سفر عزرا بالإصحاحين الثالث والسادس، ذكر إعادة بناء الهيكل (الثاني) مرة أخرى بعد العودة من السبي البابلي، لكن من دون ذكر أوصاف تفصيلية عن هذا البناء كما في أوصاف الهيكل (الأول) الذي بناه الملك سليمان على حد اعتقادهم، إلا إشارة واحدة إلى مقاسات أساس هذا الهيكل (الثاني) ووصف لعدد صفوف الحجارة المستخدمة فيه.

مما سبق، فإن هيكل سليمان المزعوم يتكون بناء على وصف التوراة، من العناصر الأساسية التالية [6]، انظر الشكل (1 - أ، ب):

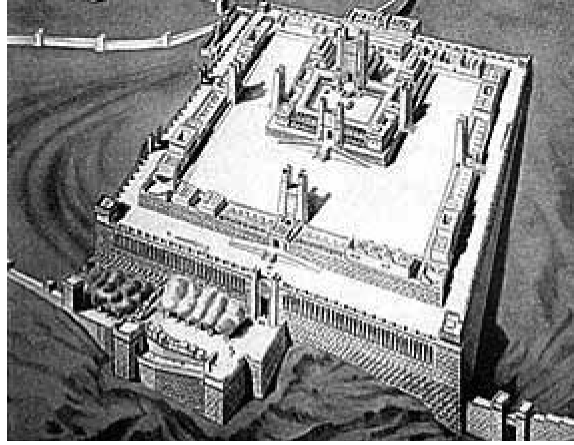
1 - رواق المدخل (G)، وأمامه عمودان (بوعز وياكين) (H).
2 - صالة الكهنة (D)، وبها الشمعدانات السباعية الأفرع (F) وموائد الخبز (E)، ومذبح البخور (C).
3 - غرفة قدس الأقداس (A)، وبها تابوت العهد (B).
4 - غرف تحيط بالمبنى من ثلاث جهات (الشمال والجنوب والغرب) (L).
5 - بحر البرونز الدائري أمام المبنى (I).
6 - مذبح القرابين أمام المبنى (J).
7 - عدد من المباني والساحات المكشوفة، وفق ما ورد في سفر حزقيال.
8 - سور مربع يحيط بكل ما سبق، وفق ما ورد في سفر حزقيال.

1


2


3


الشكل (1 - أ): مسقط أفقي ومنظوران تخيليان يوضحان المكونات الأساسية للهيكل المزعوم، كما ورد وصف عناصره في التوراة.



4

الشكل (1 ـ ب): منظور تخيلي يوضح الهيكل المزعوم والمباني والساحات التي حوله، وأخيرا السور المربع الذي يحيط بها وفق ما ورد وصفه في سفر حزقيال بالتوراة (منقول عن: www.phoenicia.org).

ثالثا: التناقضات الواردة في وصف التوراة للهيكل المزعوم

1 - التناقض في أعداد الوكلاء المشرفين على العمال:

أوردت بعض النصوص التوراتية أعداد العمال الذين استخدمهم سليمان، في تقطيع حجارة الهيكل من الجبل وأعداد العمال الذين يحملون الحجارة وينقلونها، وأخيرا أعداد العمال المشرفين على عمال التقطيع وعمال الحمل، وهو ما يتضح من خلال النصوص التوراتية الآتية:

ـ ورد في سفر الملوك الأول، الإصحاح الخامس (الفقرتين 15 و16) ما يلي [7]:

(15 وكان لسليمان سبعون ألفا يحملون أحمالا، وثمانون ألفا يقطعون في الجبل، 16، ماعدا رؤساء الوكلاء لسليمان الذين على العمل ثلاثة آلاف وثلاثمائة، المتسلطين على الشعب العاملين العمل).

وقد ورد النص السابق في التوراة باللغة الإنجليزية كما يلي [8]:

(15 Solomon also had 70,000 common laborers and 80,000 stonecutters in the hills, 16 besides 3,300 officials who supervised the workers).

ـ أما في سفر أخبار الأيام الثاني، الإصحاح الثاني (الفقرتين 1 و2) فقد ورد النص التالي [9]:

(1 وأمر سليمان ببناء بيت لاسم الرب، وبيت لملكه. 2 وأحصى سليمان سبعين ألف رجل حمال، وثمانين ألف رجل نحات في الجبل، ووكلاء عليهم ثلاثة آلاف وستمائة).

وورد النص نفسه في التوراة باللغة الإنجليزية كما يلي [10]:

(1 Solomon gave orders to build a temple for the Name of the LORD and a royal palace for himself. 2 He conscripted seventy thousand men as carriers and eighty thousand as stonecutters in the hills and thirty-six hundred as foremen over them).

- كما ورد في سفر أخبار الأيام الثاني، الإصحاح الثاني (الفقرتين 17 و18)، ما يلي [11]:

(17 وعدّ سليمان جميع الرجال الأجنبيين الذين في أرض إسرائيل، بعد العد الذي عدهم إياه داود أبوه، فوجدوا مائة وثلاثة وخمسين ألفا وستمائة، 18 فجعل منهم سبعين ألف حمال، وثمانين ألف قطاع على الجبل، وثلاثة آلاف وستمائة وكلاء لتشغيل الشعب).

وقد ورد بالنص الإنجليزى للتوراة كما يلي [12]:

(17 Solomon took a census of all the aliens who were in Israel, after the census his father David had taken; and they were found to be 153,600. 18 He assigned 70,000 of them to be carriers and 80,000 to be stonecutters in the hills, with 3,600 foremen over them to keep the people working).

- بدراسة النصوص التوراتية السابقة، يتضح لنا أن النص الأول الوارد في سفر الملوك الأول يحدد عدد الوكلاء المشرفين على العمال بثلاثة آلاف وثلاثمائة (3300)، أما النصان الآخران الواردان في سفر أخبار الأيام الثاني فيحددهم بثلاثة آلاف وستمائة (3600)، وهذا يعني أنه يوجد فرق بين الرقمين مقداره ثلاثمائة (300)عامل، فأيهما نصدق؟ وأي الرقمين هو الصحيح؟

إن التناقض الواضح في عدد المشرفين على العمال الذين يقطعون الحجارة أو يحملونها، لهو دليل قاطع على وجود خلل في النصوص التوراتية السابقة، ويشكك في مصداقيتها.

2 - التناقض في مقاسات الهيكل المزعوم

ورد في بعض النصوص التوراتية، المقاسات التفصيلية للهيكل المزعوم، طولا وعرضا وارتفاعا، وهو ما يتضح من النصوص التالية:

- ورد في سفر الملوك الأول، الإصحاح السادس (الفقرات 1 - 3) ما يلي [13]:

(1 وكان في السنة الأربعمائة والثمانين لخروج بني إسرائيل من أرض مصر، في السنة الرابعة لملك سليمان على إسرائيل، في شهر زيو وهو الشهر الثاني، أنه بنى البيت للرب،2 والبيت الذي بناه الملك سليمان للرب طوله ستون ذراعا، وعرضه عشرون ذراعا، وسمكه ثلاثون ذراعا. 3 والرواق قدام هيكل البيت طوله عشرون ذراعا حسب عرض البيت، وعرضه عشر أذرع قدام البيت).

وقد ورد في النسخة الإنجليزية للتوراة، ما يلي [14]:

(1 In the four hundred and eightieth year after the Israelites had come out of Egypt, in the fourth year of Solomon's reign over Israel, in the month of Ziv,

the second month, he began to build the temple of the LORD. 2 The temple that King Solomon built for the LORD was sixty cubits long, twenty wide and thirty high. 3 The portico at the front of the main hall of the temple extended the width of the temple, that is twenty cubits, and projected ten cubits from the front of the temple).

- كما ورد في سفر أخبار الأيام الثاني، الإصحاح الثالث (الفقرات من 1 - 4)، ما يلي [15]:

(1 وشرع سليمان في بناء بيت الرب في أورشليم، في جبل المريا حيث تراءى لداود أبيه، حيث هيأ داود مكانا في بيدر أرنان اليبوسي. 2 وشرع في البناء في ثاني الشهر الثاني في السنة الرابعة لملكه. 3 وهذه أسسها سليمان لبناء بيت الله: الطول بالذراع على القياس الأول ستون ذراعا، والعرض عشرون ذراعا. 4والرواق الذي قدام الطول حسب عرض البيت عشرون ذراعا، وارتفاعه مائة وعشرون، وغشاه من داخل بذهب خالص).

وقد ورد في النسخة الإنجليزية للتوراة، ما يلي:[16]

(1Then Solomon began to build the house of the Lord at Jerusalem in mount Moriah, where the Lord appeared unto David his father, in the place that David had prepared in the threshingfloor of Ornan the Jebusite. 2 And he began to build in the second day of the second month, in the fourth year of his reign. 3 Now these are the things wherein Solomon was instructed for the building of the house of God. The length by cubits after the first measure was threescore cubits, and the breadth twenty cubits. 4 And the porch that was in the front of the house, the length of it was according to the breadth of the house, twenty cubits, and the height was an hundred and twenty: and he overlaid it within with pure gold).

بدراسة النص الأول الوارد في سفر الملوك الأول نجده يحدد طول البيت (الهيكل) بستين ذراعا، وعرضه بعشرين ذراعا، كما يحدد سمكه أي ارتفاع الهيكل بثلاثين ذراعا (30 ذراعا)، كما يوضح أن الهيكل يتقدمه رواق طوله عشرون ذراعا مساويا لعرض الهيكل وعرضه عشر أذرع، ولم يحدد ارتفاع الرواق في هذا النص.

أما النص الثاني الوارد في سفر أخبار الأيام الثاني فيحدد طول الهيكل بستين ذراعا وعرضه بعشرين ذراعا، كما ورد في النص الأول ولم يذكر الارتفاع، كما يحدد مقاسات الرواق الذي يتقدم الهيكل فيذكر أن طوله عشرون ذراعا ولم يحدد عرضه، وحدد ارتفاع الرواق بمائة وعشرين ذراعا (120 ذراعا).

وبالجمع بين ما ورد في النصين السابقين، يتضح لنا أن مقاسات الهيكل والرواق الذي يتقدمه كما يلي:

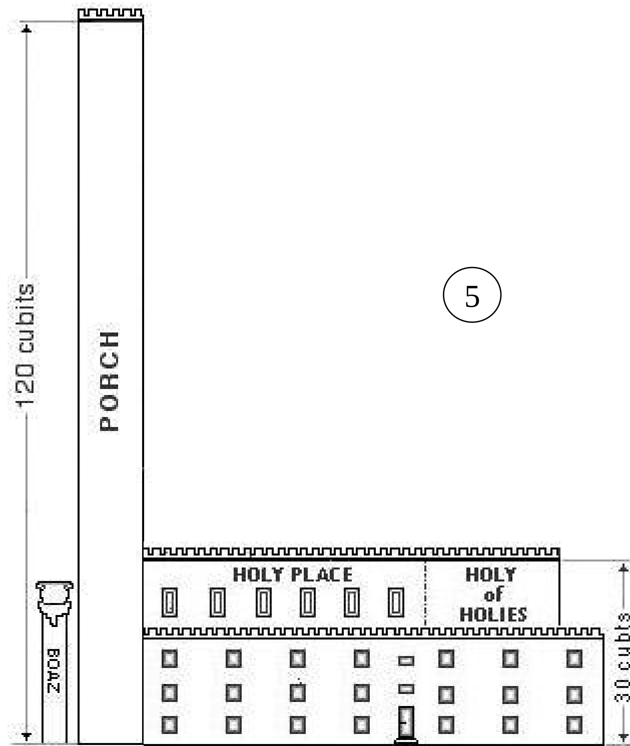
1 - طول البيت (الهيكل) ستون ذراعا، وعرضه عشرون ذراعا، وارتفاعه ثلاثون ذراعا.

2 - طول رواق المدخل الذي يتقدم الهيكل عشرون ذراعا مساويا لعرض الهيكل، وعرض الرواق عشر أذرع، وارتفاعه مائة وعشرون ذراعا.

إن ما يلفت النظر هنا أن ارتفاع الهيكل ثلاثون ذراعا (أي نحو 15 مترا تقريبا)، وأن ارتفاع الرواق الذي يتقدمه مائة وعشرون ذراعا (أي نحو 60 مترا تقريبا)، وهو ما يمثل تناقضا معماريا وهندسيا واضحا؛ لأنه لا يمكن للرواق الذي يعتبر بمنزلة مدخل للهيكل أن يكون ارتفاعه أربعة أضعاف ارتفاع الهيكل نفسه، الشكل (2)، وهو ما يتنافى مع كل التصميمات المتعارف عليها في كل المباني الأثرية والتاريخية القديمة.

لقد أدى هذا التناقض الواضح غير المبرر بين ارتفاع مدخل الهيكل (120 ذراعا)، وارتفاع مبنى الهيكل نفسه (30 ذراعا)، إلى أن يعترف بذلك أحد الباحثين الغربيين (اليهود) وهو تونى باديللو Tony Badillo، حيث يقول [17]:

(Drawing at left: this shows what Solomon's temple would look like with a height of 30 cubits (I Kgs 6:2) and a Porch of 120 (II Chr, 3:4), not very visually appealing. No ancient or modern architect would want to claim such a miscreation, the Porch is four times the height of the building!).



الشكل (2): رسم تخيلي وفق ما ورد في وصف التوراة، يوضح مدى التناقض في ارتفاع مدخل الهيكل بالنسبة إلى مبنى الهيكل نفسه (طبقا لرسم تونى باديللو).

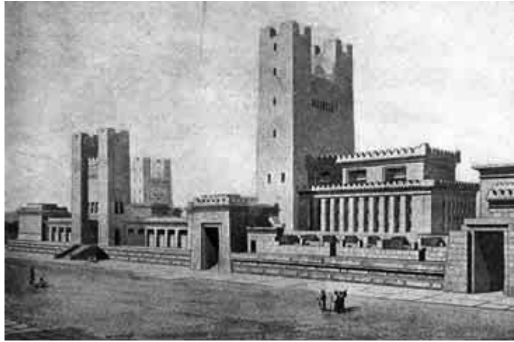
لقد اضطر تونى باديللو إلى اللجوء إلى تفسيرات شاذة لتبرير هذا التناقض، فيدعي أن هذه المقاسات المتناقضة تحمل معاني ورموزا جنسية، حيث يرى أن مدخل الهيكل بارتفاعه الكبير هذا يرمز إلى الأعضاء الجنسية الذكرية، وهو ما يتضح من النص الأصلي باللغة الإنجليزية كما يلي [18]:

(The 120 cubit Porch is the male genital organ, here symbolizing procreation. The Temple's entrance, which had no doors, is the woman's birth canal. Temple Man's genitalia is androgynous depicting both genders).

إن النص الأول يحدد ارتفاع الهيكل بثلاثين ذراعا (30 ذراعا)، أما النص الثاني فيحدد ارتفاع الرواق بمائة وعشرين ذراعا (120 ذراعا)، فأيهما نصدق؟

ونتيجة لهذا التناقض الهندسي الواضح، وبالرجوع إلى الرسومات المعمارية الهندسية للهيكل المزعوم وفق وصف التوراة، التي أعدها الآثاريون والمعماريون الإسرائيليون أنفسهم [19]، نجد التناقض الواضح في رسوماتهم، حيث رسم بعضهم الرواق الذي يتقدم الهيكل إما مساويا لارتفاع الهيكل نفسه (وفق ما ورد في سفر الملوك الثاني)، وإما أقل منه ارتفاعا، وفي بعض الرسومات القليلة جدا جاء ارتفاع الرواق أعلى كثيرا من ارتفاع الهيكل (وفق ما ورد في سفر أخبار الأيام الثاني)، وكل هذا التناقض في الرسومات التخيلية الخاصة بالهيكل المزعوم نتيجة عدم منطقية ارتفاع رواق الهيكل بالنسبة إلى ارتفاع الهيكل نفسه، الشكل (3).





6

الشكل (3): الصورة اليمنى يظهر فيها الرواق بارتفاع الهيكل نفسه، أما في الصورة اليسرى فيظهر الرواق أعلى من مبنى الهيكل، ما يوضح التناقض في النصوص التوراتية.

3 - التناقض في ارتفاع العمودين أمام رواق الهيكل

وفق ما ورد في بعض النصوص التوراتية، فإنه قد وُضِع عمودان من النحاس أمام رواق الهيكل، أحدهما اسمه «ياكين»، والثاني اسمه «بوعز»، وهو ما يتضح من النصوص التالية:

- ورد في سفر الملوك الأول، الإصحاح السابع (الفقرات 15 - 21)، ما يلي [20]:

(15 وصور العمودين من نحاس، طول العمود الواحد ثماني عشرة ذراعا. وخيط اثنتا عشرة ذراعا يحيط بالعمود الآخر، 16 وعمل تاجين ليضعهما على رأسي العمودين من نحاس مسبوك. طول التاج الواحد خمس أذرع، وطول التاج الآخر خمس أذرع...... 21 وأوقف العمودين في رواق الهيكل. فأوقف العمود الأيمن ودعا اسمه "ياكين". ثم أوقف العمود الأيسر ودعا اسمه "بوعز").

وقد ورد في النسخة الإنجليزية للتوراة، ما يلي [21]:

(15 Thus he fashioned the two pillars of brass, of eighteen cubits high each; and a line of twelve cubits did compass it about; [and so] the other pillar. 16 And he made two capitals of molten brass, to set upon the tops of the pillars; the height of the one capital was five cubits, and the height of the other capital was five cubitsì. 21 And he set up the pillars at the porch of the temple; and he set up the right pillar, and called the name thereof Jachin; and he set up the left pillar, and called the name thereof Boaz).

- كما ورد في سفر الملوك الثاني، الإصحاح الخامس والعشرين (الفقرات 8 - 17)، ما يلي [22]:

(8 وفي الشهر الخامس، في سابع الشهر، وهي السنة التاسعة عشرة للملك نبوخذناصر ملك بابل، جاء نبوزرادان رئيس الشرط عبد ملك بابل إلى أورشليم، 9 وأحرق بيت الرب وبيت الملك، وكل بيوت أورشليم، وكل بيوت العظماء أحرقها بالنار...... 16 والعمودان والبحر الواحد والقواعد التي عملها سليمان لبيت الرب، لم يكن وزن لنحاس كل هذه الأدوات، 17 ثماني عشرة ذراعا ارتفاع العمود الواحد، وعليه تاج من نحاس، وارتفاع التاج ثلاث أذرع، والشبكة والرمانات التي على التاج مستديرة جميعها من نحاس. وكان للعمود الثاني مثل هذه على الشبكة).

وقد ورد في النسخة الإنجليزية للتوراة، ما يلي [23]:

(8 nineteenth year of king Nebuchadnezzar king of Babylon, came Nebuzar-adan, captain of the guard, a servant of the king of Babylon, unto Jerusalem: 9 And he burnt the house of the Lord, and the king's house, and all the houses of Jerusalem, and every great man's house burnt he with fireì... 16 The two pillars, one sea, and the bases which Solomon had made for the house of the Lord; the brass of all these vessels was without weight. 17 The height of the one pillar was eighteen cubits, and the chapiter upon it was brass: and the height of the chapiter three cubits; and the wreathen work, and pomegranates upon the chapiter round about, all of brass: and like unto these had the second pillar with wreathen work).

ـ كما ورد في سفر أخبار الأيام الثاني، الإصحاح الثالث (الفقرات 15 - 17) ما يلي [24]:

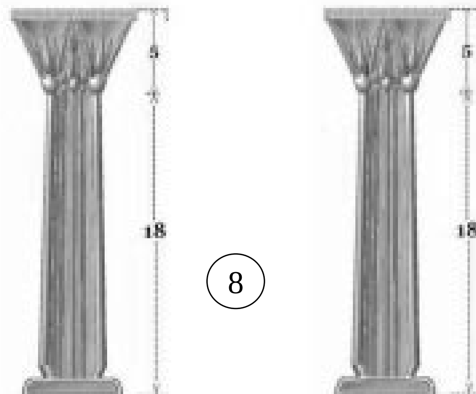
(15 وعمل أمام البيت عمودين، طولهما خمس وثلاثون ذراعا، والتاجان اللذان على رأسيهما خمس أذرع، 16 وعمل سلاسل كما في المحراب وجعلها على رأسي العمودين، وعمل مائة رمانة وجعلها في السلاسل، 17 وأوقف العمودين أمام الهيكل، واحدا عن اليمين وواحدا عن اليسار، ودعا اسم الأيمن "ياكين" واسم الأيسر "بوعز").

وقد ورد في النسخة الإنجليزية للتوراة، ما يلي [25]:

(15 Also he made before the house two pillars of thirty and five cubits high, and the capital that was on the top of each of them was five cubits. 16 And he made chains in the Sanctuary, and put them on the tops of the pillars; and he made a hundred pomegranates, and put them on the chains. 17 And he set up the pillars before the temple, one on the right hand, and the other on the left; and called the name of that on the right hand Jachin, and the name of that on the left Boaz).

ـ من النصين الواردين في سفر الملوك الأول والثاني يتضح لنا أن طول العمود الواحد ثمانية عشر ذراعا، لكن النص الوارد في سفر الملوك الأول يوضح أن ارتفاع تاج العمود خمس أذرع ، أما النص الوارد في سفر الملوك الثاني فيوضح أن ارتفاع تاج العمود ثلاث أذرع.. فأيهما نصدق؟ أما النص الثالث الوارد في سفر أخبار الأيام الثاني فيتضح منه أن طول العمود خمس وثلاثون ذراعا ويحمل تاجا ارتفاعه خمس أذرع.

وبالنظر إلى النصوص الثلاثة السابقة يتضح التناقض الكبير في ذكر ارتفاع هذين العمودين، فهل ارتفاع العمود 18 ذراعا، كما ورد في سفر الملوك الأول والثاني، أم 35 ذراعا، كما ورد في سفر أخبار الأيام الثاني؟ وهل ارتفاع تاج العمود خمس أذرع، كما ورد في سفر الملوك الأول وسفر أخبار الأيام الثاني أم ثلاث أذرع، كما ورد في سفر الملوك الثاني؟ ارجع إلى شكل (4).



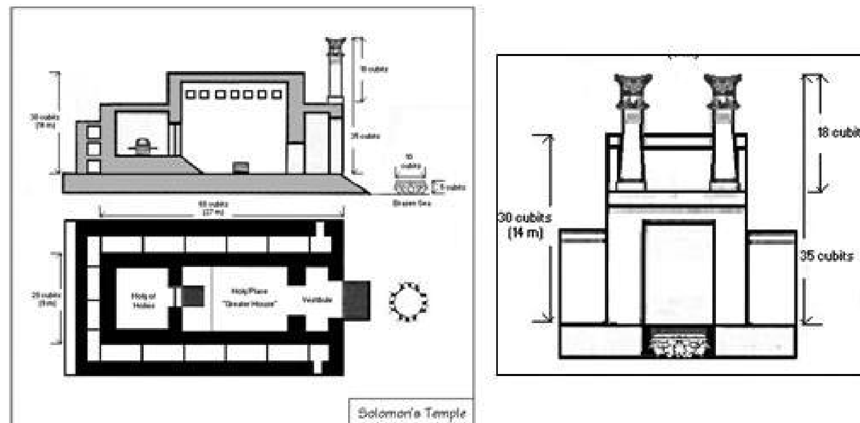
الشكل (4): أيهما نصدق، ارتفاع العمود 18 ذراعا، كما ورد في سفر الملوك الأول، أم أن ارتفاعه هو 35 ذراعا، كما ورد في سفر أخبار الأيام الثاني؟ وهل ارتفاع تاج العمود 5 أذرع أم 3 أذرع؟

لقد أدى هذا التناقض في ذكر ارتفاع العمودين، اللذين يقفان على يمين ويسار مدخل رواق الهيكل، إلى أن بعض الأثريين الإسرائيليين اضطر إلى رسم العمودين على سقف رواق المدخل، حتى يتمكن من الجمع بين المقاسين المتناقضين اللذين وردا في النصين السابقين، بحيث يكون ارتفاع العمود 18 ذراعا كما ورد بالنص الأول، ويوضع على سقف الرواق الذي يرتفع عن الأرض 17 ذراعا ليظهر الارتفاع النهائي لكل عمود 35 ذراعا كما ورد في النص الثاني، الشكل (5)، ونجد أن أحد الباحثين الغربيين (اليهود) يلاحظ هذا التناقض أيضا بين ارتفاع العمودين، ويدعي أنه لا بد أن يكون طولهما 18 ذراعا وأن يكونا موضوعين فوق سقف المدخل الذي يرتفع 17 ذراعا، لتبرير التناقض في ذكر ارتفاع العمودين، حيث يقول [26]:

(The length of the columns Jachin and Boaz is given twice as 18 cubits (9 m) and once as 35 cubits (17.5 m) (1 Kings 7:15-21, 2 Kings 25:17, 2 Chronicles 3:15). If the latter is not an error, then how can we explain this? Fortunately there are some pictures of Phoenician temples left, for instance of a temple on Cyprus on coins. They show that Phoenician temples always had an entrance with two high columns in the shape of an H. Solomon's temple was also built by Phoenicians. It seems the most likely to me that the two columns stood on the roof above the entrance, on a gate of 17 cubits high, so they were 35 cubits high in total. In Iran there are many mosques that have two minarets above the entrance).

والرد على ذلك ببساطة أن النص الوارد في سفر أخبار الأيام الثاني، الإصحاح الثالث، يؤكد بوضوح أن هذين العمودين قد وُضِعا أمام الهيكل وليس فوق سقفه، وهو ما يتضح من النص المذكور في سفر أخبار الأيام الثانى السابق ذكره:

(17 وأوقف العمودين أمام الهيكل، واحدا عن اليمين وواحدا عن اليسار، ودعا اسم الأيمن «ياكين» واسم الأيسر «بوعز»).



10

الشكل (5): أحد الرسومات التي توضح وضع العمودين على سقف رواق المدخل، وليس أمامه كما ورد في النصوص التوراتية، من أجل التوفيق بين المقاسات المتناقضة التي وردت في التوراة بخصوص ارتفاع هذين العمودين.

إن التناقض الواضح في ذكر ارتفاع العمودين «ياكين» و«بوعز»، وكذلك في ارتفاع التاج الذي يعلوهما، لا يمكن تبريره مطلقا بمثل هذه المبررات الساذجة التي لا يمكن أن تنطلي إلا على غير المتخصصين، أو الذين لا يريدون أن يعترفوا بحقيقة وجود هذه التناقضات الواضحة في مقاسات العمودين المسميين «ياكين» و«بوعز» وفق رواية التوراة المزعومة.

4 - التناقض في سعة ومقاسات البحر الدائري

من العناصر التي ورد ذكرها في وصف الهيكل المزعوم، حوض دائرى من البرونز كان موضوعا أمام الهيكل، وكان مملوءا بالماء، حيث يغتسل فيه كهنة الهيكل، الشكل (6)، وقد وردت أوصاف ومقاسات وسعة هذا الحوض أو البحر في هذين النصين التاليين:

- ورد في سفر الملوك الأول، الإصحاح السابع (الفقرتين 23 - 26)، ما يلي [27]:

(23 وعمل البحر مسبوكا. عشر أذرع من شفته إلى شفته، وكان مدورا مستديرا، ارتفاعه خمس أذرع، وخيط ثلاثون ذراعا يحيط به بدائره..... 26 يسع ألفي بث).

وقد ورد في النسخة الإنجليزية للتوراة ما يلي [28]:

(23 And he made the molten sea of ten cubits from brim to brim, round in compass, and the height thereof was five cubits; and a line of thirty cubits did compass it round ì.. 26 And it was a hand-breadth thick; and the brim thereof was wrought like the brim of a cup, like the flower of a lily; it held two thousand baths).

- كما ورد في سفر أخبار الأيام الثاني، الإصحاح الرابع (الفقرتين 2 و3)، ما يلي [29]:

(2 وعمل البحر مسبوكا عشر أذرع من شفته إلى شفته، وكان مدورا مستديرا وارتفاعه خمس أذرع، وخيط ثلاثون ذراعا يحيط بدائره. 3 يأخذ ويسع ثلاثة آلاف بث).

وقد ورد في النسخة الإنجليزية للتوراة، ما يلي [30]:

(2 Also he made the molten sea of ten cubits from brim to brim, round in compass, and the height thereof was five cubits; and a line of thirty cubits did compass it round aboutì. 3 And it was a handbreadth thick; and the brim thereof was wrought like the brim of a cup, like the flower of a lily: it received and held three thousand baths).

بدراسة النصين السابقين يتجلى لنا تناقضان واضحان، وهما:

1 - ورد في سفر الملوك الأول وسفر أخبار الأيام الثاني أن البحر دائري الشكل، قطره عشر أذرع من شفته إلى شفته، وأن محيطه الدائري يساوى ثلاثين ذراعا.

إن القانون الرياضي المعروف الذي يربط بين محيط الدائرة ونصف قطرها هو: «محيط الدائرة = 2 ط نق»، وهذا يعنى أنه إذا كان قطر البحر 10 أذرع فإن محيط البحر يجب أن يكون 31.4 ذراع، وليس 30 ذراعا كما جاء في النصوص التوراتية، ما يدل على تحريف هذه النصوص.

2 ـ ورد في النص الأول أن هذا البحر الدائرى يسع ألفي بث (وحدة حجم)، أما النص الثاني فيقرر أن هذا البحر يأخذ ويسع ثلاثة آلاف بث، وهو تناقض واضح لا لبس فيه، فأي النصين نصدق؟



11

الشكل (6): رسم تخيلي للبحر الدائري الذي كان موضوعا أمام الهيكل

5 - التناقض في وزن الذهب المرسل إلى سليمان

ورد في كثير من النصوص التوراتية أن الذهب قد استُخدم لكسوة حوائط الهيكل وأبوابه وبعض عناصره، وقد ورد في النصين التاليين ما يفيد بأن الملك «حورام» الذي استعان به سليمان عليه السلام في بناء الهيكل المزعوم، قد أرسل من مدينة «أوفير» ذهبا مع عبيده وعبيد سليمان عليه السلام، ويتضح من مقارنة النصين تناقض واضح في وزن الذهب المرسل:

ـ ورد في سفر الملوك الأول، الإصحاح التاسع (الفقرة 28)، ما يلي [31]:

(28 فأتوا إلى "أوفيـر" وأخذوا من هناك ذهبا أربعمائة وزنة وعـشرين وزنة، وأتوا بها إلى الملك سليمان).

وقد ورد في النسخة الإنجليزية للتوراة، ما يلي [32]:

(28 And they came to Ophir, and fetched from thence gold, four hundred and twenty talents, and brought it to king Solomon).

ـ كما ورد في سفر أخبار الأيام الثاني، الإصحاح الثامن (الفقرة 18)، ما يلي [33]:

(18 وأرسل له حورام بيـد عبيـده سفنا وعبـيدا يعرفون البـحر فأتوا مع عـبيد سليـمان إلى "أوفير" وأخذوا من هناك أربعمائة وخمسين وزنة وأتوا بها إلى الملك سليمان).

وقد ورد في النسخة الإنجليزية للتوراة، ما يلي [34]:

(18And Huram sent him by the hands of his servants ships, and servants that had knowledge of the sea; and they came with the servants of Solomon to Ophir, and fetched from thence four hundred and fifty talents of gold, and brought them to king Solomon).

لا ندري أي النصين هو الصحيح، وأيهما نصدق؟ ففي النص الأول الوارد في سفر الملوك الأول فإن وزن الذهب هو 420 وزنة، أما في النص الثاني الوارد في سفر أخبار الأيام الثاني فإن وزن الذهب هو 450 وزنة، فهل وزن الذهب كان 420 أم 450 وزنة؟

6 - أحجار حائط البراق تثبت أنه ليس جزءا من الهيكل المزعوم

من أهم الآثار الإسلامية المرتبطة بالحرم القدسي الشريف حائط البراق، الذي يشكل الجزء الجنوبي الغربي من جدار الحرم، ويبلغ طوله 48 مترا، وارتفاعه نحو 17 مترا، ويعد من الأملاك الإسلامية لأنه يشكل جزءا من الحرم القدسي الشريف، وله علاقة وطيدة برحلة الإسراء والمعراج، حيث يعتقد المؤرخون المسلمون أن الرسول صلى الله عليه وسلم ربط فيه البراق[35].

وعلى الرغم من أن اليهود لا يملكون أي حق قانوني في هذا الحائط فإن سماحة المسلمين أذنت لليهود بزيارة هذا الحائط والبكاء خلفه، ومن هنا أطلقوا عليه زورا وكذبا اسم حائط المبكى، وكذلك فإن هذا الحائط لم يكن موقع عبادة عند اليهود حتى القرن السادس عشر الميلادي، كما ورد في الموسوعة اليهودية [36].

وعليه فإن اليهود بشهادتهم يتخذون من حائط البراق أو الحائط الغربي مكانا للصلاة منذ القرن السادس عشر فقط، وقد تكررت محاولاتهم للاستيلاء على هذا الحائط في عهد الانتداب البريطاني على فلسطين إلى أن وقعت ثورة البراق بتاريخ 1929/8/23، التي قتل فيها العشرات من العرب واليهود، وتمخضت الأحداث عن تشكيل لجنة دولية لتحديد حقوق العرب واليهود في حائط البراق، وكانت اللجنة برئاسة وزير خارجية سابق للسويد وعضوية شخص سويسري وآخر هولندي، وبعد تحقيق أجرته هذه اللجنة وضعت تقريرا في العام 1930 أيدت فيه حق المسلمين الذي لا شبهة فيه في ملكية حائط البراق، وقال التقرير [37]: «للمسلمين وحدهم تعود ملكية الحائط الغربي، ولهم وحدهم الحق العيني فيه لكونه يؤلف جزءا لا يتجزأ من ساحة الحرم الشريف التي هي من أملاك الوقف، وللمسلمين أيضا تعود ملكية الرصيف الكائن أمام الحائط وأمام المحلة المعروفة بحارة المغاربة، لكونه موقوفا وفق أحكام الشرع الإسلامي».

لكن السلطات الإسرائيلية في العام 1967 استولت على حائط البراق بعد أن هدمت حارة المغاربة، ووضعت يدها على باب المغاربة (أحد أبواب المسجد الأقصى).

هذا عن الدليل التاريخي الذي يثبت أحقية المسلمين في حائط البراق، لكن يوجد أيضا من الأدلة الأثرية ما يثبت كذب ادعاءات اليهود بأي حق لهم في هذا الحائط؛ وذلك لأن التوراة قد أوردت وصفا محددا لشكل الأحجار التي استخدمت في بناء الهيكل المزعوم.

فقد ورد في الإصحاح الخامس من سفر أخبار الملوك الأول (الفقرة 17)، ما يلي [38]:

(17 وأمر الملك أن يقلعوا حجارة كبيرة حجارة كريمة لتأسيس البيت حجارة مربعة).

وقد ورد في النسخة الإنجليزية للتوراة، ما يلي [39]:

(17 And the king commanded, and they quarried great stones, costly stones, to lay the foundation of the house with hewn stone).

كما ورد في الإصحاح الثاني والعشرين من سفر أخبار الأيام الأول، ما يلي [40]:

(وأمر داود بجمع الأجنبيين الذين في أرض إسرائيل وأقام نحاتين لنحت حجارة مربعة لبناء بيت الله).

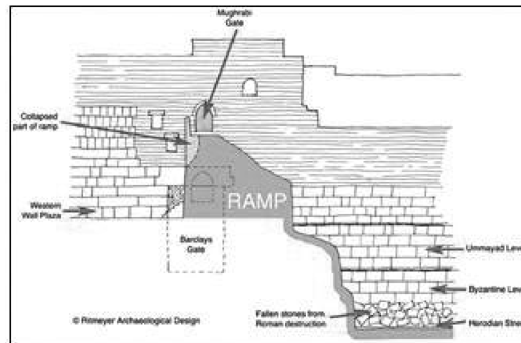
وقد ورد في النسخة الإنجليزية للتوراة، ما يلي [41]:

(2 And David commanded to gather together the strangers that were in the land of Israel; and he set masons to hew wrought stones to build the house of God).

إذن النصان السابقان يحددان بوضوح أن الحجارة التي استخدمت في بناء الهيكل المزعوم، كانت مربعة الشكل، في حين أن الأحجار المستخدمة في بناء حائط البراق (الحائط الغربي للحرم) وكل مباني القدس الأثرية مستطيلة الشكل، الشكل (7)، مما يعطي دليلا دامغا على مخالفة مقاسات الأحجار المستخدمة في بناء المسجد الأقصى بصفة عامة وحائط البراق بشكل خاص لما ورد في التوراة.

بالإضافة إلى أن التوراة تذكر أن الهيكل (بيت الرب) يجب أن تستخدم فيه حجارة غير منحوتة (سفر الملوك الأول (18-1 :5)، وهو ما يخالف الواقع المرئي، حيث إن جميع الحجارة الضخمة الكائنة في الحائط الغربي للحرم الشريف، ما هي إلا حجارة منحوتة، أي استُعملت في نحتها المناحت والمعاول وهذا مخالف لما ورد بالتوراة [42].

12



13



الشكل (7): حجارة حائط البراق (الحائط الغربي) مستطيلة الشكل وليست مربعة كما ورد في التوراة، وهو ما أثبتته كل الحفريات الأثرية.

7 - المساحة الإجمالية لمباني وساحات الهيكل أكبر من مساحة مدينة القدس القديمة

ورد في سفر حزقيال وصف تفصيلي لعناصر الهيكل المزعوم مدعما بقياسات تفصيلية ودقيقة، من خلال رؤيا رآها حزقيال أحد أنبياء اليهود كما ورد في التوراة، وأن إله بني إسرائيل قد أمره بأن يخبر شعبه بهذه الرؤيا.

وقد ورد في أول الرؤيا أن حزقيال قد رأى رجلا وبيده قصبة للقياس طولها ست أذرع وشبر. وقد ورد هذا في سفر حزقيال، الإصحاح الأربعين (الفقرة 5)، كما يلي[43]:

(5 وإذا بسور خارج البيت محيط به، وبيد الرجل قصبة القياس ست أذرع طولا بالذراع وشبر).

وقد ورد في النسخة الإنجليزية للتوراة، ما يلي[44]:

(5 I saw a wall completely surrounding the temple area. The length of the measuring rod in the man's hand was six long cubits, and a handbreadth).

ثم بدأ هذا الرجل يصف لحزقيال الهيكل وما حوله من مبان وساحات وصفا دقيقا، مدعما بالقياسات، مستخدما في ذلك قصبة القياس المذكورة، وفي آخر الوصف ذكر له أنه يوجد سور مربع الشكل يحيط بالهيكل وما حوله من مبان وساحات مكشوفة، وأن طول ضلع هذا السور 500 قصبة من قصبة القياس، وهو ما يتضح من النص التالي الذي ورد في سفر حزقيال، الإصحاح الثانى والأربعين (الفقرات من 15 إلى 19)[45]:

(15 فلما أتم قياس البيت الداخلي، أخرجني نحو الباب المتجه نحو المشرق وقاسه حواليه،16 قاس جانب المشرق بقصبة القياس، وخمسمائة قصبة بقصبة القياس حواليه، 17 وقاس جانب الشمال، وخمسمائة قصبة بقصبة القياس حواليه، 18 وقاس جانب الجنوب، وخمسمائة قصبة بقصبة القياس، 19 ثم دار إلى جانب الغرب وقاس خمسمائة قصبة بقصبة القياس، 20 قاسه من الجوانب الأربعة. له سور حواليه وخمسمائة طولا، وخمسمائة عرضا، للفصل بين المقدس والمحلل).

وقد ورد في النسخة الإنجليزية للتوراة، ما يلي[46]:

(15 Now when he had made an end of measuring the inner house, he brought me forth toward the gate whose prospect is toward the east, and measured it round about. 16 He measured the east side with the measuring reed, five hundred reeds, with the measuring reed round about. 17 He measured the north side, five hundred reeds, with the measuring reed round about. 18He measured the south side, five hundred reeds, with the measuring reed. 19 He turned about to the west side, and measured five hundred reeds with the measuring reed. 20 He measured it by the four sides: it had a wall round about, five hundred reeds long, and five hundred broad, to make a separation between the sanctuary and the profane place).

- إن ما ورد في سفر حزقيال يوضح أن المساحة الإجمالية للجزء المقدس الذي يحتوي الهيكل والمباني الأخرى والأفنية المحيطة به، تساوي المساحة التي يحيط بها السور المربع الخارجي

ومقاساته 500 قصبة قياس من الجهات الأربع، فإذا كان طول قصبة القياس وفق ما ورد في الإصحاح الأربعين من سفر حزقيال هو خمس أذرع وشبر (أي نحو 2.70م ، فرض أن الذراع يساوي 50 سم والشبر يساوي 20 سم)، فإن مساحة الجزء المقدس الذي يحتوي على مبنى الهيكل المزعوم وما حوله من مبان وساحات مكشوفة داخل السور تكون نحو 1.60 كلم مربع.

فإذا عرفنا أن مساحة مدينة القدس القديمة داخل الأسوار نحو 1 كم مربع [47]، الشكل (8)، فإن هذا يعني أن المساحة الإجمالية للجزء المقدس للهيكل وما يحيط به تبلغ نحو مرة ونصف المرة من مساحة القدس القديمة، وهو أمر غير منطقي بالمرة وتكذبه كل الخرائط الأثرية والتاريخية.



الشكل (8): رسم منظوري لمدينة القدس القديمة داخل الأسوار، ويظهر المسجد الأقصى كجزء من المدينة، في حين أن سفر حزقيال يقرر أن مساحة الهيكل المزعوم أكبر من مساحة القدس القديمة بمرة ونصف المرة، فهل هذا منطقي أم أنه يتنافى مع التاريخ والواقع؟

رابعا: نتائج الدراسة

1 ـ أثبت البحث من خلال دراسة النصوص التوراتية التي تصف هيكل سليمان المزعوم، وجود تناقضات واضحة ومتعددة في الوصف الهندسي ومقاسات هذا البناء المزعوم، سواء أكان هذا التناقض بين النصوص ذاتها، أم مع المنطق الهندسى المتعارف عليه عند كل الخبراء والمتخصصين.

2 ـ إن هذه التناقضات الواضحة تشكك في وجود هيكل سليمان المزعوم من الأصل، وهو ما يعطي دليلا على أن سليمان عليه السلام قد جدد بناء المسجد الأقصى ولم يبن هيكلا.

3 ـ إن من إعجاز القرآن الكريم أن يورد في سورة البقرة، ما يؤكد كتابة وتحريف النصوص التوراتية، في وقت لم تكن التوراة قد ترجمت إلى اللغة العربية بعد، بل كانت مكتوبة بلغات أخرى (العبرية، الكلدانية، اليونانية)، حيث يقول الله سبحانه وتعالى:﴿ **ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني وإن هم إلا يظنون * فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون**﴾ (البقرة، 78 و79)

4 ـ إن ما ورد في سفر حزقيال يوضح أن المساحة الإجمالية للجزء المقدس الذي يحتوي الهيكل والمباني الأخرى والأفنية المحيطة به، تساوي المساحة التي يحيط بها السور المربع الخارجي، ومقاساته 500 قصبة قياس من الجهات الأربع، فإذا كان طول قصبة القياس وفق ما ورد في الإصحاح الأربعين من سفر حزقيال هو ست أذرع وشبر (أي نحو 3.20م بفرض أن الذراع تساوي 50 سم والشبر يساوي 20 سم)، فإن مساحة الجزء المقدس الذي يحتوي على مبنى الهيكل المزعوم وما حوله من مبان وساحات مكشوفة داخل السور تكون نحو 2.56 كلم مربع.

الهوامش

1 عند اليهود فإن داوود وسليمان ملكان وليسا نبيين، أما في عقيدتنا نحن المسلمين فهما نبيان مرسلان من عند الله.

2 ارجع على سبيل المثال إلى: رائف نجم (2004)، المدخل للمدينة المقدسة. المؤتمر الإسلامي العام لبيت المقدس، عمان، ص83 وما بعدها.

3 لمعرفة الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الصحيحة التي تؤكد ذلك يمكن الرجوع إلى: عيسى القدومي (2008)، المسجد الأقصى الحقيقة والتاريخ، ط2، مركز بيت المقدس للدراسات التوثيقية، حولي ـ الكويت، ص10، ص14.

4 تعرضت كثير من الدراسات لبيان التناقضات والتحريف الموجودين في الكتاب المقدس، ارجع على سبيل المثال إلى: نعمات عبدالرزاق السامرائي (2003). التوراة بين فقدان الأصل وتناقض النص، ط2، دار الحكمة، لندن.

5 عبدالوهاب المسيرى (1999)، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، ج4، دار الشروق، القاهرة.

6 انظر أيضا وصف الهيكل المزعوم في: www.templeinstitute.org.

7 الكتاب المقدس (1970) دار الكتاب المقدس، القاهرة، ص539.

8 www.bible.org/netbible

9 الكتاب المقدس: المرجع السابق، ص681.

10 انظر النسخة الإنجليزية للتوراة (New International Version) في الموقع التالي: www.biblegateway.com.

11 الكتاب المقدس: المرجع السابق، ص682.

12 النسخة الإنجليزية للتوراة: New International Version الموقع الإلكتروني السابق.

13 الكتاب المقدس: المرجع السابق، ص539.

14 النسخة الإنجليزية للتوراة: New International Version الموقع الإلكتروني السابق.

15 الكتاب المقدس: المرجع السابق، ص683.

16 النسخة الإنجليزية للتوراة: نسخة الملك جيمس، انظر الموقع الإلكتروني: www.ccel.org

17 انظر الموقع الإلكتروني التالي: www.kingsolomonsastonishingtemplesecrets.org

18 المرجع نفسه.

19 كثير من هذه الصور للهيكل المزعوم موجودة على شبكة الإنترنت، ويتضح منها التناقض في المقاسات نتيجة التناقض في الروايات التي وردت في النصوص التوراتية، انظر على سبيل المثال الموقع التالي: www.Templemodels.com

20 الكتاب المقدس: المرجع السابق، ص542.

21 نسخة التوراة باللغة الإنجليزية ـ العبرية، انظر الموقع الإلكتروني التالي: www.mechon-mamre.org.

22 الكتاب المقدس: المرجع السابق، ص631.

23 النسخة الإنجليزية للتوراة: نسخة الملك جيمس، المرجع السابق.

24 الكتاب المقدس: المرجع السابق، ص684.

25 نسخة التوراة باللغة الإنجليزية ـ العبرية: الموقع الإلكتروني السابق.

26 see: What did Solomon's temple look like?, by E.J. de Meester. In: www. home-3.tiscali.nl/~meester7/engtemple.html#future

27 الكتاب المقدس: المرجع السابق، ص 542.
28 نسخة التوراة باللغة الإنجليزية - العبرية: الموقع الإلكتروني السابق.
29 الكتاب المقدس: المرجع السابق، ص 684.
30 نسخة التوراة باللغة الإنجليزية - العبرية: الموقع الإلكتروني السابق.
31 الكتاب المقدس: المرجع السابق، ص 551.
32 نسخة التوراة الإنجليزية - العبرية: الموقع الإلكتروني السابق.
33 الكتاب المقدس: المرجع السابق، ص 692.
34 نسخة التوراة باللغة الإنجليزية - العبرية: الموقع الإلكتروني السابق.
35 عبدالتواب مصطفى (2006) قضية القدس. المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، وزارة الأوقاف، القاهرة، ص49.
36 لمزيد من التفاصيل انظر: جهاد العايش (2007). حائط البراق. مركز بيت المقدس للدراسات التوثيقية، قبرص.
37 ميخائيل مكسي إسكندر (1972). القدس وبيت لحم (طبعة جديدة مزيدة). مكتبة المحبة، القاهرة، ص70.
- انظر أيضا: عبدالتواب مصطفى: المرجع السابق، ص48 وما بعدها.
38 الكتاب المقدس: مرجع سابق، ص539.
39 نسخة التوراة باللغة الإنجليزية - العبرية: الموقع الإلكتروني السابق.
40 الكتاب المقدس: مرجع سابق، ص666 و667.
41 نسخة التوراة باللغة الإنجليزية - العبرية: الموقع الإلكتروني السابق.
42 لمزيد من التفاصيل انظر: بديع العابد. الهوية المعمارية وأثرها في تحديد الهوية السياسية لمدينة القدس، انظر الموقع الإلكتروني: www.palstine-info.net.
43 الكتاب المقدس: المرجع السابق، ص 1241.
44 الكتاب المقدس: المرجع السابق، ص 1241.
45 النسخة الإنجليزية للتوراة: New International Version في الموقع التالي: www.biblegateway.com
الكتاب المقدس: مرجع سابق، ص1247.
46 النسخة الإنجليزية للتوراة نسخة الملك جيمس: الموقع السابق.
47 انظر كتابنا: التطور العمراني والتراث المعماري لمدينة القدس الشريف (2005)، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، ص 63.

عمارة المسجد الأقصى بين مراحل التطور المعماري ومخاطر التهويد

م.م. محمود زين العابدين (*)

مقدمة

تعد مدينة القدس من أهم المدن الإسلامية التي شهدت حضارات وأحداثا كثيرة، خصوصا لأهميتها الدينية، حيث شهد مسجدها الأقصى المبارك حادثة الإسراء والمعراج، ليصبح ثالث الحرمين بعد الكعبة المشرفة والمسجد النبوي الشريف بعدما كان أولى القبلتين.

ما جعلها مركز اهتمام ورعاية خلال العهود الإسلامية التي بدأت بعد فتحها في أيام الخليفة عمر بن الخطاب سنة 15هـ، وتظهر أهمية القدس ومكانتها في الإسلام لكونها المدينة الوحيدة التي زارها الخليفة عمر بن الخطاب بعد فتحها في عهده، وتوالت عليها عهود إسلامية أسهمت في تطوير عمارتها وعمارة المسجد الأقصى، وكان آخر تلك العصور وأطولها العصر العثماني.



يهدف هذا البحث إلى تسليط الضوء على أهمية مدينة القدس والتعرف على أهم مميزات وخصائص عمارة المسجد الأقصى، وعلى ما شهده من حرائق ونكبات، وسيركز على أهم المخاطر

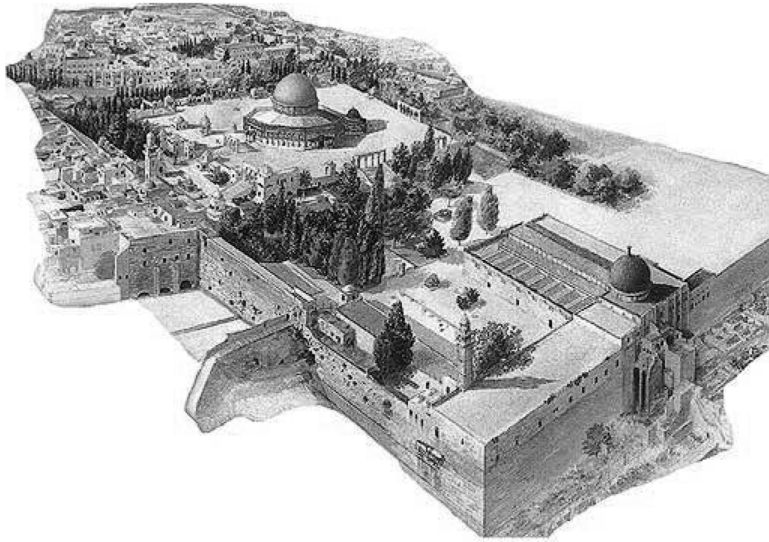
(*) رئيس مركز شادروان للتراث العمراني - حلب - الجمهورية العربية السورية.

وأحدثها، ألا وهي الحفريات الإسرائيلية والبحث عن الهيكل المزعوم، وهدم طريق باب المغاربة والآثار الإسلامية واستبدال جسر عسكري ومجموعة كنس يهودية بها، وحفر نفقين أرضيين في داخلهما مصعد وممر كهربائي، وسيُعتمد على المنهج الوصفي في هذا البحث.

مدينة القدس وتطورها عبر العصور

يعود اسم القدس القديم (مدينة السلام، أورشليم) إلى اليبوسيين الكنعانيين أجداد العرب الذين أنشأوا هذه المدينة، وتأكيد ذلك من خلال رسائل تل العمارنة التي أرسلت إلى مصر في عهد أخناتون، ثم أعاد الحشمونيون استعمال هذا الاسم. لكن العرب، كانوا ينظرون إلى هذه المدينة بتقدير بالغ، فاستعملوا أولا اسمها الروماني - البيزنطي «إيليا»، ثم أطلقوا عليها اسم بيت المقدس، والقدس.

على أن المسجد الأقصى المذكور في الآية الكريمة ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الأسراء - 1]، لا يعني المسجد الذي أنشأه عبدالملك بن مروان لاحقا، بل يعني المكان المقدس الذي يُسجَد فيه لله تعالى في مكان يبعد عن المسجد الحرام في مكة المكرمة. المكان الذي يسمى «الحرم الشريف»، وهو أرض واسعة تحيط بها الأسوار بطول يصل إلى 492 مترا من الغرب، وإلى 462 مترا من الشرق، وعرضه في الشمال 310 أمتار وفي الجنوب 281 مترا، وله عدد من المداخل الرمزية مؤلفة من أقواس وأعمدة أطلق عليها اسم الميازين. في هذه الساحة منشآت إسلامية تعود إلى مختلف العهود الإسلامية، هي مدارس ومساجد وقباب وأهمها قبة الصخرة والمسجد الأقصى. وكان العرب الذين يزورون القدس يتبركون بهذا الحرم ويطلقون عليه المسجد الأقصى(1).



تبلغ مساحة القدس ضمن الأسوار كيلومترا مربعا، ويقع الحرم الشريف في الناحية الجنوبية الشرقية من المدينة وأسوارها. وتقسم المدينة إلى حارات أو خطط، وفي هذه الأحياء أسواق محلية صغيرة استقلت عن الأسواق الرئيسة، وكانت الأحياء تضم مجموعات

سكانية منسجمة في بيئتها الاجتماعية والدينية، وطرق المدينة القديمة متعرجة، غُطِّي بعضها بعقود، وقد تقوم منشآت أو امتدادات عالية للبيوت. وتعود أهمية القدس إلى وجود الحرم الشريف والأبنية القائمة عليه، خصوصا المسجد الأقصى وقبة الصخرة. ومن أهم ما يميز مدينة القدس ويؤكد طابعها الإسلامي المقدس هو الحرم الشريف الذي تقوم فيه روائع العمارة الإسلامية، خصوصا قبة الصخرة، والحرم هو أولى القبلتين وثالث الحرمين. وكانت حادثة الإسراء والمعراج، وما ورد فيها من آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية واتخاذ القدس أولى القبلتين، بداية اهتمام المسلمين بهذه البقعة التاريخية من بيت المقدس.

ثم كانت الخطوة الثانية حين حرر العرب المسلمون القدس العربية من أيدي الروم البيزنطيين، وحضر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بنفسه ليشهد الفتح ويزور الصخرة الشريفة، صخرة المعراج، ويعنى بها، ويقيم مسجدا إلى جوارها لا تزال ذكراه باقية، وآثار موقعه معروفة. ثم كانت الخطوة الثالثة التي عززت - إلى الأبد - مكانة بيت المقدس وحرمه الشريف في أنظار العالم الإسلامي، حين شيد الخليفة الأموي عبدالملك بن مروان صرح المسجدين العظيمين، الأقصى وقبة الصخرة. وكان هذا العمل من الناحيتين العمرانية والمعمارية، انطلاقة مبكرة، لم يعرفها تاريخ الحضارات من قبل، وسجل تاريخ الفن والعمارة بكل تقدير وإعجاب هذا الإنجاز العظيم لحضارة العرب والمسلمين [2].

بين الحرم القدسي والمسجد الأقصى

كانت كتب التاريخ تطلق اسم الأقصى على المسجد الجامع الذي يشغل جانبا من أرض الحرم الواسع، لكنها اليوم تطلق على الحرم كله. فحين ورد اسم المسجد الأقصى في سورة الإسراء، لم يكن المسجدان الأقصى وقبة الصخرة قد شُيِّدا بعد: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ ...﴾ [الأسراء - ١].

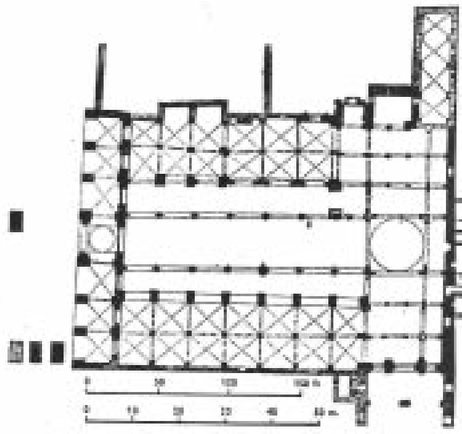
وقُصِد بالمسجد الأقصى الصخرة وما حولها من آثار المعابد السابقة للإسلام، أي مكان العبادة والسجود. واستمر هذا الاسم القرآني سائدا عدة قرون يطلق على كامل الحرم، وشيئا فشيئا يصبح خاصا بالمسجد الجامع.

ولعل ذلك من باب إطلاق الكل على الجزء، أو لأنه المسجد الذي تقام فيه الجمعة. ودعي المكان المسور في مجمله بالحرم الشريف أو الحرم القدسي، أسوة بالحرمين المكي والمدني، وأصبح يلقب بثالث الحرمين. ولا ندري متى حدث ذلك على وجه الدقة. لكننا إذا تتبعنا كتب المؤرخين لاحظنا أن أول من أسمى المسجد الجامع بالأقصى هو الرحالة ناصر خسرو، الذي زار القدس في العام 438هـ/ 1047م (سفرنامه، ص19) وتبعه الهروي الذي زار القدس في العام 569هـ/ 1173م (الإشارات لمعرفة الأماكن والزيارات، ص24)، ثم تأكد هذا التخصيص بشكل واضح عند المؤرخ ابن شداد (الأعلاق الخطيرة، ص268)، أي في القرن السابع الهجري.

ثم عند ابن بطوطة (الرحلة، ص57). ولفت نظر المؤرخ مجير الدين الحنبلي، حين وصف الحرم في كتابه «الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل»، في نحو العام 900هـ، هذا التبدل في الأسماء فقال: «فالجامع الذي هو في صدر الحرم، عند القبلة، الذي تقام فيه الجمعة، متعارف عند الناس أنه المسجد الأقصى...»[3].

عمارة المسجد الأقصى

تكاد الروايات التاريخية تجمع على أن المسجد الأقصى وقبة الصخرة شُيِّدا معا في عهد الخليفة الأموي عبدالملك بن مروان، والكتابة التاريخية التي لا تزال في جدار قبة الصخرة من الداخل والمكتوبة بخط كوفي بالفسيفساء تتضمن تاريخ الإنشاء سنة 72هـ، وقد تعرض اسم عبدالملك للتحريف ليوضع مكانه اسم المأمون وأصبح كما يلي: « .. عبد [الله الإمام المأمون] أمير المؤمنين سنة اثنين وسبعين فليتقبلها الله منه ويرضى عنه آمين». ويبدو أن أعمال البناء جرت في عهد عبدالملك ولم تكتمل فأتمها الوليد بعد وفاة أبيه. وبديهي ألا تزول آثار الأقصى الأموي كليا، بل بقيت منها أجزاء أُدمجت في المسجد المجدد، وحدد مكانها المقدسي عندما تحدث عن الزلزال الذي ضرب القدس بتجديد المسجد في عهد الخليفة المهدي العباسي، يفهم من نص المقدسي أن المسجد في العهد العباسي أصبح مؤلفا من خمس عشرة بلاطة عمودية على القبلة، تنتهي كل منها من الجهة الشمالية بباب، والباب الأوسط أكبرها، وكانت الأبواب الشمالية الخمسة عشر مزودة بمصابيح خشبية صفحت ثلاثة منها بالنحاس المذهب هي: الأوسط الكبير واثنان يتوسطان الجناحين الشرقي والغربي، يعزو مؤرخو العمارة الحديثون المسجد القائم اليوم إلى تجديد جرى في أيام الخليفة الفاطمي الإمام الظاهر إثر زلزال حدث في العام 424هـ، وكان الرحالة خسرو أول من زار المسجد الأقصى بعد الزلزال من أولئك الرحالين في العام 438هـ، لكن الوصف الذي وصفه لا يُعتمد عليه، وأول وصف للأقصى في وضعه الحالي كان للمؤرخ مجير الدين الحنبلي أي في العام 900هـ.



كان المسقط الأفقي الأصلي للمسجد في عهد الوليد بن عبدالملك مستطيلا طوله 80 مترا وعرضه 55 مترا، ويتألف من سبعة أروقة تشكلها عدد من العقود تتعامد مع جدار القبلية، ويتألف كل رواق من أحد عشر عقدا فيما عدا الرواق الأوسط، فهو أعرض من الأروقة الأخرى ويبلغ ضعفها من حيث الاتساع 11.80 متر، ومنبر المسجد الأقصى من عمل الصناع

الحلبيين، وقد نقله صلاح الدين الأيوبي إلى المسجد الأقصى، ولا يسعنا إلا أن نضع وصف المؤرخ المقدسي للمسجد الأقصى حيث يقول: «إنه كان له 26 بابا أطلق على الباب المواجه للمحراب باب النحاس الأعظم، حيث كان مغطى بصفائح من النحاس الأصفر، وإلى يمين هذا الباب سبعة أبواب كبيرة أوسطها مغطى بالصفر، وكذلك الحال في أبواب الجانب الأيسر، أما أبواب القسم الشرقي فعددها 11 بابا غير مزخرفة، وثمة عمد وأسطوانات تحمل الأروقة وأروقة أخرى ذات أبنية متخذة من الحجر، وسط الحرم مسقف جمالوني تعلوه قبة جميلة، وتكسو السقف ألواح من الرصاص» (4). ويعد المسجد الأقصى أحد النماذج البارزة الدالة على الطراز العربي الإسلامي وطابعه المتميز في العمارة، وعلى الرغم من أن عمارة المسجد أموية. فإن التجديدات استمرت بحيث تتعذر نسبتها اليوم إلى الطراز الأموي وحده. وذلك أن المسجد الأقصى تعرض لكثير من عوادي الزمن، فاهتم العباسيون بتجديد عمارته وتوسيعها. أما الفاطميون فقد تفننوا في زخرفتها بالفسيفساء والرخام والرسوم النباتية سنة 426هـ/ 1035م. ولم يبخل الأيوبيون بالمال على تجديد العمارة سنة 623هـ/ 1236م. وأدت عناية المسلمين المتتالية واهتمامهم بعمارته أن غدا درة مساجد فلسطين وأروعها زخرفة وجمالا. كما استمرت العناية في العصر الحديث، ومن ذلك ترميم المسجد إثر زلزال سنة 1927م.

مراحل تطور القدس عبر العهود الإسلامية



مر المسجد الأقصى بمراحل متعددة منذ أن بُنِي في عهد الخليفة عبدالملك بن مروان. ففي سنة 24هـ أمر عبدالملك بمباشرة البناء، لكن ابنه الوليد هو الذي أتم البناء وأنجزه سنة 86هـ. ولم يبق من مسجد الوليد إلا العقود القائمة على أعمدة من الرخام على يمين القبة الصغيرة عند المدخل ويسارها. وفي سنة 130هـ (747م) تهدم معظم مسجد الوليد في زلزال قوي، فأمر الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور بإعادة بنائه سنة 140هـ، وكان قد أمر بقلع صفائح الذهب من صفائح المسجد، فسكها نقودا أُنفقت على عملية البناء والترميم. ثم تهدم المسجد مرة أخرى بفعل زلزال آخر ورفع الأمر إلى المهدي فقال: «رث هذا المسجد وطال وخلا من الرجال، أنقصوا من طوله وزيدوا في عرضه، وهكذا أُنشئ بأمر المهدي سنة 163هـ، وأعطي المسجد الشكل والحجم الحاليين». غير أن معظم بناء المهدي تهدم بفعل زلزال وقع في مطلع القرن السادس ، فوزع المأمون بناءه على أمراء الأطراف

فيبني كل منهم رواقا على نفقته ضمن هندسة موحدة. وزُلزل البناء مرة أخرى سنة 424هـ (1033م)، وقد احتفظ المقدسي بوصف يبرز شكل المسجد قبل الزلزال فيقول: «إن بيت صلاته كان يتكون من ستة وعشرين رواقا تشرع كلها من جدار القبلة إلى الصحن، أما أبواب المسجد فكانت سبعة أكبرها هو الأوسط، وكان الباب الرئيسي ملبسا بالنحاس، وكان تتوسط الرواق الأوسط قبة لطيفة. وفي سنة 426هـ أمر الخليفة الفاطمي الظاهر بإصلاح ما خربته الزلازل بيد أنه ضيقه من جهتيه الغربية والشرقية بإزالة أربعة أروقة. عندما احتل الصليبيون القدس الشريف حولوا المسجد إلى كنيسة، وجعلوا بعض أقسامه مساكن لمنظمة فرسان الهيكل، وأضافوا إليه من الجهة الغربية، وعلى محاذاة حائط الحرم القبلي، صفا من القناطر المعقودة، وجعلوا هذه الزيادة مخزنا لأسلحتهم، واتخذوا من السراديب التي تحته إسطبلا. غير أن السلطان صلاح الدين الأيوبي حرر القدس سنة 583هـ (1178م)، وأمر بإعادة المسجد إلى ما كان عليه، فأزال منه الزيادات التي أضافها الصليبيون وجدد محرابه ونقل إليه المنبر الذي كان أهل حلب قد صنعوه بأمر من السلطان نور الدين زنكي.

وتابع المماليك أعمال البناء وأصبحت القدس أكثر ازدهارا في عهدهم، وخلال حكم الملك الناصر محمد بن قلاوون المملوكي، الذي امتد ثلاثة وأربعين عاما، حفلت القدس بالعمائر المملوكية التي كانت نموذجا رائعا لتطور العمارة الإسلامية. ولقد أنشأ الملك أروقة المسجد الأقصى التي تمتد من باب الحرم حتى باب الغوانمة، وعمَّر السور القبلي عند محراب داود ورخَّم صدر المسجد الأقصى إلى حائط المسجد الجنوبي، وجدد تذهيب قبة المسجد الأقصى، وقبة الصخرة سنة 720هـ/ 1320م، وعمَّر الميازين مقابل باب حطة ومقابل باب شرف الأنبياء، وجدد عمارة باب القطانين وعمَّر قناة السبيل عند بركة السلطان، وهي القناة الداخلة للقدس من عين العروب، وأنشأ جامع القلعة سنة 710هـ/ 1310م، ويتكون من حرم ذي محراب جميل. وكان عهد المماليك طويلا استمر ما يقرب من ثلاثة قرون تركوا في القدس آثارا كبيرة، وتلا هذا العهد مباشرة العهد العثماني منذ سنة 923هـ/ 1517م، الذي ابتدأ بأعمال الترميم التي قام بها السلطان سليمان القانوني في سور القدس وأقام برج اللقلق وبرج الكبريت، وأبراجا أخرى، كما جدد أبواب القدس، مثل باب العامود، باب دمشق، وباب الساهرة سنة 946هـ/ 1537م، وباب ستي مريم وباب الخليل وباب النبي داود سنة 940هـ/ 1540م، وباب المغاربة وباب الخليل سنة 947هـ/ 1538م. وأنشأ عددا من الأسبلة في الطرق المؤدية إلى الحرم القدسي. منها سبيل بركة السلطان وسبيل باب العتم وسبيل سليمان وسبيل باب الناظر وسبيل باب الأسباط. وكان سليمان القانوني قد اهتم بتوسعة مهمة في الحرم المكي في مكة المكرمة، وكذلك استبدل في القدس الزخارف الفسيفسائية التالفة في واجهة قبة الصخرة وأمر بتغطيتها بألواح القيشاني التي ما زالت قائمة تحمل اسمه وتاريخ الترميم.

إن المباني الإسلامية التي أُنشئت خلال العهود المختلفة تؤكد الشخصية الإسلامية التي تتمتع بها القدس القديمة التي ما زالت محافظة على طابعها التقليدي، على الرغم من انتهاكات اليهود وتغييراتهم الواسعة [5].

لقد نشر ماكس فان برشيم الكتابات التي تؤرخ أعمال المحراب وعمارة المسجد الأقصى التي أجراها صلاح الدين والملك العظيم عيسى ثم السلطان محمد بن قلاوون وابنه الملك الكامل، والسلطان قانصوه الغوري، وفي القرن العشرين نُفِّذت ترميمات مهمة قام بها المهندس التركي كمال الدين. وما زال المسجد الأقصى محافظا على معالمه الإسلامية ولم تؤثر في هويته خلال فترة الاحتلال الصليبي. ويجب أن نذكر هنا أن الترميمات التي تمت في فسيفساء الأقصى بإشراف المهندس التركي، أبانت أن هذه الفسيفساء تعود إلى العهد الفاطمي، وهي تختلف في جودتها ورسومها وطريقة تنضيدها عن الفسيفساء الأموية. والفسيفساء الفاطمية هذه مثال نادر نراه في الأقصى فقط وليس له مثيل في هذا العصر أو في العصر الأيوبي. لكن العناصر الزخرفية بقيت ذاتها منذ العصر الأموي والعباسي والفاطمي، وحتى في العصر المملوكي مما نراه في مدفن الملك الظاهر بدمشق. ولا بد من أن نتذكر أن كميات الفسيفساء الهائلة التي غطت، في وقت واحد، المنشآت الأموية في المسجد الأقصى وقبة الصخرة وجامع دمشق، وقصر المفجر وغيرها، لا يمكن أن تكون مستوردة، بل هي وتصاميمها محلية أصلية أنجزها عمال محليون، وتصاميم هذه الفسيفساء مجردة تعبر عن جمال الطبيعة دونما دلالة مادية، لأنها صيغ فردوسية ليست لها علاقة مباشرة بالصيغ الواقعية كالزهرة وغيرها.

قرارات هيئة الأمم ومجلس الأمن

بعد احتلال شرق القدس في أوائل يونيو سنة 1967 من قبل السلطات الإسرائيلية أصدرت هيئة الأمم القرار الرقم 2253 بتاريخ 1967/7/14الذي نص على ما يلي:

«إن هيئة الأمم معنية جدا بالتغيرات التي طرأت على القدس بعد الاحتلال ومحاولة إسرائيل تغيير معالمها، ولهذا فهي تطلب من الحكومة الإسرائيلية الآتي:

- إلغاء جميع التغييرات التي نفذتها حكومة إسرائيل.
- عدم قيام إسرائيل بإجراء أي تغيير في القدس».

وقد أكدت هيئة الأمم هذا القرار مرارا وتكرارا فيما بعد وكذلك مجلس الأمن، لكن إسرائيل أهملت هذا القرار ورفضته كعادتها في رفض جميع القرارات التي لا تعجبها [6].

ترشيح مدينة القدس وأسوارها لوضعها على قائمة التراث العالمي

عقدت منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة/ لجنة التراث العالمية في باريس في الفترة من 10 إلى 11 سبتمبر 1981 جلسة استثنائية بعنوان «حماية تراث العالم الثقافي

والطبيعي»، وذلك بدعوة من سبع عشر عضوا، ومن بنودها «إدراج مدينة القدس القديمة وأسوارها» في قائمة التراث العالمي، وقد حضرت الجلسة الدول الأعضاء وهيئة استشارية تمثل المجلس العالمي للمواقع والتذكارات (TCOMOS) ومراقبون من عدد من الدول.

كما ناقشت لجنة التراث العالمية في جلستها الرابعة التي عقدت في باريس من 1 إلى 5 سبتمبر 1980 الاقتراح المقدم من المملكة الأردنية الهاشمية لإدراج «مدينة القدس القديمة وأسوارها» بالإضافة الى تقرير (TCOMOS) الذي أوصى بإدراج هذه الملكية على قائمة تراث العالم.

أخبر رئيس اللجنة أن إسرائيل طلبت أن يُدعى ممثل عنها للاشتراك في مناقشة اللجنة التي تتعلق بطلب حكومة الأردن. مندوب الولايات المتحدة الأمريكية، ذكر في فصل من بند (3) 11 من الاتفاقية، طلبت إسرائيل ذلك، كمسؤولة عن الإدارة والسيطرة الواقعية على المدينة القديمة للقدس، يكون لممثل إسرائيل حق الكلام في الوقت الملائم. أشار الرئيس إلى القواعد 6 و7 و8 من لائحة الإجراءات، واستنتج أن إسرائيل لا يمكن أن تُدعى إلى المشاركة في الجلسة، إذ إنها ليست دولة طرفا في الاتفاقية.

أعلم رئيس اللجنة الأعضاءَ محتوى الرسالة المعنونة إليه من قبل المندوب الدائم للأردن إلى منظمة الأمم المتحدة للعلوم والتربية والثقافة التي بلغ فيها بالملحق حيث أوصت (ICOMOS) إضافتها إلى قائمة مواقع التراث العالمي. وذلك للقيمة التي تمثلها هذه المدينة للأديان الثلاثة، الإسلام والمسيحية واليهودية، واتفاق اللجنة التام على الأهمية العالمية الفريدة نظرا إلى القيم الدينية، التاريخية والمعمارية ووجهات نظر فنية. فقد تم في نهاية النقاشات الموافقة من قبل «اليونسكو» على تسجيل «مدينة القدس القديمة وأسوارها» على قائمة التراث العالمي [7].

منذ سنة 1971 عبرت اليونسكو عن قلقها بشأن الحفاظ على المواقع في المدينة القديمة، وفي سنة 1972 وافق المؤتمر العام لتلك المنظمة على قرار «يطلب على وجه الاستعجال» فيه من إسرئيل أن تتخذ الإجراءات الضرورية للحفاظ الدقيق على كل المواقع والمباني والعقارات الحضارية الأخرى، لا سيما مدينة القدس القديمة. وأن تمتنع إسرائيل عن إجراء أي حفريات تنقيبا عن الآثار وعن نقل المعالم الحضارية، وعن أي تغييرات في سماتها وطابعها التاريخي، ولاسيما بالنسبة إلى المواقع الدينية الإسلامية والمسيحية. ومازالت إسرائيل تتجاهل هذا القرار، وتصر حتى الآن على رفض كل المقترحات المتعلقة بمشروعات مختلفة بشأن «تدويل» القدس أو المدينة القديمة، أو بشأن استقلال مبان أو مواقع دينية معينة عن سيادة أي دولة.

مشكلات ومعوقات الترميم في مدينة القدس

يشكل الواقع القانوني والسياسي إشكالية رئيسية أمام عملية إحياء البلدة القديمة، وتُقسَّم المشكلات التي تعيق عملية الترميم في البلدة إلى قسمين رئيسيين:

1 - **المشكلات الناتجة عن الواقع السياسي:**

وتستغل إسرائيل سيادة القانون لديها في محاولة السيطرة على المدينة المقدسة باعتبارها جزءا من إسرائيل، وذلك من خلال:

- دعم الجمعيات التي تعمل على الاستيلاء على بيوت الفلسطينيين، بكون الجمعيات الإسرائيلية مؤسسات دينية غير حكومية تراعي مبادئ غيبية تزيد من خطورة عملها.

- تنفيذ المخططات المرسومة للقيام بعمليات تدمير في البلدة القديمة.

- تهويد القوانين والأنظمة في القدس أو إلغاء القوانين الأردنية واستبدال أخرى إسرائيلية بها، تخدم أغراض إسرائيل وتجعل منها مشرفا حقيقيا على جميع الهيئات والمؤسسات والمرافق في المدينة.

- منع مندوب المدير العام لليونسكو من زيارة القدس منذ عام 1998.

وفي هذا تناقض واضح واستهتار باتفاقيات حفظ التراث «اليونسكو» في التعامل مع مدينة أثرية.

2 - **المشكلات الناتجة عن الواقع القانوني**

- انعدام تسجيل حقوق الملكية في البلدة القديمة لدى دائرة تسجيل الأراضي ما يثير نزاعات على حقوق الملكية.

- صعوبات في منع المستفيدين الفعليين من هذه المباني بالتصرف.

- وجود الأوقاف العامة والذرية.

- وجود الإجارة المحمية.

جميع العوامل السابقة تؤثر في عملية الترميم، إذ إن عملية الترميم تفترض أساسا موافقة أصحاب الحقوق في المبنى المراد ترميمه. والحصول على تلك الأخيرة ليس بالأمر السهل لسببين: هما تحديد أصحاب الحقوق، أي المالك والمستفيد. وتضارب المصالح تجاه عملية الترميم [8]

أهم المخاطر التي يشهدها المسجد الأقصى



يشهد المسجد الأقصى كثيرا من الأعمال التخريبية التي تهدده وتجعله عرضة للانهيار، ومن أهم هذه التهديدات التي شهدها سابقا إحراقه، وذلك في العام 1945، حين ضرب اليهود مدينة القدس بالقنابل، فدمروا الباب الأوسط للمسجد، وأصابوا قبته بأضرار جسيمة. وعندما احتل اليهود مدينة القدس في العام 1967م بدأوا الحرب بقصف المدينة فأصابوا المسجد بأضرار بالغة. وفي الثامن من جمادى الآخرة سنة 1389هـ (31 أغسطس 1969م) وضع أحد الموتورين من التابعية الأسترالية يدعى دينيس روهان صفيحة

من البنزين عند قاعدة منبر نور الدين في المسجد، وأضرم النار التي أحرقت المنبر الأثري ووصلت النيران إلى أخشاب القبة، وقد أُعيد ترميم ما أتى عليه الحريق. والمسجد الأقصى الحالي عمل معماري يجمع بين البساطة والجمال، والبناء ليس متينا، على الرغم من ضخامته، فالجدران التي تحمل القبة ليست قوية، والقبة نفسها تقوم على هيكل خشبي، كما أنها زينة الجدران قليلة. وترجع فخامة الجامع إلى سعة بيت الصلاة الذي يملأ النفس روعة، وهذه السعة هي التي جعلت المعماري يكتفي بتسقيفه بالخشب [9]، شب الحريق في الوقت نفسه في ثلاثة مواضع:

- **الموضع الأول** كان في مسجد عمر الواقع في الزاوية الجنوبية الشرقية للمسجد الأقصى.
- **الموضع الثاني** كان في وسط الجدار الجنوبي وفي منبر صلاح الدين بالذات.
- **الموضع الثالث** كان في الشباك الواقع في الزاوية الجنوبية الغربية من المسجد الأقصى، وهذا الشباك يرتفع 15 مترا فوق أرضية المسجد ويصعب الوصول إليه من الداخل، وهذا بالتالي يدل على أن هناك شخصا من الخارج ساعد روهان في هذا الحريق.

كان الإسرائيليون يعتقدون أن ألسنة اللهب في المواضع الثلاثة سوف تمتد لتتصل مع بعضها وتُدمر الواجهة الجنوبية كلها، ومن ثم تمتد شمالا لتأكل جميع المسجد، غير أن الإسرائيليين لم يكونوا محظوظين تماما، لأن النار في الشباك المرتفع قد انطفأت بذاتها من دون أن يطفئها أحد لسبب بسيط، وهو عدم وجود عامل مساعد للحريق فيما بين هذا الشباك والوسط، ولذلك لم يحرق إلا الوسط والجهة الشرقية. لقد بلغت مساحة الجزء المحترق من المسجد 1500م^2 من أصل المساحة الإجمالية البالغة 4400م^2، أي نحو ثلث مساحة المسجد الأقصى، والجدير ذكره أنه في يوم الحريق نفسه قطع الإسرائيليون في بلدية القدس اليهودية الماء عن الحرم الشريف لكي لا يستعمل في إطفاء الحريق، كما أن سيارات الإطفاء الإسرائيلية من البلدية جاءت بعد أن أُخمدت النيران ولم تفعل شيئا، أما الذين أخمدوا النيران فهم السكان العرب الذين يقيمون حول الحرم الشريف بمساعدة سيارات الإطفاء العربية التي قدمت من بلدتي الخليل ورام الله.



وفيما يلي أذكر أهم الأجزاء التي أُحرقت داخل مبنى المسجد الأقصى المبارك:

- منبر صلاح الدين الذي كان يُعدُّ قطعة فنية نادرة، والذي كان يرمز إلى انتصار القائد صلاح الدين الأيوبي ودخوله القدس. وبإحراقه أراد الإسرائيليون إحراق هذا الرمز.

- مسجد عمر الواقع في الزاوية الجنوبية الشرقية من المسجد الأقصى.
- محراب زكريا المجاور لمسجد عمر ومقام الأربعين وثلاثة أروقة ممتدة من الجنوب شمالا مع الأعمدة والأقواس والزخرفة والسقف التي سقطت على أرض المسجد.
- عمودان رئيسيان مع القوس الحامل للقبة.
- القبة الخشبية الداخلية والزخرفة الجصية الملونة عليها.
- المحراب الرئيسي للمسجد والجدار الجنوبي والرخام الداخلي كاملا و48 شباكا من الجبس والزجاج الملون الفريد في صناعته والسجاد العجمي، وسورة الإسراء التي تبتدئ من فوق المحراب والتي كانت مركبة بالفسيفساء المذهبة وغيرها من الزخارف والآيات القرآنية في أماكن أخرى (10).

أما عن المخاطر الحديثة والحالية، فنستعرض ثلاثة مشروعات يقوم بها الإسرائيليون لاقتحام المسجد الأقصى، موزعة على النحو الآتي:

1 - الحفريات الإسرائيلية والبحث عن الهيكل المزعوم:



بعد استيطان اليهود القدس في بداية القرن العشرين، ابتدأوا بالبحث عن المعالم التوراتية في القدس، وما زالت البعثات الأثرية التي اقتصرت أخيرا على الإسرائيليين جادة في البحث والتنقيب من دون إحراز أي اكتشاف يؤكد التاريخ اليهودي في القدس. ولقد نقَّب مازار في منطقة المدرج الكبير وفي المنطقة الجنوبية من الحرم، كما يتابع أفيجاد التنقيب في الحي اليهودي القديم وفي القلعة. ويتابع بروسحي الحفر في بساتين الأرمن وفي سفوح الأسوار الخارجية، وتتركز أعمال يادين وشيلوح وبركاي في الحفر في منطقة المقابر، بحثا عن مؤشر تاريخي يهودي، ولقد أعلنوا جميعا نتائج حفرياتهم في دورية المصنفات العام 1994، وكان أبعد ما توصلوا إليه هو العصر الروماني، من دون أي دلالة على الوجود الإسرائيلي عبر تاريخ القدس، ولم يتضح لهؤلاء أي مؤشر إلى وجود مدينة داود ذات الأسوار أو أثر لهيكل سليمان الذي وصفته التوراة بمبالغة. ويعترف الأثري الإسرائيلي بروسحي بذلك، بل إنه ينفي الادعاءات التي تتحدث عن قوس اكتشفه روبنسون يعود إلى عهد هيرودوس. ويعترف مازار بأن القدس ورام الله وبيت لحم كانت تحت سلطة كنعانية في عهد أخناتون (قبل ظهور موسى 1350ق.م تقريبا). كما كانت نتائج الحفريات التي قامت بها العالمة

البريطانية كينيون منذ عام 1960في جنوبي الحرم، وفي بساتين الأرمن، وقرب بوابة دمشق، وفي منطقة المرستان، مخيبة لجميع الآمال الصهيونية، بل لقد كشفت عن خطأ التأويلات التوراتية للمكتشفات الأثرية السابقة. وعندما كانت كينيون تبحث عن الهيكل في جنوبي الحرم الشريف، عثرت فقط على آثار ثلاثة قصور ومسجد، أعلن الإسرائيليان مازار وبن دوف أنها تعود إلى عصر مروان بن عبدالملك، واستمرت قائمة خلال العهود العباسية الفاطمية ثم أصيبت بزلزال العام 1034م. وتعترف الإسرائيلية مريام روزن إيليون، بأن ما نراه من آثار معمارية ضمن الأسوار في القدس القديمة يعود إلى العهود الإسلامية، ويمثل جميع العهود التي تعاقبت على القدس بعد الإسلام [11].

وفي العام 1968، بعد احتلال السلطات الإسرائيلية للقدس، بدأوا الحفريات حول الحرم الشريف، معلنين أن الهدف من تلك الحفريات هو الوصول إلى معلومات عن تاريخ القدس خلال العصور القديمة وما كان يجري فيها، ولكن حقيقة تلك الحفريات كانت للتفتيش عن أي أثر لهيكل سليمان الذي ادعى الإسرائيليون أنه كان مشيدا في موقع الحرم الشريف نفسه. جهز الإسرائيليون فريقين لهذه الحفريات: **الفريق الأول** موّلته الجامعة العبرية وكان برئاسة الأستاذ مازار من الجامعة نفسها. وباشر هذا الفريق عمله بالحفر في الزاوية الجنوبية الغربية خارج الحرم الشريف وتحت المتحف الإسلامي، وامتد شرقا بمحاذاة الجدار الجنوبي للحرم الشريف وشمالا بمحاذاة الجدار الغربي للحرم الشريف حتى وصل إلى باب المغاربة.

أما **الفريق الثاني** فقد كان ممثلا ببعض الأحزاب الدينية المتعصبة من اليهود، وباشر عمله بالحفر تحت المدرسة التنكيزية التي احتُلت مسبقا من قبل القوات الإسرائيلية.

وصلت هذه الحفريات إلى عمق 15 مترا تحت سطح الأرض الطبيعية ثم سارت شمالا بشكل خندق ارتفاعه 2,50 متر وبعرض متفاوت. امتد هذا الخندق لمسافة 175مترا شمال حائط البراق تحت البنية الإسلامية التاريخية والأثرية والمنشأة على محاذاة الجدار الغربي للحرم الشريف، وتسبب في تشقق بعضها وهبوط البعض الآخر لتخلخل التربة تحتها من جراء الحفريات. ومن جملة الأبنية التي تضررت بسبب هذه الحفريات دار الشهابي ورباط الكرد والمدرسة العثمانية. وقد سمحت السلطات الإسرائيلية للفرق الدينية اليهودية المتعصبة بزيارة هذا الخندق والصلاة في داخله.

لم تكن نتيجة هذه الحفريات مرضية للإسرائيليين، إذ لم يجدوا أي أثر لهيكل الملك سليمان، وكل ما وجدوه كان آثارا إسلامية من العصر الأموي وآثارا أخرى من العصر البيزنطي أو آثارا رومانية، كما وجدوا بعض قطع الفخار المكسورة وقطعتي نقود صغيرتين سكهما الثائر اليهودي المدعو «باركوخبا» تحملان رمزا لأربعة أعمدة وبوابة لتدل على شكل مدخل هيكل سليمان. وعلى الرغم من هذه النتيجة فقد وضع الإسرائيليون تفاصيل تصميم

هيكل الملك سليمان وفق فرضيات خيالية، ووضعوا مواصفات فنية متكاملة لإنشاء هذا الهيكل، وقالوا إن موقعه هو في موقع المسجد الأقصى نفسه، ثم غيروا رأيهم وقالوا إنه مكان مبنى قبة الصخرة المشرفة، وإن صخرة المعراج المشرفة في حجر الأساس لهذا الهيكل. والقصد من كل ذلك هو هدم الأماكن المقدسة الإسلامية وإنشاء الهيكل المزعوم مكانها.

إن هذه الحفريات الأثرية التي قام بها الإسرائيليون، بعكس ما كانوا يأملون، لم تعطهم أي برهان عن وجود هيكل الملك سليمان في هذا الموقع، وعلى العكس من ذلك فقد أضرت بالأبنية الإسلامية الأثرية والغنية بالعمارة الإسلامية والفن الإسلامي، والتي هدم بعضها بالجرافات وتشقق البعض الآخر وأصبح في وضع خطير يتطلب الترميم العاجل للحفاظ على هذه الآثار التاريخية [12].

2 - خرائط ووثائق الجسر العسكري الإسرائيلي

أكدت بعض الخرائط والوثائق اليهودية وجود مخطط صهيوني تدميري لمواصلة هدم طريق باب المغاربة والآثار الإسلامية واستبدال جسر عسكري ومجموعة كنس يهودية بها، وتشمل هذه الخرائط والوثائق دلائل على حجم الدمار والهدم الذي سيلحق بالأبنية والآثار الإسلامية الملاصقة للجدار الغربي للمسجد الأقصى، والتي تعتبر جزءا لا يتجزأ من المسجد الأقصى المبارك، بالإضافة إلى إنشاء مجموعة كنس يهودية مكان الأبنية الإسلامية، كما تبين هذه الخرائط والوثائق أنه سيتم كشف باب البراق أسفل باب المغاربة ومسجد البراق بشكل مباشر، ما يسهل عمليا اقتحام أجزاء كبيرة من الأبنية أسفل المسجد الأقصى المبارك، كما تشير بعض ملاحق الخرائط وشروحاتها إلى تزوير التاريخ والآثار واعتبار أجزاء من أبنية المسجد الأقصى والآثار المحيطة كأجزاء من الهيكل الأول والثاني، وعلم أخيرا أن تنفيذ المخطط المذكور سيتواصل على مدار السنوات الخمس المقبلة، مع العلم أنه بدأ بشكل مباشر وعلني في العام 2007 في هذه المنطقة بالتحديد (باب المغاربة).

عرض هذا المخطط الملاصق مع المسجد الأقصى يصل إلى 18 مترا على جانبي باب المغاربة، ما يعني استهداف 18 مترا من الحائط الغربي للمسجد الأقصى، كما أن مساحة المخطط الأولى هي نحو الدونم ونصف الدونم، بينما الخرائط ومفاتيح شروحاتها تدل بشكل واضح على إنشاء كنس يهودية بمساحة واسعة، وذلك بعد هدم أجزاء كبيرة من الآثار والأبنية الإسلامية ابتداء من العهد الإسلامي الأول والأموي وحتى العصر العثماني، ومن الجدير ذكره أن الجسر العسكري المذكور سيرتكز على 16 عمودا كبيرا، ثم إن المخطط يشير بشكل واضح إلى أنه سيُكشَف مباشرة على باب البراق (وهو باب مسجد البراق)، أو ما يسمونه زورا وبهتانا «باب براكلي»، ويعتبرونه أحد أبواب الهيكل المزعوم، وهذا يسهِّل بشكل واضح الاستيلاء على مسجد البراق الواقع داخل المسجد الأقصى، ثم يجعل الطريق مفتوحا بشكل مباشر إلى

اقتحام الأبنية السفلية للمسجد الأقصى المبارك، كما أنه من خلال قراءة بعض ملاحق المخطط التي ذُكِر فيها أنها دراسات تاريخية وأثرية تساعد على اتخاذ القرارات لرسم المخطط يبدو واضحا التزوير التاريخي والأثري، بحيث يعتبرون أن الأبنية العربية والإسلامية - على مر التاريخ والعصور - تاريخ يهودي عبري من فترة الهيكل الأول والثاني، ما يشير إلى أن هذا المخطط وتنفيذه هما لتهويد المحيط الملاصق للمسجد الأقصى المبارك، وتسريع الخطوات التدريجية التدميرية له والتي تقوم بها المؤسسة الصهيونية ضمن مخطط بناء هيكل مزعوم على حساب المسجد الأقصى المبارك.

3 - حفر نفقين أرضيين في داخلهما مصعد وممر كهربائي

كشفت «مؤسسة الأقصى للوقف والتراث»، في تقرير صحافي عممته صباح يوم الثلاثاء 3 مارس 2009، عن نية المؤسسة الإسرائيلية وأذرعها التنفيذية حفر نفقين أرضيين جديدين أحدهما بطول 56 مترا والآخر بطول 22 مترا، بهدف ربط «حي الشرف» الفلسطيني في البلدة القديمة بالقدس - الذي احتُل وهُجِّر أهله في العام 1967م، وسمي بـ «الحي اليهودي» - بساحة البراق غربي المسجد الأقصى المبارك، كما كشفت مؤسسة الأقصى عن نية المؤسسة الإسرائيلية تركيب مصعد كهربائي في النفق العمودي وممر كهربائي في النفق الأفقي، في خطة هدفها تسهيل وصول المجتمع الإسرائيلي والسياح الأجانب من «حي الشرف» المصادر إلى حائط البراق والمسجد الأقصى، في مسعى متواصل إلى تكثيف السيطرة التهويدية على حائط البراق والمسجد الأقصى المبارك، وسيبدأ العمل في تنفيذ هذا المخطط قريبا، بتكلفة10 ملايين شيكل (نحو 2.5 مليون دولار أمريكي)، وذلك بالتعاون بين كل من البلدية العبرية في القدس وما يسمى «شركة ترميم وتطوير الحي اليهودي» و«سلطة الآثار» و«مؤسسة التأمين الوطني» وسيمول المشروع بتبرع من المدعو باروخ كلاين.

ستباشر «شركة ترميم وتطوير الحي اليهودي» بحفر نفقين في «حارة الشرف»، التي صودرت منها الممتلكات والبيوت الفلسطينية وهجر أهلها بعد الاحتلال الإسرائيلي لشرقي القدس والمسجد الأقصى في العام 1967، واستحلها المستوطنون، وأُقيمت عليها البؤر الاستيطانية وأطلق عليها اسم «حارة اليهود». أما النفق الأول فهو نفق عمودي طوله 22 مترا سيحفر في الصخر عند ملتقى نهاية ما يسمى «شارع تفئيرت يسرائيل» بما يسمى «شارع مسغاف لداخ» في الجهة الشرقية الجنوبية من «حارة الشرف» ، ثم سيُحفَر نفق أفقي تحت الأرض موصول بهذا النفق بطول 56 مترا باتجاه مستوى أرضية ساحة البراق، وموضع النفق الأول هو نقطة تجميعية لكل من يدخل إلى «حارة الشرف» من السياح الأجانب والمجتمع الإسرائيلي، وملتقى عدة أماكن أثرية تحاول من خلالها المؤسسة الإسرائيلية استنبات تاريخ عبري موهوم، كما سيُركَّب مصعد كهربائي عمودي في النفق العمودي، وممر كهربائي أفقي

في النفق الأرضي يشبه المصاعد الكهربائية في المطارات، وكل منهما يكمل الآخر. ووفق المعلومات المتوافرة فإن هذا المخطط يهدف إلى تشجيع المجتمع الإسرائيلي والسياح الأجانب على الوصول إلى ساحة البراق والمسجد الأقصى، عن طريق تسهيل وصولهم من «حارة الشرف» إلى حائط البراق والمسجد الأقصى، وأفادت المعلومات بأن الفوارق الطبوغرافية بين ساحة البراق وحارة الشرف تُصعِّب مهمة وصول أعداد كبيرة من الذين يزورون «حارة الشرف» والتقدم نحو ساحة البراق والمسجد الأقصى من أبناء المجتمع الإسرائيلي والسياح الأجانب الذين يصل عددهم الى عشرات الآلاف سنويا، وبعد دراسات مستفيضة تقرر حفر النفقين المذكورين وتركيب المصعد والممر الكهربائيين المذكورين، وتقرر تسمية المصعد باسم «مصعد باروخ» على اسم الثري اليهودي باروخ كلاين المتبرع للمشروع، وهو من أصل أمريكي استوطن أخيرا في «حي الشرف».

الخلاصة والنتائج

تظل مدينة القدس وعمارة حرمها القدسي أحد أهم الموضوعات التي تشغل بال كل عربي، ولا يقتصر الاهتمام بهذا المعلم على الناحية المعمارية والتاريخية فقط، بل توجد - كما عرضنا في مقدمة البحث - الأهمية الدينية أيضا، ويظل الصمود العربي في القدس الشريف تحديا للسلطات الإسرائيلية وما تقوم به من أجل تهويد القدس، بعد أن تعرفنا على أهم المشروعات التهويدية التي تستهدف هذا الصرح الكبير. وتعد حماية المسجد الأقصى والقدس الشريف، مسؤولية جميع الأطراف والجهات والدول، في محاولة جادة تهدف إلى دعم هذا التحدي من قبل جميع الدول العربية والإسلامية دون انتظار تغير الحالة السياسية، ومن أجل الإبقاء على هذا الجزء من الحضارة الإسلامية وكنوزها الأثرية والمعمارية. علما - وكما لاحظنا في نهاية هذا البحث - أن عملية الابتلاع والتحول تجرى برتابة وانتظام منذ أكثر من نصف قرن وفْق مشاريع المنظومة الإمبريالية الصهيونية، التي أعادت تقسيم العالم وفْق مصالحها ومآربها الدنيئة.

وانطلاقا من أهمية مدينة القدس تراثيا رُشِحت لوضعها على قائمة التراث العالمي، كما عقدت منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة/ لجنة التراث العالمية جلسة استثنائية موضوعها الاتفاقية التي تتعلق بحماية المعالم للتراث الثقافي والطبيعي في باريس بتاريخ 10 و11 سبتمبر 1981، وذلك بدعوة من سبع دول أعضاء، ومن بنودها «إدراج مدينة القدس القديمة وأسوارها» على قائمة التراث العالمي. وقد حضر الجلسة الدول الأعضاء، وهيئة استشارية تمثل المجلس العالمي للمواقع والتذكارات (ICOMOS)، ومراقبون من عدة دول. غير أن المدينة شهدت كثيرا من الانتهاكات التي انعكست سلبا على نسيجها العمراني بشكل عام، وعلى عمارة المسجد الأقصى بشكل خاص.

الهوامش

1 البهنسي عفيف: الأصالة الإسلامية في عمارة القدس وزخارفها، ورقة بحث مشاركة في يوم القدس: أبحاث الندوة السادسة «هوية القدس العربية والإسلامية» 2 - 5 أكتوبر 1995م - عمان.

2 الريحاوي عبدالقادر: قمم عالمية في تراث الحضارة العربية الإسلامية - المعماري والفني، الجزء الأول، منشورات وزارة الثقافة، الجمهورية العربية السورية، دمشق، 2000م.

3 المرجع نفسه.

4 الخضر عبدالمعطي: تاريخ العمارة - العمارة في العصور الوسطى العمارة الإسلامية والأوروبية، مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية، جامعة حلب، 1410هـ - 1990م.

5 البهنسي عفيف: الأصالة الإسلامية في عمارة القدس وزخارفها، ورقة بحث مشاركة في يوم القدس: أبحاث الندوة السادسة «هوية القدس العربية والإسلامية» 2 - 5 أكتوبر 1995م - عمان.

6 المرجع نفسه.

7 المصري زاهرة: البلدة القديمة في مدينة القدس بين القوانين الدولية للحفاظ والترميم والتطبيق العملي، جامعة القدس- المعهد العالي للآثار/ قسم الصيانة والترميم.

8 المصري زاهرة: البلدة القديمة في مدينة القدس بين القوانين الدولية للحفاظ والترميم والتطبيق العملي، جامعة القدس - المعهد العالي للآثار/ قسم الصيانة والترميم.

9 فرحات يوسف: المساجد التاريخية، بيروت لبنان.

10 نجم رائف يوسف: الحرم الشريف خلال فترة الاحتلال الإسرائيلي كتاب المدينة العربية. ص 155-161.

11 البهنسي عفيف: الأصالة الإسلامية في عمارة القدس وزخارفها، ورقة بحث مشاركة في يوم القدس: أبحاث الندوة السادسة «هوية القدس العربية والإسلامية» 2 - 5 أكتوبر 1995م - عمان.

12 نجم رائف يوسف: الحرم الشريف خلال فترة الاحتلال الإسرائيلي كتاب المدينة العربية. ص155-161. بحث مشارك في ندوة المدينة العربية خصائصها وتراثها الحضاري الإسلامي، عقدت بالمدينة المنورة من 24029 ربيع الثاني 1401هـ الموافق 28 فبراير - 5 مارس 1981م.

المراجع

1 البهنسي عفيف: الأصالة الإسلامية في عمارة القدس وزخارفها، ورقة بحث مشاركة في يوم القدس: أبحاث الندوة السادسة «هوية القدس العربية والإسلامية» 2 - 5 أكتوبر 1995م - عمان.

2 الخضر عبدالمعطي: تاريخ العمارة - العمارة في العصور الوسطى العمارة الإسلامية والأوروبية، مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية، جامعة حلب، 1410هـ - 1990م.

3 الريحاوي عبدالقادر: قمم عالمية في تراث الحضارة العربية الإسلامية - المعماري والفني، الجزء الأول، منشورات وزارة الثقافة، الجمهورية العربية السورية، دمشق، 2000م.

4 المصري زاهرة: البلدة القديمة في مدينة القدس بين القوانين الدولية للحفاظ والترميم والتطبيق العملي، جامعة القدس - المعهد العالي للآثار/ قسم الصيانة والترميم، 2008م.

5 فرحات يوسف: المساجد التاريخية الكبرى، دار الشمال للطباعة والنشر والتوزيع، طرابلس، لبنان، الطبعة الأولى، 1993م.

6 نجم رائف يوسف: الحرم الشريف خلال فترة الاحتلال الإسرائيلي كتاب المدينة العربية، بحث مشارك في ندوة المدينة العربية خصائصها وتراثها الحضاري الإسلامي، عقدت بالمدينة المنورة من 1-2-29 ربيع الثاني 1401هـ الموافق 28 فبراير - 5 مارس 1981م.